الجامعة الإسلامية- غــزة
عمـــادة الدراســـات العليــا
كليـــــــــــــــة الآداب
قـــسم التـــاريخ والآثـــار



الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

648-923هـ/1250-1517م

إعداد الطالب:

محمد عطية أبو هويشل

إشراف الأستاذ الدكتور:

رياض مصطفى شاهين

قدم هذا البحث استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

1433هــ/2012م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى روح والدي الطاهرة أسأل الله له الرحمة والمغفرة

إلى والدتي الحنونة أطال الله في عمرها مع وافر الصحة والعافية

إلى روح الشهيد المجاهد ابني الحبيب/ منذر محمد أبو هويشل

إلى روح من أفنت عمرها في سبيل الله ابنتي الحبيبة/ رواء محمد أبو هويشل

إلى عائلتي الكريمة

إلى أهلي الأعزاء

إلى إخواني وأحبتي الأوفياء

شكر وتقدير

أشكر الله رب العالمين صاحب المنة والعطاء على أن وفقني لإتمام هذا البحث كما أتقـدم بالشكر والتقدير إلى كل من ساعدني على الانتهاء فيه وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين الذي كان لي ناصحاً أميناً فلم يبخل علي بشيء من علمه الواسع ونصائحه الغالية وتوجيهاته السديدة فأنا أدين له بالفضل الكبير.

وكذلك كل الشكر والتقدير للأخوة العاملين في مكتبات الجامعات المصرية والأردنية ودار المخطوطات القومية المصرية وأشكر الأخ الفاضل/ عبد الحميد الفئراني على ما قدمه لي من نصح.

وأقدم خالص الشكر إلى كل من قدم لي عوناً أو نصيحة أو بحثاً أو كتاباً أو دعا لي دعوة بظهر الغيب.

ملخص

جاءت هذه الدراسة بعنوان: **الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي 648-923هـ/1250-1517م**

بدأت الدراسة بالحديث عن أسباب ومسببات الأمراض في مصر والشام في العصر المملوكي ، وهي في الحقيقة لا تخرج عن سببين رئيسيين هما الأسباب البشرية أولاً وتتمثل في السلوكيات الغير صحية لأفراد المجتمع، مثل عدم الاهتمام بنظافة البدن، والملبس، وتلوث المأكل والمشارب والإسراف في المأكل والمشرب وعد الاهتمام بنظافة أماكن الإقامة والبيئة المحيطة ونقص الوعي الصحي إضافة إلى الانحراف الخلقي كما تمثل الحروب أحد الأسباب البشرية للإصابة بالأمراض حيث أن الحروب يصنعها البشر،وهي تستهلك القوى البشرية ويترتب على ذلك ظهور المجاعات، إضافة إلى الأعداد الهائلة من القتلى، والتي يترتب على تعفن جثثهم انتشار الأوبئة.

كما تعد الأسباب الطبيعية التي لا دخل للبشر فيها ولكنها من صنع الطبيعة مثل طبيعة المناخ في مصر والشام والمجاعات والزلازل والحشرات والآفات الزراعية، لها دور كبير في انتشار الأمراض بمصر والشام.

ثم انتقلت للحديث عن تلك الأمراض وطرق علاجها حيث قسمتها إلى نوعين أمراض متوطنة وتمثلت في أمراض الحميات و السل و الجلدية والباطنة والجهاز الهضمي و العيون و الفم والأسنان و العظام و الأمراض النفسية.

وأمراض وافدة والمقصود هنا مرض الطاعون، فذكرت الدراسة أعراض المرض، والتدابير اللازمة للحد من انتشاره، وبعض الأمثلة عن الطواعين التي ضربت مصر والشام.
وتكلمت الدراسة عن تعليم الطب ودور الأوقاف في ذلك والمؤسسات التي اهتمت بتعليم الطب، ومنشآت الرعاية الصحية بأنواعها المختلفة.

وكان لابد من الحديث عن النهضة الطبية وعن علاقة الأطباء بالسلاطين والأمراء ومن قام على هذه النهضة من أطباء بتخصصاتهم المختلفة،وصيادلة، وممرضون، وعن الآلات والأدوات الطبية التي استخدمت في تلك الفترة.

وتطرقت الدراسة للحديث عن التنظيم الإداري للمنشآت والمؤسسات الطبية والصحية ، ودور الدولة المملوكية ، متمثلة في دور المحتسب الرقابي والإشرافي على كل ما يتعلق بالأحوال الصحية والطبية.

ثم انتهت الدراسة بخاتمة ومجموعة من الملاحق المهمة وثبت للمصادر والمراجع.

This study was entitled:

<u>Health and Medical Conditions in Egypt and El-Sham region in the Mamluk period 648-923 / 1250-1517 AD</u>

It discussed the reasons and causes of these diseases, which in fact does not come out for two main reasons : <u>first</u> human reasons which represents through the unhealthy behaviors of community members.

<u>Second</u> : the natural causes which human don't have role in it , but the design of nature that have a significant role in the spread of disease in Egypt and El-Sham region. Then moved to talk about these diseases and methods of treatment which divided into two types, the endemic diseases and imported diseases.

Also the study discussed the medical education and the role of the endowments and institutions that focused on teaching medicine, and health care facilities of various types. in addition to mentioning the medical Renaissance and the relationship of medical doctors with Sultans and, princes, and those who have an important role in the renaissance such as doctors, pharmacists, nurses, and medical machinery and tools used in that period.

Also the study talked about the administrative management of the facilities and medical institutions and health, and the role of the Mamluki state, represented in the role of the regulatory and supervisory calculated on everything related to health and medical conditions.

Then it ended with a conclusion and supplements and clarified the sources and references.

المقدمة

أهمية الموضوع:

نظرا لأن " صناعة الطب من أشرف الصنائع وأربح البضائع، وقد ورد تفصيلها في الكتب الإلهية والأوامر الشرعية، حتى جعل علم الأبدان قريناً لعلم الأديان، وقد قالت الحكماء أن المطالب نوعان خير ولذة، وهذان الشيئان إنما يتم حصولهما للإنسان بوجود الصحة، لأن اللذة المستفادة من هذه الدنيا، والخير المرجو في الدار الأخرى، لا يصل الواصل إليهما إلا بدوام صحته وقوة بنيته"[1]، وذلك إنما يتم بالصناعة الطبية لأنها حافظة للصحة الموجودة، ورادّة للصحة المفقودة، فوجب، إذ كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان وعموم الحاجة إليه داعية في كل وقت وزمان، أن يكون الاعتناء بها أشد، والرغبة في تحصيل قوانينها الشكلية والجزئية أكد وأجد[2] من هنا تأتي أهمية دراسة الأحوال الصحية والطبية.

أسباب اختيار الموضوع :

أن مصر و الشام خلال هذا العصر كانتا محط أنظار الجميع لان أرضهما كانت المسرح التي وقعت عليه الحروب الصليبية و المغولية التتارية وغيرها من المعارك بين الأيوبيين والمماليك وبعضهم البعض و ما كان ينجم عن ذلك من كثرة المصابين والقتلى، والتخريب والتدمير الأمر الذي كان يؤدي إلى ظهور الأوبئة والطواعين.

إضافة إلى ما حفل به هذا العصر من كوارث طبيعية تمثلت في الفيضانات والمجاعات والزلازل وانتشار الآفات الزراعية والحشرات والجراد ، كل ذلك أدى إلى انتشار الأمراض بصورة غير مسبوقة وهو ما جعل سلاطين وأمراء المماليك يولون الجانب، الصحي والطبي عناية فائقة ، فشجعوا تدريس وتعليم الطب، لتخريج أعداد كبيرة من الأطباء المؤهلين يستطيعون التصدي لهذه الأمراض حيث أن "الأمراض لها أعمار والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار و أكثر صناعة الطب حدث و تخمين وقلما يقع فيه اليقين و جزأها القياس و التجربة لا السفسطة و حب الغلبة ونتيجتها حفظ الصِّحَّة إذا كَانَت مَوْجُودَة وردهَا إِذا كَانَت مفقودة وَفِيهِمَا يتَبَيَّن سَلامَة الْفطر ودقة الْفِكر ويتميز الْفَاعِل عَن الْجَاهِل وَالْمجد فِي الطّلب عَن المتكاسل والعمال بِمُقْتَضى الْقيَاس والتجربة عَن الْمُحْتَال على اقتناء المَال وعلو الْمرتبَة"[3]

---

[1] ابن أبي أصيبعة، عيون، ص7 من مقدمة المؤلف

[2] المصدر نفسه، نفس الصفحة

[3] ابن أبي أصيبعة، عيون، ص743.

وثمة سبب أخر دفعني لاختيار هذا الموضوع وهو انه من المعروف أن الحاجة هي أم الاختراع ولما كان العصر المملوكي هو من أكثر العصور انتشارا للأمراض، لذلك برع خلاله مجموعة كبيرة من الأطباء و الصيادلة حاولوا التصدي لهذه الأمراض وابتكار طرق جديدة لعلاجها حيث يعد العصر المملوكي من أكثر العصور زخما بالأطباء لذلك كان بحق جديرا بالدراسة حتى يتسنى لنا استعراض جهود هؤلاء الأطباء في مختلف التخصصات الطبية.

إضافة إلى رغبة الباحث في إبراز الجوانب المشرقة من الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية وما كانوا عليه من تخلف في مختلف الجوانب الصحية والطبية ، فسارعوا إلى محاولة تقليد المسلمين في هذا الجانب.

الدراسات السابقة :

ومما دفع الباحث إلى اختيار هذا الموضوع هو أن الدراسات السابقة حول هذا الموضوع لم تستعرضه كوحدة متكاملة و إنما استعرضت بعض جوانب منه كالبيمارستانات أو الحمامات مثلا، أو استعرضت فترات زمنية طويلة جدا بحيث إن ما ورد فيها من معلومات عن الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي تعد إشارات بسيطة وسريعة لا تشفي غليل الباحثين، ومن هذه الدراسات:

1- تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى بك، دار الرائد العربي، سنة النشر: 1401-1981م.

2- الحمامات في مصر الإسلامية رسالة دكتوراه كلية الآثار جماعة القاهرة 1983 للباحثة سعاد محمد حسن.

3- الطب والخدمات الطبية في الشام والعراق من القرن الأول الهجري إلي التاسع الهجري - رسالة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - 1990م الباحثة - نبيلة محمد أحمد صبره.

4- الأوبئة والأمراض التي تفشت بين الصليبيين في الشرق الأدنى وأثرها - الدكتور خميس إبراهيم خميس.

5- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام الدكتور أحمد بدوي

6- تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط - لجورج شحاذة قنوا ني.

7- البيمارستانات الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية، إعداد : مؤمن أنيس البابا، إشراف: الأستاذ الدكتور: رياض مصطفى شاهين، الجامعة الإسلامية- غزة- فلسطين، 1430هـ/ 2009م.

وبعد فهذه الدراسات تطرقت إلى جوانب تمت إلى موضوع الأحوال الصحية والطبية في مصر والشام في عصر الدولة المملوكية بصلة. ويتضح منها أن هذا الموضوع لم يطرق من قبل

كوحدة متكاملة تستعرض الداء والدواء والمنشآت العلاجية، والنهضة الطبية في مختلف العلوم الطبية ومنشآت تعليم الطب وأشهر الأطباء والصيادلة والبياطرة، إضافة إلى دور الدولة المملوكية الرقابي متمثلاً في الحسبة على كل ما يتعلق بالجوانب الصحية والطبية.

الصعوبات التي واجهت الباحث :

وقد واجهتني بعض الصعوبات خلال هذا البحث، منها طغيان الأحداث السياسية والمواقع الحربية على غيرها من الموضوعات الحضارية في المصادر التاريخية المطبوعة مما اضطرني إلى الرجوع إلى المصادر المخطوطة، حيث وجدت نوعاً من الصعوبة في قراءة الخط الذي كتبت به وذلك نظراً لتأثره بعوامل الزمن وهو ما استلزم مني كثيراً من الجهد.

منهج الدراسة:

سيقوم الباحث بالاعتماد على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، حيث سيقوم بجمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع وتحليلها بشكل موضوعي بما يخدم موضوع الدراسة.

التعريف بمفردات عنوان البحث:

(الأحوال الصحية والطبية في مصر و بلاد الشام في العصر المملوكي)

648 – 923 هجري / 1250 – 1517م

الأحوال: جمع حال والحال الوقت الذي أنت فيه ، وحال الدهر صرفه وحال الشيء صفته وحال الإنسان ما يختص به من أموره المتغيرة الحسية والمعنوية[1].

وحال الشيء حولا:أي مضى عليه حول، وأحال مضى عليه حول كامل والدار تغيرت واتى عليها أحوال أي سنون،وغاب عنها أهلها فهم متحولون[2].

والمعنى اللغوي لكلمة الأحوال يحتمل وجوها كثيرة إلا أن المقصود به هنا في هذا العنوان أن تكون بمعنى الوضع أو الكيفية أو الصفة التي كان عليها الطب والصحة في مصر والشام في عصر الدولة المملوكية.

الصحية: الصحة في البدن حالة طبيعية تجري أفعاله معها في المجرى الطبيعي[3].

---

[1] مجمع، المعجم، ص179.

[2] المعجم الوسيط ، ص208.

[3] مجمع، المعجم، ص507. المعجم الوجيز ، ص360.

وتقال على وجهين أحدهما الصحة الكاملة وهي غير موجودة ،والثاني الصحة التي لها عرض وهي الموافقة للمزاج والهيئة.[1]

والصحة ضد السقم أو المرض[2]. ففي الحديث قال أبو سلمة بن عبد الرحمن سمعت أبا هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"لا توردوا الممرض على المصح "[3]، ويقال اصح الرجل أي زال ما كان به أو ما يتصل به من عاهة أو عيب، والله صح فلانا أي أزال ما كان به من مرض ونحوه.[4]
كذلك يقال تصحح بالدواء ونحوه أي تداوى به[5] والصحيح هو السليم من العيوب والأمراض[6]
والمصحة: ما يسبب الصحة يقال الصوم مصحة والسفر مصحة...[7]
والمقصود بها في هذا العنوان،هو كل ما يتصل بالصحة ويؤثر بها سواء بالإيجاب أو السلب .
الطبية:
طبا: داواه و عالجه ، ويقال طب له أو لدائه، وطبب المريض أي احكم علاجه ومداواته[8]
وتطبب فلان: أي تعاطي الطب وهو لا يتقنه، واستطب الطبيب لدائه: أي استوصف الطبيب ونحوه في الأدوية أيها أصلح لدائه وبالدواء ونحوه نعالج ونداوي، والطبابة حرفة الطبيب[9].
والطب هو علاج الجسم والنفس ومنه علم الطب، والطبيب من حرفته الطب أو الطبابة وهو الذي يعالج المرضى ونحوهم والجمع أطبة أو أطباء [10]

وعلم الطب كذلك "صناعة حكيمة موضوعها بدن الإنسان، وغايتها حفظ صحته الموجودة ورد المفقودة "[11] فيحاول صاحب صناعة الطب "رد الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، وبعد أن يتبين المرض الذي يختص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ

---

[1] ابن هبل، المختار، ورقة161. بختيشوع، الروضة، ص65.
[2] الرازي، المختار، ص267.
[3] ابن حجر، فتح، ج11، ص407، 10 4
[4] المعجم الوسيط، ص507.
[5] المصدر نفسه، نفس الصفحة.
[6] المعجم الوجيز، ص360.
[7] المعجم الوسيط، ص507.
[8] المعجم الوجيز، ص 399.
[9] الرازي، المختار، ص299.
[10] المعجم الوجيز، ص 399.
[11] ابن هبل، المختار، ورقة 9.

عنها، وما لكل من الأدوية مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها ، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه ، وقبوله الدواء أولا في السجية والفضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض، وإنما الطبيب يحاذيها ويعنيها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب"[1]

إذا فالطبيب هو من يحفظ على الأصحاء صحتهم بإرشادهم إلى القواعد الصحية التي يجب عليهم أتباعها حتى يقوا أنفسهم من الأمراض[2].

والحقيقة أن الصحة والطب لاغنى لكل منها عن الآخر، فهذا وصف للداء والآخر وصف للدواء، فالطب سبب من أسباب حفظ الصحة.

مصر والشام :

عن موقع مصر والشام ومدنهما في هذا العصر. انظر ملحق رقم (1) بقائمة الملاحق.

الدولة المملوكية :

بعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب كانت الحرب قائمة ضد الفرنجة الصليبيين، فتقلد الحكم ابنه تور أنشاه الذي قتل يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم سنة 648 ه/1250م وبهذا انتهى عصر الدولة الأيوبية وبدأ عصر الدولة المملوكية بتولي شجر الدر الحكم وبعدها عز الدين أيبك ليبدأ الحكم الفعلي لدولة المماليك.

وقد تعاقب على حكم هذه الدولة الكثير من السلاطين والأمراء المماليك ، وانتهى عصر هذه الدولة بهزيمتها أمام العثمانيين في بلاد الشام في معركة مرج دابق 922ه / 1516م ، وهزيمتهم في مصر في معركة الريدانية 923ه /1517م.

أي أن عصر هذه الدولة يمتد من 648 – 923ه / 1250 – 1517م

خطة البحث :

قسم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة ومجموعة من الملاحق التي تخدم الموضوع ثم قائمة بالمخطوطات والمصادر والمراجع والدوريات العلمية والرسائل الجامعية ثم ذيل البحث بفهرسة موضوعاته المختلفة حتى يسهل على القارئ الوصول إلى ما يريد من معلومات.

وقد شملت المقدمة الحديث عن أهمية الموضوع وسبب اختياره والدراسات السابقة حوله، ثم التعريف بمفردات عنوان البحث، ويليه خطة البحث ثم دراسة نقدية لأهم مصادر البحث.

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص 419.

[2] باشا، التراث، ص159.

الفصل الأول بعنوان: النهضة الطبية والقائمون عليها بمصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

تناول الباحث علاقة الأطباء بالأمراء والسلاطين المماليك، و القائمون على النهضة الطبية والصحية، وكانوا ينقسمون إلى: أولا: الأطباء البشر يون. وهم: الطبائعيون (أمراض الباطنة)، والجرائحيون (أطباء الجراحة)، و طب وجراحة الفم و الأسنان، و الفصادون و الحجا مون، والكحالون (أطباء العيون)، والمجبرون (أطباء العظام)، و النفسانيون، و الممرضون، والقسم الثاني: الأطباء البيطريين (طب الحيوان)، ثم تناول الباحث بالحديث عن الصيدلانيون، ثم الأدوات والآلات الطبية.

أما الفصل الثاني من البحث فعنوانه: منشئات تعليم الطب والرعاية الصحية في مصر والشام في العصر المملوكي

واشتمل هذا الفصل على ثلاث عنوانين: الأول منها عن دور الأوقاف في النهضة بتعليم الطب، والثاني تطرق إلى مؤسسات تعليم الطب في العصر المملوكي، والتي تشمل: المساجد والجوامع، والزوايا، والربط، والخانقاوات، ودور العلم، والمجالس الطبية، و ودور البيمارستانات في التعليم الطبي، والمدارس الطبية في مصر والشام في العصر المملوكي.المدارس الطبية في مصر وبلاد الشام.إلخ

والعنوان الثالث من الفصل الثالث حول: منشآت الرعاية الصحية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، واشتمل على المنشآت العلاجية الثابتة (البيمارستانات)، والمنشآت العلاجية المتنقلة التي كانت تصاحب السلاطين في أسفارهم، وتصاحب الجيوش المحاربة، وترافق قوافل الحجاج والتجار، وسيشير الباحث كذلك إلى نوع آخر من المنشآت الخاصة بالرعاية الصحية ألا وهي الحمامات، كوسيلة من وسائل الحفاظ على صحة الأبدان والعناية بنظافتها، إضافة إلى فوائدها الصحية المتعددة.

والفصل الثالث حمل عنوان: أسباب انتشار الأمراض في مصر و بلاد الشام في العصر المملوكي.

وقد احتوى هذا الفصل على نقاط مهمة، الأولى منها عن الأسباب البشرية لانتشار الأمراض، وتتمثل في عدم الاهتمام بالنظافة: ويندرج ضمنها: عدم الاهتمام بنظافة البدن، وعدم الاهتمام بنظافة الملبس، و تلوث المأكل والمشارب، وعدم الاهتمام بنظافة أماكن الإقامة والبيئة المحيطة، ومن بين الأسباب البشرية أيضا: الإسراف في المأكل والمشارب، و نقص الوعي الصحي، والفقر، والانحراف الخلقي والجريمة، كما تمثل الحروب أحد الأسباب البشرية للإصابة بالأمراض على اعتبار أن الحرب يصنعها البشر فهي ترجع إلى سياسات الحكام والدول وتستهلك

القوى البشرية والموارد الاقتصادية، إضافة على ما ينجم عنها من تخريب ودمار وقتلى وجرحى بالآلاف وكل ذلك بلا شك يؤدي غلى انتشار المجاعات والأمراض والأوبئة الفتاكة.

أما النوع الثاني من أسباب انتشار الأمراض فهو الأسباب الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها مثل: طبيعة المناخ في مصر والشام المؤدي بدوره إلى انتشار الأمراض ومنها أيضاً المجاعات الناجمة عن أسباب طبيعية مثل نقص مياه نهر النيل في مصر أو زيادتها زيادة مفرطة، وفي الشام نقص الأمطار أو زيادتها عن الكمية المطلوبة فيؤدي ذلك إما في جفاف الأراضي وإما إلى غرق المحاصيل، وفي كلتا الحالتين تنتشر المجاعات ومن ثم تكثر الأمراض ومن ضمن الأسباب الطبيعية لانتشار الأمراض في مصر والشام في العصر المملوكي والتي تناولها البحث في الدراسة أيضاً الزلازل حيث ينتج عنها القتل والتشريد والتخريب والتدمير وهو ما يؤدي بدوره إلى انتشار الأمراض ومن الأسباب الطبيعية أيضاً الحشرات والآفات الزراعية مثل الجراد والفئران والتي تأتي على المحاصيل بأكملها فيندر القوت ومن ثم تنتشر الأمراض، كما أن مرض الطاعون كان له أسبابه التي تحدثنا عنها أيضا، وكان من أهمها كثرة الفئران.

وفي الفصل الرابع الذي حمل عنوان: أشهر الأمراض في مصر والشام وطرق علاجها في العصر المملوكي.

تحدث الباحث خلاله عن نوعين من الأمراض هما الأمراض المتوطنة، وهي التي ترتبط بمكان أو بلد معين دون غيره وتصيب بعض الأفراد دون غيرهم مثل أمراض الكوليرا والحميات، والسل، والأمراض الجلدية، وأمراض الباطنة وأمراض العين وأمراض الفم والأسنان.

أما النوع الثاني من الأمراض فهو الأمراض الوافدة وهي التي تعم خلقاً كثيراً في بلد واحد وزمان واحد، ومن يصاب بها قلما ينجو منها، مثل مرض الطاعون.

وتحدث الباحث خلال هذا الفصل أيضاً عن طرق العلاج المستخدمة في علاج كل مرض عند الإشارة إليه حيث ابتكر أطباء العصر المملوكي أساليب جديدة لعلاج هذه الأمراض إلى جانب الأساليب التي كانت معروفة من قبل.

أما الفصل الخامس وهو آخر فصول البحث فكان بعنوان: التنظيم الإداري والرقابي للأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

واشتمل على: دور التنظيم الإداري للمنشآت والمؤسسات الطبية والصحية، والدور الرقابي للدولة على الشئون الصحية والطبية. ثم دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على أصحاب المهن الطبية. و دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على أصحاب المهن المتعلقة بالأشربة والأطعمة. و دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على المرافق والمنشآت العامة.

وانتهت الدراسة بخاتمة ثم مجموعة من الملاحق وثبت للمصادر والمراجع ، وفهرس عام للبحث.

وأني أتوجه بالشكر و التقدير للأخوة العاملين في مكتبات الجامعات المصرية والأردنية ودار المخطوطات القومية المصرية.

وأقدم خالص الشكر إلى كل من قدم لي عوناً أو نصيحة أو بحثاً أو كتاباً أو دعا لي دعوة بظهر الغيب.

وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين الذي كان لي ناصحاً أميناً فلم يبخل علي بشيء من علمه الواسع ونصائحه الغالية وتوجيهاته السديدة فأنا أدين له بالفضل الكبير.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

اعتمد الباحث في دراسته للأحوال الصحية والطبية في مصر والشام في العصر المملوكي على عدد كبير من المصادر العربية المخطوطة وكذلك على عدد كبير من المصادر العربية المطبوعة والمراجع التاريخية والحضارية الحديثة وكذلك عدد لا بأس به من المصادر والمراجع الأجنبية المعربة إضافة إلى مجموعة من الدوريات العلمية وعدد من الرسائل العلمية من مختلف الجامعات المصرية، وقد قسم الباحث هذه المصادر والمراجع بناء على مقدار الاستفادة منها على النحو التالي:

أ- الوثائق و المصادر العربية المخطوطة:

تعد الوثائق من أهم المصادر الأصلية التي يعتمد عليها الباحث، فهي مصدر معاصر للتاريخ الذي كتب، خاصة وأنها تلقي الضوء على أهم جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية، ومن هذه الوثائق التي استفاد منها الباحث: وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري، ووثيقة وقف السلطان الناصر محمد على خانقاة سرياقوس، ووثيقة وقف السلطان الناصر حسن على المدرسة والسبيل والجامع، ووثيقة وقف السلطان المنصور لاجين على جامع ابن طولون، وتمحورت استفادة الباحث من هذه الوثائق بالتعرف على ما كانت تقدمه تلك البيمارستانات، والأوقاف الموقوفة عليها، والتخصصات الطبية فيها، وغير ذلك من المعلومات المهمة.

أما المصادر المخطوطة فإنها لا تقل أهمية عن الوثائق، وقد أفاد الباحث من مخطوط دفع مضار الأبدان بارض مصر لا سيما عند الحديث عن أسباب انتشار الأمراض بمصر والشام.

كما استعان الباحث بمجموعة أخرى من المخطوطات تتحدث عن أمراض مختلفة تصيب الانسان حيث تصفها جيداً وتصف علاجها.

وفي سياق الحديث عن الحمامات لا يجب أن نغفل الحديث عن مخطوط شمس الدين القوصوني المسمى رسالة في الكلام على الحمام ومنافعه وكيفية استعماله للصحيح والمريض وتدارك الخطأ الواقع في استعماله حيث قدم معلومات عظيمة فيما يخص الجانب الصحي والطبي للحمام وكيفية استعماله للصحيح والمريض[1].

---

[1] القوصوني، رسالة في الكلام على الحمام، مخطوط، 1215 طب.

المصادر العربية المطبوعة:

وهي التي لا غنى عنها للباحث لفهم الأحداث التاريخية؛ لاحتوائها على أحداث معاصرة، أو اعتماد أصحابها على وثائق ومعلومات معاصرة، ومن أهمها:

أ- الكتب الطبية:

ومن أبرز الكتب الطبية التي اعتمد عليها الباحث خلال هذا البحث كتاب الدستور البيمارستاني لداود ابن أبي البيان[1]. وهو كتاب يشتمل على الأدوية المركبة المستعملة في أكثر الأمراض المقتصر عليها في البيمارستان والتي أكثر الأطباء استعمالها فعرف نفعها واشتهر ذكرها. وقد اعتمد الباحث على هذا الكتاب لاسيما عند الحديث عن طرق علاج بعض الأمراض التي كانت معروفة خلال العصر المملوكي.

ويعد كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لمؤلفه ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن احمد الأندلسي المالقي العشاب المعروف بابن البيطار أحد المصادر والتي لا غنى للباحث في الأحوال الصحية والطبية في العصر المملوكي عن الاستعانة به.

كما تمثل مؤلفات الطبيب ابن النفيس علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المعروف بابن النفيس المتوفي سنة 687هـ/1288م وهو أحد أطباء العصر المملوكي البارزين مصادر مهمة ساهمت في إثراء البحث لا سيما كتاب المهذب في الكحل المجرب حيث استقى الباحث مادة علمية غزيرة عن أمراض العيون وكيفية علاجها، وترجع أهمية هذا المؤلف إلى أن مؤلفه قسمه إلى جزء عملي وآخر نظري.

ومؤلفه المسمى الموجز في الطب[2]؛ حيث استقى منه الباحث الكثير من المعلومات عن الكثير من الأمراض وطرق علاجها.

وكذا أسهم كتابه الشامل في الصناعة الطبية[3] بنصيب وافر في مادة هذا البحث.

كما تمثل مؤلفات أمين الدولة أبي الفرج ابن موفق الدين يعقوب بن اسحق المعروف بابن القف والذي عاصر الدولة المملوكية الأولى حيث توفي سنة 685هـ/1286م بالنسبة للبحث قيمة كبيرة لاسيما مؤلفه المسمى العمدة في الجراحة، حيث أفاد منه البحث إفادة عظيمة في الحديث عن الجراحة وطرقها والأدوات والآلات المستخدمة فيها[4].

---

[1] أبي البيان، الدستور البيمارستاني.

[2] ابن النفيس، الموجز.

[3] ابن النفيس، المختار.

[4] ابن القف، العمدة.

ب- كتب الطبقات و التراجم والأعلام:

ومن المصادر الهامة التي أثرت مادة البحث العلمية كثيراً كتب التراجم و الأعلام، حيث رجع إليها الباحث كثيراً ويأتي على رأس هذه الكتب كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لموافق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة المولود بدمشق عام 600هـ/1203م والمتوفي في سنة 668هـ/1269م.

وقد أمدني هذا الكتاب بالكثير من المعلومات عن بعض أطباء مصر والشام في عصر الدولة المملوكية وعن دورهم في خدمة المجتمع، وعن مؤلفاتهم في الطب وكذلك عن المنشآت الصحية التي كانوا يعملون فيها، وعن مقدار رواتبهم، وعن دور السلاطين في تشجيع الأطباء وتقريبهم منهم، وعن مدارس الطب في العصر المملوكي.

ويمكن القول بأن هذا الكتاب لا غنى للباحث في الأحوال الصحية والطبية في عصر الدولة المملوكية عن الرجوع إليه.

ومن كتب الطبقات والتراجم، كتاب وفيات الأعيان وأنباء الزمان لمؤلفه أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان قاضي القضاء شمس الدين أبو العباس البرمكي الاربلي الشافعي، والذي يعد من أوثق المصادر التاريخية التي تتناول تراجم الملوك والإعلام والبلاد والأماكن وقد اشتمل الكتاب على أكثر من ستمائة ترجمة وهو ما يتيح للباحث الوقوف على معلومات وافية عن الترجمة التي يقرأ عنها ومما يزيد الكتاب أهمية وقيمة أن ابن خلكان كان يمتاز بالبلاغة لكثرة اطلاعه إضافة إلى شدة التحري والضبط أثناء تناوله لأي ترجمة من الترجمات وقد أفاد البحث منه كثيراً في ترجمة العديد من الشخصيات والأطباء والعلماء.

ج- كتب الرحالة والجغرافيين:

وعلى الرغم من أن كتب الرحلات قد يتخللها بعض النقائص والهفوات أو قد يشوبها بعض المبالغات إلا أن أهميتها تضارع كثيراً من الوثائق لأن كتابها كانوا شهود عيان لما يكتبون عنه.

وتمثل مؤلفات ياقوت الحموي المختلفة مصدراً رئيسياً اعتمد عليها الباحث حيث أن ياقوت مؤرخ ثقة من أئمة الجغرافيين ويأتي في صدارة مؤلفاته كتابه معجم البلدان والذي أمدنا بمعلومات كثيرة عن سائر مدن مصر والشام وعن أحوالها وأحوال سائر أهلها وقد استعنا به كثيراً عن التعريف بالعديد من المدن والبلاد كما أن لياقوت الحموي مؤلفاً آخر بعنوان معجم الأدباء وهو موسوعة كبرى تقع في عشرين جزءاً وقد أمدنا بمعلومات قيمة عن رجال هذا العصر وعلماءه.

د- كتب الحسبة:

ومن الكتب التي لا غنى عنها في دراسة الأحوال الصحية والطبية هي كتب الحسبة لا سيما كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن بن نصر الشيزري، ويتميز هذا الكتاب بمعلوماته الضافية عن الحسبة وواجباتها وشروطها ودور المحتسب في الرقابة على أصحاب الحرف المختلفة إضافة إلى الأطباء والمجبرين والفصادين والكحالين والبياطرة وإضافة إلى أشرافه على الصيادلة ومنعهم من غش الأدوية خلال خلطها ببعض المواد الأخرى لذلك كان على المحتسب أن يكون على علم بسائر وسائل غش الأدوية المختلفة كما حفل هذا الكتاب بمعلومات قيمة أثرت مادة البحث العلمية لا سيما عند الحديث عن الدور الرقابي للدولة على أصحاب المهن المتعلقة بصحة الانسان من قريب أو بعيد حيث تناول الشيزري في جانب من كتابه إشراف المحتسب على السقائين والفرانين والجزارين والقصابين والطباخين وغيرهم من أصحاب المهن المرتبطة بصحة الانسان، إضافة إلى مراقبته واشارفه على المرافق والمنشآت العامة .

وحول نفس الموضوع وهو الحسبة جاء كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة لمؤلفه محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الأخوة القرشي الشافعي المتوفى سنة 739هـ/1338م ليبرز الدور المهم للمحتسب في الرقابة والإشراف على أهل الصناعات والحرف، وعلى أصحاب المهن الطبية المختلفة، وعلى النظافة العامة في الأسواق والشوارع، وهي لا شك أمور قد خدمت البحث خدمة جليلة.

كما استفاد البحث أيضاً من كتاب محمد بن أحمد بن بسام المحتسب والذي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري عن الحسبة وهو بعنوان نهاية الرتبة في طلب الحسبة حيث اعتمد ابن بسام كثيراً على كتاب الشيزري السابق والمعنون بنفس العنوان، فتطرق إلى كثير من الموضوعات التي تطرق إليها والتي تتعلق بالحسبة ودور المحتسب في الرقابة والاشراف على الأسواق وضبط أحوال المجتمع.

هـ- كتب الحوليات:

كما أنه لا غنى لأي باحث في التاريخ عن الاستعانة بالمصادر الحولية ، مثل كتاب البداية والنهاية لمؤلفه الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة 774هـ/1373م. حيث قدم معلومات عظيمة عن الحروب والأمراض والطواعين والأوبئة المختلفة خلال العصر الأيوبي.

ولا يختلف اثنان على أن كتاب السلوك لمعروفة دول الملوك للمقريزي (ت: 845هـ/1441م) من أروع وأنفس ما كتب في تاريخ مصر الاسلامية فقد كان خاتمة لحلقة كبيرة

عنى فيها المقريزي بالتاريخ لمصر منذ الفتح العربي وحتى قبيل وفاته، وهذا الكتاب من كتب الحوليات التي تناول تاريخ الدولة المملوكية بمصر وتأثير الأحداث الداخلية والخارجية على الوضع العام والأحوال بمصر، حيث يمتاز أسلوب هذا الكتاب بالإسهاب في سرد الأحداث وتفاصيلها.

ومن كتب الحوليات المهمة لهذا البحث كتاب النجوم الزاهرة لمؤلفه ابن تغري بردي (ت: 874هـ/1469م) حيث كان مفيداً في الحديث عن فيضان النيل وتأثير ذلك على الأحوال بمصر من حيث حدوث الغلاء والمجاعات من عدمها، فقد كان ابن تغري بردي يستهل الحديث عن السنة بقوله: أمر النيل في هذه السنة الماء القديم كذا ذراع وكذا أصبع مبلغ الزيادة كذا أصبع.

ومن كتب الحوليات أيضا: كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس (ت: 930هـ/1523م)، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن مؤلفه من المؤلفين القلائل الذين عاصروا نهاية العصر المملوكي، وشاهدوا سقوط هذه الدولة، كما أفاد الباحث من هذا المصدر خلال الحديث عن الأوبئة، وتراجم لبعض الأطباء.

هذا بالإضافة إلى بعض المصادر التي ألقت الضوء على جوانب متعددة من البحث، كما تناولت حياة السلاطين المماليك ودورهم، ومن هذه المصادر: كتاب تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر (ت: 692هـ/1292م)، وكتاب تذكرة النبيه لابن حبيب (ت: 779هـ/1377م).

و- كتب الخطط:

شكلت كتب الخطط مصادر رئيسية اعتمد عليها الباحث خلال هذا البحث ويأتي في مقدمتها كتاب الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة لابن عبد الظاهر وقد أمدني بمعلومات قيمة عن خطط القاهرة وأسواقها ودروبها وهو أول من طرق هذا الباب في التأليف عن خطط القاهرة وجميع من جاءوا بعده نقلوا عنه لدرجة أن المقريزي قال عن هذا الكتاب أنه فتح باباً كانت الحاجة داعية إليه.

وتمثلت قمة الإبداع في الكتابة عن الخطط في مؤلف المقريزي الرائع المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية والذي اشتمل على وصف شامل لطبوغرافية مصر ووصف حاراتها وشوارعها ودروبها ورحابها، وأسواقها إضافة إلى وصفه للخانات والبرك والميادين والمساجد والمدارس والأضرحة والكنائس والدور السكنية والقصور ودور الصناعة وغيرها وعن العادات والتقاليد والأنشطة البشرية للسكان في مصر وكذلك تحدث عن الربط والزوايا والخوانق والترب والحمامات والبيمارستانات وهي لا شك موضوعات أثرت مادة البحث

العلمية ويمكن القول أنه يفضل كتاب الخطط تمكن الباحثون من وضع خرائط لمصر في العصور الوسطى.

ز- كتب متفرقة:

كما استفاد الباحث من مجموعة كبيرة من المصادر لا تنتمي لصنف معين من المؤلفات بل كلا منها يعالج موضوعاً خاصاً به ومن الكتب الهامة للبحث والتي اختصت بذكر المجاعات والأوبئة منذ أقدم العصور حتى العصر المملوكي كتاب اغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي حيث استنفدت منه استفادة بالغة عند الحديث عن تأثير المجاعات والأوبئة على الحالة الصحية والطبية العامة بمصر والخوانق والتكايا والربط والزوايا والترب والجوامع المعروفة في دمشق منذ القرن الخامس الهجري وحتى القرن العاشر الهجري وترجم لأصحابها وذكر سير من درس في هذه الجوامع وغيرها من المنشآت التعليمية وهو كتاب يعد منفرداً في هذا الفن حيث أنه يعد من أوائل الكتب التي كتبت عن تاريخ المنشآت التعليمية.

ومن الكتب المفيدة لهذا البحث كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت:732هـ/1332م) وهذا الكتاب يعد موسوعة ضخمة تصل إلى ثلاثين جزءاً وتحوي خمسة فنون أو مجالات وهي: الأرض والماء ومعالم كلا منهم ثم الإنسان ثم الحيوان ثم النبات ثم التاريخ الذي أفاد البحث منه إفادة كبيرة، خاصة خلال الحديث عن البيمارستان المنصوري وأنظمته.

كذلك من الكتب المهمة التي أفاد منها الباحث، كتاب مسالك الأبصار للعمري (ت: 749هـ/1348م)، واستفاد منها الباحث خلال الحديث عن علاج الأمراض، والكثير من المعلومات، خاصة في الفصل التاسع.

ومن الكتب ا لتي لا غنى للباحث عنها: موسوعة صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (ت: 821هـ/1418م)، وأفاد الباحث بعض المراسيم التي خرجت من ديوان الإنشاء وأوردها القلقشندي.

كما استعان الباحث بعدد آخر من المصادر التي لا تقل أهمية عن المصادر السابقة ولكن يصعب ذكرها في هذه الإطلالة السريعة وهي مثبتة في حواشي البحث وفي قائمة المصادر.

3- المراجع العربية والمترجمة:

وثمة مجموعة كبيرة من المراجع العربية الحديثة والمترجمة عن لغات أجنبية رجع إليها الباحث لخدمة مادة البحث العلمية.

4- الدوريات العلمية والرسائل الجامعية:

كما استعان الباحث بعدد من الدوريات العلمية إضافة إلى عدد من الرسائل الجامعية التي استرشد بها الباحث لخدمة جوانب معينة من البحث.

الفصل الأول

النهضة الطبية والقائمون عليها بمصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

- علاقة الأطباء بالأمراء والسلاطين المماليك.

- القائمون على النهضة الطبية والصحية.

أولا: الأطباء البشريون.

ثانيا: الأطباء البيطريين (طب الحيوان).

ثالثا: الصيدلانيون .

رابعا: الأدوات والآلات الطبية.

علاقة الأطباء بالأمراء والسلاطين المماليك

حاز الأطباء على ثقة واهتمام السلاطين والأمراء المماليك في مصر والشام، فكان الأطباء يجلسون على أبواب الخلفاء والسلاطين ينتظرون الأمر بالدخول لعلاج من يمــرض مــن أهــل القصر، فيتفحص الطبيب المرضى، ويكتب لهم دستوراً ليصرف من خزانة الــشراب، فيأخــذون الدواء أما الدستور فيبقى عند مباشرة الشراب خاناه[1] شاهدا لهم[2] وكــان الــسلاطين والأمــراء يقومون باستشارة الأطباء في أمورهم الصحية ولا يتركوا أي صغيرة أو كبيرة في الأمور الصحية سواء الخاصة بهم أو بأفراد أسرتهم إلا ولجأوا للأطباء على الفور وفي ذلك يقول العمري: عــن الطبيب فرج بن صغير الذي اعتمد عليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون في علاجه،" ويعمــل بقوله في معالجته ومعالجة ولده وحريمه وخواصه وأعزائه"[3]، وقد دفع الظاهر بيبرس حياته ثمناً لعدم استشارة الأطباء عندما تناول دواء بدون استشارة أطبائه، وذلك في مرض موتــه، وعنــدما حضر الأطباء أنكروا عليه فعل ذلك وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يتخلوا عن الملك الظاهر وأخذوا يلاطفوا السلطان بكل ما يملكون من جهد، ولكن دون جدوى فإن السلطان تضاعفت بــه الحمــى وعظم مرضه وأخذ يتقيأ دماً حتى فارق الحيــاة فــي يــوم الخمــيس 28 مــن المحــرم عــام (676هـ/1277م)[4].

وكان المماليك مولعين بالألعاب الرياضية وممارستها، ولذلك قدم إليهم أطبــاؤهم نــصائح غالية في ذلك الصدد: فنهوهم عن الحركة السريعة بعد تناول الطعام، فالحركــة المعتدلــة أقــوى الأسباب في حفظ الصحة فإنها تسخن الأعضاء وتحلل الفضلات وتجعل البدن خفيفاً نشيطاً ووقتها بعد انحدار الغذاء عن المعدة[5].

---

(1) الشراب خاناه: ومعناه بيت الشراب، هي بيت يشتمل على أنواع المشروب من المياه على اختلافهــا، والــسكّر والأشربة والدّرياقات والسّفوفات والمعاجين والأقراص والأقسما والفقّاع والبلح والأبقال والحلويّــات والجوارشــات والفواكه، وما يجرى هذا المجرى. للمزيد انظر: النويري، نهاية، ج8، ص224-225.القلقشندي، صــبح، ج3،ص 546.

(2) القلقشندي، صبح ، ج3، ص 569.

(3) العمري، مسالك ، ج9، ص625.

(4) ابن الفرات، تاريخ ، مج7، ص85. بيبرس الدودار، زبدة ، ج9، ص160. بيبرس المنصوري، التحفة، ص86. الكتبي، الوافي، مج1، ص240. ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص175. ابن سباط، صدق ، ص446، 447.

(5) البغدادي، الطب، ص24. ابن قيم، زاد ، ج4، ص274.

ومن الأطباء الذين عاشوا في دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر بيبرس ونالوا رعايته: الطبيب شهاب الدين بن فتح الدين بن جمال الدين ابن أبي أصيبعة: " وقد خدم بصناعة الطب الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الملك الصالح صاحب الديار المصرية والشامية "[1].

ومن أهم الأطباء الذين عاشوا في كنف دولة سلاطين المماليك وعاصرها منذ مولده وحتى وفاته في عهد السلطان المنصور قلاوون الطبيب ابن النفيس "علاء الدين ابن أبي الحزم القرشي[2] أو علاء الدين ابن أبي الحرم، " الحكيم الفاضل العلامة في فنه، لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلاج[3]، شيخ الطب بالديار المصرية وصاحب التصانيف وأحد من انتهت إليه معرفة الطب[4]، وهو طبيب فقيه أصولي محدث نحوي منطقي[5]، شرح القانون لابن سينا وصنف الموجز وغيره من الفوائد[6]، تلك الإشارات تدل على أن ابن النفيس كان من عباقرة الطب في العصور الوسطى ، وكان لابن النفيس ذاكرة حاضرة وذهن متقَد وكانت تصانيفه يمليها من حفظه ولا يحتاج إلى مراجعة لتبحره في فنه [7]، كان إمام وقته في فنه، شرقاً وغرباً بلا مدافعة[8]، وأحد من انتهت إليه معرفة الطب مع الذكاء المفرط والذهن الحاذق[9]، لم يكن في الطب " على وجه الأرض مثله، وقيل: ولا جاء بعد ابن سينا مثله، وكان في العلاج أعظم من ابن سينا "[10]، وقيل عنه أيضاً: " وإليه انتهت رئاسة الطب "[11].

وفي حدود اطلاع الباحث لا توجد إشارات تفيد أن ابن النفيس قد تردد عل مجالس السلاطين والأمراء، بل أنه لعلو شئنه وتقدير الدولة المملوكية لمكانته العلمية؛ نجد أن الأمراء قد حرصوا على حضور مجالسه العلمية مع المثقفين والعلماء، فيذكر العمري أن ابن النفيس: " كان لا يحجب نفسه عن الإفادة ليلا ولا نهارا، وكان يحضر مجلسه في داره جماعة من الأمراء، والمهذب

---

[1] ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص586.

[2] القرشي نسبة إلى بلدة قرش بالضم قرية بسواحل حمص وهي آخر أعمالها مما يلي حلب وإنطاكية وبحلب قوم من وجوهها يقال بهم بني القرشي منسوبون إليها والناس يظنون من قريش انظر: ياقوت، معجم، مج4، ص323.

[3] ابن تغري بردي، النجوم، ص7، 377.

[4] الذهبي، العبر ، ج3، ص365.

[5] ابن الوردي، تاريخ ، ج2، ص234.

[6] ابن كثير، البداية، ج13، ص317. الصفدي، الوافي، ج20، ص182.

[7] الأسنوي، طبقات، ج2، ص352. النعيمي، الدارس، ج2، ص131.

[8] ابن العماد، شذرات، ج5، ص401، 402.

[9] اليافعي، مرآة، ج4، ص207.

[10] السبكي، طبقات، ج8، ص305.

[11] العيني، عقد، ج2، ص374.

ابن أبي حليقة رئيس الأطباء، وشرف الدين ابن صغير، وأكابر الأطباء، ويجلس الناس في طبقاتهم"[1].

ومع أنه " كَانَ إماما فِي عَلَمُ الطّبّ "[2]، إلا أنه " اشتغل بِهِ عَلَى كِبَر "، وكذلك حاله الميسور فقد " ابتنى دارا بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى إيوانها، وما رأيت إيوانا مرخما في غير هذه الدار، ولم يكن مزوجا. ووقف داره وكتبه على البيمارستان المنصوري"[3]. فلعل هذا من ناحية، وانشغاله بالتصنيف من ناحية أخرى، حد من علاقته بالسلاطين والأمراء.

ومن الأطباء الذين تقدموا في دولة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعاصر عدد من أولاد الناصر محمد هم على الترتيب: المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون (741-742هـ/1310-1312م)، والأشرف علاء الدين كجك(742هـ/1312م)، والناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر (742-743هـ/1312-1313م)، الطبيب السديد الدمياطي اليهودي، قرأ على الشيخ علاء الدين بن النفيس، وحضر مباحثه مع القاضي جمال الدين بن واصل، وكان السديد رجلاً فاضلاً في الطب وغيره، يستحضر كثير من كلام الأطباء، وكان سعيد العلاج ولم يكن في عصره مثله[4]، وكان الرئيس جمال الدين إبراهيم لا يدخل دور السلطان إلا ومعه السديد الدمياطي[5]، " وكان السديد شديد المقال مديد المجال جالينوس زمانه في الطب، ... خدم السلطان وتقرر لديه فضله ..، وكانت الأطباء إذا اختلفت في حدس مرض أو صنف دواء عادوا إلى رأيه ورجعوا إلى قوله فإن قال سكت كل قائل وسلم كل منازع، وكانوا إذا عرض للسلطان مرض حضروا عنده وتقدم السديد فأمسك يد السلطان وجس نبضه قبل الرئيس وقبل كل أحد وكان الرئيس هو السائل عن الأعراض بحضوره ثم تحصل الشورى بينهم على ما يوصف ويكون مدار الكل على كلام السديد واعتماد السلطان عليه دون الكل وكان السديد رجلاً عاقلاً ساكناً لا يكاد يتكلم حتى إذا تكلم كان البحر الزاخر والسيل المنحدر والضراع المتقد والأسد الصول إلى نقول يستحضرها وبحوث يحررها وتجارب يذكرها وكانت له يد في علم الموسيقى والطرب، وكان على ذلك الفضل الغزير والمدد الوافر لا يتوسع في الوصف للأعلى ولا يخرج عن الجادة ولا يعدل عن المعهود ولا يرى التفقه في الطب .. وكان السديد اجتهاده لنفسه وفرج الله اجتهاده للعليل على أن السديد كان إذا

---

[1] مسالك، ج9، ص 618.

[2] الذهبي، تاريخ،ج51، ص 312.

[3] المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

[4] الصفدي، الوافي، ج15، ص127. ابن تغري بردي، المنهل، ج5، ص384.

[5] الصفدي، الوافي ، ج15، ص127، 128.

لم يشاركه طبيب آخر يطبب تطبيباً مستقصى وإن لم يتوسع فأما إذا شورك سكت وجمد واكتفى بقول المشارك وإن كان عنده في الباطن خلافة "[1]، وكانت وفاته في عام 743هـ/1342م[2].

ومن أطباء السلطان الناصر محمد بن قلاوون أبو الفرج بن صغير فرج الله بن صغير، " قرأ الطب على أبيه وعلى ابن النفيس وتلك الطبقة اقتصر على علم الطب وظهر أثر علمه وكثر النفع به وبرء المرضى على يديه وخدم السلطان وأطلق له المعلوم الوافر والراتب الكامل وتفرد بخدمة بكتمر الساقي[3] وكان يعتمد عليه من دون سائر الأطباء و يثق به وأفرده بعد بكتمر الساقي في خدمة الدور السلطانية والنساء مع مشاركة الجماعة في مباشرة طبه والحضور عنده ولم يزل موفر الحظ من الإكرام، وكان من حسن الملاطفة في العلاج ما لم يكن لأحد سواه وكان في ذلك غاية وهناك فرق بين السديد الدمياطي وفرج الله بن صغير فكان السديد يعمل في ما يصفه مصلحته وفرج الله يعمل مصلحة المريض، ويود لو نزع من جسده ثوب العافية وألبسه المريض وإذا كره المريض أو من حضره غذاء أو دواء أبدله بغيره فأن كرهوه أبدله بغيره يفعل هكذا حتى يصيب موافقة أو مقاربة وكان يرى أن ذلك أجدى في نفع المريض وكانت له معالجات موفقة وإصابات في تقدم المعرفة خارقة "[4].

ومن أطباء السلطان الناصر محمد أيضاً الطبيب أحمد بن المغربي، وذلك الطبيب عاصر السلطان الناصر وكذلك من جاء بعد ولايته الأولى وهم: العادل زين الدين كتبغا (694-696هـ/1294-1296م) والمنصور حسام الدين لاجين، أو بعد ولاية الناصر الثانية وهو السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير (708-709هـ/1309-1310م) والطبيب أحمد بن المغربي قدم مصر واستوطنها وكان فريداً في أنواع العلم إلا إنه عرف بالطب أكثر من بقية ما عرف من المعارف وخدم السلطان وتقدم والرهط، وتفرد في جماعة الأطباء وأقرأ العلم وأفاد وباشر المرضى وأحسن العلاج وعدل متحرف كل مزاج وكان وأفر الحظ من السلطان والأمراء والوزراء وسائر الأكابر، وخدم بنوه السلطان الناصر محمد بن قلاوون بل أن ابنه جمال الدين صحب السلطان أثناء إقامته بالكرك عندما غادر مصر بعد ولايته الثانية[5].

---

[1] العمري، مسالك ، ج9، ص620.

[2] الصفدي، الوافي، ج15، ص127. ابن تغري بردي، المنهل، ج5، ص384.

[3] الأمير سيف الدين الساقي الناصري كان من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير، وكان له عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون مكانة عظيمة وكان فيه خير وقضاء لحوائج الناس، توفي عام 733(هـ/1332م). انظر: الصفدي، الوافي، ج10، ص193. ابن حجر، الدرر، ج1، ص486.

[4] العمري، مسالك، ج9، ص624، 625. انظر أيضاً: عيسى، معجم، ص337.

[5] العمري، مسالك، ج9، ص621. ابن حجر، الدرر، ج3، ص375. انظر أيضا: عيسى، معجم، ص125.

ومن الأطباء الذين خدموا السلطان الناصر محمد بن قلاوون الطبيب محمد بن إبراهيم المتطبب صلاح الدين المعروف بابن البرهان الجرايحي، قرأ علم الطب على ابن النفيس وغيره من أطباء دولة المماليك، وكان ابن البرهان طبيباً حكيماً فاضلاً، "عارفاً بالطب علماً لا عملاً لا يحسن العلاج ولا يطول روحه على العليل عديم التلطف كارهاً لأطباء زمانه لا يذكر أحد منهم إلا ذمه وأطلق لسانه في معايبه، وكان يقول هؤلاء اليهود قد ارتفع رأسهم على جهلهم وقلة حاصلهم يعني السديد الدمياطي وفرج الله بن صغير ولا يزال يتوقد غيظاً منهما وحسداً لهما لرغبة السلطان والأمراء والكبراء فيهما أكثر منه وما كان يحصل لهما من الخلع والإطلاقات ويصل إليهما من دور السلطان والأمراء لإفراط ميل النساء إلى طبهما وملاطفتهما ثم كان إذا ذمهما يقول لمن يثق به وذلك إبراهيم بن المغربي هو مادة عز هؤلاء اليهود وكنز غناهم وبه طاروا وحلقوا"[1].

لقد كان للأطباء في مصر والشام خلال عصر سلاطين المماليك مكانة مرموقة ووصلوا في دولة المماليك إلى مراتب عظيمة وذلك بسبب إخلاصهم في عملهم وعدم توانيهم عن خدمة السلاطين والأمراء المماليك من جانب ورعايتهم للشعب المصري من جانب آخر، مما جعل السلاطين والأمراء المماليك يثقوا فيهم ويقربوهم منهم، فالطبيب ابن النفيس وصل إلى مكانة مرموقة في المجتمع المصري خلال عصر سلاطين المماليك، بحيث"كان يحضر مجلسه في ذلك جماعة من الأمراء والمهذب ابن أبي حليفة رئيس الأطباء وشرف الدين ابن صغير، وأكابر الأطباء"[2].

ومن الأطباء الذين وصلوا إلى درجة عظيمة من القرب من السلاطين وكان لهم معهم مداخلات ونوادر الطبيب محمد بن دانيال بن يوسف الأديب الحكيم الكمال الفاضل شمس الدين الحراني الموصلي المعروف بابن دنيال، وهو من أطباء الأشرف خليل بن قلاوون، تعانى الأدب ففاق في النظم، وصنف طيف الخيال الشاهد له بالمهارة في الفن وله أرجوزة سماها عقود النظام فيمن ولى مصر من الحكام، وكان كثير النوادر، فمن نوادره أن الأشرف خليل بن قلاوون أعطاه فرساً ليركبه فرآه بعدها على حمار أعرج فسأله عن الأمر فقال: يا خوند بعت الفرس، وزدت عليه واشتريت ذلك فضحك منه الأشرف، وكانت وفاته في جمادي الآخرة عام (710هـ/1310م)[3].
ومن الأطباء أصحاب المكانة المرموقة والمقربين من السلطان الطبيب محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير ناصر الدين، ولد عام (691هـ/1291م)، وهو من أطباء السلطان الناصر محمد بن

---

(1) العمري، مسالك، ج9، ص282-285.

(2) المصدر نفسه،ج9، ص619.

(3) ابن حجر، الدرر، ج4، ص54-56.

قلاوون، وحج مع السلطان إلى بلاد الحجاز عام 732هـ/1331م، وكان ابن صغير ذلك لا يطب إلا أصحابه وأهل بيت السلطان وتوفي في ذي القعدة عام 749هـ/1348م في طاعون مصر[1].

ويعد موسى بن كجك الشيخ شرف الدين الطبيب من الأطباء الذين ظهروا في عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وكان أبوه يهودياً، وكان يعالج أهل العلم ويخدمهم فهدى الله ولده إلى الإسلام، وصار يشغل في الحاوي والعلوم العقلية، وكتب بخطه كثيراً وكان يلاطف الطلبة ويحسن إليهم، مات في شوال (761هـ/1360م)[2]، وقال عنه ابن تغري بردي " كان بارعاً في الطب مشاركاً في غيره "[3].

ومن الأطباء الذين ذاعت شهرتهم خلال عصر سلاطين المماليك وبخاصة في عهد الظاهر برقوق الطبيب علي بن عبد الواحد بن محمد بن صغير الشيخ علاء الدين المعروف بابن صغير رئيس الأطباء بالديار المصرية كان بارعاً متفنناً في صناعته وانتهت إليه المعرفة والرئاسة في الطب في زمانه، ولد بالقاهرة وتخرج بجماعة من علماء الطب في عصره حتى برع وساد وكان له مالاً قدره بخمسة آلاف دينار أفراده للقرض فكان يقرض من يحتاج إلى ذلك برهن من غير إستفضال (فوائد ربوية) بل ابتغاء للثواب، وكان يصف الدواء للموسر بأربعين ألفاً ويصف الدواء في ذلك الداء بعينه للمعسر بفلس، ووصلت ثقة الظاهر برقوق بأن أرسل الطبيب ابن صغير لعلاج السلطان العثماني بايزيد الأول حيث أن بايزيد كان يشكو من ألم المفاصل فأرسل إلى السلطان الظاهر برقوق أن يرسل إليه طبيباً لعلاجه وأدوية توافق مرضه الذي يشكو منه، وعاد إلى مصر بعد أن أكمل مهمته في علاج السلطان بيزيد، وكانت وفاته بحلب في ذي الحجة عام 796هـ/1394م، حيث كان برفقته الجيش المصري بقيادة السلطان الظاهر برقوق الذي ذهب إلى بلاد الشام بعدما علم بأمر تيمور لنك (ت 805هـ/1402م) ومحاولته الإغارة على الشام وذلك بسبب العداء المعروف بين دولة المغول ودولة سلاطين المماليك[4].

ومن منطلق ثقة السلاطين في الأطباء فإن الأطباء حافظوا على تلك الثقة فالطبيب علم الدين بن برانج رئيس الأطباء في عهد السلطان فرج بن برقوق (801-815هـ/1399-1412م) حاز على ثقة السلطان الناصر فرج حيث أوكل له السلطان الدخول على حريم السلطان لطبهن مما

---

[1] المقريزي، المقفى، ج9، ص36. انظر أيضاً: عيسى، معجم ، ص426، 427.

[2] ابن حجر، الدرر، ج5، ص151.

[3] النجوم، ج10، ص338.

[4] ابن حجر، أنباء ، ج3، ص228، 229؛ الدرر، ج3، ص151، 152. الصيرفي، نزهة، ج1، ص365، 366. انظر أيضاً: عيسى، معجم، ص310، 311.

أوغر عليه حقد الحاقدين فلما مرضت إحدى حظايا السلطان الناصر فرج وأحضروا لها طبيب غير ابن برانج أبت فقرر السلطان أن يختبر ثقة ابن برانج، فأمر إحدى حريمه بالتمارض وأن تبالغ في الزينة وإذا دخل عليها ابن برانج تتعرض له الجارية لاختبار أمانته، وأبى ابن برانج أن يجاريهـا في الأمر، فعظم أمره بذلك عند السلطان الناصر فرج الذي أطلعه على الأمر فأجابه ابن برانج أن على الطبيب أن يغض طرفه عن المحارم، ويكون أمين على البيوت وأصحابها وخاصة وأنه غارق في نعيم السلطان[1].

ويعد الطبيب محمد بن علي بن عبد الكافي بن عبد الواحد بن صغير الشمس أبو عبـد الله العلاء أبي الحسن القاهري الحنبلي ويعرف كسلفه بابن صغير ممن تميز في الطب وعالج وتدرب به جماعة بل له كتاب يسمى الزبد، وكان أحد الأطباء بالبيمارستان وبخدمـة السـلطان الأشـرف برسباي مات في عام (839هـ/1435م)[2].

ومن الأطباء المعاصرين للسلطان الأشرف برسباي وكذلك للسلطان الظاهر جقمق (842-857هـ/1438-1453م) الطبيب الرئيس إبراهيم بن فرج الله بن عبـد الله الكـافي الإسـرائيلي اليهودي الداوودي العاناتي مات في يوم الجمعة 20 ذي القعدة عام (844هـ/1440م) وقد أنـاف على السبعين ولم يخلف بعده من يهود مصر مثله في كثرة حفظ نصوص التوراة وكتب الأنبياء في تنسكه في دينه مع حسن علاجه لمعرفته بالطب وتكسبه به وكان يقر بنبوة رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ويجهر بأنه رسول الى العرب ويقول في المسيح عليه السلام أنه صديق وذلك خلاف ما يقوله اليهود لعنهم الله[3].

ومن الأطباء الذين ظهروا في أواخر دولة المماليك وقاموا بتقديم الرعاية الطبية للسـلطان الغوري (906-922هـ/1500-1516م) الطبيبين الرئيس عبد الرحمن شريف الكحال وكان مـن الأطباء النابهين بالقاهرة، والطبيب تقى الدين المنوفي الكحال وكان بارعاً في الطب، حيث كان لهما الفضل في علاج السلطان الغوري من مرض أصابه في عينه، ورسم لهما السلطان مائة دينار بعد شفائه[4].

---

[1] السخاوي، الضوء، مج6، ج11، ص236، 237. انظر أيضاً: عيسى، معجم، ص70، 71.

[2] المصدر نفسه، مج5، ج9، ص 150، 151. المرجع نفسه، ص410.

[3] المقريزي، السلوك، ج7 ، ص482. انظر أيضاً: عيسى، معجم، ص58.

[4] ابن إياس، بدائع، ج4، ص322.

ومن الأطباء الذين ذاعت شهرتهم خارج مصر شمس الدين القيصوني (ت931هـ/1524م) حيث سافر إلى الدولة العثمانية وخدم السلطان العثماني سليمان بن عثمان (1566/1520م) وكان ذلك الطبيب له شأن بين أكابر الدولة العثمانية[1].

وإذا ما نجح الطبيب في علاج السلطان من مرض ما فإن السلطان ورجال دولته يخلعوا الخلع النفيسة على ذلك الطبيب ، ويكون ذلك من حسن طالعه، فعندما كسرت يد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام أحد الأطباء المتخصصين في التحيز بعلاج يد السلطان، وذلك المجبر يدعى أبو رسته[2] وكافأه السلطان الناصر بأن أنعم عليه بعشرة آلاف درهم ورسم له أن يدور على جميع الأمراء، فلم يتأخر منهم أحد عن إفاضة الخلع عليه وإعطائه المال[3].

وكان الأطباء خلال عصر سلاطين المماليك يقومون بالمشاورة فيما بينهم عند علاجهم للسلاطين حيث كان يعالج السلطان أكثر من طبيب، بل إن الأطباء المصريين لم يترفعوا في إشراك أطباء من خارج مصر معهم عند علاج السلاطين، وذلك لم يقلل بأي حال من الأحوال من كفاءة الأطباء المصريين أو ينال من سمعتهم الطيبة، حيث أشرك الأطباء المصريون عند علاج المؤيد شيخ (ت 824هـ/1421م) الطبيب محمد بن عمر بن أبي بكر الهمداني[4]، وكان شيخ شديد المرض من الإسهال وعسر البول والصداع وحاول الأطباء من مصر وغيرها من البلدان علاج السلطان ولكن دون جدوى[5]، وذلك لتكامل المرض به "لم يبق مرض من الأمراض حتى حصل له"[6].

والأطباء لا يتوانوا في تدبير الجهد عند علاج السلاطين لكي لا يقعوا تحت طائلة عقاب السلطان، مثلما حدث مع الطبيبين الذين عالجا السلطان الأشرف برسباي (ت841هـ/1438م) في مرض موته، وكان السلطان برسباي قد أصيب في وباء عام 841هـ/1438م بالطاعون الذي دخل القلعة، وتوفي برسباي بالمالنخوليا بعد عجز الأطباء من شفائه[7]، وجعلته المناخوليا يشك في

---

[1] الغزي، الكواكب، ج1، ص95.

[2] المقريزي، السلوك، ج2، ص307. ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص165.

[3] ابن أيبك الدوداري، كنز، ج9؛ الدر ، ص353. ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص93، 94.

[4] المقريزي، السلوك، ج4، ص493. السخاوي، الضوء ، مج4، ج8، ص452.

[5] المقريزي، السلوك، ج4، ص549. العيني، السيف، مقدمة التحقيق.

[6] المقريزي، السلوك، ج4، ص549.

[7] المصدر نفسه، ج4، ص1051. ابن تغري بردي، النجوم، ج15، ص100، ابن حجر، إنباء، ج 4، ص73. ابن اياس، بدائع، ج2، ص188 .

أطبائه لذلك أمر بتوسيطهما[1]، حيث ظن السلطان الأشرف برسباي أن طبيبيـه ابـن العفيـف[2] والخضر[3] قصرا في علاجه، وبذلت المحاولات لكي يغير السلطان قراره ولكن دون جدوى[4].

وفي عهد السلطان خشقدم (865-872هـ/1460-1467م)، تعرض الأطباء المعـالجين لنفس موقف ابن العفيف مع الأشرف برسباي مما حدا برئيس الأطباء أن يهرب ويختفي من وجـه السلطان، ولكن قبض عليه وسجن في برج القلعة أياماً حتى شفع فيه فأطلق خشقدم سراحه ولـزم داره دون أن يمارس مهنة الطب مرة أخرى[5].

ومن الأطباء الذين ظهروا في أواخر دولة المماليك وقاموا بتقديم الرعاية الطبية للـسلطان الغوري (906-922هـ/1500-1516م) الطبيبين الرئيس عبد الرحمن شريف الكحال وكان مـن الأطباء النابهين بالقاهرة، والطبيب تقى الدين المنوفي الكحال وكان بارعاً في الطب، حيث كان لهما الفضل في علاج السلطان الغوري من مرض أصابه في عينه، ورسم لهما السلطان مائة دينار بعد شفائه[6].

وكان السلاطين المماليك في مصر يحرصون على استقدام الأطباء المهـرة ليكونـوا فـي حضرتهم، ويقدموا لهم الخدمات الطبية اللازمة، ففي سنة (757هـ/ 1356م) " قدم شخص يقال له نظام الدين أبو بكر محمد بن عمر بن أبي بكر الهمذاني الأصل التبريزي ، وكان فاضـل الـشام فأحضره السلطان إلى القاهرة، وكان ادعى في الطب "[7].

وكان هناك تقاليد متبعة عند المماليك حال شفاء السلطان من مرض معين، فعندما مـرض السلطان الناصر " كتب علم الدين ابن جنيبة أحد رؤساء الأطباء للناصر ورقة دواء مسهل، فأمره

---

[1] التوسيط عقوبة تقضي بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف على أن تكون الضربة قوية تحت الـسرة فتقـسم الجسم نصفين من وسطه وتنهار أمعاء المحكوم عليه إلى الأرض. انظر: عاشور، العصر المماليكي، ص424.

[2] ابن العفيف: هو عبد اللطيف بن عبد الوهاب بن عفيف بن وهيبة بن يوحنا تقى الدين الملكي الأسلمي، الحكـيم الذي وسطه الأشرف برسباي قبيل موته وأحد رؤساء الطب والكحل ويلقب قوالح انظر: السخاوي، الضوء ، مج2، ج4، ص330.

[3] الخضر: خضر زين الدين الإسرائيلي الزويلي الحكيم كان يتعانى الطب وليس فيه بالمـاهر. انظـر: المـصدر نفسه، مج2، ج3، ص180، 181.

[4] ابن تغري بردي، النجوم، ج15، ص102-105، الصيرفي، نزهة، ص412. ابن حجر، إنباء، ج4، ص 73.

[5] ابن إياس، بدائع، ج2، ص452.

[6] المصدر نفسه، ج4، ص322.

[7] ابن حجر، إنباء، ج3، ص194.

أن ينزل ويطوف على الأمراء والمباشرين ويعلمهم أن السلطان يشرب يوم الأحد دواء، فحمل كل منهم تقدمة فحمل الوزير ألفي دينار وأشياء كثيرة من المأكولات، وكذلك ناظر الخاص لكن دونـه في النقد، والأستادار حتى المحتسب "[1].

ومكنت المكانة العلمية والمهنية للطبيب الوصول إلى مناصب عامة في الدولة مثلما حـدث مع الطبيب الشيخ المهذب أبو الحسن الموفق بن النجم أبي الحسن بن شمويل اليهودي، الذي وصل بسبب تفوقه في مهنة الطب إلى رئاسة اليهود حيث كانت له عام (684هـ/1285م) توقيعاً برئاسة طوائف اليهود بالقاهرة ومصر بل وسائر ديار مصر[2].

وقد وصل بعض الأطباء إلى أبعد من ذلك، حيث أن الطبيب ابن المغربي فضله الـسلطان الناصر محمد بن قلاوون على سائر رجال دولته، فكانت بينهما علاقة ود حميمة، فابن المغربـي ذهب مع الناصر محمد بن قلاوون إلى منفاه في الكرك (708هـ/1308م)، بعدما ضـيق عليـه الخناق رجال الدولة، بيبرس الجاشنكير ولم ينس الناصر محمد ذلك المعروف لابن المغربي فلمـا عاد إلى السلطنة عام (709هـ/1309م)، قرب ابن المغربي منه حيث أصبح رئيس للأطباء وكان السلطان يسأله عن أحوال البلد ومن فيه من القضاة وحال المحتسب ووالي البلد وعامة الناس ولهذا فإن ابن المغربي كان مرهوب الجانب وبالرغم من تلك المكانة المرموقة التي وصـل لهـا ابـن المغربي فإنه لم يأخذه الكبر يوماً ولا يرى نفسه إلا واحداً من الأطباء فمن الصفات التي اتصف بها ذلك الطبيب أن الجماعة توقر رفقته، ويجل أقدار كبار السن منهم ويخاطبهم بـالأدب، ولـم ثقـل المرض على الناصر محمد تمارض ابن المغربي ليس هروباً من المسؤولية وإنما حتى لا يتغيـر مزاج السلطان عليه فيقع في ما لا تحمد عقباه، وذلك من غزارة عقل ابن المغربي[3].

أما الطبيب فتح الله بن معتصم بن نفيس الداودي فإنه وصل إلى مكانة لم يصل إليها سواه من أطباء عصره فبلغ به الأمر أن تلاعب بالأمور في دولة المماليك الجراكسة فذلك الطبيب الذي قربه منه السلطان برقوق بعدما عالج له عارض حدث له وقرر برقوق أن يتولى فـتح الله كتابـة السر بعدما سئل فيها السلطان برقوق بقنطار من ذهب، فكان السلطان أعرض عن ذلك واختار أن يتولى فتح الله كتابة السر مع علمه بعده عن معرفة صناعة الإنشاء ولكن السلطان قال: أنا أعلمه[4]،

---

(1) ابن حجر، إنباء، ج2، ص486.

(2) ابن الفرات، تاريخ، مج8، ص18. المقريزي، السلوك، ج2، ص189. ابن تغري بردي، النجوم، ج8، ص18.

(3) الصفدي، الوافي ، ج5، ص314-317. ابن حجر، الدرر، ج3، ص17. انظر أيضاً: عيسى، معجم ، ص54، 53.

(4) المقريزي، السلوك، ج5، ص434. ابن اياس، بدائع، ج1، ق2، ص517.

وقول ابن اياس معبراً عن المكانة التي وصل لها فتح الله: "وفي تلك الأيام عظم أمر كاتب السر فتح الله الطبيب حتى صار يجلس فوق الوزير، وهو أول من وقع له ذلك من المعممين وفيه يقول:

لما ولى العباس سلطاننا قرب فتح الله قرب الحبيب

دعا له مع قربه جاءه من الله نصر وفتح قريب[1]

وبلغ من مكانة فتح الله عند السلطان برقوق أن جعله يحلف الأمراء والقضاه والخليفة على أخذ العهد لأولاد برقوق بل إن فتح الله أقام عند السلطان ليلاً ونهاراً عندما كان برقوق في نزعه الأخير وذلك لثقة السلطان به[2].

ومن أطباء الظاهر برقوق أيضاً الطبيب أحمد بن إسماعيل بن عبد الله الشهابي ويعرف بالحريري، اشتغل بالطب، وحدث أن كاتب السر فتح الله قربه من الظاهر برقوق في عارض عرض له فحصل له البرء سريعاً فأقبل عليه وولاه عدة وظائف منها تدريس الجامع الحاكمي وكانت وفاته في عام(809هـ/1406م)[3].

القائمون على النهضة الطبية والصحية.:

عرف المسلمون في حضارتهم التخصصات الطبية، وكذا عرف الأطباء في العهد المملوكي تلك التخصصات، فكان هناك " من يطب بوصفه وقوله، وهو الذي يخص باسم الطبائعي، وبمروده، وهو الكحال، وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحي، وبموساه وهو الخاتن، وبريشته وهو الفاصد، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر، وبمكواته وناره وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم، أو إنسان، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم، كما تقدم، وتخصيص الناس له ببعض أنواع الأطباء عرف حادث، كتخصيص لفظ الدابة بما يخصها به كل قوم "[4].

وأفادت وثيقة البيمارستان المنصوري بوجود عدد من التخصصات الطبية " الطبائعيين والكحالين والجراحين "[5]، وأشار الأسيوطي إلى أن المنصور قلاوون حين أوقف هذا البيمارستان

---

(1) ابن إياس، بدائع، ج1، ق1، ص826.

(2) السخاوي، الضوء، مج3، ج6، ص165.

(3) المصدر نفسه، مج1، ج1، ص240.

(4) ابن القيم، زاد ، ج4، ص130؛ الطب ، ص105.

(5) ابن حبيب، تذكرة ، ج1، ص365.

" قرر به من الرجال أربعة أنفار حكماء طبائعية، وأربعة حكماء من الجرائحية وأربعـــة حكمـــاء كحالين ".[1]

فلا شك أن نظام التخصص في الطب أحد عوامل إثراء الحياة الطبية، ويجعل الطبيب أكثر دقة عند تشخيصه للمرض وعلاجه، لذلك أصبح التخصص في الطب أحد سمات العصر الحـــديث وذلك لكثرة مميزاته.

أما في العصر المملوكي فقد وصل التخصص في الطب إلى مرحلة متطورة، ووجد مـــن بين أطباء هذا العصر من كان يفضل التخصص، وكانوا يؤثرون ويفضلون التخصص في الطب[2] وسيستعرض الباحث تلك التخصصات في العصر المملوكي كلا على حدة كما يلي:

أولا: الأطباء البشريون.

1- الطبائعيون[3] (أطباء الباطنة):

وهم الأطباء المختصين بعلاج الأمراض الباطنية[4]، وتتركز مهمتهم على " عيادة المرضى بالبيمارستان ... من الرجال والنساء والإماء والعبيد ومباشرتهم والنظر في حالهم والتلطـــف بهـــم ومساءلتهم عن أوجاعهم وتشخيص ما أمكن من أمراضهم ومعالجتهم بما يصلح لهم من الأدويـــة والأشربة والأغذية والشربات والحقن "[5].

وكان يشترط في الطبائعيين أن يكونو ا على معرفة " بتركيب البدن ومـــزاج الأعـــضاء والأمراض الحادثة فيها وأسبابها وأعراضها وعلاماتها والأدوية النافعة فيها والاعتياض عمـــا لـــم يوجد منها والوجه في استخراجها وطريق مداواتها بالتساوي بين الأمراض والأدوية في كمياتهـــا ويخالف بينها وبين كيفياتها "[6]. ولا يقدم على العلاج قبل أن يعرف حقيقـــة المـــرض وأســـبابه وعلاماته، وكافة المعلومات حول المريض والبيئة المحيطة به، فيعرف سن المريض والبلد التـــي

---

[1] جواهر ،ص278.

[2] ابن أبي أصيبعة، عيون، ص637.

[3] وقد برع كثير من الأطباء المسلمين في علاج الأمراض الباطنية، وافردوا لها العديد من المؤلفات، وهـــم فـــي كتاباتهم عن هذه الأمراض يتبعون التسلسل الطبيعي بداية بالمريء فالمعدة فالأمعاء دقيقها وغليظها، حتـــى ينتهـــوا بالشرج والإست، ثم يلحقون بها أمراض الكبد والمرارة . انظر: ابن سينا: القانون ، ج2، ص457. كمـــا عرفـــوا أمراض القلب والرئة والكلى والمثانة. انظر: قاسم، الطب ، ص14-215.

[4] الأسيوطي، جواهر، ص278. الجمل، الحضارة ، ص 121.

[5] الأسيوطي، جواهر، ص 278.

[6] الشيزري، نهاية ، ص97. وانظر: ابن الأخوة، معالم ، ص166.

هو منها، والفصل المناخي الذي يعيش فيه، ثم يشرع في علاجه، ويتجنب العلاج بالدواء ما أمكنه العلاج بالغذاء، والعلاج بالأدوية المفردة بدل من المركبة، " ويتجنب القياس إلا ما صحّ بتجريب غيره في مثل من أخذ في علاجه، وما عرض له، وسنّه، وفصله، وبلده، ودرجة الدواء، وأن يحذر التجربة فإنها خطر، مع الاحتراز في المقادير والكيفيات، وفي الاستعمال والأوقات، وما يتقدّم ذلك الدواء أو يتأخّر عنه، ولا يأمر باستعمال دواء ولا ما يستغرب من غذاء حتّى يحقّق حقيقته، ويعرف جديده من عتيقه، ليعرف مقدار قوّته في الفعل "[1].

وعلى الطبيب الطبائعي أن يصف للمريض الغذاء الذي يجب أن يتناوله وهو غذاء لطيف كالفراريج، وأمراق الفراريج والسويق وماء الشعير[2]، كما أن الطبيب ينهي المريض عن الأطعمة التي تسبب الألم وبخاصة إذا كان يعاني من مرض مثل القولنج الذي يحدث نتيجة ريح أو ثقل، وأكثر تولده عنهما من أكل التفاح، والكمثري، والقرع، والخيار، والقثاء والسويق، والأرز...الخ[3].

ومما ينبغي أن يعلمه المتطبب حق العلم تأليف الدواء على الوجه الأكمل، فيعلم قوة الدواء وضعفه ومنفعته وأن لا يستعمل من الأدوية إلا أفضلها[4]، وعندما يصف الطبيب الدواء للمريض يجب أن يراعي قوانين ثلاثة هي: اختبار كيفيته بعد معرفة نوع المرض ليعالج بالضد، واختيار وزنه ودرجة كيفيته، وذلك بالحدس من طبيعة العضو ومقدار المرض، ومن الجنس، والسن، والعادة، والفصل، والصناعة، والبلد والسحنة[5]، والقوة وترتيب وقته، وهو أن يعرف أن المرض في أي وقت من الأوقات الأربع مثلاً الورم إن كان في الابتداء يستعمل الرادع[6] فقط، وإن كان في الانتهاء يستعمل المحلل[7] وحده، فيما بين ذلك يمزج بينهما، وفي الانحطاط يقتصر على المحللات الصرفة "[8].

---

[1] العمري، التعريف، ص138. وانظر: القلقشندي، صبح، ج11، ص98، 377 – 378. وانظر: أمين، الأوقاف، ص 177.

[2] ابن النفيس، شرح ، ص113.

[3] ابن النفيس، الموجز ، ص224–225.

[4] ابن البيطار، الدرة ، ص37.

[5] السحنة حال لإنسان في بدنه من الضخامة والقضافة ونحوهما. الخوارزمي، مفاتيح، ص205.والسحناء: لين البشرة والنعمة، وقيل: الهيئة واللون والحال. ابن منظور، لسان،ج13، ص 204.

[6] الرادع: من ردع: والردع: الكف عن الشيء. ردعه يردعه ردعا فارتدع: كفه فكف. انظر: المصدر نفسه،ج8، ص 121. ولعلها بمعنى وقف انتشار المرض.

[7] المحلل: الشيء اليسير انظر: ابن منظور، لسان،ج11، ص 169.

[8] ابن النفيس، الموجز ، ص69.

وكان باستطاعة الطبائعي " الاستدلال على علل الأعضاء الباطنة إما مـــن نفـــس تغييـــر جوهرها كما يستدل بالطبقة الثخينة الغليظة على أن القرحة في المعي الأسفل وإما بالموضع كمـــا يستدل بالأيمن على الكبد وإما بالفضول كالشحم الخارج الكثير يدل على أنه من الغلاظ وإما بضرر الفعل كنقصان الذهن عن علة الدماغ وإما بما يظهر عليها من التغيير كاللون واللمس ونحوه "[1].

وينبغي إذا دخل الطبيب الطبائعي على المريض أن يسأله عن سبب مرضه، وعن ما يجـــد من الألم ثم يرتب له دستورا علاجيا، ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عنـــد المرضى، ويتابع حالة المريض بشكل يومي، فينظر إلى قارورة المريض، ويسأل المريض عـــن حاله وهل تناقص منه المرض أم لا، ثم يرتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال، ويكتب لـــه نسخة أخرى من دستور الأشربة ويسلمها لأهله، ويعيد ما فعله في اليوم الثـــاني، واليـــوم الثالـــث والرابع حتى يتم شفاء المريض أو يموت،" فإن برئ من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب، فإن رآهـــا على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط، ولا تقصير من الطبيب قـــال: هـــذا قـــضي بفروغ أجله، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم: خذوا دية صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الـــذي قتله بسوء صناعته وتفريطه فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هـــذا الحـــد حتـــى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله "[2].

ونصح ابن النفيس الأطباء عند اجتماع الأمراض مع بعضها، فقال: " إذا اجتمعت أمراض فابدأ بما يخصه إحدى ثلاث خواص هي: أن يكون برء الآخر موقوفاً على برئه كالورم والقرحة، فابدأ بالورم، وأن يكون أحداها سيئاً للآخر كالسدة والحمى العقلية، فابدأ بإزالة السبب، أن يكـــون أحدهما أهم من الآخر كالحاد والمزمن، فابدأ بالحاد، ومع ذلك فلا تغفل عن الآخر"[3].

وتلك نصيحة أخرى للأطباء الطبائعيين: "ويأمر المعالج أن يعرف أولاً حقيقـــة المـــرض وأسبابه وعلاماته، ثم ينظر إلى السن والفصل والبلد، ثم إذا عرف حقيقة المرض، وقدر ما يحتمله المزاج من الدواء لما عرض، يشرع في تخفيف الحاصل وقطع الواصل، مع حفـــظ القـــوة؛ وأن يهاجم الداء، ولا يستغرب الدواء، ولا يقدم على الأبدان إلا ما يلائمها ولا يبعد الشبه، ولا يخـــرج على عادة الأطباء ولو ظن الإصابة حتى يقوي لديه الظن ويتبصر فيه بـــرأي أمثالـــه، وليتجنـــب الدواء، ما أمكنه المعالجة بالغذاء؛ والمركب ما أمكنه المعالجة بالمفرد؛ وإياه والقياس إلا ما صـــح

---

(1) الرازي، الحاوي ،ج7،ص424.

(2) ابن الأخوة، معالم ، ص167. وينظر: الشيزري، نهاية ، ص 98.

(3) ابن النفيس، الموجز، ص76.

بتجريب غيره في مثل مزاج من أخذ في علاجه وما عرض له وسنه، وفصله، وبلــده، ودرجــة الدواء، وليحذر من التجربة فقط، قال ابقراط وهو رأس القوم: إنها خطأ، ثم إذا اضطر إلى وصف دواء صالح للعلة نظر إلى ما فيه من المنافاة وإن قلت، وتحيل لإصــلاحه يوصــف معــه، مــع الاحتراز في وصف المقادير والكميات والكيفيات، في الاستعمال والأوقات، وما يتقدم ذلك الــدواء أو يتأخر عنه ولا يأمر باستعمال ذلك الدواء ولا يستغرب من غذاء، حتى يحقق حقيقته، ويعــرف جديده من عتيقه ليعرف مقدار قوته في الفعل، وليعلم أن الإنسان هو بنية الله وملعون من هــدمها، وأن الطبيعة مكافية وبؤسي لمن ظلمها، وقد سلم الأرواح وهي وديعة الله في هذه الأجسام فليحفظها وليتق الله ففي ذلك جميع الأقسام وإياه ثم إياه أن يصف دواء ثم يكون هو الذي يأتي به أو يكــون هو الذي يدل عليه، أو المتولى لمناولته للمريض ليستعمله بين يديه"[1].

وقد كان أطباء الباطنة، أو ما يعرفون بالطبائعين خلال ذالك العصر يلجأون إلى العــلاج النفسي لبعض مرضاهم، حيث ربطوا بين الناحية النفسية وبين آثارها في الأمراض العضوية[2].

ويعتقد الباحث أن الطبيب الطبائعي يمثله في عصرنا الطبيب الباطني العام، الــذي يهــتم بمتابعة المريض بشكل عام، فإذا برئ فقد انتهى الأمر، أما إذا استمر به المرض فيقوم بتحويله إلى طبيب مختص في جانب معين يعتقد الطبيب الباطني أنه ليس من اختصاصه.

وإذا كان بعض أطباء الباطنة يستخدمون الأدوية والعقاقير في مداواة المرضى، فقد وجــد بين أطباء الباطنة في العصر المملوكي من عرف للغذاء ونوعيته دوره في عملية شــفاء بعــض المرضى، ويعد الطبيب ابن النفيس، رائداً في هذا المجال[3].

2- الجرائحيون[4] (أطباء الجراحة):

الجراحة هي: " صناعة ينظر بها في تعريف أحوال بدن الإنسان من جهــة مــا يعــرض لظاهره من أنواع التفرق في مواضع مخصوصة وما يلزمه "[5].

---

[1] القلقشندي، صبح ، ج11، ص383، 384.

[2] الشاعر، مآثر، ص52.

[3] ابن النفيس، المختار، ص73 وما بعدها.

[4] الجرائحيون: مفردها جرائحي، وجراحي: والجرح الفعل جرحه يجرحه جرحاً: أثر فيه بالسلاح.ابــن منظــور، لسان ،ج2،ص422 وهو الطبيب الذي يشق جلد بدن الإنسان بالآلة الخاصة حتى يعالج الداء من الــداخل. انظــر: الخوري، الإفصاح ، مج 48، ص802. وقد بدأ استعمال كلمة جرائحي منذ القرن الرابع الهجري، فبدأت الكلمــة تظهر في كتابات الأطباء مثل ابن بطلان البغدادي، من خلال كتابة دعوة الأطباء، ثم انتشرت بعد ذلك على نطاق واسع .انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون، ص328. الخوري، الإفصاح، مج 48، ص807.

[5] ابن القف، العمدة ، ج1، ص4-5. زادة، المفتاح ، ج1، ص286

وهو: "علم يبحث عن أحوال الجراحات العارضة لبدن الإنسان، وكيفية برئها وعلاجها، ومعرفة أنواعها، وكيفية القطع إن احتيج إليها، ومعرفة كيفية المراهم والضمادات وأنواعها، ومعرفة أحوال الأدوات اللازمة لها، وهو جزء من علم الطب، وقد يفرد عنه التدوين، ومنفعته عظيمة جداً، وهذا العلم بالعمل أشبه منه بالعلم، والأصل فيه عمدة الجراحين لأبي الفرج بن القف"[1].

وقد كانت الجراحة عند العرب تسمى (صناعة اليد) وهي ترجمة حرفية لكلمة chirurgie اليونانية[2].

وقد تمثلت الجراحة عند العرب في بداية الأمر في الحجامة و الفصد والكي والبتر[3]، وكان يقوم بها الفصادون والحجامون إلى جانب الأطباء[4].

وفي العصر المملوكي ظهر العديد من الجراحيين المسلمين الذين نبغوا في هذا المجال لدرجة أنهم أول من استخدم المخدر في العمليات الجراحية عن طريق الفم أو الأنف وذلك من خلال شم اسفنجة مبلله بمحلول مخدر[5]، فقد أفرد ابن القف[6] في كتابه "العمدة في الجراحة" فصلا كاملا للحديث عن تسكين الألم الجراحي، وفرق فيه بين التسكين الحقيقي وغير الحقيقي، وعدَّ أن التسكين الحقيقي هو علاج سبب العلة وإبراء المريض، والتسكين غير الحقيقي هو إعطاء المخدر لإحداث التسكين المؤقت، أو قبل العملية الجراحية لتمكين الجرائحي من العلاج، ووصف أن تسكينه للألم يكون على أربعة وجوه: أولها أنه بالبرودة التي يحدثها يسد مسالك الروح، فيمنع التنبيه الألمي من الوصول لمواضع الشعور به أو ينقصه، وبالتالي عدم الشعور به وتسكين الألم.
ثانيها أنه ببرده يغلظ جوهر الروح، ويمنعه من النفوذ والسريان في الأعصاب ومسالكها.
ثالثها أن الحس يتم بالحرارة والرطوبة، والمخدر مزاجه بارد يابس، والمضاد للشيء من شأنه أن يضعفه ويكسر قوته.
رابعها أنه بسميته يضعف الحس، ومتى ضعف الحس ضعف الشعور بالوجع، وبالتالي ضعف الشعور بالألم.

---

(1) خليفة، كشف،ج1، ص581. و ينظر: القنوجي، أبجد ،ص356.

(2) حسين، الموجز، ص97.

(3) الزهراوي، التصريف ، ج1، ص2. زادة، المفتاح، ج1، ص67-181.

(4) حسين، الموجز، ص97. البدري، الفصد، مج 13، ص91.

(5) ابن القف، العمدة، ج1، ص205. وانظر:عطية، العلاقات ، ص227. هونكه، شمس، ص279، 280.

(6) كعدان، تاريخ، ص22-23.

وقد استخدم الاطباء المسلمون في العصر المملوكي العديد من النباتات التي تستعمل في التخذير[1] مثل: الأفيون واللفاح [2] والبنج[3]، كما استخدموا نبات النّيلوفر[4]، والزعفران[5] في عملياتهم الجراحية كمخدر؛ حيث كانوا يشبعون الإسفنجة بالمادة المخدرة، ثم تجفف في الشمس وترطب ثانية وتوضع على أنف المريض فيستغرق بالنوم ولا يشعر بالآلام الجراحية[6].

فالمعلوم أن الجراحة لم تقفز قفزتها القوية إلا بعد اكتشاف التخدير، وبعد إتقان طرق التعقيم ثم اكتشاف الصادات، إذ كان معظم المرضى من قبل لا يتحملون المداخلات الجراحية فيموتون، إما بسبب الألم الشديد، أو الإنتان أو النزف الغزير؛ لذلك كان الناس يتخوفون من المداخلات الجراحية، ويفضلون المعالجة الدوائية، وهذه كلها كانت أسباب عرقلة تقدم الجراحة، إلا أنها لم توقفها[7].

أما بالنسبة للإنعاش، فقد استعملت عدة طرائق تختلف كل منها بحسب الحالة، ففي حالة توقف عسر التنفس، يبدو أن العرب كانوا يستعملون المنفاخ كآلة للإنعاش، ويوضع فيها نبتة الكندس[8] ثم ينفخ في أنف المريض[9].

---

[1] انظر: الرازي، الحاوي، ج7،ص376. ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص45، 46. ابن النفيس، الشامل، ج2، ص503–509؛ المهذب ، ص209. النويري، نهاية ،ج11،ص24. الإنطاكي، تذكرة ، ج1، ص80.

[2] اللفاح: نبات يقطيني أصفر شبيه بالباذنجان طيب الرائحة. ابن سيدة، المحكم،ج3، ص351؛ المخصص، ج3، ص285. ابن منظور، لسان، ج2، ص579.

[3] المعروف أن للبنج أنواعاً، لكل نوعٍ منه لونه وصفاته، غير أن زهرها – جميعاً – أرجوانى اللون، أو فرفيرى.. ابن النفيس، الشامل،ج2، ص279، حاشية 8. وفى تذكرة داود: البنج بالعربية السيكران وباليونانية أفيقوامس والسريانية أرمانيوس والبربرية أقنقيط ويقال أسقيراسن.. وهو نباتٌ ينبسط على الأرض دائرة، ويرتفع وسطه دون ذراع شديد الخضرة.. له زهرٌ فرفيرى . الانطاكي، تذكرة ، ج1،ص84 .

[4] النّيلوفر: اسم فارسىّ معناه النيلىّ الأجنحة، والنيلىّ الأرياش. وربما سمى بالفارسية اسما معناه كرنب الماء؛ وسماه جالينوس: كرنب الماء؛ وحبّه يسمّى حبّ العروس، وفيه حلاوة. انظر: النويري، نهاية ،ج11، ص219.

[5] المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

[6] انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص45، 46. ابن النفيس، الشامل ، ج2، ص503–509؛ المهذب ، ص209. الإنطاكي، تذكرة ، ج1، ص80.

[7] الجاسر، "التخدير، ص 621– 628.

[8] الكندس: عروق نبات داخله أصفر وخارجه أسود، ونباته يسمى الحرشف، ولون ورقه أرقط ببياض وخضرة، والمستعمل منه العروق، ويجمع في [يونيه] وهو شديد الحرارة. العمري، مسالك ،ج22، ص 27 .

[9] ابن سينا، القانون، ج2،ص 141. القفطي، أخبار، ص 168. ابن العبري،تاريخ ،ج1،ص132.العمري، مسالك ،ج9، ص488.الذهبي، تاريخ ،ج11،ص30.السيوطي، المحاضرات، ص367. الطالبي، نزهة ، ج1،ص55. ولقد استعملت هذه الطريقة فيما بعد في هولندا عام 1769م، وفي الجمعية البريطانية الملكية الإنسانية عام 1771م، ومؤسسة هنتر الذي صمم منفاخاً ذا مجريين، واحد للزفير وآخر للشهيق. الجاسر، التخدير، ص 621– 628.

وفي حالات الغشي كان يتم صب الماء الساخن ثم البارد على جسم المريض بالتوالي[1].

ويجب على الجرائحي أن يكون عارفاً بأمور أربعة: مزاج العضو: فإنه متى عرف مزاج العضو، عرف كيفية الدواء المستعمل فيه، جوهر العضو: فإن من الأعضاء ما هو مجوف ومنها ما هو مصمت، الوضع: فالوضع عند الطبيب أمران موضع العضو نفسه ومشاركته لما يشاركه من الأعضاء ولكل واحد منهما منفعة خاصة في المعالجة، الأمر الحسي: من الأعضاء ما هو قوي كاللحم الأحمر ومنه ما هو قليل الحس كاللحم الغددي[2].

و " أن يكون ملماً بأصول المهنة وأعرف ما تحتاج إليه هذه الوظيفة وأجبر كل كسر وشد كل أسر[3] وخط كل فتق وقو كل رتق[4]، وداو الكلوم[5] باللطف فإن إفراط القوة في الدواء يلحقه بالسموم وأعمل على حفظ الأعصاب وشد الأعضاء حتى يتمكن من معالجة المصاب والتوقي في كل أعماله فإنه في صناعة كلها خطر، وجميع أمورها مغنية لا يوقف لها على خبر وليبادر ما يفوت ولا يكلم أحداً ما حسن للسان، حديد السكوت، وليحذر قطع شريان ما قطع إلا ينزف دم صاحبه حتى يموت وليعد معه ما يكون لإخراج النصال "[6].

وكان يشترط في " الجرائحي أن يكون عالماً بالتشريح، ومنافع الأعضاء ومواضعها ليتجنب في فتح المواد، قطع الأعصاب، وأطراف العضل والأوتار والألياف "[7].

أما عن هيئة التشريح " فتشريح العظام والمفاصل ونحوهما فيسهل في الميت من أي سبب كان موته، وأسهل ذلك إذا مضى على موته مدة فني فيها ما عليه من اللحم وبقيت العظام متصلة بالأربطة ظاهرة، فإن ذلك لا يفتقر إلى عمل كبير حتى يوقف على هيئته عظامه ومفاصله، وأما تشريح القلب والشرايين، والحجاب والرئة، ونحو ذلك يتوقف على كيفية حركتها، وهل حركة الشرايين مصاحبة لحركة القلب، أو مخالفة وكذلك حركة الرشة مع حركة الحجاب، ومعلوم أنه

---

[1] ابن ابي اصيبعة، عيون، ص577. وتسمى هذه الطريقة حالياً بـ " الدوش الإيرلندي". الجاسر، التخدير، ص 628.

[2] ابن القف، العمدة ،ج1، ص164، 167.

[3] أسر: أَسَرَه يَأْسِره أَسْراً وإِسَارةً شَدَّه والإِسَارُ ما شُدَّ به والجمع أُسُرٌ. ابن سيدة، المحكم ،ج8،ص543.

[4] رتق: الرَّتْقُ إلحام الفتق وإصلاحه. الفراهيدي، العين ،ج5،ص126. وهو ضدُّ الفتق. الجوهري، الصحاح، ج 4،ص1480.

[5] الكلوم: كلم: الكلام: الجراحات، واحدها كلم، وقد يقال: الكلوم في الجمع. ابن فارس، مجمل، ص 769.

[6] العمري، التعريف ، ص140، انظر : أمين، الأوقاف، ص177.

[7] ابن بطلان، دعوة ، ص 46. ابن النفيس، شرح ، ص21.

إنما يوقف عليه في تشريح الأحياء، ولكن يعسر ذلك بسبب اضطراب الحي لتألمه، وأما تـشريح العروق الصغار التي في الجلد، وما يقرب منه فيعسر في الأحياء، وكذلك في الموتى الذين مـاتو بمرض ونحوه خصوصاً إذا كان من الأمراض يلزمه قلة الدم والرطوبات فتختفي تلك العروق، كما في الإسهال والدم والنزف، وأسهل تشريح تلك ما يكون في ميت مات بالخنق، لأن الخنق يحـرك الدم والروح إلى الخارج فتملتلئ تلك العروق وتنتفخ، ويلزم أم يكون ذلك عقيب الموت لأن الزمان إذا طال جمد ما يكون في تلك العروق من الدم فيقل حجمه، ويلزم ذلك نقصان انتفاخ العروق "[1].

وكان الجرائحيون يعرفوا أعضاء الإنسان وما فيه من العـضل والعـروق والأعـصاب ليتجنبوا قطع أي من تلك الأعضاء عند فتح المواد وقطع البواسير[2].

وكان الجرائحي من أهم الأطباء لاتساع مجال عمله مـن استئـصال الأورام واسـتخراج الحصى وتفتيتها، وجراحات الأنف والفم والأسنان وغيرها[3]، وقد أجرى الجـراحيين المـسلمين العديد من الجراحات مثل جراحات النساء بأنواعهـا المتعـددة[4]، وجراحـات العيـون والفتـق والمقعدة[5]، وتفتيت الحصوات[6]، وقد استخدموا في خياطة الجروح الخيوط المصنعة من أمعـاء بعض الحيوانات، وبخاصة القطط[7].

ويوضح ابن القف أنواع الجروح الحادثة في الرأس، بتقسيم يدل علـى دقـة الملاحظـة والوصف السريري، فيقول: " فإن وقعت الجراحة في الرأس فإنها تعرف بالسجة وأقسامها سـتة، الصادعة، الهاشمة، والوضحة، والمنقلة والمأمونة، والجائفة، أما الصادعة: فهي التي ليس فيها إلا صدع فقط ، والهاشمة: هي التي يتهشم فيها نحف الرأس، والواضحة: هي التي يوضح فيها العظم أي التي يتبين بياضه، والمنقلة: و هي التي يخرج فيها العظم، والمأمونة: هي التي تبلغ فيها الآفـة

---

[1] ابن النفيس، شرح ، ص30.

[2] ابن الأخوة، معالم ، ص169. ابن بسام، نهاية ، ص122، 123. الخطيب، الطب ، ص281. الفقي، تاريخ ، ص355. الحجي، صور ، ص222.

[3] الجمل، الحضارة، ص 121.

[4] ابن سينا، القانون ، ج2، ص584. الزهراوي، التصريف، ج2، ص116-119.

[5] ماجد، تاريخ ، ص245.

[6] ابن أبي أصيبعة،عيون، ص 593. وانظر:الذهبي، تاريخ ،ج49،ص324.الكتبي، فـوات ،ج4،ص250. ابـن حجر، إنباء ،ج4،ص27.السخاوي، الضوء،ج3،ص24. عاشور، فضل ، ص58.

[7] ديورانت، قصة ، ج 14، ص51.

إلى أم الدماغ، والجائفة: هي التي تبلغ فيها الآفة إلى تجويف الدماغ "[1]. وهذا التقسيم يدل على دقة الملاحظة والوصف والتفصيل في الأعراض، وهذا ينطبق على معظم الأعضاء والجراحات.

ومن أمثلة ما قام به الجرائحيون في العهد المملوكي من الجراحات الناجحة، ما حدث سنة (758هـ/1356م)، حيث هجم مملوك يقال له: (آي قجا) على شيخو الناصريّ[2] وجرحه بالسيف في وجهه وفي يده، وأحضروا الجرائحية وقطبت جراحات شيخو[3].

و في 12 رمضان سنة (737أو738هـ/14إبريل1337أو1338م) جرح القاضي شرف الدين النشو عبد الوهاب بن فضل الله ناظر الخاص، وكان سبب جرحه أنه " ركب على عادته فلما كان خلف الميدان عند أوله إلى جهة البحر لحقه فارس يطرد فرسه وبيده سيف مشهور فقال له عبده من ورائه يا سيدي جاءك فالتفت فرأى السيف مسلولا، قال لي: فرفست البغلة لأحيد عنه فأخذتني إليه فضربه على عضده اليسار وعلى جنبه إلى مربط لباسه ثم تقدمه وضربه أخرى إلى خلف فرفعت البغلة رأسها فجاء إلى حجاج عينها وبعض أذنيها وسقطت عمامته إلى الأرض فتوهم أنه رأسه وساق وتركه فرجع إلى البيت فقطب الجرائحي رأسه بستة إبر وجنبه باثنتي عشرة إبرة ولو لم أر ذلك لم أصدقه فإن الناس ادعوا أنه ادعى ذلك "[4].

وحين جرح طرباى طلب الأمير برسباي في الحال المزيّن وأرسله إليه فخاط جراحه بعد ما قيّده "[5].

وقد تعلل الشيخ برهان الدين أبو إسحاق محمد بن ميكائيل العثماني الصعيدي القصوري "بمرض في باطنه عظم منه توهجه ثم ظهر له خراج في مقعدته حتى نقل عن الجرايحي الذي كان يعالجه أنه طاعون فزاد به الأمر وشب في أحشائه اللهيب مع ضيق النفس ومات "[6].

---

[1] ابن القف، العمدة، ج2، ص101.

[2] شيخو الناصريّ: تقدم في أيام المظفّر واستقرّ في أول دولة الناصر حسن، من رؤوس أهل المشورة، ثم كاتب القصص، إلى أن صار زمام الملك بيده وعظم شأنه. انظر ترجمته في: ابن تغري بردي ،النجوم ،ج10،ص 305. ابن العماد، شذرات ، ج8، ص 315.

[3] المصادر نفسها، نفس الاجزاء و الصفحات.

[4] الصفدي، الوافي ،ج19،ص 218؛ أعيان ،ج3، ص 204.

[5] الصفدي، الوافي ،ج19، ص218.

[6] السخاوي، الضوء،ج1،ص47.

وفي سنة (882هـــ/1477م) حاول أحمد بن النابلسي قتل نفسه فأدركوه وقد حز بطنـــه من الناحية اليمنى فطلب الأطباء والجرايحية وقطبوه وقالوا لا تطول حياته وجرح نفـــسه يومئـــذ جراحات أخرى والتأمت جراحاته آخر الشهر[1].

ومن أشهر الأطباء في هذا التخصص في العصر المملوكي، أبو الفـــرج بـــن القـــف (ت 685هـــ/1286م) الذي ألف كتاب العمدة في صناعة الجراح عشرين مقالة علم وعمل يذكر فيـــه جميع ما يحتاج إليه الجرائحي بحيث لا يحتاج إلى غيره[2].
كما كان ياسين المغربي الحجام الأسود (ت687ه/1288م) " جرائحيًا على باب الجابية "[3].

وتخصص الطبيب صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن إبـــراهيم بـــن ســـليمان المقدســـي المعروف بابن البرهان الجرائحي، بالجراحة[4]، وقد تعلمها على يد والده الذي كان جرائحيـــا[5]، " وقرأ الطب على العماد النابلسي، ثم على الشيخ علاء الدين بن النفيس،...، ثم بالتصرف في الطب، وكان فاضلا في فروع الطب "[6].

وكانت حرفة أسد الحكيم اليهودي المعروف بالسيدة، تصغير أسدة، " التـــي يتكـــسب بهـــا الجراح مع مشاركة في الطب والكحل، ولم يُر أقدم منه على الجراحة في جبر ما يكسر من العظم ويُهاض[7]، باشر الجراحات العظيمة للأمراء الكبار مثل الأمير بدر الدين بيدرا[8] ناظر الأشـــرف على عكا،

---

[1] البصراوي، تاريخ ،ص 83.

[2] ابن ابي اصيبعة، عيون ،ص 768.اليونيني، ذيل ، ج4،ص 322. الصفدي، الوافي، ج28، ص 86. الزركلي، الأعلام، ج8، ص 196.

[3] ابن خلدون، تاريخ، ج3، ص365. ابن الوردي ، تاريخ، ج2، ص227. ابن العماد، شذرات،ج7،ص704.وباب الجابية أحد أبواب مدينة دمشق. الحميري، الروض، ص240.

[4] العمري، مسالك ،ج9،ص 282. ابن رافع ، الوفيات ،ج1،ص 429.

[5] الصفدي، اعيان ،ج4،ص 222؛ الوافي، ج2، ص19.

[6] الصفدي، اعيان ج4،ص 222.

[7] يهاض: هيض: هاض الشيء هيضا: كسره. وهاض العظم يهيضه هيضا فانهاض: كسره بعد الجبور أو بعد ما كاد ينجبر، فهو مهيض. واهتاضه أيضا، فهو مهتاض ومنهاض. ابن منظور، لسان، ج7، ص249.

[8] بدر الدين بيدرا: المَقَرّ العالي، نائب المملكة الأشرفية، بدر الدِّين. كان من أعزّ الناس عند أستاذه السلطان الملك المنصور. وكان من كبار المقدّمين فِي دولته. فَلَمّا تملك الملك الأشرف جعله أتابك. وكان يرجع إلى دِين وعـــدْل. الذهبي، تاريخ، ج 52،ص178. الصفدي، الوافي،ج10،ص224.

ومثل الأمير علم الدين سنجر الدواداري[1]"[2]. والطبيب ثابت بن محمد بن أحمد العزازي الجرائحي، ولد في شعبان سنة (726ه/ 1325م)[3]، و شفارة المعلم الجرائحي[4]، ويونس المزين الجرائحي[5]، ومحمد المزين بن إبراهيم بن بركة الجرايحي الدمشقي تـوفي سـنة (811هـ / 1408م)[6]. ومنهم " جمال الدين عبد الله بن عبد الحق بن إبراهيم بن رئيس الأطباء شمس الـدين القاهري ويعرف بابن عبد الحق، دخل في صغره مع أبيه الشام في خدمة الناصر فرج[7] وتميز في صناعته، وتقدم في أيام الأشرف أينال[8]، وتدرب على يديه جماعة، ولكن كان عنده طيش وجرأة في صناعته، ولم ينفك مع سنه عن ملازمة البيمارستان كل يوم ولا عن تعاطي قليل من شـرابه لحفظ قوته، زعم وكان يحكى في عدوله عن صناعة أبيه إلى غيرها أن والده استكثر ما نقط بـه المزين الذي ختن ولد الناصر في حياته بالنسبة لما يحصل للأطباء فأحب أن يكون ابنه جرائحيـا، مات في ربيع الأول سنة (891هـ"/[9] مارس1486م).

وكانت عمليات الختان من العمليات الجراحية المألوفة في العصر المملوكي، وكان يقـوم بإجرائها المزين وفق أجواء من الفرح، وبعد أن تتم العملية يقوم المزين بسقي الطفل شراباً مـذاباً

---

[1] علم الدين سنجر: الدواداري الأمير الكبير التركي الصالحي من نجباء الترك وشجعانهم وعلمائه، وله مـشاركة جيدة في الفقه والحديث وفيه ديانة وكرم،(ت699هـ/ 1299م). انظـر ترجمتـه فـي: ابـن خلـدون، تـاريخ، ج3،ص399.ابن العماد، شذرات،ج 7،ص783.

[2] الصفدي، أعيان ،ج1،ص489؛ الوافي ،ج9،ص7.

[3] السخاوي، الضوء ،ج3،ص50.

[4] المصدر نفسه، ج3،ص306.

[5] المصدر نفسه، ج10، ص 346.

[6] الغزي: ديوان ،ج4، ص 217.

[7] النَّاصِر فَرَج (791 - 815 هـ/1389 - 1412 م): فرج (الملك الناصر) ابن برقوق (الظاهر) ابن أنـص (أو أنس) العثماني، أبو السعادات، زين الدين: من ملوك الجراكسة بمـصر والـشام.انظـر ترجمتـه:.ابـن حجـر، إنباء،ج2،ص530-531.ابن تغري بردي، النجوم،ج12، ص168، وما بعدها.الزركلي،الأعلام، ج5، ص140.

[8] الأَشْرَف أينال (784 - 865 هـ / 1382 - 1461 م): أينال (الملك الأشرف) أبو النـصر، سـيف الـدين، العلائي الظاهري: من ملوك دولة الجراكسة بمصر والشام والحجاز. جركسي الأصل، وتقدم في الخِدَم العـسكرية إلى أن كان نائب الرها(سنة836ه/1432م) فنائب صفد (أي حاكمها بالنيابة عن السلطان) ثم أتابكـا (قائـدا عامـا للجيش) في أيام الظاهر جقمق سنة (849ه/1445م) وتوفي جقمق، وخلفه ابنه المنصور عثمان، فخلعه أمراء الجيش ونادوا بسلطنة اينال (سنة 857ه/1453م) فتلقب بالملك الأشرف. ابن تغري بردي، النجـوم، ج16، ص57، ومـا بعدها. السيوطي، نظم ،ص 93. الزركلي، الأعلام ،ج2،ص35.

[9] السخاوي، الضوء ،ج5، ص22-23.

بالماء[1]. وقد وصل أجر أحد المزينيين إلى مائة دينار ذهبية بعد أن قام بختان ابن السلطان في سنة(827هـ/ 1423م)ـ[2].

ومما سبق يمكننا معرفة ما وصلت إليه الجراحة من تقدم واضح وملموس في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي.

3- طب وجراحة الفم و الأسنان:

على الرغم من أن طب الأسنان لم يظهر فرعاً قائماً في الطب العربي، ولم يتفرغ له متخصصون فيه وحده، إلا أن أطبائهم جميعاً قد خصوه من الاهتمام بمثل ما بذلوه لفروع التخصص الأخرى[3].

وقد كان قلع الأسنان من أساليب العقاب التي استخدمها المماليك في ردع المجرمين وغيرهم، كما حدث فعلا في سنة (749هـ/1348م) حيث " قبض على الشيخ عليّ الكسيح نديم الملك المظفّر حاجّيّ، وضرب بالمقارع والكسّارات ضربا عظيما، وقلعت أسنانه وأضراسه شيئا بعد شيء فى عدّة أيام "[4]. ويبدو من ذلك استشعارا لأهمية الأسنان في حياة الإنسان كما هو معلوم.

4- الفصادون و الحجامون:

الفصد هو: إخراج الدم من عرق في اليد، وهو نوعًا من أنواع المداواة، ويقال للقائم به: "الفصاد"، وقد يقوم بذلك الأطباء، وقد استعمل نوع من الديدان في امتصاص الدم كذلك، وذلك كنوع من أنواع المعالجات الطبية[5]، ويستعمل الفصاد المبضع في الفصد أيضا[6].

وقد وضع ابن النفيس شروطاً للفاصد يجب أن يتحلى بها، فيقول[7]: أحدها: أن يكون عارفاً بالتشريح ليعرف مسالك الروح وأوضاعها، وما يجاور كل واحد منها من العضلات والأعصاب والشرايين.

---

(1) أبن حجر، إنباء ،ج3،ص 199-200. المقريزي، السلوك ، ج6، ص497.ابن طولون، مفاكهة ،ص400. ابن العماد، شذرات ،ج9،ص 224.

(2) أبن حجر، إنباء ،ج3،ص 325.

(3) حسين ، الموجز ، ص197.

(4) ابن تغري بردي ، النجوم ،ج10،ص 191.

(5) علي، المفصل، ج14،ص 272،

(6) العمري، مسالك، ج24، ص245.الصفدي، الوافي ،ج3، ص99. أورد له ابن رشيق قوله ملغزا في مباضع الفصد: (وصغار كأنها ألسن الطي ... ر تميت المقدامة الضرغاما) الصفدي، الوافي ،ج3،ص99.

(7) ابن النفيس، شرح، ص39-36.

ثانيها: أن لا يفصد في مكان مظلم ليدرك العرق، ويعرف كيف يضع المبضع.
وثالثها: أن يأمن المفصود أن لا ينظر في دمه الخارج، فإن من الناس من إذا نظر إلى ما يخـــرج له من الدم حصل له غشي، وبذلك تخور قواه، وتضعف نفسه.
ورابعها: أن يتعاهد تنقية دماغه، وذلك ليدرك العروق إدراكاً تاماً.
وخامسها: أن لا يقدم على فصد صبي صغير خوفاً من إخراج مادته الغريزية المحتاج إليهـا فـــي النمو، ولا على شيخ خوفاً على نقصان دمه المحتاج إليه في تقوية حرارته، ولا طامث وحبلى، إلا بعد إذن من ولي أمره.
وسادسها: أن لا يقدم على فصد من كانت معدته وكبده ضعيفين، ولا من كان مستعداً لسوء الهضم، وإطلاق البطن، والوقوع في الأمراض الباردة الساذجة، كل هذا خوفاً من إخراج المادة المـــسخنة للبدن.
وسابعها: أن يوسع الفصد في زمان الشتاء، وفي الأبدان العليلة، وعند كون المواد غليظة، وذلـــك ليخرج ما يحتاج إلى خروج وتصفية في زمان الصيف، وفي الأبدان الضيقة، وعند كون الأخـــلاط رقيقة وذلك للخوف من الإفراط في الخروج.
وثامنها: أن يكون المبضع نقياً من الصدأ والنمش، مسقى تسقيةً جيدةً، ولا تكون شعيرته رقيقةً ولا مدورةً، وذلك ليسهل تفرق اتصال الجلد والعرق بها.
وتاسعها: أن يكون فصده للعروق الفضلية طولاً إن أريد تأخير التحامها، وعرضاً أن يزيد ثنيتهـــا بسرعة أو وراباً لتكون حركة العضل مانعةً من التحامها، ولغير الفضلية طولاً إن أريـــد ســـرعة التحامها.
وعاشرها: العضد وذلك لأنه يؤلم، والألم ينبه إلى إرسال الدم إلى العضو المتألم لأن يشفيه على ما يبدأ.
والحادي عشر: أن يجعل خروج الدم بسبب الحاجة واحتمال القوة، فإن من الأمراض ما يخرج فيها الدم إلى حين يعرض الغشي كالخوانيق والحميات الدموية، فإن لم تكن القوة ها هنا قويةً لاحتمـــال القوة عائدة إلى الطبيب المباشر، فليجس النبض دائماً ويتأمل حركاته، ومنها ما ينبغـــي أن يكـــون خروج الدم منها فيه، عند فصد صاحبه، بقية يتحلل بحركته.
والثاني عشر: أن لا ينظر إلى وجه امرأة عند فصدها ولا يطيل جس زندها وعضدها بـــل يكـــون جسه العرق فقط.
والثالث عشر: أن يكون ديِّناً في دينه، طاهر الذيل، مراقباً اللّه عز وجل.
والرابع عشر: أن يكون لطيف الأنامل وناعمها، لا يعمل بها أعمالاً خشنةً، وذلك ليكـــون مـــسكه المبضع، وجسه للعروق.

والخامس عشر: أن يكون مهيأ عنده ذرور قاطع للدم يستعمله عندما يسرف خروج الدم، كمـــا إذا وقعت الجراحة في الشرايين.

وكان لا ينبغي أن يتصدى للفصد إلا من اشتهرت معرفته وأمانته وجودة عملـــه بتـــشريح الأعضاء والعروق والعضل والشرايين وأحاط بمعرفتها وكيفيتها لئلا يقع المبضع في عروق غيـــر مقصودة أو عضلة أو شريان فيؤدي إلى زمانة العضو وهلاك المفصود[1]، ومن أراد تعلم الفـــصد فليدمن بفصد ورق السلق حتى تستقيم يده[2].

ويجب ألا يحدث الفصد في عشرة أمزجة إلا بعد مشاورة الأطباء وهي: في السن القاصرة عن الرابع عشر، في سن الشيخوخة، وفي الأبدان شديدة اليبس، في الأبدان المتخلخلة، في الأبدان البيض الرهلة، في الأبدان الصفر عديم الدم، في الأبدان التي طال بها المرض، في الأمزجة شديدة البرد، عند الوجع الشديد[3].

ونهى الأطباء عن الفصد في خمسة أحوال: عقد الجماع، بعد الاستحمام في حلة الامـــتلاء من الطعام، في حالة امتلاء المعدة والأمعاء من الثقل، في حالة شدة البرد والحر[4].

كما يجب عدم فصد المرأة في أثناء فترة الحمل فالفصد يوجب الإسقاط في كل وقت بخلاف الإسهال، لأن الفصد يخرج الدم هو مادة تكون الجنين[5].

وعلى الفاصد أن يوسع ضربة الفصد في فصل الشتاء لئلا يجمد الدم ويضيق الضربة فـــي فصل الصيف لئلا يسرع إليه الغشاوة وعلى الفاصد أن يحفظ صحة قوة المفصود فمتى تغير لـــون الدم أو حدث غشى أو ضعف في بدن المفصود بادر الفصاد إلى شيء ومسكه[6].

وكان الفصادون يستخدمون بعض الأعشاب العلاجية كاالمبرودين، التي " تنفع إذا استعملت بالخل بعد الفصد والحجامة تفتح سدد الكبد، وتنقي مجاري الكلى "[7].

---

[1] ابن الأخوة، معالم ، ص159. ابن بسام، نهاية ، ص110. ابن القف، العمدة ، ج1، ص167.

[2] ابن الأخوة، معالم ، ص158. ابن بسام، نهاية ، ص110.

[3] المصدر نفسه ، ص158. المصدر نفسه ، ص110.

[4] المصدر نفسه ، ص161. المصدر نفسه ، نفس الصفحة.

[5] ابن النفيس، شرح ، ص377. ابن الأخوة، معالم ، ص159.

[6] ابن الأخوة، معالم ، ص161. ابن بسام، نهاية ، ص 113.

[7] العمري، مسالك ،ج22، ص 78.

وكان يشرف بالطبع رئيس الجرائحية على الفصاد، ويراقب المحتسب عملهم ويعتبرهم في مهمتهم في أي وقت، وذلك باعتبار معرفتهم بالعروق الموجودة في البدن وفي الرجلين وكذا في العــروق الموجودة في الشرايين[1].

أما الحجامة: فهي فعل حجم، وهي شرط الجلد وإخراج الدم منه في قــارورة الحجامــة، وهي المحجمة، والفرق بين الحجامة والفصد أن الحجامة تنقي سطح البدن أكثر من الفصد، أمــا الفصد فيكون لأعماق البدن أفضل، والحجامة تجذب الدم من نواحي الجلد، والتحقيق فــي أمرهــا وأمر الفصد أنهما يختلفان باختلاف الزمان، والمكان والأسنان، والامزجة فالبلاد الحارة والأزمنــة الحارة والامزجة الحارة التي دم أصحابها في غاية النضج، الحجامة فيها أنفع من الفصد بكثير فإن الدم ينضج ويرق ويخرج إلى سطح الجسد الداخل، فتخرج الحجامة مالا يخرجه الفصد لذلك كانت للصبيان أنفع من الفصد، وكذلك لمن لا يقوى على الفصد، ولذلك قيل أن البلاد الحارة للحجامة فيها أنقع من الفصد[2].

وقد اشترط في الحجام: أن يكون خفيفاً رشيقاً خبيراً بصناعة الحجامة وعلامة خفــة يــد الحجام ألا يوجع المحجوم[3].

وحدد الأطباء الوقت المناسب الذي يحتجم فيه، فإن أفضل وقت للحجامة الــساعة الثانيــة والثالثة من النهار، من منتصف الشهر لأن الأخلاط تكون هائجة، أما في أوله فتكــون الأخــلاط ساكنة، وفي آخره تكون الأخلاط تناقصت[4].

5- الكحالون (أطباء العيون) :

هم الذين يشتغلون بصناعة الكحل[5]، وهو من فروع علــم الطــب وغرضــه، ونفعــه: ظاهران[6]. وقيل الكحالون هم أطباء العيون الذين يتصدرون لعلاج العين ومداواتها[7].

وهو من التخصصات الطبية التي برع فيها الأطباء فــي عــصر ســلاطين المماليــك و" موضوعها أعين الناس بما هي قابلة للصحة ومقابلها، ومقصودها حفظ صــحة العــين موجــودة،

---

[1] ابن الأخوة، معالم ، ص161. ابن بسام، نهاية، ص 114. انظر: أحمد، الحضارة ، ص152.

[2] ابن القيم، الطب، ص38.

[3] ابن الأخوة، معالم ، ص163، ابن بسام، نهاية ، ص117، انظر أيضاً: أحمد، الحضارة ، ص284.

[4] الحموي، الأحكام ، ج1، ص91.ابن القف، العمدة، ج1، ص176. ابن الأخوة، معالم ، ص163. ابــن بــسام، نهاية ، ص117، 118.

[2] ابن النفيس، المهذب ، ص42-43. انظر:زادة، المفتاح، ج1، ص285.

[6] القِنَّوجي، أبجد ، ص 479. خليفة، كشف ، ج2، ص 474. انظر: زادة، المفتاح، ج1، ص285.

[7] ابن الأثير: اللباب، ج2، ص30.

وإحداثها مفقودة، وإنما يتم ذلك لمن عرف أجزاء العين ومزاجها وخلفها، وعرف صحتها وأنـــواع أمراضها، وعرف الأسباب التي بها يمكن ذلك الحفظ وعرف العلامات التي بها صحة العين، فذلك وجب اشتماله الجزء النظري من تلك الصناعة على تلك المعارف الأربع، وأما الجــزء العملــي: فيشتمل على علم حفظ صحة العين وعلاج أمراضها، وتلك الصناعة بجزأيها جزء مــن صــناعة الطب لأن نظرها في بعض ما ينظر فيه الطب مع اتحاد الجهة والمقصد، وإنما اختــصت العــين بصناعة دون باقي الأعضاء لصعوبة أمراضها وأوجاعهــا، والاضــطرار فــي عمــل أدويتهــا واستعمالها إلى خبرة تامة "[1]. وذلك التخصص من التخصصات الصعبة لذلك يجب المحافظة على العين أثناء إجراء معالجتها لأنها " أشرف الحواس الخمس والجوارح التي لولاها لم تعرف حقيقــة ما يدرك بالسمع والذوق والشم واللمس وهي العين التي تفدى بالعين وتقي ساعة البين وقد جعلت منها المعالجة أشرف الأعضاء وأشرف إنسان يحيط بكل الفضاء فاجعل عليها من مداراتك الواقية وابق بها من حسن الأثر ما يرى والعين باقية وتلطف بها في العلاج وأرفق بها فإنها من طبقــات منها الزجاجية ومنها شبيه الزجاج ولا يقدم عليها بمداواة حتى يعرف حقيقة المرض والسبب الذي نال به ذلك الجوهر العرض ثم داوها مداواة تجلو بها القذى عن البصر "[2].

ولقد عرف الأطباء القدامى الكثير عن العين وتشريحها وعلاج أمراضها وساعدهم علــى ذلك أن عين الحيوان لا تختلف عن عين الإنسان وأغناهم ذلك عن تشريحها في جــسم الإنــسان، الأمر الذي كانوا يتحرجون منه ولكنهم أخطئوا في شرح وظائف أجزائها، والأصل في هذا الخطأ أنهم كانوا يعتقدون أن روح الإبصار تخرج من العين إلى المرئيات وهو ظن عجيب ظل شــائعاً عدة قرون مع وضوح الخطأ فيه[3].

وفي العصر المملوكي زاد الاهتمام بطب العيون حيث أنه من المعروف أن الحاجة هي أم الاختراع، فقد كثرت أمراض العيون بمصر والشام نتيجــة لظــروف المنــاخ وارتفــاع درجــة الحرارة[4]، وهو ما دفع مجموعة كبيرة ممن كانوا يريدون تعلم الطب إلى الإقبال على دراسة طب العيون أو ما يعرف بالكحالة في ذلك الوقت.

---

[1] ابن النفيس، المهذب ، ص42-43.

[2] العمري، التعريف ، ص139. انظر: أمين، الأوقاف، ص177.

[3] حسين ، الموجز ، ص175.

[4] ابن النفيس: المهذب، ص 14، طوقان: العلوم، ص19.

وانكبوا على دراسة تركيب العين من خلال تشريح عيون بعض الحيوانات باعتبارها قريبة في تكوينها من عين الإنسان[1] ومن خلال ذلك عرفوا تركيب العين وطبقاتها وأجزائها المختلفة[2]، كما عرفوا مزاج العين[3] وعلامات صحتها ومرضها وميزوا بين الأمراض المختلفة التي تصيبها[4]، وكان الطبيب الكحال ينصح مرضاه بضرورة حفظ صحة العين وذلك بصيانتها مما يضر كالغبار، أو الدخان، أو الأهوية الخارجة من الحر والبرد، وكذلك أن لا تتعرض العين للبكاء والنوم على القفا، والسكر، وكثرة الجماع والامتلاء من الطعام، والنوم عقب تناول الطعام والنوم والسهر المفرطين[5].

وقد توصل ابن النفيس في هذا العلم إلى نتائج لم يتوصل إليها أي من أطباء الكحالة قبله؛ فهو أول من وصف تفاوت التشنج ورؤية الأشياء أصغر مما هي عليه في المرضى المتسعة حدقاتهم، وأوضح أن سبب ذلك هو: أن شبح المرئي يقع حينئذ على الروح وهي متخلخلة، فإذا نقلته إلى أمام القوة الباصرة عادت إلى مقدارها الطبيعي لمفارقة القاسر[6] لها على التخلخل فتتكاثف ويلزم ذلك صغر التشنج[7].

كما توصل ابن النفيس إلى أن للمقلة سبع طبقات وهي "الدائرة الأولى: الصغرى هي: منطقة جليدية، والثانية: هي نهاية الرطوبة الزجاجية، والثالثة: هي نهاية الطبقة الشبكية، والرابعة: هي نهاية الطبقة المشيمية، والخامسة: هي نهاية الطبقة الصلبة، والسادسة: هي ما ينفصل بالسطح المتوهم من الأوتار المطبقة بالمقلة، والسابعة: هي نهاية الداخلة للطبقة البيضاء التي تسمى الملتحمة[8].

---

[1] ابن النفيس، المهذب، ص 2. عبد الرازق، الحضارة، ص157.

[2] ابن النفيس: المهذب، ص2. وقد قسم العلماء المسلمون طبقات العين إلى سبع طبقات وثلاث رطوبات فيكون المجموع عشرة ، انظر: حسين، الموجز، ص175-178.

[3] مزاج العين: هو كيفية حاصلة من تفاعل الكيفيات المتضادة إذا تفاعلت بقواها بعضها في بعض، حدث عن جملتها كيفية متشابهة في جميعها هي المزاج . انظر: ابن سينا، القانون ، ج1، ص6. الأنطاكي، تذكرة، ج1، ص9.

[4] قاسم، الطب ، ج1، ص9.

[5] ابن الأكفاني، كشف، ورقة 8 .

[6] القاسر: فِي اللُّغَة الْمَانِع وَعند الْحُكَمَاء مَا كَانَ تَأْثِيره على خلاف مُقْتَضى طبع الشَّيْء وَقد يُرَاد بِهِ الْأَمر الْخَارِج عَن الشَّيْء مُطلقًا سَوَاء كَانَ اقتضاؤه على مُقْتَضى طبعه أَو خلاف مُقْتَضَاهُ. انظر: الأحمد نكري: دستور، ج3، ص39.

[7] ابن النفيس، المهذب، ص412.

[8] المصدر نفسه ، ص67، 68.

ويقول ابن النفيس في صدد ذلك الاكتشاف: " وقوم منعوا أن تكون الشبكية طبقة لأن جوف الطبقة غشائي، وهذه جوهرها عصباني، وقد عد قوم المشيمية والعنبية طبقة واحدة، وكذلك الصلبة، وكذلك القرنية، وليس في نصرة شيء من هذه الآراء كبير نفع "[1].

كما أوصى ابن النفيس أطباء العيون عند أجراء العملية الجراحية بضرورة رؤية العين للشمس " قبل القدح أن يكون العليل يرى الشمس أو السراج، فإن هذا يدل على صفاء الماء والسلامة من السدة "[2]، وأوصى أيضاً بضرورة استعمال ريشة كدليل قبل إدخال المقدح إلى العين وذلك تحاشياً لإدخال الأدوات الجراحية مراراً واحتمال حدوث تلوث العين، أن تثقب العين أولاً بريشة دقيقة تسمى الدليل ثم تخرج ويدخل رأس المهت في موضعها[3].

ولقد ظهر اهتمام الأطباء في العصر المملوكي في هذا المجال من خلال مؤلفاتهم وكتبهم، ومن المراجع المهمة المحيطة في أمراض العيون كتاب: " نور العيون "[4]، لصلاح الدين بن يوسف الكحال (ت 696هـ/1296م)، وقد أورد موقع الحضارة الإسلامية الالكتروني[5] أن هذا الكتاب: يعد مرجعا تاريخيا موسوعيا في طب العيون، فقد جمع فيه مؤلفه كل ما ورد في طب العيون في أربعة وتسعين مرجعا عربيا ويونانيا وفارسيا، وعن واحد وثلاثين كتابا وأقرباذين[6] فقد معظمها واندثر، فأنقذ حصاد طب العيون في العالم القديم والوسيط من الضياع والاندثار، وقد نسب مؤلفه كل ما أخذه من معرفة إلى القائلين بها من الأطباء. وأضاف إلى ذلك كله حصاد خبرته العملية في ممارسة مهنة الطب، ويمتاز كتاب نور العيون وجامع الفنون عن غيره من الكتب الأخرى في طب العيون بأنه يعتبر بحق تلخيصا لكل ما كتب قبله في طب العيون، وأن مؤلفه قد عزى كل معلومة إلى مصدرها، تقديرا لعلم الأوائل، واعترافا بفضلهم، وأنه حسن الترتيب والتنسيق، وهو أمر نفتقده في جل الكتب القديمة، وأنه أول كتاب – فيما نعلم – يحوي رسما توضيحيا لتشريح العين، وذلك برسم مقطع للعين في نهاية المقالة الأولى من كتابه، وأنه وضع رسوما توضيحية لثماني عشرة آلة جراحية، والغريب أنه لم

---

(1) ابن النفيس، المهذب، ص70.

(2) المصدر نفسه، ص326.

(3) المصدر نفسه، ص433.

(4) خليفة، كشف ،ج2، ص1983.

(5) http://www.alhadarh.com/news.php?action=view&id=575

(6) الأقراباذين علم يبحث فيه عن جمع وانتخاب الجواهر الدوائية وتحضيرها ومزجها وتهيئتها للاستعمال الطبي بقطع النظر عن الظواهر الكيماوية التي قد تظهر مدة هذه العمليات. القنوجي، أبجد، ص430. افانديك، إكتفاء القنوع، ص182.

يوافق في أي منها معاصره خليفة الحلبي[1]، و يضـــم الكتـــاب بيـــن دفتيـــه مقدمـــة شرح فيهـــا هدف تأليفه الكتاب، وهو أن يكـــون قانونا يعتمد عليه ويغني الباحث عن مراجعة الكتب الأخـــرى في علم طـــب العيـــون، ويجـــمع فيه بين الخبرة النظرية والتطبيقية لهذا العلم، وتحدث أيضا في تلك المقدمة عن منهج الكتاب وعدد مقالاته وما تشتمل عليه.

ويتكون الكتاب من عشرة مقالات، تنقسم كل منها إلى أبواب:

المقالـــة الأولـــى: حـــد العيـــن وطبيعتها، وتشريح أجزائها، وتشريح الجفن. وبها ثلاثة وعشرون بابا.

المقالة الثانية: البصر، وكيفية الإبصار ومذاهب الحكماء فيه. وبها خمسة أبواب.

المقالة الثالثة: أجناس الأمراض وأسبابها وعلاماتها وأوقاتها وكيفية استعمال الأدوية والقوانين التي يجب على الطبيب أن يستعملها عند الاستعداد لإجراء العلمية، وبها تسعة أبواب.

المقالـــة الرابعة: قوانين حفظ صحة العين ثم أمراض جفن العين وأسبابها وأنواعها ومداوتها. وبها خمسة وعشرون بابا.

المقالة الخامسة: أمراض مأق العين وأسبابها وأنواعها ومداواتها. وبها أربعة أبواب.

المقالة السادسة: أمراض الطبقة الملتحمة بالعين وأسبابها ومداواتها. وبها اثنا عشر بابا.

المقالـــة الســـابعة: أمـــراض الطبقة القرنية بالعين وأسبابها وأنواعها ومداواتها. وبها اثنا عشر بابا

المقالـــة الثامنـــة: أمراض الطبقة العنبية بالعين والماء العارض في وجه حدقة العـــين وأســـبابها وأنواعها ومداواتها. وبها خمسة أبواب.

المقالـــة التاســـعة: أمراض العين الخفية عن الحس وأسبابها وأنواعها ومداواتها والصداع التـــابع لتلك الأمراض. وبها عشرون بابا.

المقالة العاشرة: الأدوية المفردة المستعملة في العين. وقد رتب تلك الأدوية ترتيبا أبجديا.

ومن الكتب التي اشتهرت في الكحالة أيضا كتاب نتيجة الفكر في أمراض البصر[2] الـــذي ألفه القاضي ابن هبة الله القيسي[3]، ويحتوى على: سبعة عشر بابا، أوَّله: (الحمد لله الذي خلق الداء والدواء لحكمته ... الخ)[4] وكذلك كتاب الكافي في الكحل لخليفة بن أبي المحاسن الحلبي وألفه بين

---

[1] خليفة بن أبي المحاسن الحلبي، كحال، لا يوجد ما يشير إلى أنه مارس من فنون الطب غيـــر الكحالـــة (طـــب العيون) في حلب، حيث عاش في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. استناداً إلى أن كتابه الوحيد «الكافي في الكحل» قد ظهر بين عامي 654-673هـــ/1266-1275م. لم تذكره المصادر العربية، ولكن ذكرتـــه الموسوعة العربية، http://www.arab-ency.com

[2] ابن عبد الغني، معجم،ج1،ص311. الزركلي، الأعلام،ج1،ص167

[3] القيسي: أحمد بن عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل، فتح الدين، أبو الفتح المعروف بابن أبي الحوافر القيسي، الدمشقي الأصل، المصري، الطبيب العدل، ولد سنة ستمائة، برع في الطـــب. وصـــار رئـــيس الأطبـــاء بالـــديار المصرية، وكان صدرا رئيسا، متميزا، بصيرا بالعلاج(ت 657هـــ،1258م).الذهبي، تاريخ،ج48، ص312. ابـــن عبدالغني، معجم ،ج1، ص311. الزركلي،الأعلام،ج1، ص167.

[4] خليفة، كشف، ج2، ص1926.البغدادي، هدية،ج1، ص96.

عامي(654- 674هــ/ 1256 1275م)[1]، وكتاب المهذب في الكحل لابن النفيس[2]، الذي " أجاد فيه كل الإجادة " على حد قول الذهبي[3]، و كتاب القانون في أمراض العيون لعــلاء الــدين أبــو الحسن علي بن عبد الكريم بن طرخان، الحموي الصفدي، المعروف بعلاء الدين الكحال توفي في حدود (720ه/1320م)ــ[4].

وقد برع كحالوا مصر والشام في العصر المملوكي في طب العيون، حيث أصبحوا أساتذة العالم في مهنتهم خلال العصر الذهبي للطب الإسلامي في تخصص العيون.

ومن بين الأطباء الذين برعوا في طب العيون أو الكحالة خلال العصر المملوكي بمــصر والشام ، أسرة الطبيب ابن أبي أصيبعة التي ذاع صيتهم في طب العيون أوالكحالــة[5]، و يمكــن القول أن أسرة أبي أصيبعة قد لعبت دوراً كبيراً في مجال طب العيون خلال العصر المملوكي حتى غدت أشهر أسرة طبية على الإطلاق.

ومن أطباء العيون أو الكحالة الذين ذاع صيتهم أيضا خلال العــصر المملــوكي بمــصر والشام: موفق الدين أبو الخير أبي حليقة وقد كان متميزا في صناعة الكحل غزير العلم والفــضل وكان قد صنف كتابا في الكحل من قبل أن يصير له من العمر عشرون سنة[6].

وأبو الفرج، طاهر بن أبي الفضل محمد بن أبي الفرج طاهر بن أبي عبد الله بــن الخــضر. الكحال، الأنصاري، الصوري الأصل، الدمشقي، وكان له حانوت باللبادين يمــارس فيــه مهنــة الكحالة، وقد توفي سنة (665ه/1266م) [7].

[1] وقد حققه: محمد رواس قلعه جي، ونشرته: طبع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – المغرب.

[2] الذهبي، تاريخ، ج51، ص312. ابن تغري بردي، النجوم،ج7،ص377.

[3] الذهبي، تاريخ، ج51، ص312.

[4] الصفدي، أعيان، ج3، ص 454؛ الوافي، ج21،ص 175. وانظر: الزركلي، الأعلام، ج4،ص302.

[5] هو القاسم بن خليفة بن يونس بن القاسم بن خليفة الخزرجي. انظر : المقريزي، البيــان ، ص47. وقــد ولــد بالقاهرة المعزية(سنة 575هــ/1179م)، ونشأ بها وكان أبوه قد توجه إل الديار المصرية عنــدما فتحهــا الملــك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان في خدمته وخدمة أولاده، وقد قرأ القاسم ابن خليفة صناعة الكحل علــى أبــو الحجاج يوسف الكحال، والرئيس موسى بن ميمون القرطبي، صاحب التصانيف المشهورة وغيرها، وبعد أن بــرع فيهما دخل في خدمة ملوك بني أيوب، وظل في خدمتهم حتى توفي (سنة 649هــــ/1251م) .انظــر: ابــن أبــي أصيبعة،عيون ، ص736، 739. الذهبي، تاريخ، ج47، ص436. الصفدي، الوافي ،ج13،ص 239.

[6] ابن ابي اصيبعة، عيون ، ص 599.

[7] الذهبي، تاريخ ،ج49،ص 193. الصفدي، الوافي ،ج16، ص 236.

ومن الأطباء الذين برعوا في ذلك التخصص تقي الدين، أبو عبد الرحمن شبيب بن حمدان بن شبيب، الطبيب، الكحال، نزيل القاهرة، وتوفي التقي شبيب الكحال بالقاهرة في عام 695هـ/1295م[1].

و أبو الفضل موفق الدين، جعفر بن إسماعيل بن محمد بن نبيل العبادي. الكحال، مدحه الذهبي بقوله: بأنه " متميز في الكحالة "، وقد توفي سنة (699ه/1299م)[2].

و من الأطباء أيضا: بهاء الدين ابن المهذب،عبد السيد بن إسحاق بن يحيى الطبيب الكحال، كان يهوديا، ثم أسلم وحسن إسلامه، وتعلم القرآن وجالس العلماء، وكان طبيبا فاضلا توفي في سادس جمادى الآخرة سنة(715ه/1315م)[3].

وقبل اتجاهه للعمل في الجراحة أجيز الطبيب صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سليمان المقدسي المعروف بابن البرهان أولا في الكحل على يد ابن النفيس[4].

و زين الدين أيوب بن نعمة بن محمد بن نعمة بن أحمد بن جعفر النابلسي ثم الدمشقي المقدسي الكحال، اشتغل على طاهر الكحال، وبرع في الصنعة وتميز وتكسب بها[5]، وانتقل إلى مصر وأقام بها اثنتين وعشرين سنة يعالج الناس بالكحل ويخصب أنوار العيون بعد المحل[6]، ثم إنه رجع إلى دمشق ووصل إليها في يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وعشرين وسبع مئة[7]، وعاش أزيد من تسعين سنة، ومات في (ذي الحجة 730ه/ أغسطس 1330م)[8].

وعلاء الدين بن البرقعيدي الكحال، كانت عنده مشاركة في الطب وغيره، وكان كحالا بالبيمارستان النوري بدمشق، وقد امتدح الصفدي طريقته في العلاج، بعد أن قام بمعالجة إحدى بناته، فقال:" ما رأيت مثله في العمل بالحديد، قطع عندي لإحدى بناتي شرانيق من عينها في دفعة

---

[1] الذهبي ، تاريخ ،ج52، ص 257–258. الصفدي، الوافي ،ج16،ص 62. الكتبي، فوات ، مج1، ص98. ابن تغري بردي، المهنل ، ج6، ص215،السيوطي، حسن ،ج1،ص543.ابن العماد، شذرات ،ج7،ص 749.

[2] تاريخ ،ج52،ص 458.

[3] ابن كثير ،البداية،ج14، ص 86. الصفدي، أعيان ،ج3،ص 65.

[4] الصفدي، اعيان ج4، ص 222.

[5] المصدر نفسه، ج1،ص 673؛ الوافي، ج10،ص 34.

[6] الصفدي، أعيان، ج1، 674.

[7] السبكي، معجم، ص170.

[8] ابن خلدون، تاريخ ،ج4،ص 89 .اليافعي ، مرآة ،ج4، ص 212. الصفدي، أعيان ،ج1،ص674. ابن العماد، شذرات ج8،ص 163.

واحدة، من أسرع ما يكون. فتق الجفن الأعلى، واستخرج منه شيئا شبيها بالشحم الأصفر، ولم يعمل ما يعتمده غيره من تعليق الصنانير في الأجفان، وحك الشرانيق بالسكر النبات، لأن ذلك أمر مطول مؤلم "، وتوفي في 11(ربيع الآخر 762ه/ 18 فبراير 1361م)[1].

وكذلك علاء الدين أبو الحسن علي بن عبد الكريم بن مهذب الدين بن طرخان بن تقي، الحموي الصفدي، المعروف بعلاء الدين الكحال، وكيل بيت المال بصفد، جمع مجاميع حديثيه، وألف مؤلفات أدبية، و كان متواضعا، فقد رآه الصفدي صاحب الوافي " بصفد مرات عديدة، وكان يركب فرسه ويقف على الخضري واللحام والخباز وغيرهم، ويشتري ذلك بنفسه ويخرج الفلوس من منديله وهو بعمة كبيرة "[2]، وتوفي في حدود(720ه/1320م)، وكان قد تعدى السبعين[3].

ومن خلال ما سبق ندرك مدى الدور المهم الذي لعبه أطباء العيون خلال العصر المملوكي، حيث كانوا أحد العناصر الفعالة في النهضة الطبية التي شهدتها مصر والشام خلال هذا العصر.

6- المجبرون[4] (أطباء العظام) :

وهم الذين يقومون بتجبير العظام المكسورة[5]، و كان يطلق عليه لقب ردّاد " لأنَّه يرُدُّ العظمَ المنكسِرَ إلى موضِعه "[6].

وقد كادت جراحة الحوادث والكسور تنفصل عن الجراحة والطب بوجود تخصص المجبر الذي لا يمارس الطب وإنما تجبير كسور العظام فقط، وقد فصل العرب منذ بداية تطور الطب العربي بين الجراحة العامة والعظام، وطب العظام، إما برد الخلع وإما بجبر الكسور[7]، فتجبير

---

(1) الصفدي، أعيان،ج3،ص 308-309.

(2) المصدر نفسه، ج3،ص 454.

(3) المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة؛ الوافي ،ج21، ص 175.

(4) يقال جبر العظم إذا التحم، ويقال جبر إذا عولج. ابن السكيت ،الكنز اللغوي ، ص 215. وجبر الْعظم جبورا. الازدي، جمهرة ، ج1،ص 265. وجبره فجبر يجبر جبرا، وجبورا، وانجبر، واجتبر، وتجبر، والجبائر: العيدان التي تشدها على العظم لتجبره بها، واحدتها: جبارة وجبيرة. ابن سيدة، المحكم ،ج7،ص 405؛ المخصص، ج1،ص 491. والأجرُ: جبرُ العظم، يقال: أجرت يده، جبرت. ابن فارس ،مجمل ص 88. والعُثْمُ جمع عاثم وهم المُجبَّرون، عَثَمه إذا جَبَره. الهروي، تهذيب ،ج2ص 202.ابن منظور، لسان العرب ،ج12،ص 384. والجبارة: حرفة المجبر. ابو حبيب ،القاموس، ص58 . مجمع، المعجم ،ج1،ص 105.

(5) الفرابي، الصحاح ،ج2،ص 608؛ معجم ، ج1،ص318.

(6) الفراهيدي، العين، ج8،ص8 .الهروي ، تهذيب ،ج14،ص46.ابن منظور. لسان ،ج3،ص 175.

(7) ابن الجوزي، المنتظم ،ج2،ص4.

الكسور جزء من الجراحة ولكنه من أوائل فروع التخصص في الجراحة وقد برع فيها الأطباء في العصر المملوكي وتوسعوا في بحثه وعالجوا جميع أنواع الكسور في العظام الصغيرة منها والكبيرة بشتى وسائل الكسور والتي يمكن أن تصيب جميع أجزاء البدن، وكيف يمكن تجبيرها وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل الكسر[1].

وينقل اللبدي تعريفا للكسر أنه: " تفرق اتصال في العظم وأن وقع تفرق الاتصال بالعظم وكان سببه من الخارج وقسمه إلى جزئين أو إلى أجزاء كبار سمي كسراً وإن قسمه إلى أجزاء صغار سمي تفتتاً وإن كان من داخل وهو أن تكون استولت عليه مادة فاسدة فإنه يسمى ريح الشوكة وإن وقع بين عظمين ملتصقتين كالزندين سمي انفصالاً وإن كان أحدهما راكزاً بالآخر وخرج الراكز عن موضعه خروجاً تاماً سمي خلعاً، وإن لم تخرج بالتمام سمي زوالاً ومنهم من يسميه وثيا وأن لم يتحرك من موضعه لكن الرص حوله سمي وهنا وإن وقع في الغضروف كيف كان سمي بتراً، وإن وقع في العصبة وكان عرضاً سمي بتراً أيضاً وإن كان طولاً سمي شقاً، وإن كثر عدده سمي فدغاً وإن وقع في طرف العضلة سمي هتكاً. وإن وقع في نفس العضلة سمي حزاً، و تختلف أنواع الكسر بحسب اختلاف الأعضاء لأن كسر عظم الساق مخالف لكسر عظم الرأس وكسر عظم الصدر مخالف لكسر عظم الظهر وكذلك سائر الأعضاء وكلها مخالف بعضها بعضاً وقد يختلف نوع كسر العظم في نفسه قد يكون كسره تقصفاً من غير أن تحدث فيه شظايا وزوائد متبرئة وغير متبرئه ويكون الكسر مع جرح وخرق في الجلد ويكون الكسر صدعاً يسيراً "[2].

ومن المعروف أن الكسور على أنواع، فهناك الكسر المصحوب بالشظايا أو غير المصحوب بها، والكسر الذي يكون معه جرح وخرق في الجلد[3]

كما أن للكسور جملة من الأعراض، فينقل اللبدي :" بعد هذا يتأمل ميل العظم المكسور ويعرف هذا بوجوه ثلاثة أحدها باللمس وهو أن يحس الجهة التي مال إليها وغور في الجهة التي مال عنها وثانيها أن الجهة التي مال إليها العظم يكون في الوجع فيها شديد جداً لمزاحمة طرف العظم المائل وثالثها أن يحس في الجهة التي مال إليها بخشخشة "[4].

---

[1] عبد الرازق: الحضارة ،ص161، 162.

[2] اللبدي، الجراحة، http://www.altibbi.com/article/290.

[3] حسين ،الموجز ، ص144، 145.

[4] اللبدي، الجراحة، http://www.altibbi.com/article/290.

كما كان أطباء العظام يلجأون إلى الجراحة إذا كان الكسر مصحوباً بجروح بالمناطق المحيطة من الجسم أو كانت الحالة تستدعي بتر هذا الجزء المصاب، حرصاً على إنقاذ المريض من الهلاك[1].

وهكذا استطاع الأطباء علاج العديد من حالات كسور العظام فتمكنوا من جبر عظام الأنف عندما تتكسر، وجبر الترقوة وكسر الكتف، وكسر الصدر، وكسر الضلوع وكسر خرز الظهر والعنق وكسر الورك وكسر العضد وكسر الأصابع وكسر الزراع واليد وكسر الفخد وكسر فلكة الركبة وكسر الساقين وكسر عظم الرجل والأصابع، وكسر العظام إذا كانت مع جرح، وعلاج التعقد الذي في أثر بعض الكسر، وعلاج الكسر إذا انجبر وبقي العضو بعد ذلك رقيقاً على طبعته الأولى، وعلاج العظام المكسورة إذا انجبرت معوجة، وعلاج فك اللحى الأسفل ورد فك التركوة ورد فك المنكب وعلاج فك المرفق وعلاج فك المعصم وعلاج فك الأصابع وعلاج فك خرز الظهر، وعلاج الورك المفصول وعلاج فك الرقبة وعلاج فك الرقبة وعلاج فك الكعب وعلاج فك أصابع الرجل وعلاج أنواع الفك الذي يكون مع جراحة أو كسر أو معهما جميعاً[2].

وكان على المجبر أن يكون ملماً بعدد عظام الآدمي، وتلك العظام مائتان وثمانية وأربعون عظمة، كما عليه أن يعرف صورة كل عظم منها وشكله وقدره حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلع رده إلى موضعه على هيئته[3].

ولا شك أن طبيعة العصر المملوكي وكثرة الحروب والجري والركض ووقوع البعض من على ظهور الخيل، الأمر الذي ترتب عليه انتشار أمراض العظام والكسور وهو ما تطلب وجود أطباء للعظام ومجبرين ليلبوا حاجة المجتمع في مصر والشام.

فقد حدث أن " ركب السلطان المنصور سيف الدين قلاوون[4] إلى الميدان ولعب بالكرة فتقنطر عن الفرس وانكسر أحد جانبي يده اليمني وتهشم بعض أضلاعه وانصدعت رجله. وخيف

---

[1] حسين ،الموجز ، ص145.

[2] المرجع نفسه، ص146، 147.

[3] ابن الأخوة، معالم ، ص169. ابن بسام، نهاية ، ص121. انظر أيضاً: عيسى، تاريخ ، ص54. أحمد، الحضارة، ص161. الخطيب، الطب ، ص280. محمد، الحسبة ، ص148.

[4] قَلَاوُون الأَلْفي (620 – 689 هـ / 1223 – 1290م): قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي، أبو المعالي، سيف الدين، السلطان الملك المنصور: أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر. كان من المماليك، قبجافي الأصل. للمزيد حول ترجمته: ابن شاكر، فوات، ج3، ص203. ابن تغري بردي، مورد،ج2، ص38. الزركلي، الأعلام، ج5، ص203.

عليه فكسر المجبرون عظم الجانب الآخر من يده حتى يتم لهم الجبر فإنه قصر عن الجانب الآخر وكان قد توقف السلطان عن موافقتهم فقال الوزير سنقر الأعسر[1]: أنا حصل لي مثل هـذا فلمـا احتجت إلى كسر النصف الآخر ضربته بدقماق حديد فانكسر ثم جبر ... وأجاب المجبـرين لمـا قصدوه "[2].

و كذلك عندما توجّه السلطان الناصر محمد[3] " إلى نواحي قليوب يريد الصيد، فبينما هـو في الصّيد تقنطر عن فرسه فانكسرت يده وغشي عليه ساعة وهو ملقى على الأرض، ثم أفاق، ... فجمع الأطبّاء والمجبّرين لمداواته فتقدم رجل من المجبّرين يعرف بابن بوسـقة[4] وتكلّـم بجفـاء وعامّية طباع، وقال: له تريد تفيق سريعا ؟ اسمع منى، فقال له السلطان: قل ما عندك، فقـال: لا تخلّ يداويك غيري بمفردي وإلّا فسدت حال يدك مثلما سلّمت رجلك لابن السّيسى فأفسدها، وأنا ما أخلّى شهرا يمضى حتى تركب وتلعب بيدك الكرة، فسكت السلطان عن جوابه وسلّم إليه يده فتولّى علاجه بمفرده، وبطلت الخدمة مدّة سبعة وثلاثين يوما وعوفى "[5].

وكان القاضي شمس الدين الحريري الحنفي (ت 710ه/1310م)[6]. قد " توجه إلى القلعـة فلما قرب من بابها ألقته بغلته فتهشمت عظامه وحمل على الأعناق إلى منزله فأقام مدة معطلا من الركوب والحركة مشتغلا بنفسه "[7].

---

(1) سنقر الأعسر: سنقر المنصوري الأعسر شمس الدين، أحد الأمراء الكبار كان مملوك عز الدين أيدمر الظاهري نائب الشام ثم صار إلى المنصور فولاه نيابة الإستادارية ثم شد الدواوين بدمشق ثم صودر في زمان الأشرف خليل ثم ولاه قبجق شد الدواوين ثم ولاه لاجين الوزارة في رجب سنة 696 فباشرها بمهابة زائدة ثم عزل ثم أعيد وكان صارما مهابا مات في سنة (709هـ/1309م). للمزيد حول ترجمته: ابن حجر، أعيـان، ج1،ص542. الـصفدي، الوافي، ج15،ص301. ابن حجر، الدرر، ج 2،ص326. ابن تغري بردي، المنهل، ج6 ،ص96.

(2) المقريزي ، السلوك،ج 2، ص 281.

(3) النَّاصِر محمد (684 – 741 هـ /1285 – 1341م): محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي أبو الفـتح: مـن كبار ملوك الدولة القلاوونية. له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال. كانت إقامتـه فـي طفولتـه بدمشق، وولي سلطنة مصر والشام سنة 693 هـ وهو صبي، وخلع منها لحداثته سنة 694 فأرسل إلـى الكـرك. وأعيد للسلطنة بمصر سنة 698هـ . انظر: الصفدي، فوات، ج4، ص35. الزركلي، الأعلام، ج7، ص11–12.

(4) المقريزي: السلوك ،ج3،ص128.

(5) ابن تغري بردي، النجوم ،ج9،ص93– 94.النويري، نهاية ، ج33، ص302.

(6) قاضي القضاة شمس الدين بن الحريري الحنفي بالسكتة، ولي قضاء دمشق سنين ثم صرف ثم طلب إلى مـصر فولي القضاء بها، وكانت له همة عالية وناموس وهيبة وسطوة على الأمراء والمتجوهين. ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص 275.

(7) ابن حجر، الدرر،ج5، ص146.

وكان للمجبرين في القاهرة في العصر المملوكي مكان مخصص لممارسة هذه المهنة يعرف " بسكن المجبرين والحريريين، يشتمل على ستة حوانيت ومقاعد فيما بين ذلك "[1].

" يجلسون لعلاج من عساه ينصدع له عظم أو ينكسر أو يصيبه جرح، وهناك منهم بقية إلى يومنا هذا –حتى زمن المقريزي– "[2].

7- النفسانيون:

عرف الأطباء العرب والمسلمون الطب النفسي والعقلي وأولوه جانباً كبيراً من اهتمامهم واعتبروه مرض يمكن علاجه كغيره من أمراض الأبدان[3].

ولقد اهتم السلاطين المماليك بمرضى الأمراض النفسية والعقلية حيث كان لهم في البيمارستان المنصوري قسماً خاصاً لهؤلاء المرضى، حيث بلغ من اهتمام السلطان قلاوون أن وكل من يقوم بخدمة أصحاب الأمراض العقلية " ويصرف الناظر من ربع هذا الوقت للقومة والفراشين والرجال والنساء بهذا المارستان ما يرى صرفه إلى كل منهم بحسب عمله على أن كلاً منهم يقوم بخدمة المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان "[4].

ظهر ذلك الاهتمام بأصحاب الأمراض العقلية من خلال معاملة الأطباء للمختل عقلياً على أنه إنسان ولكنه ناقص الأهلية بينما نظر الأوروبيين في العصور الوسطى إلى أصحاب الأمراض العقلية نظرة مخالفة حيث عاملوهم معاملة المجرمين، فيتم سجن المريض وتعذيبه اعتقاداً بأن ذلك المرض لعنة من السماء[5].

وربط الأطباء النفسيين خلال عصر سلاطين المماليك بين الأمراض النفسية والأمراض التي تصيب القلب ومن تلك الأمراض الهم والغم، فـ" الهم فناء القلب والغم مرض القلب، ثم بين ذلك فقال الغم بما كان والهم بما يكون، وفي موضع آخر الغم بما فات والهم بما هو آت، فإياك والغم فإن الغم ذهاب الحياة، قال في صورة القلب: أن في القلب تجويفين أيمن وأيسر، وفي التجويف الأيمن من الدم أكثر من الأيسر، وفيهما عرقان يأخذان إلى الدماغ، فإذا عرض للقلب ما لا يوافق مزاجه انقبض فانقبض لانقباضه العرقان، فتشنج لذلك الوجه والم له الجسد، وإذا عرض

---

(1) النويري، نهاية ، ج32، ص73.

(2) المقريزي، خطط ،ج3، ص182.

(3) عبد الرازق، الحضارة ، ص168.

(4) ابن حبيب، تذكرة، ج1، ص366.

(5) هونكة: شمس ، ص273. باشا، التراث ص182.

له ما يوافق مزاجه انبسط وانبسط العرقان لانبساطه، قال وفي القلب عرق صغير كالأنبوبة مطـل على شفاف القلب وسويدانه فإذا عرض للقلب غم انقبض ذلك العرق فقطر منه دم يتغشاه فيكـون ذلك عصراً على القلب حتى يحس ذلك في القلب والروح والنفس والجسم كما يتغشى بخار الشراب الدماغ فيكون منه السكر "[1].

وأوصى الأطباء بضرورة أن يوهم المريض بالصحة ويرجيه بها وأن كان غير واثق من ذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس[2].

وعرف الأطباء الأمراض النفسية ووصفوا لها أكثر من علاج وفسروا كثيراً منها في ضوء العامل النفسي[3].

وقد سجلت في مصر خلال العصر المملوكي الكثير من الحالات النفسية، كالجنون، وكـان يودع مثل أصحاب هذه الحالات في البيمارستان، فيعرض على الأطباء هناك، فيقرروا بقاءه مـن عدمه، ومن تلك الحالات ما حدث فعلا سنة(781ه/1379م) حيث " ادعى شخص فقير أنه محمد بن عبد الله النبي الأمي فقبض عليه وسجن بالمارستان، وكان سئل عن معجزتـه فقـال: إن أحـرف القرآن تنطق لي، وسئل أيضاً فاعترف بنبوة محمد بن عبد الله رسول الله، وأنه أرسل بعده ليقـرر شرعه وأنه وعد بالسلطنة والحكم بالعدل، فشهد رؤساء المارستان أن في عقله اختلالاً، فقيد زماناً ثم أطلق، وقد رأيته بعد ذلك بمدة طويلة يستعطي الناس فلا يذكر شيئاً مما تقدم ويتأذى ممن يذكر له ذلك "[4]. وفيها أيضا " جاء رجل جندي إلى الصالحية فنزل عن فرسه وسـأل عـن القاضـي المالكي وقال: أريد أن يطهرني فإني مرتد عن الإسلام، فأمسك وأحضر إلى جمال الدين المحتسب، فضربه وسجنه وسأل الأطباء أن كان مختل العقل أولاً فيقال، إنهم شهدوا أنـه مجنـون فـسجن بالمارستان"[5].

8- التمريض :

لم يكن فن التمريض متميزاً كفن قائم بذاته ومنفصل عن فنون الطب والمداواة في الأزمنة الماضية، كما هو الحال في الوقت الحاضر حيث تتوفر فئة متخصصة للتمريض لها مهام محـددة تختلف عن مهام الأطباء، مع أنها جزء أساسي مكمل لها[6].

---

[1] ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص130.

[2] أحمد، الحضارة ، ص168. الشطي، اللب، ص11.

[3] عاشور، المدينة ، ص156. ياغي، أثر، ص83.

[4] ابن حجر، إنباء ،ج1،ص196.

[5] المصدر نفسه ،ج1،ص 198.

[6] حسين ، الموجز ، ص234.

والممرضون هم الأشخاص الذين يزاولون مهنة التمريض من الرجال أو النساء، وحيث يقومون برعاية المرضى والإشراف على خدمتهم، أما داخل البيمارستانات أو خارجها، كما كان عليهم تنفيذ أوامر الأطباء التي توجه إليهم بشأن المرضى، وبالنسبة لشخصية الممرض فقد أبرزت وثيقة البيمارستان المنصوري أنه: يعمل على راحة المرضى وتوصيل الأدوية إليهم، ينفذ أوامر الطبيب بإعطاء المرضى أدويتهم في الموعد المحدد، يباشر صحة المرضى ويخبر الطبيب بالتطورات التي تجد على المرضى، ويظهر الدور المهم للمرضين في أثناء العمليات الجراحية، فكان الممرض بمثابة اليد اليمنى للطبيب، فهو يقوم بإعداد آلات الجراحة، ويقوم بمناولة الآلات للطبيب، كما يراقب نبض المريض في أثناء إجراء العملية، وينظف المكان الذي تتم فيه العملية حتى يتمكن الطبيب من إتمام العملية[1].

وكان لهؤلاء الممرضون صفات يتميزون بها أهمها: " أن يكونوا ذوو فطنة ونباهة لما يؤمرون به، وأن يكونوا خفيفوا الحركة بحيث لا يؤخروا مناولة ما يؤمرون به عن تمام لفظ الأمر، وأن يكونوا من الفطنة والرفق بحيث يكون أمساكهم للمريض عند إجراء الجراحة وما نحوها على الوجه الذي لا يكون معه ألم وبغاية الطاعة للطبيب في جميع ما يأمرهم به ويجب أن يكونوا صامتين فإن الحديث والشغب ربما أشغل الطبيب عن فعل شيء من الواجب "[2].

وكان الممرض يتسلم الأدوية ويوزعها على المرضى في الصباح والمساء، ويشرف الممرض على تناول المرضى لأدويتهم، ويقوم الممرض بالإشراف على مطبخ البيمارستان، وإعداد طعام المرضى وتوزيعه عليهم والحرص على عدم مشاركة مريض لآخر في طعامه خوفاً من انتقال العدوى والمحافظة على نظافة الأطعمة التي تقدم للمرضى[3].

ولقد لعبت المرأة دوراً بارزاً في المجتمع المصري خلال عصر سلاطين المماليك، فكانت عضواً لا يمكن أن يغفل في ذلك المجتمع، وبالنسبة للممارسات الطبية للمرأة بما أنها في المقام الأول أم فأنها اكتسبت بعض الممارسات الطبية، ومن الممارسات الطبية التي احترفتها المرأة في العصر المملوكي مهنة التمريض والقبالة.

ففي داخل البيمارستانات كانت الممرضات من النساء يعملن في الأقسام الخاصة بالنساء وفي حين أن الممرضين من الرجال كانوا يشرفون على القاعات الخاصة بالرجال[4].

---

[1] عيسى، تاريخ ، ص18.

[2] ابن النفيس، المهذب ، ص163، 162. انظر أيضاً: عبد الرحيم، الأدوات ، ص41.

[3] المصدر نفسه . نفس الصفحات، المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[4] عيسى، تاريخ، ص18.

وإلى جانب هؤلاء الممرضات ظهرت القابلات وكن يمارسن طبابة النساء ومباشرة عمليات الوضع لهن، كما كان أطباء النساء يستعينون بهن في فحص المرضى، من النساء ومعالجتهن وفق توجيهات هؤلاء الأطباء[1].

وكانت تلك المهنة مختصة بالنساء في تلك الفترة وذلك لأنهن متطلعات على عورات النساء، ويذكر ابن خلدون: "وتسمى القائمة على ذلك منهن بالقابلة: استعير فيها معنى الإعطاء والقبول، كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله[2].

أما عن الخصائص التي تتميز بها القابلة: أن تكون أنثى متزوجة يتفاوت عمرها بين الخامسة والعشرين والخامسة والستين، وتفضل كبيرات السن لخبراتهن، وتتميز بالصبر والبشاشة والنظافة، وبرودة العين (ألا تكون حاسدة)، وأن تكون منجبة ليكون لديها الخبرة بعناية المولود[3].

أما عن دور القابلة في حياة نساء المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك فتتعدد أدوار القابلة بين أدوار وقائية، وعلاجية، وجمالية، وتبدأ تلك الأدوار قبل ليلة الزفاف مع تحنية العروس، وبعض المقربين لها، وتنظيف وتدليك جسمها، كأدوار جمالية، ويستمر دور القابلة في إسداء النصيحة للزوجة في علاقتها بزوجها، وفي التخلص من أي مشكلات صحية تتعلق بمجال النساء والتوليد كآلام الظهر أو الحيض، وتستمر نصائح القابلة حتى يوم الوضع وذلك بمساعدة الواضعة وحل بعض مشكلاتها[4].

وكانت القابلة تقوم بعملية الطهارة أو الختان للبنات، فموضع الختان منها الجلدة التي في أعلى الفرج وهو فوق الثقب الذي يخرج منه البول فأن أسفل الفرج مجرى الحيض والولد وأعلاه ثقبة كثقبة الأحليل يخرج منه البول وفوق ذلك قطعة جلدة كعرف الديك وهو موضع الختان فيقطع من أعلى تلك الجلدة[5]، فإن الأطباء كانوا في أحيان قليلة ما يقومون بتلك العمليات.

"وتقوم القابلة بتدبير الحامل منذ معرفتها بعلامات الحمل فتمنع عنها الفصد والإسهال وخصوصاً قبل الرابع، لأنه أول التكون، وبعد السابع لأن تعلقه حينئذ يكون أضعف كالثمرة عند ابتداء تكونها وانتهائها "[6].

---

(1) عبد الرازق، الحضارة ، ص165.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص517.

(3) عثمان، الطب ، ص186.

(4) ابن خلدون ،المقدمة، ج1، ص518. عثمان، الطب ، ص188.

(5) ابن الأخوة، معالم ، ص164.

(6) ابن النفيس، الموجز ، ص259. ابن خلدون ، تاريخ، ج1، ص518.

وكانت القابلة تحضر قبل موعد الولادة بيومين أو ثلاثة أيام، إلى منزل السيدة المحتاجة إلى المساعدة، وتحضر معها كرسي الولادة الذي تجلس عليه المرأة أثناء عملية الولادة، وكان يغطي بشال أو منشفة مطرزة، ويزين ببعض الزهور والورود ويوضع أمام منزل الحامل إعلاناً عن قرب وصول مولودها[1].

وجرت العادة أن تختار كل امرأة قابلة معينة كما جرت العادة أن يتم الأتفاق مع القابلة على الأجر قبل عملية الوضع، وحتى لا يحدث نزاع حول تحديد أجرها بعد الوضع[2]، ويخضع أجر القابلة في تحديده إلى عدة متغيرات أهمها نوع المولود فالأجر يتضاعف في حالة الطفل الذكر عن الأنثى كما يتفاوت الأجر لترتيب الطفل، ويزيد الأجر في حالة الطفل الأول أو إذا كان المولود ذكراً بعد عدد من الإناث أو جاء بعد فترة طويلة من الزواج[3].

وتقوم القابلة بعدة أمور مهمة لصالح الطفل المولود وأمه بعد عملية الولادة، " فتقوم بإصلاح المولود بعد عملية الولادة، وهي بذلك تعيد كل عضو إلى شكله الطبيعي، وتراجع النفساء بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين، وتقوم بتمريخ أعضاء المولود بالأدهان والذرورات القابضة لتشده، وتجفف رطوبات الرحم، وتداوي النساء من الوهن الذي أصابها بالطلق، وتداوي ما يلحق بفرج النساء من جراحة التمزيق عند الضغط لخروج المولود، وتلاحظ حالة المولود طوال فترة الرضاعة "[4].

ومن أشهر القوابل خلال عصر سلاطين المماليك خديجة ابنة محمد بن عبد الله بلكام، وورثت مهنة الولادة عن جدتها، وخدمت مهنة التوليد في بيوت الأمراء، وكانت خيرة دينة، وحجت غير مرة وجاورت وتوفيت في طاعون عام(897هـ/1492م)[5].

وهكذا برز دور الممرضين من الرجال والنساء خلال العصر المملوكي بمصر والشام وذلك من خلال الحاجة إليهن للعمل في البيمارستانات بمصر والشام فلا غنى للبيمارستانات ولا للأطباء ولا للمرضى عن وجود الممرضين والممرضات، من أجل تنفيذ برامج العلاج المقررة لكل مريض من المرضى.

---

[1] أحمد ،المرأة المصرية، ص39.

[2] علي، المرأة المصرية والشامية ، ص84. النبراوي، المرأة في العصر المملوكي ، ص78.

[3] عثمان، الطب ، ص187.

[4] ابن خلدون، تاريخ، ص393.

[5] السخاوي، الضوء ج12،ص31.

ثانيا: الأطباء البيطريين (طب الحيوان)

وهم الذين يمتهنون مهنة البيطرة[1] وقد اهتم العرب منذ القدم بالحيوان وأولوه عناية كبيرة وخاصة الخيل[2] لأنهم كانوا يعتمدون عليها في حروبهم، وكذلك الإبل باعتبارها سفينة الصحراء فكانوا يعتمدون عليها في أسفارهم وتنقلاتهم وتجاربهم[3].

ولا شك أن علاج الحيوان أصعب بكثير من علاج الإنسان؛ لأن الأخير يتكلم ويعبر عما يشعر به من الأعراض والآلام مما يساعد في تشخيص مرضه وعلاجه بعكس الحيوان الذي يستدل على مرضه بالجس والنظر فقط، لذا يتطلب من البيطري أن يكون دقيقاً ومتمكناً ولديه خبرة عالية بعلاج الحيوان[4]، وذلك من خلال معرفته الدقيقة بتشريح جسم الحيوان ووظائف أعضاءه المختلفة[5].

فقد حرص سلاطين وأمراء المماليك على توفير الخدمات الطبية لدوابهم خاصة الخيول التي نالت جل اهتمامهم[6]، وذلك لاعتمادهم عليها في حروبهم وفتوحاتهم وجهادهم الذي شهدته تلك الفترة، لذا كان من الطبيعي أن تكثر أمراض الخيل، وباقي الحيوانات وموتها، وهو ما حدث بالفعل لخيل المماليك سنة (703هـ/ 1303م) حيث تفشى الموت في الخيول ببلاد الشام ، وفشا

---

[1] البيطرة: علم يبحث في أحوال الدواب وحفظ صحتها وعلاج أمراضها . انظر: زادة، مفتاح ، ج1، ص270. وقد زعم الفرنجة أن البيطرة أول ما ظهرت ظهرت عند الإغريق، ويزعمون أن كلمة بيطرة ليست عربية وإنما هي مشتقة من كلمة hippatros أو الخيل الإغريقية، في حين أن كلمة بيطرة كلمة عربية أصيلة جاءت بسائر المعاجم العربية، فكلمة بيطرة العربية تعني علاج الدواب والحيوان كافة، بينما تعني كلمة happatros الإغريقية علاج الخيل فقط، فتكون كلمة البيطرة عند العرب أعم وأشمل من كلمة ابيتروس اليونانية، ومن ذلك يمكن القول بأن العرب كانوا يعرفون طب الحيوان كما جاء بأخبارهم، وكانوا يطلقون على البياطرة اسم الأطباء أيضاً . انظر: الحديدي، البيطرة ،ص21، 204.

[2] علي، العلوم والفنون ، ص93. وقد زاد اهتمام العرب بالخيل بعد ظهور الاسلام وذلك لإدراكهم أن الخيل هي الأداة الرئيسية والتي لا غنى عنها في الجهاد في سبيل الله، مقتدين في ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة". انظر: زادة،المفتاح ، ج1، ص270. الدميري، حياة ، ج1، ص16.

[3] علي، العلوم والفنون ، ص،93. كما زاد اهتمام العرب والمسلمين باقتناء وتربية وامتلاك الدواب، وكان لتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم دور مهم في ذلك حيث قال: "من قدر على ثمن دابة فليشتريها فإنها تأتيه برزقها وتعينه على رزقه ". انظر: زادة، المفتاح، ج1، ص270.

[4] الشيزري، نهاية ، ص80.

[5] الحديدي، البيطرة ، ص208.

[6] بدوي، الحياة ، ص313.

الموت في خيول مصر أيضاً، فهلك كثير منها[1]، حتى" خلا غالب الإصطبلات لموت الخيـل "[2]، وبلغ عدد ما نفق منها في حلب ودمشق نحو الثمانين ألف فرس[3].

وفي سنة (807هـ/1404م) حدثت فتنة " ذهب فيها من الخيل والبغال والجمال ... ما لا يدخل تحت حصر من غير فائدة "[4].

وفي سنة(831هـ/1427م) " وقع بالشام مرض عام، وكثر موت الخيل بها وبحمـاة "[5]، ويبدو أن هذا المرض قد تركز في حماة وهي من مدن الشام.

ولم تسلم الأبقار من الأمراض ففي سنة (685هـ/ 1286م) تفشى الموت بالأبقـار فـي مصر، ويضرب المقريزي[6] مثالاً على شدة هذا الموت بقوله: " أن شخصاً واحداً نفقـت جميـع أبقاره البالغة 340 رأساً "، وفي أواخر عام (699 هـ/ 1299م) تفشى الموت في الأبقار، وأدى إلى نفوق أعداد كبيرة جداً منها، وخاصة في دمياط والصعيد[7][8].

وقد وصف العيني شدة فتك هذا الوباء بالأبقار بقوله:" وفيها أصاب الفنـاء الأبقـار دون غيرها من المواشي حتى تعطلت الدواليب والسواقي، وغلت أسعارها غلواً لم يسمع بمثله، وبيـع رأس البقر بألف درهم وما يقاربها، واستعمل الناس الخيل والجمال والحمير عوضاً عنهـا، فمـا أجدت في الحرث ،...، ولقد حكي عن شيخ من أهل الفلاحة ببلد أشموم[9] أنه كان يملك من الأبقار

---

[1] أبو الفداء،المختصر،ج 2،ص 391 . المقريزي،السلوك،ج 2،ص 370. العيني، عقد ،ج 4 ، ص 308.

[2] ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص245.

[3] المقريزي،السلوك،ج 2،ص 370 . العيني، عقد ،ج 4 ، ص 308

[4] ابن تغري بردي ،النجوم ،ج12،ص321.

[5] ابن حجر، إنباء ،ج3،ص401.

[6] المقريزي، السلوك،ج 2،ص 196.

[7] الصعيد :(بلاد واسعة كبيرة فيها عدة مدن عظام منها أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب ثم قوص وقفط وإخميم والبهنسا وغير ذلك وهي تنقسم ثلاثة أقسام الصعيد الأعلى وحده أسوان وآخره قرب إخميم والثاني من إخميم إلـى البهنسا والأدنى من البهنسا إلى قرب الفسطاط) الحموي، معجم ،ج 3 ،ص 463.

[8] المنصوري، مختار ، ص 115 . المقريزي،السلوك،ج 2، ص 339 . العيني، عقد ،ج 4، ص 138- 137.

[9] أشموم: بضم الميم وسكون الواو، اسم لبلدتين بمصر يقال لإحداهما أشموم طَناح وهي قرب دمياط وهي مدينـة الدقهلية والأخرى أشموم الجريسات بالمنوفية – طَناح – بفتح الطاء والنون – والجريسات. الحموي، معجم ،ج 1، ص 237.

الخيسية[1] السارحة في تلك الجزائر ما جملته ألف وإحدى عشرة رأساً، فماتت في هذا الفنـــاء أولاً فأولاً حتى لم يبق له منها غير ثمانية لا سواها "[2].
وفي سنة (765هــ/ 1363م) تفشى الموت في الأبقار في مصر، وقد نفق عدد كبير منها[3].

وفي شهر رمضان سنة (794 هــ/ آب – أغسطس 1392م) تفشى الموت العظــيم فـــي الأبقار، حيث نفق عدد كبير منها، وأدى ذلك إلى ترك الناس أكل لحمها استقذاراً لها[4].
وفي شهر جمادى الأول سنة (808هــ/أكتوبر–تشرين أول 1405م) فــشت الأمــراض الحادة في الناس، وفي الوقت نفسه أصاب الموت الأبقار، فنفق الكثير منها[5].
وفي سنة (829هــ/ 1425م) فشا الموت في الجواميس و الأبقار في مصر، ونفق الكثير منها[6].

وفي شهر (ذي القعدة سنة 890هــ/ نوفمبر–تشرين ثاني 1485م) تفــشى المــوت فـــي الحيوانات وخاصة الأبقار والجاموس والجمال، ونفق بها أعداد كبيرة منها[7]. وفي سنة (914هــ/ 1508م) تفشى الموتان بالدجاج في مصر، مما أدى إلى نفوق عدد كبير منها[8].

ولقد كان لموت الكثير من الحيوانات خلال هذه الأوبئة تأثير بالغ على الحياة الاقتــصادية خلال العصر المملوكي، كما أن لها تأثير على الحالة الصحية لأفراد المجتمع حيث أن كثير مـــن الحيوانات كانت تشارك الناس السكنى في المنازل، لا سيما أهالي القرى ومن ثم كان أي مـــرض ينزل بالحيوان كان من الممكن أن يكون له تأثير على البشر.

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى وجود أطباء الحيوان أو ما يعــرف بالبيــاطرة، والــذين خضعوا لرقابة دقيقة نظراً لخطورة المهنة التي يمتهنوها وهي البيطرة، لأن أي خطا في العـــلاج

---

[1] البقر الخيسية: هي التي لا تحرث الأرض وإنما تكون للحلاب فقط. النويري الإسكندراني، الإلمام، ج 4، ص 5.
[2] المنصوري، مختار ، ص 115 . المقريزي، السلوك،ج 2، ص 339 . العيني، عقد، ج 4، ص 138– 137.
[3] المقريزي، السلوك،ج 4،ص 272 . ابن العراقي، الذيل ،ج 1،ص 151 . ابن تغري بردي، النجــوم، ج 11 ، ص 22. السخاوي، الذيل،ج 1،ص 204.
[4] المقريزي، السلوك، ج 5، ص 325 ؛ابن حجر، إنباء ،ج 3، ص 118 . ابن الصيرفي، نزهة،ج 1، ص 347 .السخاوي، الذيل ،ج 1،ص 366.
[5] المقريزي، السلوك، ج 6، ص 146.
[6] المصدر نفسه،ج 7،ص 128.
[7] ابن شاهين، نيل، ج 7، ص 431.
[8] ابن إياس، بدائع ، ج 4، ص 149.

يمكن أن يؤثر على حياة الحيوان، والذي لا يستطيع أن يصرح بما آل إليه حاله بعد علاج البيطري له.

ونظرا للعناية الشديدة التي أولاها المماليك بالخيول فإن السلطان المملوكي الملك الناصر محمد يعد " أوّل من اتّخذ من ملوك مصر ديوانا للإسطبل السلطانىّ وعمل له ناظرا وشهودا وكتّابا لضبط أسماء الخيل، وأوقات ورودها وأسماء أربابها، ومبلغ أثمانها ومعرفة سوّاسها وغير ذلك من أحوالها، وكان لا يزال يتفقّد الخيول فإذا أصيب منها فرس أو كبر سنّه بعث به مع أحد الأوجاقية إلى الجشّار بعد ما يحمل عليها حصانا يختاره، ويأمر بضبط تاريخه، فتوالدت عنده خيول كثيرة، حتى أعنته عن جلب ما سواها "[1].

وحرصاً على رعاية الخيول وتطبيب أمراضها وتضميد جراحها كان السلاطين المماليك يعينون للإسطبلات السلطانية عدداً من البياطرة، على أن يجعل عليهم واحداً منهم يكون أمهرهم وأوحدهم في هذا المجال[2].

وكان من أشهر هؤلاء البياطرة أحمد بن يوسف بن أحمد الصالحي البيطار (ت745ه/1344م)[3]، ومحمد ناصر الدين ابن البيطار (ت821ه/1418م)، الذي كان يتعانى صناعة البيطرة [4].

كما كان حسام الدين حسن بن علي بن أحمد الكجكني الحلبي البانقوسي(801هـ/ 1398م) نائب السلطنة بالكرك " تام المعرفة بالخيل وجوارح الطير "[5].

ومن ذلك ندرك مدى حرص سلاطين وأمراء المماليك على الاهتمام بالطب البيطري من خلال أحكامهم الرقابة على البياطرة الذين كانوا مسئولون عن الحيوانات الموكول إليهم أمر تطبيبها[6].

ونظراً للدور البارز الذي لعبه البياطرة في النهضة الطبية خلال العصر المملوكي والذي كان له دور إيجابي في كثير من الانتصارات التي حققها المسلمون من خلال تطبيبهم لخيل

---

[1] ابن إياس، بدائع ،ج 4،ص 149.

[2] العيني، عقد ،ج 4،ص 137.

[3] ابن حجر، الدرر ،ج1،ص 401.

[4] ابن حجر، إنباء ،ج3، ص188. السخاوي، الضوء، ج10، ص 108.

[5] ابن حجر، إنباء ،ج2، ص69.

[6] النقاش، العلاقات، ص207.

المسلمين التي كانت العنصر الفعال في كثير من المعارك لذلك تأثر الصليبيون كثيــراً ببيــاطرة المسلمين وراحوا هم الآخرين يهتمون بالخيل وتطبيبها نظراً لاعتمادهم عليها فــي حــربهم مــع المسلمين، وذلك خلال توفير بياطرة للعناية بها ومداواة أمراضها.

إلا أنه يبدو أن بياطرة الصليبيين لم يكونوا على نفس كفاءة أقرانهم المــسلمين، بــدليل أن خيل الصليبيين قد أصيبت بالأمراض سنة(648هــ/1250م) وهم محاصرون للمنصورة[1]، ولــم يستطع البياطرة الصليبيون فعل شيء لها، الأمر الذي أثر على موقف الصليبيين وكان أحد الأسباب التي أدت إلى هزيمتهم.

ومما سبق يتجلى لنا الدور البارز الذي لعبه أطباء الحيوان أو البياطرة بمصر والشام خلال العصر المملوكي، من حفاظ على الثروة الحيوانية التي هي قوام حياة الناس في كل زمان ومكان، ومن رعاية وعناية للخيل التي كان يقع عليها عبأ تحمل مشاق الحروب والمعارك، ومن ثم يمكــن القول بأن البياطرة كانوا أحد العناصر الفعالة في النهضة الطبية التي شهدتها مصر والشام خــلال العصر المملوكي.

ثالثا: الصيدلانيون[2]:

هم أحد العناصر الفاعلة في النواحي الصحية والطبية والتي قامت علــى أكتــافهم أيــضاً النهضة الطبية بمصر والشام خلال العصر المملوكي.

والصيدلانيون هم الذين يمتهنون الصيدلة، وعلم الصيدلة[3]. وقد كان علم الصيدلة والطب متلازمين دائماً في جميع العصور الأولى، وكان الشخص الواحد يقوم بفحص المرضى وتشخيص أعراضهم ثم يقوم بنفسه بتحضير الأدوية الخاصة لعلاجهم، وكانت علوم الطب والصيدلة تــدرس متوافقة المدارس نفسها دون تحديد لأيهما[4].

---

[1] الذهبي، العبر ، ج5، ص195، 196. اليافعي، مرآة ، ج4، ص117.

[2] الصيدلانيون: مفردها صيدلاني، وهو المتخصص في جمع الأدوية والعقاقير على أحــسن صــورها، واختيــار الأفضل من أنواعها مفرده ومركبه على أحسن التراكيب، ثم يقوم ببيعها للمرضى .انظر: البيرونــي، الــصيدلة ، ص3. ابن الأثير، اللباب ، ج2، ص65.

[3] الصيدلة: علم يبحث في أصول الأدوية سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية مــن حيــث تركيبهــا ومعرفــة خواصها وفائدتها الطبية . انظر: البيروني، الصيدنة، ص10. زادة، المفتاح، ج1، ص285.

[4] صابر، الموجز، ص314.

ونستدل على ذلك أيضاً من المؤلفات الطبية التي صنفها كبار الأطباء والتي احتوت على فصول تضم شرحاً مفصلاً ومستفيضاً للأدوية المفردة والمركبة وطرق تحضيرها وكيفية تعاطيها واستعمالها.

وقد خطى الأطباء العرب والمسلمون في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي خطوات واسعة في مجال استخدام الأدوية والعقاقير، التي كثرت وزاد عددها وتعددت أصنافها، حتى اقتضى الأمر أن تصبح الصيدلة علماً مستقلاً بذاته عن الطب له علمائه المعروفون باسم الصيادلة أو الصيدلانيون[1]، وبذلك يكون المسلمون هم أول من فرق بين علم الطب والصيدلة التي أولوها جانباً كبيراً من عنايتهم[2].

ونظراً لأهمية الدواء والعلاج في حياة المرضى، فقد حرصت الدول الإسلامية المختلفة على توفيره في كل مكان، حيث ألحقوا بالجوامع وقصور الأمراء والسلاطين خزانة للشراب تضم الأشربة والأدوية المختلفة[3].

كما أقاموا بكل بيمارستان خزانة للشراب يعمل بها صيادلة أكفاء يعدون الأدوية بأنواعها المختلفة، ويركبون المعالجين والأكحال، ثم يوزعونها على المرضى[4].

ونظراً للعناية البالغة التي أولتها الدولة المملوكية لصناعة الأدوية والعقاقير والقائمين عليها، فقد أدى ذلك إلى نبوغ الصيادلة العرب والمسلمين، حيث توصلوا إلى أفضل الطرق[5] لإعداد الأدوية المفردة والمركبة وتخزينها بحيث لا يتطرق إليها الفساد[6]. من خلال وضعها في أواني اسطوانية خصصت لحفظ العقاقير وعرفت باسم الباريلو[7].

---

[1] باشا، التراث ، ص192، 195. قنواني، تاريخ ، ص11.

[2] الشيزري، نهاية، ص42. وانظر: الملا، أثر ،ص142، 144. هاشم، فضل ، ص443.

[3] المقريزي، خطط، ج2، ص405.

[4] المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة. منتصر، قراءات، ص71.

[5] كانت الأدوية مفردة ومركبة تحضر على هيئة مستحضرات ذات أشكال مختلفة، تتوقف طرق استعمالها وتعاطيها والغرض منها، كما كانت تعد بغرض أن يكون مفعولها مضموناً محققاً وفي الوقت نفسه لا تمجه الطباع والنفس بل تستسيغها مع سهول تعاطيها، ولذلك كان على الصيدلي أن يقوم بإجراء عمليات تهيئ الدواء تحقيقاً لهذه الأغراض .انظر: صابر ، موجز ، ص354.

[6] عبد الرازق، الحضارة ،ص215-217.

[7] عبد الرازق، الفنون ، ص169. والباريلو: قيل أنه اشتق من اللفظ العربي البرنية أي الوعاء المخصص لحفظ الأدوية، وكانت عبارة عن صحون عميقة أو سلاطين مخروطية ذات قواعد مرتفعة . انظر:المرجع نفسه، نفس الصفحة.

وقد استخدم الصيادلة أحدث الوسائل لتحضير الأدوية وذلك باستخدام مكاييـل ومـوازين دقيقة، لتحيد كميات المواد المستخدمة في صنع الدواء، إضافة إلى آلات وأجهزة أخرى لتحـضير الأدوية[1].

لذلك برع الصيادلة العرب والمسلمون في تحضير الأدهان والمراهم والمساحيق والأكحال والسفوفات والفتايل واللزوق والضمادات المختلفة[2].

وقد كان الصيادلة حريصون على إجراء الاختبارات على الأدوية قبل إعطائها للمرضـى وذلك بتجربتها على الحيوانات لمعرفة مدى فعاليتها وأثرها في العلاج[3]، وهذا يمثل قمـة الدقـة والتحري من قبل الصيادلة.

كما حرص الصيادلة عند تركيبهم للأدوية أن تكون طيبة المذاق بقدر الإمكان لـذا قـاموا بإضافة عصير الليمون أو البرتقال، أو القرنفل إلى الأشربة، كما غلفوا حبات الأدوية بغلاف مـن السكر أو العسل[4]، وكل ذلك من أجل راحة المرضى وجعلهم يقبلون على تناول الدواء دون نفور من رائحته أو طعمه.

وقد خطا صيادلة مصر والشام حلال العصر المملوكي خطـوات واسـعة إلـى الأمـام، فاستوعبوا ما في مؤلفات السابقين من أطباء وصيادلة العرب والمسلمين عبر العصور السابقة ثـم زادوا عليها وأبدعوا في التأليف في الصيدلة وعلم العقاقير وأصبحوا في خدمة مجتمعهم بهذا العلم، ويمثل كوهين العطار[5]، واحداً من المتفردين في علم الأدوية والصيدلة والعقـاقير فـي العـصر المملوكي، فأبدع مؤلفاً في الصيدلة سنة (658هـ/1260م)، أسماه "منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان "، وقد استعان كوهين العطار عند تأليفه لهـذا الكتـاب بمؤلفات من سبقوه من الأطباء والعشابين والصيادلة الثقاة فنقل عنهم وأضاف ما توصل إليه مـن جديد في هذا المجال[6].

---

[1] صابر ، موجز ، ص358-368.

[2] هونكة، شمس، ص328. مظهر،الحضارة، ص123.

[3] عاشور، فضل ، ص261. منتصر، قراءات، ص70.

[4] هونكة: شمس، ص321، 328.

[5] هو أبي المنى بن أبي النصر العطار الاسرائيلي الهاروني المعروف بكوهين العطار، ولد وعاش بمـصر فـي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد شهد في شبابه وطفولته مدى تشجيع سـلاطين وأمـراء البيـت المملوكي للعلماء عامة وللأطباء والصيادلة خاصة، لذا أقبل على تعلم الطب والصيدلة، حتى برع فيهما وأبدع هـذا المؤلف العظيم المشار.انظر: قنواني، تاريخ الصيدلة ، ص173 هونكة، شمس، ص330.

[6] حفني ، موجز، ص418. عبد الرازق، الحضارة ، ص214.

لذلك أصبح كتاب "منهاج الدكان ودستور الأعيان" لكوهين العطار أعم وأشمل من كتاب الشيخ السديد داوود بن أبي البيان المسمى "الدستور البيمارستاني"[1].

فكتاب "منهاج الدكان ودستور الأعيان" لكوهين العطار يعد من الكتب الثمينة التي اشتملت على نصائح قيمة لكل من يريد الإقبال على تعلم مهنة الصيدلة والتصدر لها، وأشار إلى قائمة بأشهر الأدوية المفردة مرتبة ترتيباً أبجدياً وذلك في الفصل الحادي والعشرون من الكتاب[2].

كما تحدث خلال الأبواب المختلفة من الكتاب عن شرح مفصل لجميع أنواع المعاجين والسفوفات والمراهم[3] والأدهان[4]، والأكحال[5] والضمادات[6] وغيرها، ولم يكتف بذلك بل تناول الكيفية التي تجنى بها الثمار والنباتات، التي تستخدم في صناعة الأدوية، وأحسن الأوقات لجمعها وأفضل وسائل تخزينها[7].

وفي خاتمته للكتاب تحدث عن كيفية اختيار الأدوية المفردة والمركبة من أجل معرفة الجيد منها والرديء[8].

---

(1) الشرقاوي، المسلمون ، ص184.

(2) عبد الرازق، الحضارة ، ص214 . قنواني، تاريخ ، ص173.

(3) من التراكيب القديمة لم يسبقها سوى المعاجين، وأصلها من الشمع، ثم أضيف إلى ذلك الصموغ والألعبة والشحوم والزيوت وغيرها وذلك مع المواد الطبية المطلوبة، وتعالج بها الجروح والقروح والامراض الجلدية، وتحليل الأورام وغير ذلك ومن أنواعها المراهم النخلية . انظر: حفني ، موجز، ص380، 381.

(4) الأدهان: مفردها دهن أو دهان، وهي تطلق على الزيوت الثابتة أو الشحوم والأرواح الزيتية (الزيوت العطرية) مفردة كانت أو مركبة، والممكن استخراجها من مواد معينة بعمليات مثل العصر أو التقطير، وهي من التراكيب القديمة، والأدهان كثيرة المنافع لأن منها المجلل، ومنها المذهب للآثار ومنها الملحم، ولقد استعملها العرب في العلاج من الخارج بالتدليك لذلك تسمى مروخات، وكذلك من الداخل بالتعاطي والشرب. انظر: المرجع نفسه، ص374.

(5) الاكحال: مفردها كحل، ويطلق على ما يسحق وينخل برسم العين وهو ما يعرف في مصر الششم، ومن الاكحال "الروشنايا" ومعناه مقوي البصر باليونانية، وجابر الوهن بالسريانية .انظر: المرجع نفسه ، ص375.

(6) الضمادات: مفردها ضمادة أو ضماد، وأول مخترع لها هو أبقراط، وهي عبارة عن الخلط بمانع خلطاً محكماً له قوام أصلي لعسل معقود، أو عارض كخل وزيت وفي هذا ترادف الأطلية، وهي محللات مسكنات وملينات (ربما هي اللبخة المعروفة الآن) والفرق بينها وبين الأطلية أن الأطلية ما كان مائعاً أو معجوناً برطب، والأضمدة تكون يابسة فإن عجنت فلا بد أن تكون غليظة .انظر: المرجع نفسه ، ص379.

(7) المرجع نفسه ، ص418. الطائي، علم ، مج1، ص90، 91.

(8) المرجع نفسه، نفس الصفحة. المرجع نفسه، نفس الصفحة.

ويمكن القول أن كوهين العطار كان خير ختام لسلسلة من الصيادلة المهرة الذين بـــرزوا خلال العصر المملوكي، والذين ساهموا بدور كبير في توفير الدواء لآلاف المرضى كمـــا خلفـــوا ورائهم تراثاً عظيماً من المؤلفات في علم الصيدلة، كانت هي الأساس الذي بنيت عليه قواعد علـــم الصيدلة الحديث.

هذا وقد بلغت الصيدلة في مصر والشام خلال العصر المملوكي أوج مجدها وازدهارهـــا بفضل جهود هؤلاء الصيادلة العظام والذين حفل بهم هذا العصر.

وخير شاهد على ذلك دهان البلسان[1] والذي يستخرج من قلب نوع من الشجر، ويعتبر من المواد الهامة التي تدخل في صناعة العديد من الأدوية لذلك كان سلاطين المملوكيين يهتمون به أشد الاهتمام، وقد اقتدى بهم في هذا المجال ملوك الإفرنج[2] حيث أن لهذا النوع من العلاج منافع كثيرة جداً منها: أن" قوة ذهن البلسان شديدة جداً، وهو حار مفرط الحرارة ويجلو ظلمة البصر ويبـــرئ من برد الرحم إذا احتمل مع شحم ودهن وورد ويخرج المشيمة والجنين، وإذا دهـــن بـــه أبطـــل النافض وينقي القروح الوسخة، وإذا شرب أدر البول وكان موافقاً لمن به عسر البـــول لإنـــضاجه الفضول، وإذا شرب كان موافقاً لمن شرب السم ولمن نهشه شيء من الهوام[3].

وأقوى ما في البلسان دهنه وبعده حبه، وبعده عوده وحبة موافق إذا شرب لمن به شوصة أو ورم حار في الرئتين أو من به سعال أو عرق النسا أو صرع أو سدد ومن لا يمكنه التنفس دون أن ينتصب ومن به مغص أو عسر بول وقيل أن عوده وحبه ينفعان من لدغ العقارب، وإن عصير ورقة إذا تجرع قلع العرق المتعلق بالحلق ونفع من الصداع العارض من الرطوبات الغليظة[4].

وبلغ من أهمية البلسان أنه ترياق كان يعد لعلاج المرضى، و كان لابد أن يكون البلـــسان أحد المفردات التي يتكون منها هذا الترياق نظراً لدوره في علاج العديد من الأمراض[5].

---

[1] البلسان: قيل هو شجر لا يعرف نباته بغير مصر خاصة بالموضع المعروف منها بعين شمس وقيل بـــأن عظـــم شجرته كعظم شجرة الحبة الخضراء أو مثل شجرة بوراقيني، وله مدى تشبيه بورق السذاب، غير أنه أشد بياضـــاً بكثير وأدور ورقاً ، وقد يختلف بالخشونة والطول والدقة، أما دهن البلسان فإنه يخرج بعد طلوع القلب بأن تـــشرط الشجرة بمشراط من حديد والذي يسيل منه شيء يسير، والذي يجتمع فيه في كل عام ما بين الخمسين إلى الـــستين رطلاً . انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج 1، ج1، ص107، 108.

[2] عطا، الشرق، ص166.

[3] ابن البيطار، الجامع، مج 1، ج1، ص108.

[4] المصدر نفسه، مج 1، ج1، ص108، 109.

[5] المصدر نفسه، مج 1، ج1، ص109.

ويبدو أن البلسان قد كثر استعماله في العصور الوسطى، ولكن تحت اسم آخر هو البلسم[1]، فقد كان السلاطين المماليك يقدمونه لأمرائهم وكبار الشخصيات في الدولة، كما يقدمونه على هيئة هدايا للأمراء الصليبيين في فترات الهدنة التي تكون بينهم كما يرسل منه جزء للبيمارستان حيث يستعمل في علاج الجروح وحفظ الجثث[2]، وهذا يدل على مدى قيمة هذا الدواء العالية وصعوبة توفره، فقد كانت الكميات الموجودة منه بسيطة تصل في كل عام ما بين الخمسين إلى الستين رطلاً، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع سعره ارتفاعاً فاحشاً، فقد كان يباع بضعف وزنه فضه[3].

ويبدو أن البلسم أو البلسان كان يصل إلى الصليبيين بالشام عن طريق الهدايا التي كان يقدمها لهم ملوك المملوكيين، حيث أن هذا النبات كان نادر الوجود، ويجزم ابن البيطار بذلك فيقول عند حديثه عن هذا النبات "هو شجر لا يعرف نباته اليوم بغير مصر خاصة"[4] وهو ما يعني أن الصليبيين بالشام عرفوا هذا الدواء عن طريق المسلمين.

كما أخذ الصليبيين عن طريق صيادلة المسلمين العديد من الأدوية، وعرفوا الكثير من منافعها ومنها نبات "المريمية"[5] الذي يستعمل في علاج اضطرابات المعدة والدورة الدموية وانحباس البول والأرق[6].

كذلك عرفوا من المسلمين "التوتيا"، وعرفوا لها فوائد عديدة منها "أن التوتيا إذا غسل وصار منه دواء أشد تجفيفاً من كل شيء مجفف من غير أن يلدغ، فهو لذلك موافق نافع للقروح السرطانية ولغيرها من القروح الخبيثة، وقد يخلط أيضاً في الشيافات، التي يعالج بها العين إذا كان ينحدر إليها شيء من المواد، وفي الأدوية التي يداوي بها النفاخات والقروح الحادثة في العين أو في المذاكير والعانة[7].

---

[1] البلسم: جنس شجر من القرنيات الفراشية يسيل من فروعها وسوقها إذا جرحت عصارة راتنجية تستعمل في الطب، ودواء تضمد به الجراحات. انظر:مجمع، المعجم ، ص61، فيكون المعنى واحد بينه وبين البلسان، ولكن يبدو أن كلمة بلسم كانت أخف وأسهل فشاع استعمالها.

[2] هايد، تاريخ ، ج4، ص73-79.

[3] ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص108.

[4] المصدر نفسه ، مج1، ج1، ص107.

[5] المريمية: هي من النباتات الطبية التي تنمو بكثرة في الشام بخاصة مدينة بيت المقدس وأوراق نبات المريمية مرة المذاق، وقد يسمى هذا النبات أيضاً باسم المرمية .انظر:عبد الله، الممتلكات، ص394.

[6] المرجع، نفسه، ص394.

[7] ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص45.

ومما سبق يتبين لنا أن الصيادلة في مصر والشام خلال العصر المملوكي كانوا أحد الأقطاب التي ساهمت في النهضة الطبية إلى جانب الأطباء والبياطرة.

رابعا: الأدوات والآلات الطبية.

استخدم الأطباء بمختلف تخصصاتهم في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي العديد من الآلات والأدوات المختلفة التي تعينهم على ممارسة مهنتهم على أكمل وجه، فكان " ينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال وهي كلبات الأضراس ومكاوي الطحال وكلبات العلق وزرقات القولنج وزرقات الذكر وملزم البواسير ومخرط المناخير ومنخل البواصير وقالب التشمير ورصاص التثقيل ومفتاح الرحم وبوار النساء ومكمدة الحشاء وقدح الشوصة وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب "[1].

وقد قسمت الآلات الجراحية إلى خمسة أنواع منها المدسات: وكانت تصنع من الحديد الفولاذ ومحكمة الأطراف لتسرع الدخول في الأورام والصنانير، ومنها البسيط ومنها ذات الخطافين ومنها المشاريط التي يشق بها على الأورام وتسلخ بها السلع ومنها المسامير وتصنع من نحاس وفضة أو حديد وقد تصنع من الرصاص الأسود، ومنها المجاريد وتصنع من نحاس وتشبه ما نعرفه باسم ملعقة الكحت[2].

وكان لكل تخصص أدواته وآلاته الخاصة، فكان للجرائحي أدواته التي يستخدمها في إجراء العملية الجراحية، وهي: " دست المباضع فيه مباضع دورات الرأس والمؤربات والحريات وفأس الجبهة، ومنشار القطع، ومخرقة الإذن، وورد السلع ومرهمدان المراهم ودواء الكندر[3] القاطع للدم"[4].

كذلك استخدموا المكاوي المختلفة في العلاج بالكي، وكانت المكاوي المستخدمة في العلاج بالكي لها عدة أشكال لكل منها مكان تستعمل فيه، من هذه المكاوي المكواة الزيتونية، السكينية، الهلالية، المسمارية، ذات السفودين، ذات السفافيد فيحرق الجلد كله إلى الصفاق حتى تخرج المدة[5].

---

[1] ابن الأخوة، معالم ، ص168، ابن بسام، نهاية ، ص109، الشيزري، نهاية ، ص98، 99.

[2] انظر: حسين ، الموجز، ص116-117.

[3] الكندر: لفظ فارسي وهو اللبان بالعربية، انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج 2، ج4، ص84.

[4] ابن الأخوة، معالم ، ص169، ابن بسام، نهاية ، ص122، 123، و انظر: الخطيب، الطب ص281.

[5] حسين ، الموجز، ص 107-109.

كما كان للفاصد أدوات خاصة بالفصد مثل: " مباضع ذوات الشعرة وغيرها، وأن تكون معه نافخة المسك وأقراصه حتى إذا عرض للمفصود غشى بادر بشمة نافخة المسك وجرعة من أقراص المسك شيئاً فتنتعش قوته "[1].

وعلى الكحال أو طبيب العيون ضرورة أن يهتم بنظافة آلاته وأدواته، وأن يغسلها جيداً بعد كل استعمال حتى لا تنتقل عدوى الأمراض من شخص لآخر[2].

واستخدم المجبرون كذلك أدوات متعددة لعلاج الكسور، وقد كان بعض أطباء العظام في العصر المملوكي يستخدمون أدوات النجارين في تجبير الكسور، كأسد الحكيم اليهودي المعروف بالسيدة[3]، الذي قال:" جبرت رجلاً وداويتها بقدوم ومنشار ومثقب[4].

إلى أن تطور طب العظام، حتى بلغت الدقة عند أطباء المسلمين أنهم كانوا يثقبون حول العظم المكسور وذلك من خلال آلات متطورة، حيث يجعلون المثقب على العظم، ويديرونه بأصابعهم حتى يعلموا أن العظم قد نفذ، ثم يتم نقل المثقب إلى موضع آخر، ويجعل ما بين كل ثقب على قدر غلظ المرود أو نحوه، ثم يقع بالمقطع بين كل ثقبين من العظم، ويفعل ذلك بغاية الرفق، حتى يقطع العظم إما باليد أو بشيء آخر من بعض الآلات مثل الجفت والكلاليب[5]، وهذا يعكس مدى براعة أطباء مصر والشام خلال تلك الفترة.

---

(1) ابن الأخوة، معالم ، ص161. ابن بسام، نهاية ، ص 112.

(2) ابن النفيس، المهذب، ص26-27.

(3) الصفدي، أعيان، ج1، ص489؛ الوافي، ج9، ص7.

(4) الصفدي، أعيان، ج1، ص489.

(5) حسين ،الموجز ، ص146.

الفصل الثاني

منشآت تعليم الطب والرعاية الصحية في مصر والشام في العصر المملوكي

أولا : دور الأوقاف في النهضة بتعليم الطب.

ثانيا : مؤسسات تعليم الطب في العصر المملوكي.

1- المساجد والجوامع

2- الزوايا

3- الربط

4- الخنقاوات

5- دور العلم

6- المجالس الطبية

7- التعليم الطبي في البيمارستانات

8- المدارس الطبية في مصر والشام في العصر المملوكي

ثالثا : منشآت الرعاية الصحية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

1- المنشآت العلاجية الثابتة (البيمارستانات).

2- المنشآت العلاجية المتنقلة

3- الحمامات

كان العلماء في المشرق أو المغرب يشدون الرحال إلى دولة المماليك التي غدت منذ منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، مركزاً للخلافة العباسية " وصارت محل سكن العلماء ومحط الفضلاء "[1]، وقد اهتم سلاطين المماليك اهتماماً كبيراً بالعلم والعلماء فامتد اهتمامهم إلى المنشآت العلمية كالمدارس والمكتبات وكان الظاهر بيبرس (658- 676هـ/1260-1277م) من أول السلاطين المماليك الذين اهتموا بإنشاء المدارس حيث أنشأ المدرسة الظاهرية[2]، وألحق بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب، واختلفت المدارس وتعددت أغراضها فكان هناك مدارس لتدريس الفقه للشافعية والحنفية والمالكية[3].

كما أن تدفق الأموال على البلاد نتيجة انتعاش التجارة صحبه ازدهار هام سواء في بقية النشاط الاقتصادي كالزراعة والصناعة أو في النشاط الفكري والعلمي سواء في التأليف أو في بعض العلوم التي جمعت بين المهارة في فن الصناعة والدقة في تطبيق العلم على العمل ومن أبرزها علم الطب[4].

أولا: دور الأوقاف في النهضة بتعليم الطب:

لما كانت دولة السلاطين المماليك وبخاصة في فترة عنفوانها تمتلك الأموال الضخمة فإن الأوقاف التي وقفها السلاطين المماليك لعبت دوراً بارزاً في النهوض بعلم الطب فالأوقاف التي أوقفها السلطان المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري كان لها عظيم الأثر في تدريس الطب بالبيمارستان المنصوري، فقد نصت وثيقة الوقف على مصالح البيمارستان المنصوري على تعيين شيخ للاشتغال بالطب، ويكون من بين أطباء البيمارستان، وخصص له الوقف مكاناً محدداً لإلقاء دروس الطب على طلبته " لمن ينصبه شيخاً للاشتغال عليه بعلم الطب على خلافته، يجلس بالمصطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه في الأوقاف التي يعينها له الناظر، ما يرى من صرفه إليه وليكن من جملة أطباء ذلك البيمارستان المبارك "[5].

---

[1] السيوطي، حسن، ج2، ص86. انظر: الرافعي، مصر، ص547-548. عاشور، العصر المماليكي، ص321، 322.

[2] المدرسة الظاهرية: هذه المدرسة بشارع بين القصرين كان موضعها من القصر الكبير بقاعة الخيم، ابتدء بعمارتها في ثاني ربيع الآخرة عام (660هـ/1261م)، وجعل الملك الظاهر فيها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم. للمزيد عن المدرسة الظاهرية انظر: المقريزي، خطط، مج4، ص505-512.

[3] الدودار، زبدة، ج9، ص17، 18.

[4] غانم، الأزمات.65.

[5] ابن حبيب، تذكرة ، ج1، ص366.

ووصف ابن بطوطة وقف الملك المنصور قلاوون للبيمارستان، فقال: " وأمـــا المارســـتان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم "[1]، ويذكر المقريزي أن جملة الأوقاف التي أوقفها السلطان قلاوون بديار مصر وغيرها ما يقارب من ألـــف درهـــم ســـنوياً[2]، ويصف ابن تغري بردي ثراء البيمارستان المنصوري فإننا لا نعلم في الإسلام وقفاً على وجه بـــر أعظم منه ولا أكثر مصروفاً ولا أحسن شرطاً[3].

ويصف ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت873هـ/1468م) ضخامة أوقاف البيمارستان المنصوري بقوله: "وقرر وقفه في كل عام أربعين ألف مثقال ذهب أفـــرد مـــن ذلك لعمارته وخدامه أربعة آلاف وقرر مصروفه في كل يوم مائة مثقال "[4]، ويؤيد ابن إياس ذلك القول عندما أورد أن أوقاف البيمارستان المنصوري كانت تشمل في كل عام علـــى ســـتين ألـــف دينار[5]، ووصفه ابن إياس بقوله: " أوقف عليها عدة أوقاف من ضياع وأملاك وبساتين ومـــسقفات وغير ذلك، وهو من حسنات الزمان، تحتاج إليه الملوك ولا يستغني عنه الغنى ولا الصعلوك"[6]

وساعدت الأوقاف على أن يستمر البيمارستان في تأدية دوره خاصة أن الرعاية الصحية لم تكن من مهام الدولة، وإنما كان يقوم بها الأفراد تقرباً إلى الله عز وجل[7].

وجاء ذلك المعنى في وثيقة وقف البيمارستان المنصوري: وعد المتصدق بصدقته استمرار أجوره حال حياته وبعد مماته[8]، وتلك الأوقاف تمكن البيمارستان من أداء رسالته العلميـــة نحـــو الطلاب، والعلاجية نحو المرضى على خير وجه.

وكان لضخامة الأوقاف التي أوقفها السلطان قلاوون على البيمارستان أثرها بأن يـــستقبل ذلك البيمارستان المرضى من كل فئات المجتمع حيث كانت تلك الأوقاف تدر ريعاً ســـنوياً مكـــن البيمارستان من أداء مهامه.

---

[1] رحلة، ج1، ص203.

[2] خطط ، مج4، ص696.

[3] مورد ، مج2، ص39.

[4] زبدة، ص29.

[5] بدائع، ج1، ق1، ص353.

[6] المصدر نفسه، نفس الصفحات.

[7] عاشور، بحوث، ص555.

[8] انظر: ابن حبيب، تذكرة ، ج1، ص330.

فقد أوقف الملك المنصور قلاوون من أملاك القيـاس والريـاح والحوانيـت والحمامـات والفنادق والأحكار وغير ذلك من ضياع الشام ما يحصل من أجر ذلك وريعه وغلائه في كل شهر جملة كثيرة وجعل أكثر ذلك على البيمارستان ثم التربة والقبة ورتب وقف المدرسة إلا أنه يقـصر عن كفايتها ورتب لمكتب السبيل من الوقف بالشام ما يكفيه[1]، وبعدما أوقف البيمارستان الـسلطان المنصور ورتب أموره استدعى قدحاً من الشراب فشربه وقال: "قد وقفت على هذا مثلي ممن دوني وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجندي والأمير والوزير والكبير والصغير والحر والعبد الذكور والإناث "[2].

"وما زال أمر ذلك البيمارستان في زيادة من القوة ووفور من الحرمة بحيث أنه إذا تـآمر أحد من الأمراء جليلاً كان فيهم أو حقيراً لابد أن ينزل من القلعة عندما يخلع عليه ليحلف عند قبر الملك المنصور قلاوون بالقبة من البيمارستان ويكون ليوم التحليف اجتماع واهتمام فـي المأكـل والمشرب بقدر محل ذلك الأمير وكبر منزلته وعظم رتبته ولم يزل ذلك رسماً جارياً وحكماً ماضياً إلى أن زالت دولة بني قلاوون "[3].

وجعل السلطان قلاوون ذلك البيمارستان صدقة جارية يستفيد منه الناس كافة، عمت صدقته الأحياء والأموات[4]، يدخلونه جموعاً ووحداناً، وشيوخاً وشباناً، وبلغاً وصبياناً، وحرماً وولداناً، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين يرونهم وشفائهم، فيصرف ما هو معـد فيه للمداواة ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي والغريب، والقوى والضعيف والدنيء والشريف والعلي والحقير والمأمور والأمير والأعمى والبصير، والمفضول والمفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك[5].

ومن الجدير بالذكر أن غالبية البيمارستانات في الدولة المملوكية قد أوقفت عليها الأوقاف، ومنها أيضا: المارستان الذي بناه سنجر بن عبد الله الأمير علم الدين الجاوليّ بمدينة غـزة وقـد " وقف عليه عن الملك الناصر أوقافا جليلة "[6].

---

[1] ابن الفرات، تاريخ، مج8، ص9.

[2] المصدر نفسه، نفس الصفحة، مج8، ص9. المقريزي، خطط، ج4، ص696.

[3] المقريزي، خطط، ج4، ص696.

[4] الفرماني، اخبار، ص200.

[5] انظر: ابن حبيب، تذكرة ، ج1، ص359.

[6] المقريزي، خطط ،ج4، ص256.

كما تم تخصيص الأوقاف اللازمة للإنفاق على البيمارستان الصلاحي المسمى بـــالعتيق[1]، وأفرد برسمه من أجرة الرباع[2]، الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار وغلات جهاتهـــا الفيـــوم[3]. ويبدو أن ديوان الأحباس[4] كان يتولى الإشراف على إيرادات الوقف وأوجه إنفاقها كما هو واضح من النص السابق.

ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم فقط بل تعدى الأمر إلى كافة جوانب الحياة التعليميـــة ووثيقة الوقف بمثابة اللائحة الأساسية التي تنظم العملية التعليمية في المؤسسات العلمية مـــن ذلـــك الشروط الواجب توافرها في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة وما إلى ذلك من التنظيمات المالية والإدارية[5].

وقد اهتم ملوك وأمراء المماليك بالإنفاق على بناء الحمامات بالشام، وتشييدها ووقف دخلها على بعض المنشآت العلمية مثل المدارس ووالبيمارستانات، وغيرها حتى يكون هناك مورد ثابت للإنفاق على هذه المنشآت[6]،و كذلك المنشآت الدينية كالخانقاوات وغيرها[7]، فقـــد أوقـــف حمـــام الجيوشي مع جملة أوقاف أخرى على رباط الذي بخط النخالين بالفسطاط[8]، وذكر المقريـــزي أن أوقاف حمام الساباط المعروف بحمّـــام المارســـتان المنـــصوري كانـــت مخصـــصة للمارســـتان المنصوري،" ولها شهرة في حمامات القاهرة "[9]، وأوقف حمام الذهب على مدرسة منازل العز[10]

---

[1] أقامه صلاح الدين بأحد قاعات القصر الفاطمي الكبير بالقاهرة وكان الخليفة الفاطمي العزيز بالله بنى هذه القاعدة سنة (384هـــ/994م)، وذكر المقريزي أن هذه القاعة كانت خزانة للأشربة تعد بها الأشربة والأدويـــة. اليـــافعي، مرآة، ج3، ص464. ابن الجوزي، ذيل، ج8، ق1، ص339.القلقشندي، صبح، ج3، ص 417.المقريزي، خطـــط، ج2، ص287؛ السلوك، ج1، 187.

[2] الرباع: هي أرزاق منها ما أنشئ من مال الديوان السلطاني قديماً، ومنها ما قبض عمـــن يوجبـــه عليـــه حـــق السلطان، ومنها ما قبض عن الإسماعيلية والأجناد المصريين.انظر: ابن مماتي، قوانين ، ص341.

[3] المقريزي، خطط، ج2، ص287؛ السلوك، ج1، 187.

[4] ديوان الأحباس: هو الديوان المختص بالنظر في أمر الأوقاف والأعمال الخيرية وغيرها. انظر: النابلسي، لمع، ص27، 28.

[5] حداد، السلطان، ص47.

[6] العليمي،الأنس ،ج1، ص139. أبو زيد، مجتمع، ص93. العـــسلي، آثارنـــا، ص171. المقابلـــة، المؤســـسات، ص119.

[7] المقريزي، خطط، ج2، ص80-85.

[8] المصدر نفسه، ج2، ص81، 82.

[9] المصدر نفسه ،ج3، ص146.

[10] المصدر نفسه، ج4، ص202.

ومن هذه الحمامات التي وقف دخلها للإنفاق على وجوه الخير حمام البطرك[1] حيث وقف هو والحوانيت المجاورة له للإنفاق على الخانقاة الصلاحية ببيت المقدس، كما وقف حمام الأسباط[2]، للإنفاق على المدرسة الصلاحية أيضاً[3]، كما كان في حلب حمام يعرف بحمّام عتاب، كان ثلثاه جاريا في أوقاف المدرسة البزازية[4].

ويشير ابن جبير إلى كثرة الأوقاف والتي كانت تتولى الإنفاق على المدارس وغيرها بقوله: ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة وأرض ورباع، حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه، وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة[5].

فقد كان يصرف من هذه الأوقاف على الطلبة واحتياجاتهم من الغذاء والكساء والأدوات التي تحتاجها العملية التعليمية وغير ذلك[6] وعلى الكتاتيب والزوايا الملحقة بالمدارس وعلى نفقات الكتب بالمكتبات الملحقة بتلك المدارس، والتي كان من بين كتبها كتب الطب[7].

كما كان ينفق من ربع هذه الأوقاف على الإصلاحات بمباني المدارس ومساكن الطلاب واستراحة المدرسين وغيرها[8].

ثانيا: مؤسسات تعليم الطب في العصر المملوكي:

برز خلال العصر المملوكي في مصر والشام، مجموعة من المنشآت هدفها الرئيس هو خدمة أهل مصر والشام في النواحي الصحية والطبية.

---

[1] حمام البطرك: وكان موقعه في حارة النصارى بين كنيسة القيامة وباب الخليل ببيت المقدس. انظر: العسيلي، من آثارنا، ص201، 213.

[2] حمام الأسباط: يقع في أول الطريق المتجه شمالاً بمحاذاة السور من الداخل والمعروف بطريق برج اللقاق، أي على يمين الداخل إلى باب الأسباط مباشرة. انظر: العسيلي، آثارنا، ص201، 213، والأسباط من اليهود كالقبيلة من العرب. انظر: العليمي، الأنس ،ج1، ص139.

[3] العليمي، الأنس ،ج1، ص139.العسلي، آثارنا، ص170.

[4] الغزي، نهر ،ج2، ص65.

[5] ابن جبير، الرحلة، ص223.

[6] الملا، أثر، ص54.

[7] عطا، مكتبات ، ص203.

[8] صبرة، المدارس، ص165-168.

ومن المعروف أن الأطباء هم قوام إنجاح عمل هذه المنشآت، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو من أين يأتي هؤلاء الأطباء وكيف يتم إعدادهم، ولعل ذلك هو ما دفع المماليك لتحقيق مجموعة كبيرة من المنشآت لتعليم علم الطب بدأت بالمساجد والجوامع والربط والخوانق، إضافة إلى البيمارستانات وانتهى الأمر بتخصيص مدارس منظمة لتدريس علم الطب.

وقد كان لهذه المنشآت التعليمية لعلم الطب أثر كبير في تخريج العديد من الأطباء والذين عملوا بعد ذلك في المنشآت العلاجية، حيث مارسوا مداواة وتطبيب الناس، ومن هؤلاء الأطباء ابن أبي أصيبعة الذي تعلم الطب في البيمارستان النوري بدمشق ثم مارس التطبيب في البيمارستانان الصلاحي بالقاهرة بعد ذلك.

وفي إطار تصدي المماليك للأمراض التي انتشرت خلال هذا العصر، إضافة إلى مداواة جرحى الحروب، اهتم السلاطين والأمراء ورجال الدولة والأطباء بإقامة المدارس لتعليم الطب والإنفاق عليها بسخاء، وتخصيص الأوقاف اللازمة للإنفاق عليها بل وشجعوا على إلقاء الدروس الطبية في الجوامع والمساجد والزوايا والمنازل وغيرها من الأماكن.

أما مراكز تدريس الطب في مصر خلال عصر سلاطين المماليك فقد تعددت الأماكن التي يتم تعليم الطب فيها في المجتمع الإسلامي قبل العصر المملوكي وذلك لأن علم الطب من أجل العلوم، إذ العلوم لا تشرف إلا بمسيس الحاجة إليها وشرف الموضوع فما ظنك باجتماعهما[1] فالناس كلهم في حاجة لعلم الطب، كما أن موضوع هذا العلم هو بدن الإنسان الذي هو أشرف الموجودات.

ومن ثم كان لهذا العلم قدسيته حيث يشير إلى ذلك أبقراط بقوله:" إن الطب أشرف الصنائع كله، إلا أن نقص فهم من ينتحلها صار سبباً لسلب الناس إياها، لأنه لم يوجد لها في جميع المدن عيب، غير جهل من يدعيها ممن ليس بأهل للتسمي بها، إذا كانوا يشبهون الأشباح التي يحضرها أصحاب الحكاية ليلهوا الناس بها، فكما إنها صور لا حقيقة لها، كذلك هؤلاء الأطباء بالاسم كثير، وبالفعل قليل جداً"[2]

لذلك يشير إلى أنه لابد في المقبل على "تعلم صناعة الطب أن يكون ذا طبيعة جيدة مواتية، وحرص شديد، ورغبة تامة، وأفضل ذلك كله الطبيعة لأنها إذا كانت مواتية فينبغي أن يقبل على التعليم ولا يضجر، لينضلع في فكره ويثمر ثمار حسنة، مثل ما يرى في نبات الأرض، أما الطبيعة

---

(1) الأنطاكي، تذكرة، ص8.

(2) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص46.

فمثل التربة، وأما منفعة التعليم فمثل الزرع، وأما تربية التعليم فمثل وقوع البذر في الأرض الجيدة فمتى قدمت العناية في صناعة الطب بما ذكرنا، ثم صاروا إلى المدن لم يكونوا أطباء بالاسم بل بالفعل"[1].

كما يشير إلى الفائدة التي تعود على المرء من تعلم علم الطب فيقول:"والعلم بالطب كنز جيد وذخيرة فاخرة لمن علمه، مملوءاً سروراً، سراً وجهراً، والجهل به لمن انتحله صناعة سوء، وذخيرة ردية، عديم السرور، دائم الجزع والتهور، والجزع دليل على الضعف، والتهور دليل على قلة الخبر بالصناعة"[2].

لذلك فلا يستطيع أحد من الناس أن يكون طبيباً إلا بعد أن يتعلم الطب على يد طبيب، وأن يمارس الطب عملياً، وأن يكون ذلك داخل إحدى المنشآت التعليمية[3] كما هو الحال في العصر الحاضر.

هذا وقد مر التعليم الطبي بمصر والشام في العصر المملوكي بعدة مراحل تدل على مدى تطور العملية التعليمية الطبية.

1- المساجد والجوامع:

تعتبر المساجد المركز الأول من مراكز تعليم الطب في العصر المملوكي. والمسجد هو أول مكان مارس فيه العلماء تدريس العلوم في ظل الدولة الإسلامية وفي مصر كان المسجد لا يزال يحتفظ بمكانته كمؤسسة علمية، على الرغم من انتشار المدارس في مصر، وبخاصة في العصر المملوكي.

وأول هذه المراحل كان هو التعليم داخل المساجد والجوامع حيث كانت من أفضل أماكن التدريس وذلك لكثرة المترددين عليها، وبالتالي يكثر عدد المنتفعين بالعلوم والدروس التي تدرس بها.

وتعد المساجد من أقدم المنشآت التعليمية في العلوم الشرعية، ثم تطورت بمرور الأيام حتى أصبحت جامعات إسلامية تدرس بها العلوم المختلفة ومنها علم الطب[4] وتوفرت بها كل مقومات نجاح العملية التعليمية من هيئة تدريس متمثلة في وجود علماء في كافة الفروع إلى جانب وجود

---

[1] ابن أبي أصيبعة، عيون، ص46.

[2] المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[3] المصدر نفسه، ص563-564.

[4] معروف، أصالة، ص469. قاسم، الطب، ص323.

خزائن للكتب في مختلف الفنون[1] إضافة إلى وجود عدد كبير من الدارسين وهو ما تميــزت بــه المساجد دون غيرها من المنشآت التعليمية، فقد كانت مفتوحة لا تقتصر على فئة معينة من الناس، فكل مسلم له الحق في التردد على المساجد سواء كان غنياً أم فقيراً، صاحب جاه أم رجل بـسيط من العامة[2].

وقد كان جامع أحمد بن طولون من مراكز دراسة الطب في العصر المملوكي، فالمنصور لاجين (696-698هــ/1296-1298م) عندما شارك في المؤامرة التي أدت إلى مقتل الأشــرف خليل بن قلاوون (693هــ/1293م) هرب واختبأ بمأذنة جامع أحمد بن طولون، وكان خرباً فنذر أن أتاه الله الملك أن يعمر ذلك الجامع، وعندما وصل إلى السلطنة عام (696هـــ/1296م)، نفـذ الوعد الذي قطعه على نفسه، وقام بتجديد جامع أحمد بن طولون[3]، حيث أوقف السلطان المنصور لا جين على ذلك الجامع أوقافاً[4]، ورتب فيه درساً للطب إلى جانب العلوم الأخرى[5]، وجاء فـي وثيقة السلطان حسام الدين لاجين أن يجلس بالجامع المذكور لإقراء الطب وتعليمه، وأن يرتب لــه من الطلبة عشرة يشتغلون عليه بعلم الطب وتعليمه، يلزمهم بالدرس بحفظ ما يجب حفظه وعرضه وتصحيحه[6].

فأصبح جامع ابن طولون إذن مدرسة طبيه، إن جاز التعبير، يتخرج منها طلاب الطــب، الذين يدرسون الطب نظرياً ، ثم يلتحقون بالبيمارستان للممارسة العملية لكي يكونوا مؤهلين لتحمل المسؤولية المهنية بعد تخرجهم وممارسة مهنة الطب.

وكان من بين الأطباء الذين قاموا بتدريس الطب في الجامع الطولوني: ابن إبــراهيم علــم الدين الشوبكي، الطبيب الفاضل، كان عارفا بالطب توفي عام(724هــ/1323م)[7]،" وكــان مــن أطباء السلطان،.. واختصر مسائل حنين، وتولى القاضي جمال الدين بــن المغربــي مكانـــه فـــي الجامع"[8]. والشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على المعــروف بالبغــدادي المتــوفي ســنة

---

[1] معروف، أصالة، ص470.

[2] عبد العاطي، التعليم ، ص160.

[3] النويري، نهاية ،ج31، ص322. المقريزي، خطط، ج4، ص43؛ السلوك ،ج2، ص279.

[4] حجة وقف المنصور لاجين على جامع بن طولون، دار الوثائق القومية، رقم 217، ميكرو فيلم 14.

[5] النويري، نهاية ،ج31، ص322. ابن الفرات، تاريخ، مج2، ص229. المقريزي، خطط، مج4، ص43؛ السلوك ،ج2، ص279. السيوطي، حسن المحاضرة، ص315. عيسى، تاريخ ، ص161.

[6] حجة وقف المنصور لاجين على جامع بن طولون، دار الوثائق القومية، رقم 217، ميكرو فيلم 14.

[7] الصفدي،أعيان ،ج2، ص144.

[8] المصدر نفسه، ج2، ص145.

(ت739ه/1338م)ـــ، و شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري الحنفي المتـــوفي سنة (ت776ه/1374م)ــ[1]. ويعد الطبيب محمد بن أحمد بن أبي اسحق المخزومي مـــن الأطبـــاء الذين تولوا تدريس الطب بجامع أحمد بن طولون أيضاً وكان مولده عام(793هــ/1390م) بالقاهرة ونشأ بها، وكان ممن اختصهم الأشرف برسباي[2].

وممن درس فيه الطب: سراج الـــدين عمـــر بـــن عبـــد الله البهـــادري الحنفـــي، تـــوفي عام(834هــ/1430م)[3]. كذلك تولى تدريس الطب بجامع أحمد بن طولون ابن الأمشاطي رئـــيس الأطباء (محمود بن أحمد بن حسن بن يعقوب العينتابي الحنفي، الرئيس مظفر الدين بن الأمشاطي) ولد في حدود عام (812هــ/1409م) واشتغل في الفقه وغيره وبرع في الطب ففاق فيه[4].

كما كان جامع يلبغا من الأماكن التي يدرس فيها الطب فكان القاضي شهاب الـــدين أحمـــد البقاعي الحنفي ممن "درس فيه كل سبت وثلاثاء"[5] و" كان له استحـــضار وذهـــن وتعلـــق بعلـــم الطب"[6].

ومن المحتمل أن يكون جامع ابن المغربيّ[7][8]، من الأماكن التي كان يتم فيهـــا تـــدريس الطب خاصة إذا ما علمنا أن ابن المغربي قد "عمل به درسا "[9] علما أن ابن المغربي كان طبيبـــا، بل رئيسا للأطباء.

---

(1) ابن حجر،إنباء ،ج1، ص94. السيوطي، حسن المحاضرة ،ج1، ص546.عيسى، معجم، ص114، ص403.

(2) السخاوي، الضوء، مج3، ج6، ص284، 285. انظر: عيسى، معجم، ص368.

(3) وكان إماماً في تدريس الفقه واللغة والنحو وانتهت إليه الرئاسة في علم الطب، وتقدم على أقرانه في ذلك لغزارة حفظه وكثرة استحضاره. الذهبي، العبر، ج7، ص208، 209. المقريزي، السلوك، ج7، ص 230. ابـــن العمـــاد، شذرات، ج4، ص225. عيسى، معجم، ص3.

(4) السخاوي، الضوء، ج10، ص128، 129. السيوطي، نظم، ص174.

(5) البصروي، تاريخ، ص 100.

(6) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(7) بالقرب من بركة قرموط المطلّ على الخليج الناصريّ، مقابل الخليج الحاكمي بالقرب من باب الخوخة بالقاهرة. المقريزي،خطط، ج4، ص141؛ السلوك، ج4، ص384. ابن حجر، إنباء ، ج1، ص101.

(8) يوسف بن عبد الله الطبيب، صلاح الدين بن المغربي، رئيس الأطباء بالقاهرة، مات في جمادى الآخرة، الـــذي مات في جمادى الآخرة سنة 776. المقريزي،خطط، ج4، ص141؛ السلوك، ج4، ص384. ابن حجر، إنبـــاء ، ج1، ص101؛ الدرر، ج6، ص236.

(9) المقريزي، خطط ،ج4، ص141؛ السلوك ،ج4، ص 384.

أما في بلاد الشام فقد كانت المساجد والجوامع أحد مراكز تعليم الطب أيـــضاً حيـــث يعـــد المسجد الأقصى أحد هذه المساجد التي كان يدرس فيه الطب[1].

هذا وقد استمرت المساجد والجوامع تؤدي دورها في تعليم علم الطب في مصر والشام في العصر المملوكي، وإن كان قد تأثر بعض الشيء بسبب إقامة المدارس والبيمارستانات والتي قننت عملية التدريس فيها، ووضعت لها مناهج، ولوائح وهيئات تدريس وتمريض ورقابة.

2- الزوايا:

إضافة إلى تدريس الطب في المساجد والجوامع، فقد درس أيضاً في الزوايا[2] حيث كـــان تدريس العلوم والمعارف الإسلامية هو الغالب على الزوايا، ثم تطور وأصبح عليها الجمـــع بـــين الطابع العقائدي والسياسي[3]، وقد انتشرت بكثرة في مصر والشام، وأصبح يدرس بها إلى جانـــب العلوم الشرعية الطب وغيره من العلوم العقلية[4].

وقد ساهمت هذه الزوايا[5] بدور كبير في نشر الثقافة والعلوم الإسلامية ومنها علم الطـــب، وقد أوقف السلاطين والأمراء أوقافاً كثيرة على هذه المنشآت والمقيمين بها، ومن ذلـــك: أن نـــور الدين رحمه الله، عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك بدمـــشق أوقافاً كثيرة منها: "طاحونتان، وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام، ودكانان بالعطارين"[6]. كمـــا كان التزام أي زاوية من زوايا المسجد الجامع بدمشق يجعل هذا المنزل يجبي إليه رزقه وتجـــري عليه النفقة[7].

---

[1] ابن أبي أصيبعة، عيون، ص689.

[2] الزوايا: مفردها زاوية وهي من البناء ركنه، لأنها جمعت بين قطرين منه وضمت نـــاحيتين، والمـــسجد غيـــر الجامع ليس فيه منبر، يقال له زاوية، كما أنها مأوى للمتصوفين والفقراء. انظر: المعجـــم الـــوجيز، مـــادة زوى، ص297. وهي موضوع للإنزواء، وكانت في بداية الأمر عبارة عن تجمعات دينية ينزوي فيه للدرس ومن يتحلقون حول الشيخ وكانت في ركن من المساجد الجامعة انظر: عبد الله، معاهد ، ص52.

[3] عبد الله، معاهد ، ص52.

[4] المقريزي، خطط، ج2، ص343.

[5] ومن هذه الزوايا: زوايا مسجد دمشق الجامع، حيث كان للجامع ثلاث صوامع، واحدة في الجانب الغربي وهـــي كالبرج المشيد يحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها إلى إغلاق يسكنها أقوام من الغرباء من أهـــل الخير. انظر: ابن جبير، رحلة، ص232.

[6] المصدر نفسه، ص232.

[7] المصدر نفسه، ص225.

3- الربط :

هذا وقد لعبت الربط[1] أيضاً دوراً مهماً في إثراء العملية التعليمية في مصر والشام، حيث توفرت بها الكثير من المقومات لإنجاح العملية التعليمية، ، ويشير إلى ذلك بن جبير بقوله: " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربية فليرحل إلى هذه البلاد ويتغير في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة"[2]:

فأولها: فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر لمن يدين بالعجز والتسويف[3].

لذلك حرص السلاطين والملوك على وقف الأوقاف للصرف على هذه الربط والمقيمين بها[4]

وثانيها: هو وجود خزائن للكتب بها، وبها مواضع للقراءة والنسخ والتأليف وإلقاء المحاضرات، فكان كل ذلك يشجع العلماء على المكوث بها لفترات طويلة[5].

4- الخنقاوات:

كما أسهمت الخانقاوات[6] بنصيب وافر في تعليم الطب ومختلف العلوم[7] حيث أن نظام الإقامة والتعليم داخل الخانقاوات كان يخضع لتنظيم دقيق، فقد كان لها موظفون للوظائف الدينية والتعليمية منهم شيخ الخانقاة، ومدرسوا الخانقاة، وإمام الخانقاة وناظر وقف الخانقاة، وصوفية الخانقاة، ونزلاء الخانقاة[8]، كما كان لها موظفون للوظائف الخدمية مثل: كاتب الغيبة، وشاهد الشونة، وشاهد المخبز والمزملاتي، والطباخ، ومقدم النعال[9].

---

[1] الربط مفردها رباط، ورباط الخيل مرابطها لخمس منها فما فوقها، والرباط ملجأ للفقراء من الصوفية، والمرابطة الجماعة من الناس والخيل تلزم الثغر مما يلي العدو. انظر: المقريزي، خطط، ج4، ص 302. المعجم الوجيز ، ص252.

[2] ابن جبير، رحلة، ص232.

[3] المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[4] ابن واصل، مفرج ، ج1، ص283. الأسدي، أحياء ، ص44.

[5] معروف، أصالة، ص465.

[6] الخانقاوات: مفردها خانقاه، وهي كلمة فارسية تعني الدار التي يقيم بها المتصوفة انظر: المقريزي، الخطط، ج4، ص 280، وقد كثرة الخانقاوات ببلاد الشام في العصر المملوكي، ويشير إلى ذلك ابن جبير بقوله:"وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ....." . انظر: ابن جبير، رحلة، ص231، وقد كان لصوفية الخانقاوات دور سياسي متميز، وعن ذلك انظر: ناصف، دور الصوفية، رسالة دكتوراة.

[7] عبد الله، معاهد، ص218، 273.

[8] رزق، خانقاوات ، ج1، ص138.

[9] المرجع نفسه، نفس الجزء و الصفحة.

وتبدو أهمية الخانقاوات فيما كانت تقدمه من خدمات صحية للمحافظة على صحة المقيمين فيها، فكان في الخانقاة سرياقوس الطبائعيّ والجرائحيّ والكحال[1].

5- دور العلم:

كما لعبت دور العلم والتي كانت تعرف من قبل باسم بيت الحكمة أو دار الحكمة أو خزائن الحكمة[2] دوراً مهماً في تعليم علم الطب فقد تطورت في هذه الفترة وأصبحت بمثابة معاهد عامـــة تضم قاعات خاصة تلقى بها المحاضرات في العلوم المختلفة[3] إلى جانب احتوائها علـــى خـــزائن للكتب[4] تضم مختلف العلوم والآداب، من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب وسمح لمن رغب بالتردد عليها كيفما شاء[5].

أي أن دور العلم خلال تلك الفترة أصبحت أعم وأشمل من خزائن الكتب القديمـــة والتـــي كانت عبارة عن أماكن تخزن فيها كتب للإطلاع عليها ونقلها وترجمتها، ويعبر المقريزي عن هذه النقلة التي حدثت في نظم دار العلم أو الحكمة بقوله: "وحضرها الناس على طبقاتهم فمـــنهم مـــن يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم[6]، أي التعلم على يد العلماء الذين كانوا يحاضرون بهده الدور.

هذا وقد استمرت دار العلم والتي كانت موجودة بطرابلس الشام، تؤدي دورها خلال العصر المملوكي، ويقصدها الطلاب والدارسون من كل مكان حيث يدرسون العلوم المختلفة ومنها الطـــب على أيدي علماء متخصصون[7]، ويعد العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعرف بـــابن العبري (623-684هـ/1226-1286م) أشهر من درس بهذه الدار في العصر المملوكي، حيـــث تلقى بها دروس في الطب[8].

ومن ذلك يتضح لنا أن علم الطب كان أحد العلوم التي تدرس داخل هذه الـــدور أي أنهـــا كانت من منشئات تعلم الطب وغيره من العلوم.

---

[1] المقريزي، خطط ،ج4، ص295.

[2] الملا، أثر، ص56، 57.

[3] قاسم، الطب، ص223، 224،

[4] معروف، أصالة، ص457.

[5] المقريزي، خطط، ج1، ص458. سرور، مصر ، ص219، 220.

[6] المقريزي، خطط ، ج1، ص458، 459.

[7] تدمري، الحياة، ص69.

[8] ابن العبري، تاريخ، المقدمة، ص3.

6- **المجالس الطبية:**

كما كان للمجالس العلمية التي يعقدها الأطباء دور كبير في نشر التعليم الطبي خلال هـذا العصر، حيث كان الأطباء خلال القرنين السابع والثامن الهجريين يدرسون الطب داخل منازلهم في مجالس خاصة، حيث يتردد عليهم الطلبة والمشتغلون بصناعة الطب ليقرءوا عليهم كتب العلمـاء والأطباء السابقين ويفسرونها ويشرحونها لهم[1].

وقد كان بعض الأطباء يلقون دروس الطب على الطلبة والراغبين فـي المعرفـة خـارج منازلهم في مجالس عامة متمثلة في الدكاكين والساحات والأسواق[2] وكانت هذه المجـالس تتميـز بحرية كبيرة لأن الطالب كان حراً في اختيار المعلم أو الطبيب الذي يدرس عليه عكس المـدارس المنظمة[3] التي يفرض فيها على الطالب طبيب أو معلم بعينه.

كذلك ساعدت مجالس العلم وإن لم تكن مؤسسات تعليمية بالمعنى الصحيح علـى تطـوير التعليم إلى حد بعيد إذ كان يحضرها الطلبة، وكانت المجالس تعقد بمحض الصدفة في الغالب، " أن يذاكر به الأقران والأنظار طلباً للتحقيق والمعاونة لا المغالبة والمكابرة بـل غرضـه أن يـستفيد ويفيد"[4].

ومن أشهر المجالس ذلك المجلس الذي دار فيه بين ابن النفيس وابن واصل مناظرة علمية أشارت إليها المصادر إلى أنها تميزت بروح الود والبعد عن روح التعصب وهي لم تكن منـاظرة تنافسية بقدر ما كانت واحة من واحات المعرفة، بين عالمين جليلين، ويصف السديد الدمياطي وهو تلميذ ابن النفيس تلك المناظرة فيقول: " اجتمع ليلة هو وابن واصل وأنا نائم عندهما فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة شرعاً في البحث وانتقلا من علم إلى علم والشيخ علاء الدين كل ذلك يبحـث برياضة ولا انزعاج وأما القاضي جمال الدين فإنه ينزعج ويعلو صوته وتحمر عيناه وتنتفخ عروق رقبته ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح فلما انفصل الحال قال القاضي جمال الدين يا شيخ علاء الدين أما نحن فعندنا مسائل ونكت وقواعد وأما أنت فعندك خزائن علوم "[5].

---

(1) علي، الحياة، ص213.

(2) المرجع نفسه، ص214.

(3) عبد العاطي، التعليم، ص307.

(4) ابن الأكفاني، إرشاد، ص103.

(5) العمري، مسالك، ج9، ص618. انظر ً: عيسى، معجم، ص293. حداد، مكتشف، مج89، ج3، ص262.

فقد كان مجلس أبن النفيس ملتقى فكري حرص أن يحضره الأمراء ورؤساء الطب وأكابر الأطباء وغيرهم من مختلف الطبقات[1]

وكانت المجالس في بعض الأحيان تعقد في وجود السلاطين والأمراء، ويظهر فيها المتنافسون مدى قدرتهم العلمية ومدى تحصيلهم، وتلك المناظرات تعود بلا شك بالنفع على طلاب العلوم المختلفة الذين يحرصون على متابعة تلك المجالس ولا سيما إذا كان المتناظرون ذوى سمعة علمية كبيرة فإن تلك المجالس تكون مزدحمة بالطلاب الذين يحرصون كل الحرص على متابعتها ومن أشهر تلك المجالس مجلس الطبيب ابن النفيس كان يعقد في داره ويحضره جماعة من الأمراء والمهذب بن أبي خليفة رئيس الأطباء وأكابر الأطباء و كان يجالس الناس في طبقاتهم[2].

وفي سنة (757ه/1356م)ــ" قدم شخص يقال له نظام الدين أبو بكر محمد بن عمر بن أبي بكر الهمذاني الأصل التبريزي المولد، وكان ادعى في الطب والتنجيم دعوى عريضة وتناظر هو وسراج الدين عمر بن منصور بن عبد الله البهادري الحنفي، فاستظهر لبهادري عليه بكثرة استحضاره وذكائه وجمود أبي بكر المذكور، فلما كاد أمر البهادري أن يتم نكت عليه كاتب السر أنه لا يدري العلاج وإن كان يدري الطب وأن يده غير مباركة فإنه ما عالج أحداً إلا مات من مرضه ونصيحة السلطان واجبة، واستشهد بجماعة منهم ابن العجمي فوافقوه فانحل السلطان عنه وصرفهم، ثم أمرهم أن يتوجهوا إلى المارستان ويكتبوا لمن فيه أوراقً لينظر في أمرهم أيهم أصح كتابة، فلم ينجع من ذلك شيء[3].

7- التعليم الطبي في البيمارستانات:

تعد البيمارستانات أهم المؤسسات العلمية في دراسة علم الطب حيث إنها أتاحت فرصة عظيمة لطلاب الطب لممارسة الطب عملياً بعد أن أتموا دراستهم النظرية، ولذلك وجب على طالب العلم ملازمة البيمارستان ليطلع على مادة دراسية جديدة تتمثل في المريض الذي يطبق عليه الطالب ما درسه، وأوصى السلطان المنصور قلاوون بضرورة وجود معلم للطب في البيمارستان على أن يكون من الأطباء المهرة لتدريس الطب نظرياً[4].

---

[1] العمري، مسالك، ج9، ص 618.

[2] المصدر نفسه، ج9، ص620.

[3] ابن حجر، إنباء ،ج3، ص194.

[4] ابن حبيب، تذكرة ، ج1، ص366-367.

وأسلوب التعليم المتبع في البيمارستانات والذي اتبعه الأطباء مع طلابهم يقوم على أسلوب السؤال والجواب، حيث يسأل الطالب عن سبب علة المريض وطريقة علاجهـــا، والعـــلاج الـــذي يوصف لها، ويجيب الأستاذ على تلك الأسئلة دون ضجر، وليجمع عنده شمل الطلبة، وليبلغ كـــل متمن من الاشتغال أربه، وليشرح صدره ويبذل لهم من عمره شطره، وليكشف لهم من هذا العلـــم المكنون سره وليريهم ما خفي عنهم منه جهره[1]، وليبرز لهم من وراء المحراب كمينه وليـــنفض جداولهم الجافة معينة وليقذف لهم من جنبات ما بين جنبيه درر ذلك البحر العجاج وليرهم من غرر جياده ما يعلم به أن سوابقه لا يهولها قطع الفجاج وليظهر لهم من مكنون علمه ما كان يخفيه الوقار وليهب من فنون فضله مما يهب منه عن ظهر غنى أهل الافتقار[2].

وتعد الدراسة النظرية هي الخطوة الأولى التي يخطوها طالب الطب في دراسته الطبيـــة وبعد أن يتم تلك الدراسة يجب عليه أن يمارس الشق الثاني من دراسة الطـــب، وهـــو الممارســـة العملية التي أتاحتها له البيمارستانات، وكانت المناقشات التي تـــدور بـــين الأطبـــاء الكبـــار فـــي البيمارستان من أعظم الفوائد التي تعود بالنفع على طلاب الطب فتتضاعف الفوائد المقتبـــسة مـــن اجتماعها، وبما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها ومما كان يصفاه للمرضى[3].

وكانت الدراسة تنقسم فيها إلى جانب نظري وجانب عملي، حيث كـــان يخـــصص بكـــل بيمارستان قاعة يجتمع فيها رئيس أطباء البيمارستان مع تلاميذه ومعاونيه الأطباء، حيث يقرأ عليهم بعضاً من الكتب الموجودة بخزانة القاعة، وبعد انتهائه منها، تبـــدأ المناقـــشات التـــي قـــد تمتـــد لساعات[4]. ثم ينتقل بعد ذلك رئيس الأطباء مع تلاميذه ومعاونيه إلى حجرات المرضى، حيث تتم المعاينة والكشف، ويشرح لتلاميذه كل حالة على حده، وطريقة العلاج لها، وكان يخصص وقـــت أكثر لدراسة الحالات المستعصية، التي تستلفت الانتباه ويدور حولها البحـــث والنقـــاش والتحليـــل والشرح والطلبة يدونون ويسجلون ما يدور في الجلسات حتى يمكنهم الرجوع إليه عنـــد الحاجـــة إليه[5].

وقد أشار ابن أبي أصيبعة إلى هذا الجانب العملي في تدريس الطب بالبيمارستان، من خلال تجربته الشخصية في دراسة الطب على يد الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن الدخوار بالبيمارستان

---

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص230. القلقشندي، صبح، ج11، ص255.

(2) العمري، التعريف، ص134، 135.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص743.

(4) عيسى، تاريخ ، ص209، 210.

(5) هونكة، شمس، ص234. عبد القادر، مقدمة، ص54، 55.

النوري بدمشق فيقول: "قد لازمته في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان فتدرب معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب، وكان في ذلك الوقت أيضاً معه في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران[1] وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، ومما كان يجري بينهم من الكلام في الأمراض ومداواتها ومما كانا يصفاه للمرضى[2].

ويشير أيضاً إلى هذا الجانب العملي فيقول: ورأيته يوماً في قاعة المحمومين وقد وقفنا عند مريض، وجست الأطباء نبضه فقالوا عنده ضعف ليعطي مرقه الفروج للتقوية فنظر إليه وقال: إن كلامه ونظر عينيه يقتضى الضعف، ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى وقال: "جسوا نبض يده اليسرى فوجدناه قوياً، فقال: انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت التي إن من الناس، وهو نادر من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف، وإنما يكون جسم لتلك الشعبة التي هي نصف العرق فيعتقدون أن النبض ضعيف"[3]، ومن ذلك يتضح لنا أن الدراسة بالبيمارستان، كانت تعد نوعاً من التطور في التعليم الطبي، حيث أنها كانت تكسب الدارس خبرات عريضة من خلال الدراسة النظرية والممارسة العملية على المرضى الموجودين بالبيمارستان، في الوقت الذي افتقرت فيه مراكز تعليم الطب السابقة إلى هذا الجانب العملي، واقتصر بعضها على الدراسة النظرية فقط لدرجة أن الغرب الأوروبي قد تأثر فيما بعد بتدريس الطب في البيمارستان عند المسلمين[4].

وقد كان يشترط فيمن يقوم بتدريس الطب بالبيمارستان أن يكون على درجة عالية من العلم وكذلك ينال أعجاب وثقة السلطان لذلك كان يمكن أن يجمع رئيس الأطباء بين عملين كرئيس للأطباء وكمدرس بالبيمارستان مثلما هو الحال مع المهذب ابن أبي خليفة حيث كان رئيساً لأطباء البيمارستان المنصوري وصدر له الأمر بالقيام بمهمة تدريس الطب في البيمارستان المنصوري

---

[1] الطبيب عمران الاسرائيلي: هو الحكيم أوحد الدين عمران بن صدقة مولده بدمشق عام(561هـ/1165م)، وكان أبوه أيضاً طبيباً مشهوراً واشتغل عمران على الشيخ رضى الدين الرحبي بصناعة الطب، وتميز في علمها وعملها وصار من أكابر المتعينين من أهلها وحظى عند الملوك واعتمدوا عليه في المداواة والمعالجة، ونال من جهتهم الأموال الجسيمة والنعم، وتوفي في مدينة حمص في شهر جمادي الأولى عام (637هـ/1239م). ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص696.

[2] المصدر نفسه، ص731.

[3] المصدر نفسه، ص732.

[4] حسين، الطب، ص301.

أيضاً[1]. وأجمل القلقشندي الشروط الواجب توافرها في رئيس الأطباء المدرس "علاجــه شــفاء حاضر وكلامه نجاة من خطر مخامر وتدبيره للصحة تقوم وتصحفه تثقف لعلماء الصناعة وتسليم ودروسه ذخائر ينفق من جواهر حكمها كل حكيم[2]

وكان رئيس الأطباء أثناء تدريسه للطب في البيمارستان يقوم باصطحاب طلابه ويمر على المرضى، ويفسر العلل والأمراض للطلاب، ويعرفهم طرق العلاج الصحية والتي تتم عن طريــق سؤال المريض والاستماع إلى شكواه واستقصاء حاله[3]، وهذا هو المعمول به في كليات الطب في مصر وفي الخارج الآن.

وفي البيمارستان لا يعرف طلاب الطب العلل وكيفية علاجها فقط، وإنما يعرفــوا أيــضاً تركيب الأدوية وذلك من خلال مصاحبتهم للأطباء الكبار الموجودين بالبيمارستان فكــان يملــي صفات أدوية مركبة بحسب ما يحتاج إليه ذلك المريض من الأقراص أو السفوفات أو الأشربة، أو غير ذلك[4]،
حيث يدرس الطلاب كتب ابن البيطار وأهمها كتاب الجامع في الأدوية المفردة[5]، وهــذا طبيــب وصيدلي وهو تخصص موجود الآن باسم الصيدلة الإكلينيكية.

وكانت هيئة تدريس الطب على درجة عالية من الكفاءة تقوم بتدريس الطب كــلا حــسب تخصصه، وليفرد لكل علم من علوم الطب طائفة، ولكل فن فنونه لمحاسنه عارفــة[6]، ويــشرف رئيس الأطباء على هؤلاء الأطباء ويقوم بتوجيههم، ويشرح لهم ما يقف أمامهم حتى يتسنى لهم أن يجيبوا على الأسئلة التي يوجهها لهم الطلاب، وليكشف لهم ما أشكل عليهم من غوامضه، فليس لها من دون إيضاحه كاشفه، لينشر في المكان المبارك من أرباب هذه العلوم قوم من بعد قوم[7]، ليتم تخريج أطباء في كافة التخصصات الطبية، وليجعل مــنهم جماعــة طبائعيــة، وطائفــة كحــالين

---

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص228.

(2) صبح، ج11، ص382.

(3) عاشور، المدينة، ص163. انظر : حسين، الموجز، ج1، ص242.

(4) ابن أبي اصيبعة، عيون ، ص226.

(5) ابن دقماق، الانتصار، ق1، ص99.

(6) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص230. القلقشندي، صبح، ج11، ص255.

(7) المصدر نفسه، نفس الصفحة. المصدر نفسه ، ج11، ص256.

وجرائحية، وقوماً مجبرين، وبالحديد عاملين، وآخرين بأسماء الحشاشين، وقوى الأدوية وأوصافها عالمين[1].

وكانت وظيفة تدريس الطب في البيمارستان من الوظائف الكبيرة وكان يعين بها الأطباء المشهود لهم بالمهارة والبراعة في صناعة الطب، ويقوم ناظر البيمارستان بتقليدهم بذلك، ويحدد له الأوقات التي يقوم فيها الطبيب المدرس بإلقاء المحاضرات على الطلبة ويخصص له مصطبة كبيرة يجلس عليها لهذا الغرض[2]، وكان ديوان الإنشاء يصدر وصايا عند تقليد أحد الأطباء لهذه الوظيفة[3].

وكان يفضل أن يبدأ الطالب تعلم صنعة الطب في سن مبكرة وأن يتفرغ تماماً لدراسته و لا ينشغل بشيء آخر سواها أن توطن نفسه على التعلم إلى آخر العمر لما قيل: الطلب من المهد إلى اللحد[4]، وأفضل سن لدراسة الطب هو سن الصبا، وحتى الخامسة والعشرين وذلك لأن المزاج في ذلك الوقت يكون أعدل منه في سائر الأوقات[5].

أما عن منهج الدراسة فطالب الطب يدرس في فترة إعداده، وهي الفترة التي يمكن أن يطلق عليها المرحلة الأولى، حيث يدرس العلوم الأساسية مثل الحساب والهندسة والمنطق، فابن أبي أصيبعة لم يسمح له بدراسة الطب إلا بعد أن أتقن العلوم اللسانية وهي علوم اللغة والفلسفة والمنطق[6].

ثم ينتقل الطالب للمرحلة العليا (التعليم الجامعي فيدرس كتب الطب فيقرأ العديد من الكتب الطبية مثل المختار لابن هبل[7]، وكامل الصناعة للملكي[8]، والقانون للشيخ الرئيس أبي علي بن

---

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص230. القلقشندي، صبح ، ج11، ص255.

(2) ابن حبيب، تذكرة، ج2، ص366.

(3) القلقشندي، صبح، ج11، ص253.

(4) زاده، مفتاح، ج1، ص19.

(5) ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص44.

(6) المصدر نفسه، ص98.

(7) ابن هبل: هو الحسن علي بن علي بن هبل البغدادي، ويعرف أيضاً، بالخلاطي كان واحد وقته وعلامة زمانه في صناعة الطب والعلوم الحكمية، متميز في صناعة الادب، ولد ببغداد ثالث وعشرين ذي القعدة من (ت515ه/1121م)، وله من الكتب كتاب المختار في الطب، وكتاب الطب الجمالي، وتوفي ابن هبل بالموصل ليلة الأربعاء (610ه/1213م) انظر: المصدر نفسه ، ص407.

(8) الملكي: هو كتاب صنفه علي بن عباس المجوسي، وهو كتاب جليل مشتمل على أجزاء من الصناعة الطبية، علمها وعملها. انظر: المصدر نفسه ، ص320.

سينا[1]، وتذكرة السويدي[2] التذكرة الهادية والذخيرة الكافية في الطب[3]، والجامع لابن البيطار في الأدوية المفردة[4]، وجميع المواد العلمية والتطبيقية يدرسها الطالب بإشراف أساتذة متخصصين، وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل الصناعة والمرؤوس، ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس[5].

وكان كتاب القانون في الطب لابن سينا من أبرز الكتب الطبية التي يجب على الطالب دراستها وعندما ظهر ذلك الكتاب فإنه كشف التعاليم السابقة، وكان العلامة ابن النفيس لا يشير على أحد إلا بالقانون وهو الذي جسر الناس على هذا الكتاب[6].

وإلى جانب الدراسة النظرية التي يدرسها طالب الطب، فإنه كان يلتحق بالبيمارستان للدراسة العملية بجوار أسرة المرضى، وهي ما يطلق عليه (الدراسة الإكلينيية)، فكانت البيمارستانات بها قاعات معدة ومجهزة بالآلات والكتب، وبعد أن يقضي الطلاب وقتهم في ملاحظة المرضى، يجلسون في تلك القاعات بين أيدي معلميهم وتدور المناقشة عما شاهدوه في البيمارستان من حالات مرضية[7].

وكانت الدراسة العملية لطالب الطب في البيمارستان فرصة عظيمة له، حيث يوجد أطباء متميزين يفيد منهم الطلبة ويقول ابن أبي أصيبعة في ذلك الصدد حيث لازم أستاذه عبد الرحيم بن علي (الدخوار): "لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب، وكان في ذلك الوقت أيضاً معه في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداوة والتصرف في أنواع العلاج فتتضاعف

---

[1] ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، ولد ببلخ وانتقل إلى بخارى وتعلم الطب وهو في سن ستة عشر وبرع فيه وله العديد من المصنفات في الطب اهمها كتاب القانون في الطب. انظر: المصدر نفسه، عيون، ص437.

[2] السويدي: هو الحكيم الأجل الاوحد العالم ابو اسحق ابراهيم بن محمد من ولد سعد بن معاذ من الاوس مولده في (600ه/1203م) بدمشق ونشأ بها واجتمع مع افاضل الاطباء ولازم اكابر الحكماء وأخذ ما عندهم من الفوائد الطبية والاسرار الحكيمة تتلمذ على عبد الرحيم بن علي وغيره وعز الدين السويدي من أجل الأطباء قدراً، وأفضلهم ذكراً وأعرف مداواة وانجح واوضح منهاجاً عمل بالطب في البيمارستان النوري. انظر:المصدر نفسه، ص759.

[3] المصدر نفسه ، ص761،

[4] ابن الأكفاني، ارشاد، ص171-173.

[5] ابن عبد الظاهر، تشريف، ص230. القلقشندي، صبح، ج11، ص256.

[6] العمري، مسالك، ج9، ص352. جسّر: شجعه، انظر:مجمع، المعجم الوسيط، ج1 ، ص127.

[7] انظر: عيسى، تاريخ، ص38. السعدي، النساء ، ص504.

الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، وبما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها ومما كان يصفاه للمرضى[1].

وقد حددت وثيقة وقف البيمارستان المنصوري شروط القائمين بالتدريس في البيمارستان أن يكون معلم الطب من أطباء البيمارستان المنصوري، وأن يكون متمكناً في صناعة الطب، وأن يكون مسلم[2].

كما جاء في وثيقة وقف البيمارستان المنصوري "أن يتم الاشتغال بعلم الطب والاشتغال به[3]، ومن ذلك يتبين أن الأوقاف التي أوقفها المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري كان لها عظيم الأثر في استمرار تدريس الطب في ذلك البيمارستان العريق.

وممن تولى تدريس الطب في البيمارستان المنصوري في عصر قلاوون سنة 684هـ القاضي مهذب الدين بن أبي حليقة رئيس الطب في عهده وقد صدر لذلك التقليد نسخة كتبها ابن المكرم كاتب الدرج[4]، و ممن درس فيه الطب: ابن القويع المالكي[5][6]، ومحمد بن أبي محمد التبريزي الشافعي (776ه/1374م)[7]، وقد قرر له "معلوماً على التدريس بالمرستان المنصوري"[8].

سراج الدين عمر بن عبد الله البهادري الحنفي، توفي عام(834هـ/1430م)[9]. كما درس فيها ابن البندقي من أعيان القرن التاسع الهجري[1]. كما كان يتم تدريس الطب في البيمارستان

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص731.

(2) انظر: ابن حبيب، تذكرة، ج1، ص366.

(3) انظر: المصدر نفسه، ج1، ص359، وانظر أيضاً: عيسى، تاريخ ، ص152.

(4) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص228-230. القلقشندي، صبح، ج11، ص253، 256. ابن الفرات، تاريخ، مج8، ص23-25.

(5) محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل الجعفري التونسي ركن الدين أبو عبد الله ابن القويع المالكي ولد بتونس سنة (664ه/1265م)، وقرأ ببلده على عدد من الشيوخ، وسمع بدمشق، ودرس بالمنكوتمرية وأعاد بالناصرية. ابن كثير، البداية ،ج14، ص214. ابن حجر، الدرر ،ج5، ص445.

(6) ابن حجر، الدرر ،ج5، ص446. انظر: ابن كثير، البداية ،ج14، 214.

(7) قدم من بلاد العجم وأخذ عن القطب التحتاني وبرع في المعقول، وقرر له منكلي بغا بالقاهرة.ابن حجر، إنباء ،ج1، ص98.

(8) المصدر نفسه، نفس الجزء و الصفحة؛ الدرر ،ج5، ص521.

(9) الذهبي، العبر، ج7، ص208، 209. المقريزي، السلوك، ج7، ص 230. السخاوي، الضوء، ج6، ص 139. ابن العماد، شذرات، ج4، ص225. عيسى، معجم، ص3.

الطولوني[2]، ومن المحتمل أن يكون من درس في جامع ابن طولون هم أنفسهم من قام بتـدريس الطب في البيمارستان الطولوني، ومنهم شمس الدين المصري المتوفي سنة (776ه/1374م)ـ[3].

8- المدارس الطبية في مصر والشام في العصر المملوكي:

ثم جاءت بعد ذلك المدارس[4] الطبية لتمثل قمة التطور في التعليم الطبي، فمنذ أواخر القرن الرابع الهجري بدأت المدارس تبرز على الساحة كمراكز لتعليم الطب جنباً إلى جنب مع المراكـز التعليمية الأخرى، وكان القادرين من أهل الخير والمعلمون هم أول من أقـام المـدارس ثـم بـدأ السلاطين والحكام والأمراء يساهمون في إنشائها في القرنين الخامس والسادس الهجـريين، حيـث انتشرت بشكل واسع في مختلف المدن الإسلامية[5].

وقد أكثر سلاطين وأمراء الدولة المملوكية من إنشاء المدارس في مصر والشام، فنجد أنـه كان في مصر الكثير من المدارس[6] التي رصدت لها الأموال والأوقاف اللازمة للإنفاق عليها[7].

كما كان للشام نصيب من هذه العناية بإنشاء المدارس، كالمدارس التي في القـدس والتـي وقفت عليها أوقافاً جليلة[8] كما أنشئ الكثير من المدارس بدمشق[9] وصلت إلى عشرين مدرسة[10] ووجد بحمص مدرسة واحدة[1] وبحماة ثلاث مدارس[2] وبحلب أربع مدارس أو خمس[3].

---

[1] ابن البندقي: محمد بن نجم الدين ناصر الدين الطبيب ويعرف بابن البندقي. / أخذ عن السراج البهادري وفـتح الدين بن الباهي وتميز في الطب وشارك في غيره من الفضائل. السخاوي، الضوء ،ج10، ص67.

[2] ويعرف بالبيمارستان الأعلى أنشأه بالفسطاط أحمد بن طولون وذلك عام (259هـ/873م) وأنفق عليـه سـتين ألف دينار. ولم يكن قبله بيمارستان بمصر، وشرط ألا يعالج فيه جنديّ ولا مملوك. النـويري، نهايـة ،ج28، ص 22. القلقشندي، صبح ،ج3، ص392. المقريزي، الخطط ،ج4،ص37 ،267. ابن تغـري بـردي، النجـوم،ج3، ص10، 12. عاشور، نظم ، ص، 350.

[3] ذكره ابن حجر، إنباء ،ج1، ص94. السيوطي، حسن المحاضرة ،ج1، ص546 على أنه ممن درس الطب فـي الجامع الطولوني، لكن العقباوي، الحياة، ص246. ذكر أنه درس الطب بالبيمارستان الطولوني، ولا نعلم من أيـن مصدر معلومته تلك، وقد رجعنا إلى المصادر التي بين أيدينا ومنها حسن المحاضر للسيوطي فلم نجد تأكيدا على أن شمس الدين المصري قد عمل في تدريس البيمارستان الطولوني، لكننا وضعنا احتمالا لـذلك لقـرب البيمارسـتان الطولوني من الجامع الطولوني الذي كان يدرس فيه المصري.

[4] المدارس: هي دور منظمة يأوي إليها طلاب العلم، حيث تدر عليهم المعاليم والأزراق، ويتولى تدريسهم وتثيفهم فئة صالحة من المدرسين والعلماء وهم موسع عليهم في الرزق، ويختارون حسب شروط الواقف ممـن يحـسنون القيام بالغرض الذي ندبوا لأجله والدعوة إليه. انظر: صبرة، المدارس، ص142، 144.

[5] محمد، تاريخ، ص15.

[6] المقريزي، خطط، ج2، ص363. انظر: سلام، المدارس، رسالة دكتوراة.

[7] ربيع، النظم، ص73–77. أمين، الأوقاف، ص63. أبو زيد، مجتمع، ص263، 264.

[8] أبو شامة، الروضتين، ج2، ص276. ابن الفرات، تاريخ، ج4، مج2، ص88، 89.

[9] ابن شداد، الأعلاق، ج2، ص253.

[10] ابن جبير، الرحلة، ص230.

الهيئة التعليمية والادارية للمدارس :

حيث كان لكل مدرسة هيئة تعليمية تتألف من:

1- متولى النظر (أي مدير المدرسة)

2- المدرسون أو الشيوخ والأساتذة

3- المعيدون[4] وهذه الهيئة كانت تختص بالنواحي التعليمية وكل ما يتعلق بها فقط كما كان أيضاً بكل مدرسة هيئة إدارية، تختص بالنواحي المالية والخدمية وتتمثل في:

1- مباشرة الإدارة

2- مباشروا الصندوق والرياع

3- مباشرة العمارة في المدارس

4- القومة والخدم، والمستخدمون للإشراف على نظافة المدرسة[5]

وقد كان ضمن مرافق كل مدرسة حمام[6] يستخدمه طلاب المدرسة، ونظراً لاختلاف المدارس في مساحتها وعدد طلابها ومكانتها، فقد كان لكل مدرسة عدد يناسبها من الخدم وصغار الموظفين طبقاً لاختلاف الحيثيات السابقة[7].

وقد تطورت هذه المدارس خلال العصر المملوكي فبعد أن كانت مخصصة في المقام الأول لدارسة العلوم الشرعية وذلك لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، أضيفت إلى الدراسة علوماً أخرى مثل الطب والنحو الفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى والكيمياء وغيرها من العلوم الطبيعية[8].

---

[1] المصدر نفسه، ص209.

[2] المصدر نفسه ، ص207.

[3] المصدر نفسه ، ص204.

[4] المعيد: هو الذي يعيد الدروس الصعبة على الطلاب بعد فراغ المعلم من إلقاء دروسه، من أجل أن يفهم الطلاب ما يصعب عليهم أثناء دروس المدارس. انظر: السبكي، معيد، ص85. وكان يراعي في اختيار المعيد أن يكون من الطلاب النابغين البارزين في الحلقات العلمية، والذين يتصفون بالأخلاق الحميدة حتى يؤدوا مهامهم على أكمل وجه لاسيما وأن عمل المعيد يبدأ من حيث ينتهي عمل المدرس. انظر: أبو زيد، مجتمع، ص268. وكان راتب المعيد أقل بكثير من راتب الأستاذ، ويدل كتاب وقف المدرسة الناصرية بالقاهرة على أن المعيد بها كان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثين درهماً في الوقت الذي كان فيه راتب الأستاذ مائتي درهم. انظر: صبرة، المدارس، ص182.

[5] صبرة، المدارس، ص182-185.

[6] أحمد، المجتمع، ص141.

[7] صبرة، المدارس، ص169.

[8] المقريزي، خطط، ج3، ص364.

وكان كل طالب يريد أن يلتحق بإحدى مدارس الطب تجري له اختبـــارات قبـــل ألتحاقـــه بالمدرسة على يد شيخها وحكيمها[1] فإذا أجتاز الأختبار ألتحق بالمدرسة لتلقى عليه الدروس فـــي قاعات خاصة، وبعد الانتهاء منها يعكف على قراءة الكتب بالمكتبة الملحقة بالمدرسة[2] وقد كـــان على طالب الطب دراسة بعض العلوم الأخرى أولها علم المنطق، ثانيها علم الهندسة وثالثها علـــم النجوم، ورابعها علم الحساب، وخامسها علم الألحان، ذلك لأن سائر هذه العلوم تفيده في تقـــصي الأمراض ومعرفة أسبابها وأعراضها وعللها وبالتالي تساعده في علاجها[3].

وبعد أن يتم الطالب دراسته بإحدى مدارس الطب يجري له اختبار ثم يحصل على إجازة[4] تسمح له بممارسة المهنة[5].

ومن أهم المدارس التي اهتمت بتدريس الطب في العصر المملوكي:

1- مدرسة الإسكندرية.

تعد من أوائل المدارس التي درس فيها علم الطب بمصر مدرسة بالإسكندرية، حيث درس فيها علم الطب إلى جانب غيره من العلوم[6]، ويبدو أنه اختيار الإسكندرية بالذات لشهرتها القديمة في مجال الطب.

وقد أشار ابن جبير إلى هذه المدرسة في معرض حديثه عن مناقب الإسكندرية فقال: " ومن مناقب هذا البلد ومفاخره، العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس[7] الموضوعة لأهـــل

---

(1) جونز، الأوقاف، عدد1، ص281.

(2) عطية، العلاقات، ص225.

(3) الحموي، البيان، ورقة 2، 3.

(4) الإجازة: الأصل فيها في كلام العرب مأخوذ من جواز الماء الذي يسقي بالمال للماشية والحـــرث ويقـــال فيـــه استجزت فلاناً فأجازني إذا سقاك ماء لأرضك أو ماشيتك، كذلك طالب العلم يسأل العالم أن يجيزه علمه فيجيزه إياه فالطالب مستجيز والعلم مجيز. والإجازة كلمة اصطلاحية عند علماء فن مصطلح الحديث مفادها أن يأذن ثقة مـــن الثقات لغيره أن يروي عنه الحديث أو الكتاب سواء كان الكتاب من تصنيفه أن كان يرويه عن شيوخه، وتكون هذه الرواية بالإذن موثوقاً بها وبمرور الوقت أصبح نوال الإجازات من الشيوخ المبرزين هواية محبوبة وكان هذا يعـــد فخراً للعلماء انفسهم. انظر: عبد العال، المصطلحات، ص18.

(5) هونكة، شمس، ص238.

(6) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص323، 324.

(7) المحارس: مفردها محرس وهو مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين. انظر: ابن جبير، رحلة، ص15، حاشية 1.

الطب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقي كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يزيد تعلمه، وإجراء يقوم به في جميع أحواله "[1].

2- المدرسة الدخوارية[2]:

وأصل هذه المدرسة أنها كانت لابن الدخوار، وقف داره وجعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب[3]، وقد أعيد ترميمها في العصر المملوكي سنة 820هـ[4].

وقد درس في هذه المدرسة خيرة أطباء الشام خلال تلك الفترة، منهم:

شرف الدين بن الرحبي، (ت667ه/1268م)[5]، " لما احتضر المهذب عبد الرحيم الدخوار جعله مدرس مدرسته "[6]

وكمال الدين الطبيب وتوفي سنة سبع وتسعين وستمائة[7] وذكر أن عز الدين بن السويدي (690ه/1291م)[8] كان مدرسا بالدخوارية وكان له راتب معلوم مقابل هذا العمل[9]، كما أن أحمد

---

(1) ابن جبير، رحلة، ص15.

(2) أنشئت قبل سنة(622هـ/1225م)على حد قول ابن أبي أصيبعة، في حين ذكر النعيمي أنها أنشئت سنة(621هـ/1224م) حيث أنشأها الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار، وكان موقعها قرب الخضراء قبلى الجامع الأموي ، وكان افتتاح هذه المدرسة في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الآخر سنة (628هـ/1231م)، حيث حضر في هذا اليوم عدد كبير من الحكماء والأطباء والقضاة لافتتاح المدرسة. ابن أبي أصيبعة، عيون، ص733. النعيمي، الدارس، ج2، ص127. بدران، منادمة ، ص252.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص733. بدران، منادمة ، ص252.

(4) النعيمي، الدارس ،ج2،ص104.

(5) علي ابن شيخ الخطباء رضي الدين يوسف بن حيدرة الرحبي، ثم الدمشقي، الحكيم شرف الدين: ولد سنة (583ه/1187م). وقرأ الطب على والده وبرع فيه وأتقنه، وصنف، وأخذ أيضا عن الموفق عبد اللطيف، وحرر عليه كثيرا من العلوم. الذهبي، تاريخ ،ج49، ص245. ابن كثير، البداية ،ج13، ص297.

(6) المصادر نفسها، نفس الأجزاء و الصفحات.

(7) محمد بن عبد الرحيم بن مسلم كمال الدين الطبيب شيخ قديم عارف بالطب بصير بأصوله ومفرداته درس بالدخوارية وطال عمره وتوفي سنة 697هـ. الذهبي، تاريخ ،ج51، ص316. الصفدي، الوافي ،ج3،ص203. النعيمي،الدارس ،ج2،ص103.

(8) عز الدين بن السويدي: إبراهيم بن محمد بن طرخان، الحكيم، عز الدين، أبو إسحاق الأنصاري، السويدي، ثم الدمشقي، شيخ الأطباء بالشام، وبرع في الطب وصنف فيه، ونظر في علم الأوائل، كتب «القانون» لابن سينا ثلاث مرات. ابن ابي اصيبعة، عيون، ص 759. الذهبي، تاريخ ،51ج، ص 397- 398.

(9) ابن ابي اصيبعة، عيون، ص 759.

بن عبد الله بن الحسين (694هـ/1294م)[1][2]، " ولي مشيخة الدخوارية لتقدمه في صـــناعة الطـــب على غيره "، وفي سنة (716هـ/1316م)ــ درس بالدخوارية الشيخ جمال الدين محمد بـــن الـــشيخ شهاب الدين أحمد الكحال" ورتب في رئاسة الطب عوضا عن أمين الدين سليمان الطبيب، بمرسوم نائب السلطنة تنكز "[3]، وممن درس فيها أيضا: سليمان ابن داوود(732هـ/1331م)[4][5].

ويبدو من تراجم الأطباء السابقين أن الذين تولوا التدريس في الدخوارية، كان يتم اختيارهم بعناية، وكان يشترط فيهم أن يكونوا رؤساء للطب.

3- المدرسة الدنيسرية:

موقعها غربي باب البيمارستان النوري بدمشق[6]، وقد أنشأها الطبيب عماد الـــدين محمـــد الدنيسري[7]، وممن درس فيها: العماد محمد بن عباس[8] " صاحب المدرسة للأطباء "[9].

---

[1] أحمد بن عبد الله بن الحسين: الشيخ جمال الدين المحقق. فقيه، مدرس، مناظر، جيد المـــشاركة فـــي الأصـــول والعربية. بارع في معرفة الطب. وكان معيدا في المدارس الكبار: كالقيمريـــة، ومدرســـا بالفرخـــشاهية، وطبيبـــا بالمارستان. الذهبي، تاريخ ،ج52، ص211، 212. الصفدي، الـــوافي ،ج7، ص91. ابـــن كثير،البدايـــة ،ج13، ص404. النعيمي، الدارس ،ج2، ص 103.

[2] النعيمي، الدارس ،ج2،ص103. انظر: الذهبي، تاريخ ،ج52، ص212. الصفدي، الـــوافي ،ج7، ص91. ابـــن كثير،البداية ،ج13، ص404.

[3] ابن كثير،البداية ،ج14، ص94. انظر: النعيمي، الدارس ،ج2، ص104.

[4] سليمان أمين الدين بن داود بن سليمان: الطبيب الماهر الحاذق الفاضل كان رئيس الأطباء بدمشق ومدرسهم مدة من الزمن ثم عزل بجمال الدين بن شهاب الكحال مدة قبل موته لأمر تعصب عليه فيه نائـــب الـــسلطنة. الـــذهبي، العبر، ج4، ص94. ابن كثير، البداية،ج14، ص184. النعيمي، الدارس ،ج2، ص104.

[5] المصادر نفسها، نفس الاجزاء والصفحات.

[6] النعيمي، الدارس، ج2، ص133. بدران، منادمة ، ص255.

[7] هو عماد الدين أبو عبد الله محمد بن القاضي الخطيب تقي الدين عباس بن أحمد بن عبيد الربعي، ، ولد بمدينـــة دنيسر سنة (605هــ/1208م) واشتغل بصناعة الطب حيث برع فيها، وخدم بالبيمارستان النوري الكبير. انظـــر: ابن أبي أصيبعة، عيون، ص761، النعيمي، الدارس، ج2، ص133، 134.

[8] محمد بن عباس بن أحمد بن عبيد بن صالح: الحكيم البارع، عماد الدين، أبو عبد الله الربعي، الدنيـــسري، ولـــد بدنيسر سنة (605-606هـ/1208-1209م)، وقرأ علم الطب حتى برع فيه وساد، ، وصنف في الطـــب «المقالـــة المرشدة في درج الأدوية المفردة»، و «أرجوزة في الترياق الفاروق» ، و «أرجوزة في تقدمة المعرفة» لأبقـــراط. ابن ابي اصيبعة، عيون ، ص76. الذهبي، تـــاريخ ،ج51، ص280-281. المقريـــزي، الـــسلوك ،ج2، ص201. النعيمي ، الدارس ،ج2، ص105، 106.

[9] النعيمي، الدارس ،ج2، ص105، 106.

4- المدرسة اللبودية النجمية:

أنشأها نجم الدين اللبودي[1] في سنة (ت664ه/1265م)ـ بجوار بستان الفلك المشيري خارج دمشق[2] حيث جعل تربته التي بالقرب من بركة الحمريين دار طب وهندسة، وقرر لها شيخاً وقراء[3]. وأول من درس بها جمال الدين الزواوي وسافر عنها وقتل على القصب في طريق حمص ثم تولى بعده المغربي[4]

5- المدرسة المنصورية:

تقع " من داخل باب المارستان الكبير المنصوريّ بخط بين القصرين بالقاهرة "[5]. أنشأها الملك المنصور قلاوون، وكان على عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، ورتب في هذه المدرسة درس طب إلى جانب دروس الفقه على المذاهب الأربعة، ودرس تفسير ودرس حديث[6]. وممن تولى تدريس الطب فيها: ابن الأمشاطي محمود بن أحمد[7]، و سراج الدين عمر بن عبد الله البهادري الحنفي، توفي عام(834هـ/1430م)([8]). و الطبيب محمد بن أحمد ابن قاضي طيبة البدر بن أبي اسحق المخزومي من الأطباء الذين تولوا تدريس الطب بجامع أحمد بن طولون أيضاً وكان مولده عام(793هـ/1390م) بالقاهرة ونشأ بها، اختصه الأشرف برسباي ورغب له التدريس بالبيمارستان[9]. ونزل فيها الشيخ أبي بكر الطبيب العجمي " لمداواة الملك المؤيد شيخ "[10].

---

[1] نجم الدين اللبودي: هو الحكيم نجم الدين أبو زكريا يحيى ابن الحكم الإمام شمس الدين محمد عبدان بن عبدان بن عبد الواحد اللبودي كان أوحد في العلوم الطبية، مفرط الذكاء، فصيح اللفظ، شديد الحرص في العلوم، ولد بحلب في العصر المملوكي، فدرس الطب على كبار أطباء زمانه ونبغ فيه حتى صار الأوحد فيه، وخدم الكثير من أمراء البيت المملوكي، وله الكثير من المؤلفات الطبية. انظر: ابن أبي أُصيبعة، عيون، 663-668.

[2] ابن شداد، الأعلاق، ج2، ق2، ص66. النعيمي، الدارس، ج2، ص135.

[3] علي، خطط، ج6، ص103.

[4] النعيمي، الدارس ،ج2، ص107.

[5] المقريزي، خطط ،ج4، ص226.

[6] المصدر نفسه،ج4، ص226. القلقشندي، صبح ،ج3، ص415. السيوطي، حسن المحاضرة،ج2،ص 264.

[7] السخاوي، الضوء، ج10، ص128، 129. السيوطي، نظم، ص174.

[8] الذهبي، العبر، ج7، ص208، 209. المقريزي، السلوك، ج7، ص 230. ابن العماد، شذرات، ج4، ص225. عيسى، معجم، ص3.

[9] السخاوي، الضوء، مج3، ج6، ص284، 285. انظر: عيسى، معجم، ص368.

[10] ابن تغري بردي، المنهل، ج2، ص103.

6- **المدرسة العظمى:**

ومن المدارس التي عنيت بتدريس الطب كذلك: المدرسة التي أنشأها السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ضمن مجموعته المعمارية عام (759هـ/1357م)، وخصص بهذه المدرسة درساً للطب[1]، وصفها القلقشندي بقوله: "وهي التي لم يسبق إلى مثلها، ولا سمع في مصر الأمصار بنظيرها، يقال: إن إيوانها يزيد في القدر على إيوان كسرى بأذرع "[2]، أما الصفدي فقال عنها: " ويقال إنه كان قد أرصد لعمارتها في كل يوم عشرين ألف درهم، وأقامت على ذلك، والعمارة لا تعطل منها يوما واحدا ثلاث سنين وأكثر، وخلع ولما تتم عمارتها، وعلى الجملة فهي أمر عجيب"[3]. وكان عدد الدارسين بها عشرة طلاب حيث رتب لهم مصاريف من الوقف الذي أوقفه على مدرسته ويصرف للمتصدر في كل شهر مائة درهم وخمسون درهماً وللطلبة المذكورين في كل شهر مائتا درهم نقرة[4] بينهم بالسوية لكل منهم عشرون درهماً نقرة[5].

ثالثا: منشآت الرعاية الصحية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي.

1- **المنشآت العلاجية الثابتة (البيمارستانات).**

حفلت مصر والشام خلال هذا العصر بعدد كبير من البيمارستانات، كان بعضها باقياً من عصور سابقة، فأولاها المماليك اهتماما وعناية ورعاية، والبعض الآخر استحدث في عصر الدولة المملوكية، ومن هذه البيمارستانات التي كانت في مصر أو أنشأت في مصر في العصر المملوكي:

أ- **البيمارستان الطولوني:** وقد ذكر القلقشندي (ت821ه/1418م)أنه كان من بين المؤسسات التي لا تزال قائمة في عصره[6]، لكنه في عصر المقريزي (ت845ه/1441م)أصبح " في جملة ما دثر ولم يبق له أثر "[7].

ب- **البيمارستان الكافوري**[8]: وقد ظل قائما حتى عصر المماليك الجراكسة، ثم توقف نشاطه، وتحول إلى مطبخ ثم بطل بعد ذلك[9]

---

[1] انظر: ابن حبيب، تذكرة، ج3، ص435. الصفدي،أعيان ،ج2، ص247.

[2] القلقشندي، صبح ،ج3، ص415.

[3] الصفدي، أعيان ،ج2،ص249. القلقشندي، صبح ،ج3، ص415.

[4] الدرهم النقرة: وأصل موضوعها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، وتطبع بدار الضرب بالسكة السلطانية. انظر: القلقشندي، صبح، ج3، ص443..

[5] انظر: ابن حبيب، تذكرة ، ج3، ص432-435.

[6] صبح ،ج1، ص491.

[7] المقريزي، خطط ،ج4، ص267.

[8] بناه كافور الإخشيديّ سنة (346هـ/957م). المقريزي، خطط ،ج4، ص267.

[9] المصدر نفسه، نفس الصفحة.

ج- البيمارستان الناصري أو (العتيق) أو (الصلاحي): (776هـ/1418م)أنه باق على هيئته إلى الآن "[1]، لكنه دثر في زمن المقريزي (ت845هـ/1441م) وأقيم مكانه المكان المسمى بدار الديلم[2].

د- بيمارستان الإسكندرية[3]: وقد عده ابن جبير من مناقب مدينة الإسكندرية وإلى ذلك يشير بقوله:" ونصب لهم مارستان بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء، وقد رتب فيه أيضاً أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليكلفوا بمعالجتهم "[4].

هـ- البيمارستان المنصوري: بناه السلطان المنصور قلاوون بين القصرين بالقاهرة[5]، فقد رأى السلطان قلاوون أن كل من تقدمه من السلاطين كان جل اهتمامهم بالعلوم الدينية ولذلك اهتم بعلم الطب فقال: " ورأينا كل من تقدمنا من الملوك وأن سلك في سياسة الرعية أحسن سلوك قد اهتم بعلم الأديان وأهمل علم الأبدان، وأنشأ كل منهم مدرسة ولم يحفل ببيمارستان، وغفل عن قوله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان، ولم يأخذ أحداً من رعيته بالاشتغال بعلم الطب المضطر إليه، ولا وقف وقفاً على طلبة ذلك العلم المنصوص عليه، ولا أعد له مكاناً يحضر من يشتغل بهذا الفن فيه، ولا نصب شخصاً يتمثل هذا المشتغل لديه، وأنشأنا بيمارساتاً يبهر العيون بهجة ويفوق الأبنية بالدليل والحجة، ويحفظ الصحة والعافية على كل مهجة وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس وينتفع به الرئيس من أهل هذه الصناعة والمرءوس ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس "[6].

وقد قرر السلطان قلاوون أن يقوم ببناء البيمارستان الذي حمل اسمه لعدة أسباب منها: أنه أنشأه تقرباً إلى الله عز وجل وتكفيراً عما قام به من قتل جماعة من العوام الذين أظهروا غضبهم على مماليك السلطان قلاوون لدرجة أنهم قاموا بقذف هؤلاء المماليك بالحجارة، فغضب السلطان وأمر المماليك أن يقتلوا كل من وجدوه من العوام، فاستمر السيف يعمل فيهم ثلاثة أيام، فقتل في هذه المدة ما لا يحصى عددهم من العوام وغيرهم، وراح الصالح بالطالح فلما تزايد الأمر طلع

---

(1) القلقشندي، صبح ،ج3، ص417.

(2) المقريزي،خطط ،ج2، ص288.

(3) أنشأه صلاح الدين بمدينة الإسكندرية واهتم به غاية الاهتمام. ابن جبير، الرحلة، ص15.

(4) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(5) الذهبي، تاريخ ،ج51، ص384. ابن كثير، البداية ،ج13، ص374. ابن تغري بردي، النجوم،ج4، ص47،ج7، ص326. المقريزي، خطط ،4ج، ص268. العصامي، سمط ،ج4، ص25.

(6) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص228، 229. القلقشندي، صبح، ج11، ص253، 254.

القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم، فأمر بكف القتل عنهم، بعد ما قتل من الناس عدد كبير، فلما جرى ذلك، ندم السلطان على ما وقع منه فأشار عليه بعض العلماء أن يفعل شيئاً من أنواع البر والخير لعل أن يكفر عنه ما جرى منه، فشرع في بناء هذا البيمارستان، وصنع فيه هذا لخير العظيم، من الجزيلة لعل الله تعالى أن يمحوا ما تقدم من ذنبه إن الحسنات يذهبن السيئات[1].

وهناك سبب آخر لبناء البيمارستان: أن الملك المنصور قلاوون لما توجه وهو أمير إلى غزاة الروم، في أيام الظاهر بيبرس عام (675هـ/1277م) أصابه بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من بيمارستان نور الدين الشهير فبرأ، وركب حتى شاهد البيمارستان فأعجب به، ونذر إن أتاه الله الملك أن يبني بيمارستاناً، ذلك البيمارستان بخط بين القصرين في القاهرة، كان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس، بعد زوال الدولة الفاطمية، وبدار مسك، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وصار يقال لها: "الدار القطبية"، ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور قلاوون، من مؤسسة خاتون، ابنة الملك العادل المعروفة بالقطبية، وعوضت عن ذلك قصر الزمرد برحبة باب العيد[2].

ويقول ابن الفرات في رواية بناء البيمارستان المنصوري "لما رأى الملك المنصور التربة الصالحية التي أنشأها لوالده ولده الملك الصالح بالقرب من مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها أعجبته وأمر الأمير علم الدين سنجر الشجاعي[3] مدير الدولة الشريفة بإنشاء تربة له ومدرسة وبيمارستان، ومكتب سبيل في الدار المعروفة بالقطبية وما يجاورها بين القصرين فاشتريت الدار المذكورة من خالص مال السلطان الملك المنصور، ورتب الملك المنصور الأمير علم الدين سنجر الشجاعي مدير الدولة شاداً[4] على عمارة ذلك فأظهر الاهتمام والاحتفال ما لم سمع بمثله فعمرت في أسرع مدة[5]. واكتمل بناء ذلك البيمارستان عام 682هـ/1284م)[6]، وظل البيمارستان

---

[1] ابن اياس، بدائع، ج1، ق1، ص354.

[2] المقريزي، خطط، ج4، ص692-702.

[3] علم الدين سنجر بن عبد الله الشجاعي المنصوري وزير الديار المصرية، وشد دواوينها ثم نائب سلطنة دمشق، وهو الذي أشرف على عمارة البيمارستان المنصوري بين القصرين في القاهرة، للمزيد عن علم الدين سنجر انظر: الصفدي، الوافي، ج15، ص475-478. ابن تغري بردي، المنهل، ج6، ص80-83.

[4] الشاد: شد العمائر موضوعها أن يكون صاحبها متكلماً في العمائر السلطانية مما يختار إحداثه أو تجديده في القصور والمنازل والأسوار، وهي إمرة عشر. انظر: القلقشندي، صبح، ج4، ص22.

[5] ابن الفرات، تاريخ، مج7، ص287.انظر: ابن عبد الظاهر، الروضة، ص60، 61، النويري، نهاية، ص106. المقريزي، خطط، مج4، ص692-694.

[6] المقريزي، السلوك ،ج2، ص186.

المنصوري تحت رعاية السلاطين المماليك يتابعون شئونه ويتفقدون أحواله ويسألون عن أحوال المرضى فيه[1].

وقد ألتحق بالعمل في البيمارستان المنصوري عدد من الأطباء المهرة، عرف منهم: شهاب الدين أحمد بن محمد بن طريف الشاوي (798ه/1395م) وقد عمل كحالاً بالبيمارستان[2] المنصوري، وكان" محمد بن إبراهيم بن ساعد من أطباء البيمارستان "[3].

كما عمل بعض الأطباء من أهل الذمة في البيمارستان المنصوري، فكان محمد بن إسماعيل ويعرف بوفا[4] يناوب بالبيمارستان المنصوري وكان " ممن يشار إليهم بالبراعة والمتانة وخفة الوطأة والتدبر في العلاج "[5].

و- البيمارستان المؤيدي:

أنشأه السلطان الملك المؤيد شيخ في المدة ما بين (821-823ه/1418-1420م) حسبما يذكر المقريزي فوق الصوة تجاه طبلخاناه قلعة الجبل حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان بن حسين التي هدمها الناصر فرج بن برقوق وكان باب البيمارستان يشغل نفس مكان باب المدرسة إلا أنه كان يقل عنه في الاتساع، ويذكر المقريزي أيضاً أن نفقات البيمارستان كانت تدخل في جملة أوقاف الجامع المؤيدي المجاور لباب زويلة[6] فلما توفي الملك المؤيد سنة (824هـ/1421م) لم " يوجد في كتاب الوقف المؤيدي له جهة تصرف " فتعطل البيمارستان وتوقف العمل فيه وأخرج منه المرضى، ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين وصار منزلاً للرسل الوارد من البلاد إلى السلطان ثم عمل فيه قبر ورتب له خطيب وإمام ومؤذن وقومه وأقيمت به الجمعة سنة (825ه/1421م)"[7].

---

[1] ابن حجر، إنباء ،ج1، ص277.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص514.

[3] الصفدي، أعيان ،ج4، ص230.

[4] محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو الوفا القاهري الطبيب: كان حيا في سنة (850ه/1446م)، بالقاهرة، ونشأ بها وتدرب في الطب على خاله الشهاب أحمد بن خليل وناصر الدين بن البندقي. السخاوي، الضوء،ج7، ص 135.

[5] المصدر نفسه، نفس الجزء و الصفحة.

[6] خطط، ج4، ص271؛ السلوك ،ج7، ص57. ابن تغري بردي، النجوم، ج11، ص67. ابن حجر، إنباء ،ج3، ص173. مبارك، الخطط ، ج1، ص96. حسن، مصر ، ص445.

[7] خطط، ج4، ص271؛ السلوك ،ج7، ص57. ابن تغري بردي، النجوم، ج11، ص67. ابن حجر، إنباء ،ج3، ص173. مبارك، الخطط ، ج1، ص96. حسن، مصر ، ص445.

وقد حفلت العديد من مدن الشام الأخرى خلال العصر المملوكي بوجود العديد من البيمارستانات، ومنها:

1- البيمارستان النوري في دمشق:

وهو من البيمارستانات القديمة في بلاد الشام، وقد ظل يؤدي دوره في تقديم الخدمات الطبية في العصر المملوكي، واشتهر فيه عدد من الأطباء في عصر المماليك، منهم: محمد بن إبراهيم المعروف بالكلي (674ه/1275يم) [(1)] " خدم بالمرستان النوري بدمشق "[(2)].

عز الدين بن السويدي (690ه/1291م)وكان محمود العلاج " يحصل به للمرضى نهاية الأغراض في إزالة الأمراض وأفضل المنحة في اجتلاب الصحة "[(3)]، وكان له راتب معلوم مقابل هذا العمل[(4)]. و كان أحمد بن عبد الله بن الحسين (694ه/1294م) طبيبا بالمارستان النوري[(5)]، كما كان الجمال المحقق أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي، يعود " المرضى بالمارستان النوري على قاعدة الأطباء "[(6)]. كما كان الطبيب علاء الدين بن البرقعيدي الكحال(762ه/1360م)" كحالا بالبيمارستان النوري "[(7)].

---

(1) محمد بن إبراهيم بن أبي المحاسن بن رسلان أبو عبد الله شمس الدين: الحكيم المتطبب المعروف بالكلي، كان فاضلاً في علم الطب وله مشاركة في الأدب والتاريخ، أقام مدة ببعلبك، ومولده بدمشق (567ه/1171م)، سمع الكثير بدمشق من عبد الصمد الحرستاني وغيره وحدث، توفي بالقاهرة، وقيل له الكلي لأنه كان يحفظ كليات القانون. اليونيني، ذيل ،ج3، ص193-194. الصفدي، الوافي ،ج2، ص6.

(2) اليونيني، ذيل ،ج3، ص194.

(3) ابن ابي اصيبعة، عيون ، ص759.انظر: الذهبي، تاريخ ،ج51،ص 397- 398.

(4) ابن ابي اصيبعة، عيون ، ص759.

(5) الذهبي، تاريخ ،ج52، ص212. انظر: النعيمي، الدارس ،ج2، ص103. الصفدي، الوافي ،ج7، ص91.ابن كثير، البداية ،ج13، ص404.

(6) ابن كثير، البداية ،ج13، ص404.

(7) الصفدي،أعيان ،ج3، ص309.

2- بيمارستان باب البريد:

قرب باب البريد في دمشق، ذكره ابن أبي أصيبعة في معرض ترجمته لعز الدين السويدي، وذكر أن السويدي كان طبيبا في هذا المستشفى وكان له راتب معلوم نقابل هذا العمل[1].

3- البيمارستان الصلاحي:

في القدس، واتخذ فيه بيوتاً فيها حاجات أصحاب الأمراض على اختلافها تقضي[2]، ومـــا يحتاجه من أدوية وعقاقير متنوعة[3] كما خصص له الأوقاف اللازمة للإنفاق عليه[4] حتى يـــؤدي دوره على أكمل وجه في خدمة المترددين عليه من أهل القدس وغيرها من البلاد.

4- البيمارستان القيمري:

بناه وأوقفه الأمير سيف الدين القيمري[5] بجبل الصالحية في دمشق " ضاهى به مارســـتان نور الدين"[6]، و من أشهر الأطباء الذين عملوا فيه: إبراهيم بن إسماعيل القيسي[7].

5- البيمارستان المنصوري في القدس:

وفي القدس وقف الملك المنصور قلاوون أيضا بيمارستانا قبل أن ينشئ بيمارســـتانه فـــي القاهرة، وقد عمره في سنة (680ه/1281م)ــ[8].

6- البيمارستان الأرغوني:

بني في عهد الأمير سيف الدين أرغون بن طيجو الكاملي (758ه/1365م)ــ[9] فـــي أيـــام الملك الصالح ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة (754ه/1354م)، وأشـــرف علـــى

---

[1] ابن ابي اصيبعة،عيون ، ص 759.

[2] الأصفهاني، الفتح، ص613.

[3] أبو شامة، الروضتين، ق2، ص276. ابن الفرات، تاريخ، مج4، ج2، ص89. النويري، نهاية، ج28، ص437.

[4] ابن الأثير، الكامل، ج9، ص222. الأصفهاني، الفتح، ص614.

[5] سيف الدين القيمري: أبو الحسن يوسف بن أبي الفوارس بن موسك، كان أكبر الأمراء وأعظمهم مكانة وأعلاهم همة وجميع أمراء الأكراد من القيمرية، ولم يزل على ذلك(654هــ/1256م).اليونيني، ذيل ،ج1، ص43-44. ابن كثير، البداية ،ج13، ص227. ابن تغري بردي، النجوم ،ج7، ص39.

[6] اليونيني، ذيل ،ج1، ص44. انظر: ابن كثير، البداية ،ج13، ص227. ابن تغري بردي،النجـــوم،ج7، ص 39. السخاوي، الضوء ،ج7، ص105. ابن طولون، مفاكهة ، ص193.

[7] إبراهيم بن إسماعيل بن القاسم بن هبة الله بن المقداد القيسي، كان طبيبا بالمارستان بالصالحية وكان أكبر إخوته الأربعة وتأخر في الوفاة عنهم ومات في جمادى الأولى سنة (741ه/1340م). ابن حجر، الدرر ،ج1، ص19.

[8] العليمي،الأنس،ج2،ص79.

[9] كانت وفاته بالقدس الشريف ، ودفن بتربة أنشأها غربي المسجد بشماله، وقد ناب بدمشق مدة بعد حلـــب ، ثـــم صار إلى نيابة حلب ثم سجن بالإسكندرية مدة، ثم أفرج عنه فأقام بالقدس الشريف إلى أن كانت وفاته.ابـــن كثيـــر، البداية ،ج14، ص295. الصفدي، أعيان ،ج1، ص126.

البناء سيف الدين طيجا[1]. ويقع البيمارستان الأرغوني في حي باب قنسرين بمدينة حلب، ويضم ستة أجنحة ذوات طراز هندسي معماري مميز كغيره من المباني الإسلامية في تلك الفترة، فهو مقاوم للزلازل من خلال حاملات الأقواس الممتصة للهزات الأرضية، وغرفه عازلة للحرارة والبرودة والصوت، وتتوزع غرف البيمارستان على رواقين شرقي وغربي لكل واحد أربعة أعمدة، وتنتشر على الرواقين 12 غرفة صغيرة يتسع كل منها لمريض واحد. ويوجد ثلاثة أجنحة منفصلة عن بعضها تماماً، يختلف كل منها عن الآخر من حيث الهندسة والحالات التي يقوم بعلاجها، فهناك جناح الحالات الخطرة، ويتألف من باحة مربعة تتوسطها بركة ماء مربعة، يحتوي أربع حجرات عليها قضبان حديدية مساحتها صغيرة جداً لا يدخلها إلا القليل من نور النهار، وذلك للتخفيف من شدة هيجان المريض، كما يوجد جناح المرضى العاديين، ويتألف من مدخل له شكل المستطيل تتوسطه بركة مياه، ويتألف من إحدى عشرة غرفة وله قبة مشطوفة من الأعلى للتهوية والإضاءة، ويضم غرفاً لمعالجة النساء معزولة عن غرف الرجال[2].

7- البيمارستان النوري في حماة:

كما كان بمدينة حماة مارستان على شط النهر الذي يقع بشرقي المدينة بإزاء الجامع الصغير، وهو من عصر نور الدين محمود زنكي[3].

8- بيمارستان صفد:

كما عمر الأمير تنكز وأوقف بصفد بيمارستان[4].

9- بيمارستان غزة:

كما بني في غزة في العصر المملوكي بيمارستان" لحوج ما كانت المارة إليه في مكانه"[5]. وقد بناه سنجر بن عبد الله الأمير علم الدين الجاوليّ [6]

10- البيمارستان الدقاقي:

ذكر ابن كثير أنه في ليلة الجمعة الحادي والعشرين من صفر سنة 764هـ " عملت خيمة حافلة بالمارستان الدقاقي جوار الجامع، بسبب تكامل تجديده قريب السقف مبنيا باللبن، حتى قناطره الأربع بالحجارة البلق، وجعل في أعاليه قمريات كبار مضيئة، وفتق في قبلته إيوانا حسنا زاد في

---

[1] ابن كثير، البداية ،ج14، ص295. الصفدي، أعيان ،ج1، ص126.

[2] عرجة، هديل، مشفى نفسي من العصر المملوكي: البيمارستان الأرغوني تحوّل متحفاً في حلب، صحيفة الحياة السعودية، 20 ديسمبر 2010م، على موقع الشبكة: 214365http://international.daralhayat.com/print/

[3] ابن جبير ،رحلة، ص206، 207. السخاوي، الضوء ،ج11، ص40.

[4] ابن كثير، البداية ،ج14، ص219. النعيمي، الدارس ،ج1، ص93.

[5] العمري، مسالك ،ج3، ص552. ابن حجر، الخامس من معجم الشيخة مريم،ص 34.

[6] المقريزي، خطط ،ج4، ص256.

أعماقه أضعاف ما كان، وبيضه جميعه بالجص الحسن المليح، وجددت فيه خزائن ومصالح، وفرش ولحف جدد، وأشياء حسنة، ...، وحضر الخيمة جماعات من الناس من الخواص والعـوام، ولمـا كانت الجمعة الأخرى دخله نائب السلطنة بعد الصلاة فأعجبه ما شاهده من العمارات، وأخبره بمـا كانت عليه حاله قبل هذه العمارة، فاستجاد ذلك من صنيع الناظر "[1]، ويفهم من إشارة النعيمي أن هذا البيمارستان كان بدمشق شمال دار الحديث النفيسية[2].

والجدير بالذكر أيضا أن مدينة طرابلس كان بها بيمارستانين[3].

2- المنشآت العلاجية المتنقلة:

عرف المسلمون في عصور سابقة مدى أهمية المنشآت العلاجية المتنقلة والحاجـة إليهـا، لذلك كانوا يزودونها بما تحتاجه من أطباء وصيادلة وأطعمة وأشربة وأغطيـة وملابـس لتـؤدي دورها في خدمة المرضى وعلاجهم مثلها في ذلك مثل البيمارستانات الثابتة[4].

ويمكن تصنيف البيمارستانات المتنقلة على النحو التالي :

أ- بيمارستانات السفر والرحلة:

وقد كانت هذه المنشآت العلاجية المتنقلة تصحب الخلفاء والسلاطين في أسفارهم وترحالهم كما كانت تصحب الجيوش والقوات المحاربة وتصحب كذلك بعثات الحج إلى الأراضي المقدسـة كما تصحب قوافل التجارة، وتجوب البلاد فتنتقل من بلد إلى آخر في حال انتـشار الأوبئـة فـي المناطق النائية التي تفتقر إلى وجود بيمارستانات ثابتة[5].

وقد كان من مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بالطب أنهم كانوا إذا خرجوا من الـبلاد لأي أمر من الأمور اصطحبوا " ما تدعو إليه الحاجة حتى يكاد يكون معه مارستان لكثرة من معه مـن الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلـك وحملـوا الأشـربة والعقاقير "[6]، وقد أشار القلقشندي إلى ذلك عندما تعرض لذكر موكب السلطان وخروجـه فـي أسفاره وبرفقته الأطباء والصيادلة ليستعين بهم على علاج من يعرض لهم مرض في الطريق[7]، وهذا ما نستخلصه أيضاً من كلام ابن اياس عندما تحدث عن خروج السلطان قانصوه الغوري سنة

---

[1] ابن كثير، البداية ،ج14، ص340.

[2] النعيمي، الدارس ،ج1، ص84. بدران، منادمة ، ص 60.

[3] العمري، مسالك، ج3، ص539.

[4] عيسى، تاريخ، ص11.

[5] أحمد، تطور، ص71.

[6] العمري، مسالك، ج3، ص440.المقريزي، خطط، ج2، ص200. عيسى، تاريخ، ص15.

[7] صبح، ج4، ص49.

(922ه/1516م)ــ إلى البلاد الشامية وبصحبته محمد بن الريس شمس الدين القوصــوني رئــيس الأطباء على رأس جماعة من الأطباء والجرحين والكحالين منهم عبد الرحمن بن الشريف ومحمد ابن العفيف الكحالين[1].

وقد كان لهؤلاء الأطباء الذين يعملون في المنشآت العلاجية المتنقلة إلــى جانــب المــنح والعطايا التي يأخذونها من السلاطين، رواتب ثابتة يأخذونها من بيت المال[2].

ب- بيمارستانات الجيش والأسطول :

وهو نوع آخر من المنشآت العلاجية المتنقلة، ولكنها خاصة بالجيوش المحاربــة، وكانــت تعرف باسم بيمارستانات الجيش، وكانت ترافق الجيوش لحاجة القوات المحاربة إليهــا[3]، حيــث تتكون من مجموعة من الأطباء ومساعديهم في كل التخصصات إلى جانب ما يحتاجونه من أدوية وأدوات ونقالات لحمل الجرحى والمصابين وقد كان هذا البيمارستان يحمل على ظهور الدواب مثل الإبل[4]، ويتواجد بالقرب من أرض المعارك وقد كان تمريض الجرحى في ميدان القتال معروفــاً عند المسلمين منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن البيمارستانات المتنقلة بشكلها الضخم لم تعرف إلا في أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[5]، وقد تأثر المماليــك بأســلافهم فاهتموا ببيمارستانات الجيش وأولوها العناية والرعاية، خاصة أن الجنود هم أحــوج النــاس إلــى الرعاية الطبية حتى يستطيعوا أن يقابلوا العدو وهم في غاية القوة والنشاط. فالسلاطين المماليك عند خروجهم إلى الحرب يصطحبوا معهم في سفرهم غالب ما تدعو الحاجة إليه حيث يكون في صحابة السلاطين بيمارستاناً متنقلاً لكثرة من معه من الأطباء والكحالين والجرائحية والأشربة والعقــاقير وما يجري مجري ذلك وكل من عادة طبيب ووصف له ما يناسبه يصرف له من الشراب خاناه أو الدواء خاناه المحمولين في الصحبة[6]، وفي أثناء المعارك الكبرى التي خاضها الجيش المصري في عصر المماليك مثل معركة عين جالوت (658هــ/1256م) كان الأطبــاء يــصطحبون الجــيش المصري، وكان لهم دور بارز في علاج المصابين حيث يتم نقل المرضى إلى البيمارستان الميداني الذي أعد لذلك الغرض وفي الغالب يكون البيمارستان خلف الجيش، وينقل المرضى والجرحى إلى

---

[1] بدائع، ج1، ص179،ج2، ص452.
[2] علي، الخطط ، ج6، ص104.
[3] عبد الدايم، الرعاية، ص174.
[4] محسن، الجيش، ص163.
[5] القفطي، تاريخ، ص405.
[6] عبد الدايم، الرعاية، ص174. عطية، تنظيم، ص468.

البيمارستان المتنقل على محفة[1] توضع فوق الجمال وتكون مريحة للجريح عند إخلائه لمسافات طويلة[2].

وعندما حاصر الظاهر بيبرس صفد عام (664هـ/1266م) فإن الأطباء لعبوا دوراً بارزاً في علاج المصابين من الجيش المملوكي فيتم نقل الجند المسلمين إلى البيمارستان الميداني ويتولى الأطباء علاجهم ويضمدوا لهم جراحهم[3].

ومثلما اهتم السلاطين المماليك بأمر الجيش فإنهم أولوا اهتمامهم بأمر تقديم الرعاية الطبية لرجال الأسطول فالسفن التي كانت مقسمة إلى طبقتين: الطبقة العليا تحمل المقاتلين والسفلى بها الطبيب والجراح ولذلك كان هناك أطباء في صحبة الأسطول أثناء القتال، حيث وفر السلاطين المماليك في كل مركب[4] طبيب وجراح فضلاً عن أربعة أشخاص لخدمة المرضى، وهم بذلك يعدو أسطولا قوياً لمواجهة الأعداء[5].

وقدم الأطباء لجنود الجيش والأسطول على السواء نصائح هامة في حفظ صحة الأعضاء وهي[6]:

1- حفظ صحة المعدة: ينبغي أن يكون المأكول معتدلاً بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.

2- حفظ صحة الدماغ: التعاهد بمشط الرأس واللحية عند كل صباح وتربط بالأدهان فإنه يقوي النظر ويصرف الأبخرة الردية.

3- حفظ صحة الأصداغ: يتناول كل صباح مثقالاً من سبكنجين[7] يمتص مصاً فإنه نافع جداً.

4- حفظ صحة العين: يتجنب النظر إلى كل ما يلمع ويواظب إلى ما كان أسود ويكتحل بالإثمد.

5- حفظ صحة الوجه: يتجنب القعود في الشمس ويغل الوجه بدقاق الغاسول ويلطخه في السفر بدهن زنبق[8].

---

(1) المحفة: معناها الهودج ويطلق على صاحبها المحفدار بكسر الميم وهو الذي يتصدى لخدمة المحفة، وهو مركب من لفظين محفة وحذفت التاء استثقالاً والثاني دار ومعناه ممسك المحفة. انظر: القلقشندي، صبح، ج5، ص470.

(2) وتر، معركة ، ص365.

(3) انظر أيضاً: عاشور، الظاهر بيبرس، ص70.

(4) هذا النوع من السفن يسمى الغراب وهو من أقدم أنواع السفن الحربية إذ كانت معروفة عند القرطاجيين والرومان وظلت معروفة طوال العصور الإسلامية وقد سميت بهذا الاسم لأن مقدمها يشبه رأس الغراب أي الطائر وتطلى بالقار وكانت رقيقة وطويلة لها قلاع بيضاء مما يجعلها تشبه طائر الغراب وكان الغراب يسمى بالشيني جفن، وهو معد لحمل الغزاة. انظر: ابن منكلي، الأحكام، ص163.

(5) المصدر نفسه، ص25. انظر أيضاً: عبد الدايم، الرعاية، ص175.

(6) انظر: ابن منكلي، الأحكام ، ص157، 158.

(7) سبنكجين: السبينج هو صمغة نبات شبيه بالقثاء في شكله. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج3، ص23.

(8) الزنبق: عبارة عن سمسم وتار الياسمين الأبيض يعتصر منه دهن يقال له الزنبق، انظر: المصدر نفسه، مج1، ج2، ص108.

6- حفظ صحة الشم: يتجنب كل رائحة ردية ويشم في الشتاء كل ما كان حاراً يابساً وفي الصيف كل ما كان بارداً رطباً.

7- حفظ صحة الأسنان: يستاك بدقاق العقيق مع رز وورد ويتمضمض بماء السلق المفتر فإنه يزيل الألم ويأتي بالصحة.

8- حفظ صحة اللهاء: يتغرغر بشيء يكون حاراً في كل أسبوع فإنه لا ينام وخاصة بماء مرق الفول المسلوق (الفول النابت) فإنه من الأسرار.

9- حفظ صحة الصوت: يستعمل كل يوم سكر نبات مع مثقالين قلب فستق ولعقة زبد طري.

10- حفظ صحة الصدر: يتجنب الصياح القوي والغيظ القوي والجري الذي يؤدي إلى التعب وحمل شيء ثقيل.

11- حفظ صحة القلب: يتجنب حمل الغم وكثرة الفكر وكثرة المزاح والوجوم ووسخ الأثواب والقناعة بما يسر الله.

12- حفظ صحة البطن: متى وجد فيه امتلاء منع نفسه الأكل، وأن وجد فيه ريح أصرفها بالورد المربا والكمون الكرماني.

13- حفظ صحة الصلب: يمرخ بزيت طيب قد على فيه شيء من القسط المر فإنه لا يلحقه برودة ولا ثقل.

14- حفظ صحة العقل: أن لا يشوب الإنسان في توحيده شيئاً من الشرك ويكون راضياً بما قسم الله له من الرزق وما قدر عليه، حامداً شاكراً لمن أخرجه من عدم وجود ولا يفرح بما يأتيه ولا يحزن على ما يفوته بل يكون طالباً للزيادة على ما أعطاه الله من العلم والعمل إلى منتهى الأجل.

وذكر الأطباء لرجال الأسطول الاحتياجات التي يجب أخذها لدفع الميد[1]، والعمدة في ذلك تقليل الغذاء بحيث لا يتضرر الإنسان بذلك ويكون ذلك قبل ركوب البحر بأيام ليقل الخلط ويكثر نشاطه، وينبغي أن يكون عند ركوب البحر مملياً من الطعام فإنه إذا حصل له القيء طان في معدته ما يستفرغه ثم يقلل الغذاء بعد ذلك وقيل إن مسح الأنف بالاسفيداج[2] داخل المنخر يمنع الميد وقيل لا ينظر إلى الموج ويشم الصندل والماء ورد والطين الحر مبلولاً بالخل، ويستعمل شراب الحصرم في الجملة أن يكون غذاؤه الأشياء الحامضة ولا يصلح أن يكثر من الاستفراغ ولا يقطع ما

---

[1] الميد: مادة يميد ميدا، تحرك وزاغ وأصابه غثيان ودوار من سكر أو ركوب بحر انظر: ابن منظور، لسان، ج6، ص4306.

[2] الإسْفِيداجُ: بالكسر: هو رَمادُ الرَّصاصِ والآنُكِ، إذا شُدِّدَ عليه الحريقُ صارَ إسْرِنْجاً، مُلَطِّفٌ، جَلاَّءٌ، مُعَرَّبٌ. الفيروزآبادى، القاموس،ج1،ص193.

يعرض من القيء في الحال لأن الأخلاط التي تثور الأبدان تخرج عن الحال الطبيعي فيكون استفراغها ونقاء البدن منها أولى اللهم إذا أفرط فإنه ينبغي قطعه[1].

أما الأدوية التي استعملها الأطباء في الأسطول فهي بقم[2] يسحق ويذر على الجراحات يلحمها ويقطع الدم المنبعث من الأعضاء ويجفف القروح، ومن ذلك الملح المر[3] إذا سحق مع شيء من صمغ الزيتون وحتى به الجرح الطري لحمه في ساعته ومن ذلك الكلس[4] إذا سحق وذر على جراحة الحديد المسموم أبراه، وكذلك المغناطيس إذا لمس على اليد سكن وجع اليدين والرجلين والتشنج، وكذلك أصل النرجس[5] قوته قوة عجيبة حتى أنه يلحم الجراحات العظيمة ويبلغ من قوته أيضاً أنه يلحم القطع الحادث من الوترات، ومن ذلك الكندر يسحق فيلحم الجراحات الطرية بدمها[6].

ومن ذلك يتضح لنا مدى حرص المماليك على توفير الرعاية الصحية للجيش المملوكي باعتباره جزءاً من المجتمع في مصر والشام، إضافة إلى أنه يتولى في المقام الأول الدفاع عن البلاد في مواجهة العدوان التتري؛ لذلك كانت البعثات الطبية أو ما يعرف ببيمارستان الجيش ترافقه أينما حل وأينما نزل وأينما ركب لتقديم الخدمات الطبية للمرضى والجرحى من القوات إضافة إلى تخصيص أطباء لهم يعرفون بأطباء الجند أو العسكر.

ج- بيمارستانات السبيل :

وثمة نوع ثالث من المنشآت العلاجية المتنقلة وكان يعرف باسم بيمارستانات السبيل وهي عبارة عن بعثات طبية مجهزة بكافة الاحتياجات الطبية وذلك لمرافقة قوافل الحج أو القوافل

---

(1) ابن منكلي، الأحكام، ص14، 15.

(2) البقم: اسم ببلاد اليمن لشجرة جوز مائل. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص103.

(3) المر: هو صمغ شجرة تتكون ببلاد الغرب شبيهة بالشجرة التي تسمى باليونانية بالشوكة المصرية، تشرط فيخرج منها هذه الصمغة وتسيل وتصير على حصر وبواري قد بسطت ومنها ما يجمد على ساقها، ومنها نوع= =دسم تخرج منه الميعة السائلة إذا عصر ومنها نوع دسم جداً وشجرته تكون في أرض طيبة سمينة وإذا عصر ماؤه اخرج ميعة سائلة كثيرة جداً وأجود المر يابساً لا تكون هذه الاقراص طيبة الرائحة ولا دسمة، هذا ويستخدم المر في علاج الكثير من الأمراض . انظر: ابن البيطار،الجامع، مج 2، ج4، ص145-147. المر: **يُجْبَرُ بِهِ الْجُرْحُ وَالْكَسْرُ**. الحربي، غريب،ج1، ص81.

(4) الكلس: ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها بإحراقها. انظر: ابن منظور، لسان، ج5، ص3915.

(5) النرجس: نبات له ورق شبيه بورق الكرات إلا أنه أدق منه وأصغر كثير وله ساق جوفاء ليس لها ورق طولها ولها أكثر من شبر عليها زهر أبيض في وسطه شيء لونه أصفر وثمرته سوداء. انظر: بن البيطار، الجامع، مج2، ج4، ص179.

(6) ابن منكلي، الأحكام، ص145، 146.

التجارية حيث دعت الحاجة إليها، وذلك لأن بعثات الحج والقوافل التجارية تسير لمسافات طويلة، وعبر مساحات شاسعة من الأراضي وبالتالي لا بد أن يكون هناك نوع من الرعاية الصحية لأفراد هذه القوافل والتي يعاني بعضهم الإرهاق والتعب من طول السفر، والبعض الآخر قد يصاب بالمرض[1].

كما كانت هناك أنواع من البيمارستانات تجوب القرى والأصقاع في حال انتشار الأمراض والأوبئة بها، وخاصة في المناطق النائية البعيدة عن حاضرة الدولة والخالية من وجود بيمارستانات ثابتة بها[2] وهذه البيمارستانات المتنقلة أشبه ما تكون اليوم بالقوافل الطبية العلاجية، والتي تجوب البلاد الريفية الخالية من الأطباء.

وقد كان بعض الأطباء يذهبون إلى بيوت المرضى لعلاج المرضى، فكان عبد القادر القويضي[3] " يذهب إلى الفقراء في منازلهم ويعالجهم ويفاقرهم، وربما لم يأخذ من بعضهم شيئاً، وقد يعطي الدواء من عنده، ويركبه من كيسه "[4].

ومن ما سبق يتضح لنا أن الدولة المملوكية لم تتدخر وسعاً في إقامة المنشآت العلاجية الثابتة في الحواضر والمدن الكبرى ثم خصصت نوعاً من المنشآت العلاجية المتنقلة وذلك لخدمة البلاد والمناطق البعيدة والتي لا يستطيع أهلها الوصول إلى البيمارستانات الثابتة.

3- الحمامات:

تعتبر الحمامات أحد المنشآت الصحية فهي وسيلة أساسية من وسائل المحافظة على صحة الأبدان، وقد لعبت دوراً مهماً في حياة الناس، فالمريض إذا دخل الحمام اعتبر ذلك إيذانا بشفائه([5])؛ وذلك لدور الحمامات في النظافة والتطهر التي هي شرط من شروط صحة الصلاة التي هي أهم شعائر الإسلام[6].

---

[1] محمد، مقدمة، ص51.

[2] المرجع نفسه، ص253.

[3] عبد القادر القويضي: عبد القادر بن محمد، الشيخ الحاذق زين الدين ابن الشيخ شمس الدين القويضي، الدمشقي الحنفي الطبيب. أخذ الطب عن الرئيس خشمش الصالحي، وكان أستاذاً في الطب، وكان في آخر أمره يتلو القرآن في ذهابه وإيابه من الصالحية إلى دمشق، وكان ساكناً بالقرب من الجامع الجديد بسفح قاسيون، وكان حسن المحاضرة، جميل المذاكرة، وله شعر وسط انقطع أياماً، ثم توفي 947هـ/1540م. الغزي، الكواكب،ج2،ص 171.

[4] المصدر نفسه، نفس الجزء و الصفحة.

[5] خافجي، جوانب، ص18، 19.

[6] الفقه على المذاهب الأربعة، ج1، كتاب الطهارة، ص50، 51، كتاب الصلاة، ص151، 152.

وقد شهدت مصر والشام خلال العصر المملوكي إنشاء حمامات، وتخصيص الأوقاف اللازمة للصرف فيها[1].

1- الشروط الواجب توافرها في الحمامات.

وضعت مجموعة من الشروط كان على من يريد أن ينشئ حماماً أن يحرص على إتباعها حتى يكون الحمام صحياً وهي[2]:

1- أن يكون الحمام مسدود المنافذ وليس فيه طاقات ولا أكواه ولا أبواب مفتوحة لأنه مشتمل على ما هو حار فإذا كانت فيه منافذ يدخل الهواء منها، أصبح ذلك ضاراً.

2- أن تكون جدره كثيفة بحيث تمنع طرق الهواء من خلالها، وذلك بأن يكون مبنياً بالحجر الصلب، لا بنحو طين، ومدر، فإن فرض اتخاذه من خشب، بغرض انتقائه بعد زمان يسد ما بين الألواح بزفت ونحوه من الأشياء المانعة لدخول الهواء من الشقوق، ووجوب سترها باللبود.

3- أن يكون الحمام رفيع البناء (أي عالي البناء) لتصعد الرطوبات إلى أعلى وتنبسط.

4- أن يكون الحمام واسع الفناء ليصفو هواءه باتساع محاله فتفرق الحرارة ولا تنحصر الأنفاس المختلفة حتى لا يتعسر تنفس الناس بداخله فالجلوس في المكان الضيق يورث الكرب والجلوس في المكان الواسع يورث انشراح الصدر.

5- أن يكون كثير الضياء والنور بأن يتخذ له باباً من زجاج شفاف ليقوى الشعاع حتى يمكن المراقبة، ويستمر الماء دافئاً، إضافة إلى أن كثرة الضياء تفرح القلب وتعين على تحليل الفضلات، لأنها تجلب الحرارة إلى ظاهر البدن فتنجذب معها الفضلات، فيكون ذلك أعون على تحليلها.

6- أن يكثر إزورار دهاليزها وانعطافها ويحكم طبق أبوابها، وأن يجعل بابه إلى الجنوب وأن تستر الأبواب في الشتاء باللباد.

7- أن تستر جدره بالبياض.

8- أن يكون قديم البناء له سبع سنين فأكثر لأن الجديد غير معتدل المزاج.

9- أن تكون أرضه مفروشة بالرخام الملون لما فيه من مقاومة برده للحر ولأن صلابته تعكس بالبخار بسرعة فيلطمه بخلاف فرشه بالأحجار الرخوة والبلاط والمدراود والخشب والتراب.

10- أن تكون جميع بيوت الحمام حتى المسلخ جامعة الأشكال المفرحة، وأن تنقش جدره بالصور البديعة كالأشجار والثمار والدور والقسى والرماح والقلاع والحصون، والبحار والسفن والوحوش

---

[1] المقريزي، خطط، ج2، ص86.

[2] المناوي، النزهة، ورقة15-28. القوصوني، رسالة في الكلام على الحمام، ورقة2-6.

والحيتان والأطيار المفردة وغير ذلك بأصباغ مختلفة الألوان لأن الحمام يحلل القوى، والنظر إلى ذلك يجبر ما تحلل[1].

11- أن يعذب ماء الحمام فحينما سئل بن سينا عن خير حمام قال:"ما قدم بناؤه واتسع فناؤه، وعذب ماؤه، لأن الماء العذب المالح فيها أولى.

12- أن يكون الحمام نظيفاً وكذا ماؤه نظيفاً بحيث ترتاح النفس فيه وأن تنظف المغاطس بين كل شخص وآخر، حتى لا يضر أحدهما بالآخر.

13- أن يكثر فيه من البخور والروائح الطيبة لترتاح الروح ويرد على القوى الثلاثة ما تحلل منها.

14- أن يكون مصوناً عن النار والدخان والغبار ما أمكن فإنهما يؤديان إلى الهرم والسقم، وذلك بإحكام بنائه وأبعاد المستوقد عنه وتسليط دخانه على الفضاء الواسع.

15- أن يكون له مسلخ توضع فيه الثياب ويجلس فيه الخارج من الحمام حتى لا يخرج إلى الهواء دفعة واحدة فيضر ذلك المستحم.

16- أن يكون وقوده مما ليس فيه كيفية ردية، فيتجنب الزبل وكساحه الطريق وذلك لأن البخار الناتج عنها يكون ضاراً.

17- أن يكون للحمام ثلاثة أقسام غير المسلخ متدرجة الحرارة حتى لا يدخل المستحم دفعة إلى القسم الشديد الحرارة فيؤذيه ذلك.

هذه هي أهم الشروط الموضوعة لجعل الحمام صحياً ويتضح لنا منها مدى الحرص الشديد على العناية بالحمامات باعتبارها أحد المنشآت التي تساعد على حفظ الصحة وإزالة الأمراض[2].

2- مكونات الحمامات:

أما عن مكونات الحمام، فقد قسم الحمام إلى عدد من الغرف الباردة والدافئة و الساخنة، وكانت به المقاصير ذات الأبواب المتعددة لجلوس المستحمين بداخلها وجميعها كانت محكمة البناء والصنعة[3] وكانت أحواض الحمام تسخن عن طريق النار الموقدة تحت أرضها بدرجات تجعل كل واحد منها ذات درجة حرارة معينة حتى لا تؤذي المستحم من جراء دخوله غرفة باردة وانتقاله إلى

---

[1] أي النظر إلى هذه الرسوم والنقوش يجبر ما تحلل من قوى البدن لأن الحمام يحلل قوى البدن، وأرواح البدن وقواه، ثلاثة نفسائية وطبيعية وحيوانية، فكل واحدة من هذه يناسبها نوع معين من هذه الرسوم يلائم طبيعتها، فيجبر ما تحلل من قواها. انظر: المناوي، النزهة، ورقة 17.

[2] حسن، الحمامات، ص19.

[3] البغدادي، الإفادة، ص69، 70. انظر حول تخطيط الحمام ومكوناته: العقباوي، الحياة، ص224-229.

غرفة ذات حرارة مرتفعة[1]. وقد ضم كل حمام بالإضافة إلى الأحـواض كـل مـن المـسلخ[2] والموقد[3].

ومنها:" مستوقد حمّام القاضي "[4]، و" مستوقد حمام ابن عبـود "[5]، و" مـستوقد حمـام الخرّاطين"[6]. وأنابيب المياه التي تصل بين الأحواض[7] ولكل منها استخدام خاص بالحمام، حيـث كان يتم تزويد الحمامات بالمياه من مصادر متعددة[8]، فكان في حلب قناة تختـرق الحمامـات[9]، وأجرى تنكز قناة كانت تغذي حمامات القدس[10]، وكان في الخليل عين تسمى "عين الحمام ومنبعها من وادي التفاح وماؤها يجتمع مع ماء السميقة لحاصل الحمام بمدينة الخليل "[11].

3- دور الحمامات في الرعاية الصحية :

كانت أفضل الأوقات لدخول الحمام، هي بعد تمام الهضم وانتقاص الفضول[12] ولا بد من تقليل الرياضة قبل دخول الحمام فلا يدخل الحمام بعد حركة عنيفة أو تعب شديد أو على اسـتفراغ أو على امتلاء فإذا دخل بعد رياضة أو جماع، فلا بد من تناول منقوع في سكر أو خل رمـان أو تفاح، ثم إذا وجد الحمام شديد الحر بعد ذلك امتنع مقدامه فيه لأنه يورث الصداع والكرب والغشى وتكراره يورث الرعشة[13] كما يمتنع على المصاب بالحمى الملهبة دخول الحمام[14] لأن الإكثـار

---

(1) البغدادي، الإفادة، ص60، 70. المقريزي، خطط ،ج3، ص74،110.

(2) المسلخ: وكان عبارة عن بركة مرخمة عليها أعمدة وقبة مزخرفة السقف والجدران بالرخام الجميـل المتعـدد الألوان. انظر: البغدادي، الإفادة، ص70. العقباوي، الحياة، ص226.

(3) الموقد: كان عبارة عن قبة مفتوحة تصل إليها نار الموقد، وعليها قدور أربعة يندفع إليها الماء من الواحدة إلـى الأخرى، وفي كل مرة يصل إلى درجة حرارة معينة، وإذا ما وصل القدر الرابع إلى درجة الحرارة المطلوبة اندفع إلى مجاري الحمام بيسر وسهولة. انظر: المصدر نفسه، نفس الصفحة. المرجع نفسه، ص224.

(4) المقريزي، خطط ،ج3،ص74.

(5) المصدر نفسه،ج3، ص110.

(6) المصدر نفسه ،ج3، ص152.

(7) أنابيب المياه: وكانت تستخدم لتوصيل المياه عبر جدران الحمام إلى غرفه المختلفة. انظر: حسن، فنون، ص28.

(8) المقابلة، المؤسسات، ص113.

(9) المقريزي، خطط، ج4، ص295.

(10) العليمي ،الأنس،ج2، ص99. العسلي، آثارنا، ص173.

(11) العليمي ،الأنس ،ج2، ص80.

(12) المناوي، النزهة ، ورقة64.

(13) المصدر نفسه ، ورقة65.

(14) القوصوني، رسالة في الكلام على الحمام، ورقة 8، 9.

من دخول الحمام قد يسبب أضراراً تلحق بالجسم[1]. إلا أن منافع الحمام أكثر من مضاره بكثير فهو موافق لجميع الأصحاء في جميع الأسنان والأزمان والبلدان[2]، هذا وقد لعبت الحمامات دوراً كبيراً خلال العصر المملوكي كمنشأة صحية ساعدت في التخفيف من آلام وأمراض الناس، إضافة إلى دورها المتميز في إثراء الحياة الاجتماعية في مصر[3] والشام[4].

فمن فوائد الحمامات الصحية نذكر[5]:

1- أن الاغتسال بها يشد البدن وينعشه وينشطه كما أنها تستخدم للتنظيف وإزالة الوسخ والشعث والدرن والعفونات والقمل، ويذهب الحكة والجرب والدمامل والقروح.

2- تدفع أمراضاً كثيرة كالحميات والتخم، وإنضاج النزلات وجذب العفونات والتي لا تستطيع الأدوية والدهانات الوصول إليها.

3- يذهب التعب والإعياء ويسكن الأوجاع ويهدئ الأعصاب ويفتح المسام، ويساعد الجسم على استعادة كامل صحته وحيويته.

4- يستفرغ الفضول ويحلل الرياح ويلين البدن ويحسن اللون.

5- ينفع من الاستسقاء والدق ويبسط الأعضاء المتشمجة.

6- ينفع حمى يوم وحمى الدق، والحمى البلغمية بعد نضجها.

7- يزيل وجع الجنب والصدر، وينضج الربو.

8- يسمن المهزول ويهزل السمين، ويدفق الدم والفضول اللزجة بحرابته.

9- يلين العصب والرباطات ويحلل القولنج ويسهل عسر البول.

10- يرطب البدن اليابس كل ذلك إذا استعمل على قانونه واعتدال المعتبر.

كما كان يستخدم الحمام بعد فترة من استعمال الدواء، حيث أنه متى استعمل الدواء وبقي في البدن فضول لم يفتها، وجب استعمال الحمام بعد ثلاثة أيام أو أربعة، لأن بقية الفضول في نواحي الجلد والتي عجز الدواء عن تنقيتها يستطيع الحمام أن ينقيها ويفصلها.

---

[1] المناوي، النزهة، ورقة65. ابن سينا، دفع، ص26.

[2] المناوي، النزهة ، ورقة65.

[3] خفاجي، جوانب، ص18، 19.

[4] أحمد، المجتمع ، ص157. وهذه نماذج لدور الحمامات في الحياة الاجتماعية أنها كانت تستخدم للتجميل والتزيين فكان يتم فيها صبغ الشعر والحلاقة للرجال والبلانة للنساء وتجهيز العرائس. انظر: ابن العبري، تاريخ، ص259. كما كانت المرأة تجد في الحمام مجالاً للترفيه عن نفسها، والشعراء كان يتطارحون فيه القصائد والأشعار انظر: خفاجي، جوانب، ص19. المقابلة، المؤسسات، ص121.

[5] ابن ربن الطبري، فردوس، ص340. ابن سينا، القانون، ج1، ص104-115. المناوي، النزهة، ورقة 64-67. زيادة، الحمامات، مج1، ص77-80.

ومن ذلك يتضح لنا مدى الدور المهم الذي لعبته الحمامات في مصر والشام في العصر المملوكي باعتبارها أحد المنشآت الصحية والتي كان الناس يقصدونها بغرض النظافة والاستشفاء من الأمراض[1].

4- أشهر الحمامات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي:

حفلت مصر والشام خلال العصر المملوكي بالعديد من الحمامات العامة حيث أنفق عليها أموال كثيرة من أجل المحافظة على نظافتها وتزويدها بما تحتاجه من أثاثات ومواد مستخدمة فيها من عطور وبخور وغيرها[2]. فلم يكن هناك " أتقن منها وضعاً ولا أتم حكمة ولا أحسن منظراً ومخبراً "[3].

وقد ذكر ابن خلدون:" الحمامات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم "[4]، وكانت مدينة القاهرة على رأس تلك الحواضر، باعتبارها حاضرة الدولة، وتميزت بوجود العديد من الحمامات العامة بها فذكر ابن عبد الظاهر أن عدّة حمامات القاهرة إلى آخر سنة (685هـ/1286م) تقرّب من ثمانين حماما [5]، هذا بخلاف ما أنشئ بعد ذلك خلال عصر المماليك فقد أشار المقريزي إلى اثنين وعشرين منها زمن المماليك الجراكسة[6]، ومن هذه الحمامات ما قد أنشئ في عصر سابق على العصر المملوكي، ولكنه ظل قائما في عصر المماليك[7]، ومن هذه الحمامات: حمام طاب الزمان[8]، وحمام ابن علكان بحارة الجودرية إحدى حارات القاهرة في العصر المملوكي[9]. ومن حمامات القاهرة أيضاً خلال العصر المملوكي حمام الأمير صارم الدين المسعودي، والذي كان في الأصل حمام بدار الديباج وخزائن السلاح في العهد الفاطمي[10]، وظل مستخدماً خلال العصر المملوكي. وحمام

---

[1] زيادة، الحمامات، مج1، ص78.

[2] المقريزي، خطط، ج4، ص295. حسنين، الحمامات، ص19، 34، 35.

[3] البغدادي، إفادة، ص69.

[4] تاريخ ،ج1، ص472.

[5] المقريزي، خطط ،ج3، ص146.

[6] المصدر نفسه ،نفس الجزء والصفحة.مبارك، الخطط، ج1، ص95. العقباوي، الحياة، ص221.

[7] العقباوي، الحياة، ص221.

[8] أو حمام فارس الدين مصطفى: يقع هذا الحمام بآخر زقاق الكنيسة في حارة زويلة. انظر: المقريزي، خطط، ج2، ص46.

[9] المقريزي، خطط، ج2، ص82.

[10] ابن جبير ،رحلة، ص15.

يونس الذي كان يعرف بحمام الأيدمري قبل زمان المقريزي[1]، و" حمام الفاضل المعدّة لدخول الرجال "[2]، و حمام الساباط: قال المقريزي: و" يعرّف في زمننا بحمّام المارستان المنصوري وهو برسم دخول النساء عند باب سرّ المارستان المنصوري "[3]، و حمّام السلطان[4]، وحمّام خوند: بجوار رحبة خوند، يدخله عامة الرجال في أوائل النهار، ثم تعقبهم النساء من بعد، إلى أن هدمها الأمير صلاح الدين محمد استادار السلطان ابن الأمير الوزير الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله في شهر رجب سنة (824هـ/1421م)ـ[5]، وحمّام ابن عبود: " فيما بين اصطبل الجميزة، وبين رأس حارة زويلة، وهي من الحمامات القديمة، عرفت بحمّام الفلك[6]، ثم عرفت بالأمير عليّ بن أبي الفوارس، ثم عرفت بابن عبود[7]. وحمام القاضي، وحمام الخراطين[8]، وحمام المؤيد[9]، وحمام الغوري[10]، وغيرها من الحمامات[11].

وإذا كانت القاهرة قد نالت كل هذا الاهتمام وكثر بها إنشاء الحمامات فإن مدن مصر الأخرى قد نالت بعض العناية والرعاية في هذا المجال ومن ذلك مدينة الإسكندرية والتي بني فيها العديد من الحمامات، بل وخصص بعضاً منها للغرباء عن المدينة والذي يفدون من الأقطار النائية، " يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ". كما كان بمدينة أسيوط العديد من الحمامات ويشير القلقشندي إلى ذلك فيقول: "وبأسيوط قياسر وفنادق وحمامات "[12].

---

[1] المقريزي، خطط، ج2، ص206.

[2] المصدر نفسه،ج 2، ص226.

[3] المصدر نفسه ،ج3، ص146.

[4] حمام السلطان: كان موقعه مكان دار الديباج الفاطمية القديمة، الآن بخط بين العواميد من البندقانين بجوار خوخة سوق الجوار ومدرسة سيف الإسلام. المصدر نفسه، ج3،ص148.

[5] المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

[6] القاضي فلك قاضي الملك العادل الأيوبي. المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

[7] نسبة إلى الشيخ نجم الدين أبو عليّ الحسين بن محمد بن إسماعيل بن عبود القرشيّ الصوفيّ، مات في سنة 722هـ بعد ما عظم قدره ونفذ في أرباب الدولة نهيه وأمره، وهو صاحب الزاوية المعروفة بزاوية ابن عبود بلحف الجبل، فأنظرها في الزوايا. المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

[8] المصدر نفسه، ج3، ص 152.

[9] العقباوي، الحياة، ص226.

[10] المرجع نفسه، ص227.

[11] انظر: المقريزي، خطط، ج3، ص 152-157. العقباوي، الحياة، ص222.

[12] صبح، ج3، ص454.

هذا ولم يكتف سلاطين وأمراء الدولة المملوكية بإنشاء حمامات عامة فقــط، بــل اهتمــوا بإلحاق الحمامات بالمنشآت الدينيــة والمؤســسات التعليميــة كالمــدارس، والمنــشآت الــصحية كالبيمارستانات، إضافة إلى الخانقاوات والترب وغيرها[1]، وذلك لتوفير وسائل النظافة والطهــارة للمقيمين بهذه المنشآت والمترددين عليها.

ومن هذه الحمامات الملحقة بالمنشآت السابقة: حمام خانقاة سرياقوس، وبسبب " تزايد الناس بها أنشئ فيها سوى حمّام الخانقاه عدّة حمّامات "[2]، وحمام الصوفية بخانقاة سعيد السعداء[3]، وقد أعد المنشئ هذا الحمام لصوفيتها حرصاً منه على نظافتهم وطهارتهم، ولا زال هذا الحمام قائمــاً بمدخلين أحدهما داخل الخانقاة والآخر من خارجها[4]، وكان الصابون المــستخدم فــي الاغتــسال والنظافة داخل الحمام يفرق على صوفية هذه الخانقاة كل شهر ضمن شروط الوقف[5]. ومن هــذه الحمامات أيضاً حمام المدرسة الصاحبية[6]. و حمام الذهب الملحق بمدرسة منازل العز[7]، ومنهــا أيضاً الحمام الملحق بالقلعة بعد أن اتخذت مكاناً للسكن والإدارة[8]، وقد بني لهذا الحمام مجراة من بركة الجيش إلى تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه تجري بالماء في أيام النيل، وبنــى الحــوض (الحمام) على الطريق السالكة عند تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه[9].

وقد ألحقت بعض الحمامات ببعض الأضرحة والمشاهد، ومنها الحمام الملحق بمشهد السيدة نفيسة والذي أنشأته شجر الدر[10].

هذا وقد شهدت بعض الحمامات الملحقة بالمنشآت الإدارية المأساوية الخطيرة مثل حمــام قلعة الجبل[11].

---

[1] المقريزي، خطط، ج2، ص80-85، 354، 383، 405.

[2] المصدر نفسه، ج4، ص294.

[3] ابن العبري، تاريخ، ص260.

[4] عبد الله، معاهد، ص242، 243.

[5] المقريزي، خطط، ج4، ص295. مبارك، الخطط ، ج4، ص211.

[6] المقريزي، خطط، ج3، ص81، 149.

[7] المصدر نفسه، ج4، ص202.

[8] المصدر نفسه ، ج2، ص85.

[9] بن اياس، بدائع، ج1، ص99.

[10] المقريزي، خطط، ج3، ص 39 . وشجر الدر هي زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهي أم ولــده خليــل وكانت تاسع من تولى السلطنة من بني أيوب.انظر: ابن إياس، بدائع، ج1، ص109، 110.

[11] شهد حمام قلعة الجبل مقتل المعز أيبك التركماني على يد غلمان وجواري شجرة الدر. انظر: ابــن العبــري، تاريخ، ص260. أولج فولكف، القاهرة، ص83.

أما عن حمامات بلاد الشام خلال العصر المملوكي، فقد كانت أكثر من أن تحـصى فقـد أولاها سلاطين المماليك عناية ورعاية خاصة وأن بلاد الشام كانت مسرحا لكثير مـن الحـروب والتي تثار فيها الأتربة والرمال ويصاب فيها المحاربون بالإرهاق الشديد، وبالتالي لابد من وجود منشآت صحية تزيل عن أبدانهم هذا القدر المتعلق بها ويجدون فيها الراحة والاستشفاء.

وقد حفلت مدينة دمشق بالعديد من الحمامات العامة المقامة داخل المدينة وخارجها[1] والتي لاشك في أن لها دور كبير في شفاء أمراض كثيرة وعديدة[2]، وكانت قرابة المائة حمام[3] بالإضافة إلى الكثير من المرافق المصاحبة لهذه الحمامات[4]. وكان بجوار قلعة دمشق حمام[5].

ومن قرى دمشق التي حفلت بالعديد من الحمامات العامة قرية يقال لها النيرب[6] حيث كان بها " حمّام مليح "[7]، وأكثر توابع هذه البلدة فيها حمامات[8].

وقد انفردت حمامات مدينة طبرية[9] بخاصية لم تتح لغيرها من الحمامـات فـي مـصر والشام، وهي بناؤها على عيون طبيعية حارة تجري ليلاً ونهاراً ولا تحتاج إلى وقـود[10]، فكـان الناس يتمنون دخول حمامات طبرية بدلاً من دخول حمامات دمشق[11]، لما عرف عن حمامـات طبرية أنها تساعد في علاج الكثير من الأمراض الجلدية والمزمنة، إضافة إلى أمـراض النـساء والرئة والنقرس[12].

---

(1) ابن شداد، الأعلاق، قسم دمشق، ص30.

(2) المنجد، مدينة دمشق ، ص30.

(3) ابن جبير، رحلة، ص235.

(4) المصدر نفسه ، نفس الصفحة.

(5) وقد بناه الظاهر بيبرس. ابن شداد، الأعلاق،.قسم دمشق، ص 40. ابن شاكر، فوات ،ج1، ص244.

(6) قرية النيرب: قرية كبيرة تتصل بالربوة المباركة من أسفل، بمقربة من المسافة تغطيها البساتين فلا يظهر منهـا إلا ما سما. انظر: ابن جبير، رحلة، ص234.

(7) ابن بطوطة، رحلة، ج1 ، ص330.

(8) ابن جبير،رحلة، ص234.

(9) طبرية: هي بلدة مطلة على بحيرة طبرية وهي في طرف جبل بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وكذلك بينها وبـين بيت المقدس وقرى هذه البلدة متصلة كثيرة النخل وماؤها عذب وأغلب طعام أهلها من الأسـماك انظـر: يـاقوت، معجم، ج4، ص19، 20.

(10) اليعقوبي، البلدان، ص327. الادريسي، نزهة، ج1، ص344، 364.

(11) ابن كثير، البداية، ج12، ص344، 345.

(12) علي، خطط ، ج4، ص182.

كما كان في حلب حمام يعرف بحمّام عتاب[1]، وكان بصفد حمام[2]، وكان بقلعة بعلبك حمام[3]، وفي طرابلس "حمامات حسان موصوفة "[4] كذلك كان بمدينة حماه على أحد شواطئ النهر الذي يجوب شرقها بأحد شطيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتاً عدة، يخترق الماء من دواليبه جميع نواحيها، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها[5] فهذه المطاهر كانت على هيئة حمامات مصغرة يغتسل ويتطهر فيها أهالي حماه.

كذلك اهتم سلاطين وأمراء البيت المملوكي بإقامة الحمامات فبنى الأمير تنكز حمامات كثيرة في بلاد الشام، منها حمام بجوار جامعه، وحمام بقرية قارا[6]، و حمامين ببيت المقدس" جليلين كانت أحوج شيء إليه لأنه لم يكن بها حمامات مرضية "[7]، بالإضافة إلى الحمامات الأخرى كحمام علاء الدين البصير[8]، وكان بمدينة معان[9] حمامين حيث خصص أحدهما للرجال والآخر للنساء[10]. كما كان في الكرك حمام يعرف بحمام الحموي[11]، ولسنجر بن عبد الله الأمير علم الدين الجاوليّ " من الآثار الجميلة الفاضلة بمدينة غزة .. حمّام مليح "[12]، وحمام في الخليل[13]، ومنعاً للاختلاط داخل الحمامات فقد خصصت بعضها للرجال، والبعض الآخر للنساء مثلما كان الحال في مصر ومن ذلك أن مدينة القدس كان بها حمامات للرجال وأخرى للنساء، فكان حمام الشفاء[14] يرتاده الرجال فقط، في حين أن حمام العين[15] كان مخصصاً للنساء[16].

---

(1) الغزي، نهر ،ج2، ص65.

(2) العمري، مسالك ،ج3، ص541. الصفدي، أعيان ،ج3، ص695.

(3) ابن كثير،البداية، ج12، ص352.

(4) العمري، مسالك ،ج3، ص539.

(5) ابن جبير،رحلة، ص206.

(6) قارة: وهي قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الاول من حمص للقاصد إلى دمشق وهي كانت آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق. ياقوت، معجم، ج4، ص295.

(7) العمري، مسالك ،ج3، ص545. انظر: العليمي، الأنس ،ج2، ص35.

(8) العليمي، الأنس ،ج2، ص46.

(9) مدينة معان: هي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز. انظر: ياقوت، معجم، ج5، ص179.

(10) الحنبلي، شفاء، ص284.

(11) بناه الأشرف شعبان. مقابلة، المؤسسات، ص120.

(12) المقريزي، خطط ،ج4، ص256.

(13) العليمي، الأنس ،ج2، ص80.

(14) حمام الشفاء: وكان يقع بوسط سوق القطانين بمدينة بيت المقدس. انظر: العسيلي، من أثرانا ، ص175.

(15) حمام العين: ويقع في نهاية السوق بطريق الوادي انظر: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(16) المرجع نفسه ، ص171.

وبالإضافة إلى الحمامات الثابتة المنتشرة في المدن، فقد كان هناك حمامات متنقلة تصحب السلطان في سفره، إلى جانب البيمارستان المتنقل، وذلك للحفاظ على نظافة وصحة السلطان ومن بصحبته لوقايتهم من الأمراض، ويكون هذا الحمام بمقابل خيمة السلطان " على هيئة الحمام المبني في المدن، إلا أنه مختصر "[1].

ومما سبق يتضح لنا مدى حرص الدولة المملوكية على نشر التعليم الطبي، وإنشاء العديد من المنشآت التعليمية، في مصر والشام إضافة إلى إنشاء العديد من المنشآت العلاجية مثل البيمارستانات والحمامات، إيماناً منهم بدور هذه المؤسسات في حفظ الصحة و النظافة والطهارة.

---

[1] العمري، مسالك ،ج3،ص439.

الفصل الثالث

أسباب انتشار الأمراض في مصر و بلاد الشام في العصر المملوكي

أولاً: الأسباب البشرية وتتمثل في:

1- عدم الاهتمام بالنظافة:

أ- عدم الاهتمام بنظافة البدن:

ب- عدم الاهتمام بنظافة الملبس:

ج- تلوث المأكل والمشارب:

د- عدم الاهتمام بنظافة أماكن الإقامة والبيئة المحيطة:

2- الإسراف في المأكل والمشارب:

3- نقص الوعي الصحي:

4- الفقر:

5- الانحراف الخلقي والجريمة:

6- الحروب:

ثانيا: الأسباب الطبيعية وتتمثل في:

1- طبيعة مناخ مصر والشام:

2- المجاعات.

3- الزلازل

4- انتشار الحشرات والآفات الزراعية:

ثالثا: أسباب الإصابة بالأمراض الوافدة (مرض الطاعون)

أسباب انتشار الأمراض في مصر والشام في العصر المملوكي:

قبل الحديث عن أهم أمراض العصر المملوكي في مصر والشام لابد من الحديث عن أسباب ومسببات هذه الأمراض، وهي في الحقيقة لا تخرج عن سببين رئيسيين هما الأسباب البشرية أولاً وتتمثل في السلوكيات الغير صحية لأفراد المجتمع، مثل عدم الاهتمام بنظافة البدن، والملبس، وتلوث المأكل والمشارب والإسراف في المأكل والمشرب وعد الاهتمام بنظافة أماكن الإقامة والبيئة المحيطة ونقص الوعي الصحي إضافة إلى الانحراف الخلقي كما تمثل الحروب أحد الأسباب البشرية للإصابة بالأمراض حيث أن الحروب يصنعها البشر،وهي تستهلك القوى البشرية ويترتب على ذلك ظهور المجاعات، إضافة إلى الأعداد الهائلة من القتلى، والتي يترتب على تعفن جثثهم انتشار الأوبئة والطواعين.

كما تعد الأسباب الطبيعية التي لا دخل للبشر فيها ولكنها من صنع الطبيعة مثل طبيعة المناخ في مصر والشام والمجاعات والزلازل والحشرات والآفات الزراعية، لها دور كبير في انتشار الأمراض بمصر والشام.

وهو ما سيتضح في ثنايا هذا الفصل، وسيأتي تفصيل ذلك كله خلال الصفحات التالية:

أولاً: الأسباب البشرية وتتمثل في:

1- السلوكيات الغير صحية لأفراد المجتمع:

أول الأسباب البشرية هو هذه السلوكيات الغير صحية لبعض البشر مثل عدم الاهتمام بالنظافة التي هي من أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوامر فقال تعالى"وثيابك فطهر"[1]، فالنظافة هي ركن الصحة والعافية ووسيلة الوقاية من الأمراض السارية والحصن المنيع أمام الأوبئة الفتاكة والمعدية، وهي رمز الذوق والجمال، ودليل الأدب وحسن الحال وبها يصون الإنسان كرامته ويحفظ منزلته[2].

أ- عدم الاهتمام بنظافة البدن:

حيث أن ترك البدن بدون نظافة، أو الإهمال في نظافته قد يتسبب في إصابة الإنسان بالكثير من الأمراض، هذا وقد استبان للمشتغلين بأصول التشريع وعلماء الاجتماع من الأوروبيين أن أكثر الناس قذراً في أجسادهم وثيابهم أكثر ذنوباً، وأطهرهم أبداناً أبعدهم عن الذنوب، ومن ثم

---

(1) سورة المدثر، آية 4.

(2) الشطي، الإسلام، ص1.

أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب فحسنت أخلاقهم، وخرجوا من السجون وهم أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرزائل[1].

لذلك نجد ديننا الإسلامي والذي جاء بالخير للبشرية جمعاء يدعونا إلى الاهتمام بالنظافة والطهارة حتى تصح الأبدان وليتمكن الإنسان من أداء الرسالة التي كلف بها، وقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من الآيات الداعية إلى الطهارة والنظافة[2] كما اشتملت السنة النبوية على الكثير من التوجيهات النبوية الداعية إلى ضرورة الاهتمام بنظافة البدن وإنه ينبغي على المسلم أن يحرص على تطبيق هذه التوجيهات وذلك لما فيها من حفظ صحته وحماية له ولغيره من الإصابة بالأمراض ومنها ذلك الحديث يرويه سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الآباط"[3].

بل امتد الأمر ليجعل من الأسنان شيئاً جديراً بالاهتمام والأحاديث في ذلك كثيرة[4] تحث المسلم على تنظيف أسنانه وذلك من خلال استعمال السواك[5] والذي ذكر العلماء له فوائد كثيرة

---

(1) المراغي، تفسير، ج19، ص126.

(2) ومن هذه الآيات قوله تعالى:"يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلون وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم" سورة النساء، آية 43.

وقوله تعالى:" يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا" سورة المائدة أية 6.

وقوله:"إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين" سورة البقرة أية 222.

وقوله: "فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المتطهرين" سورة التوبة آية: 108.

(3) ابن حجر، فتح، ج11، ص540.

(4) من هذه الأحاديث ما روى عن ابن شهاب عن ابن السباق أن رسول الله قال:" يا معشر المسلمين إن هذا اليوم جعله الله عيداً فاغتسلوا، ومن كان عنده طيب فلا يضره أن يمس منه وعليكم بالسواك". مالك بن أنس الموطأ، تصحيح محمد عبد الباقي، ص64. وعن أبي أمامه رضي الله عنه أن رسول الله قال:" تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب، ما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك حتى لقد خشيت أن يفرض على وعلى أمتي، ولولا أن أخشى أن أشق على أمتي لفرضته عليهم وإني لأستاك حتى خشيت أن أحفي مقادم فمي" رواه ابن ماجه، الترغيب، ج1، ص130.

(5) السواك: عود يتخذ من شجرة الأراك ونحوه يستاك به. انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، مادة ساك، ص330. والسواك بكسر السين اسم للعود الذي يتسوك به، وللفعل الذي هو دلك الأسنان بالعود ونحوه لتذهب الصفرة والأوساخ وليطهر الفم. انظر: ابن صالح، تيسير، ج1، ص47.

منها "أنه متى استعمل السواك جلي الأسنان وقواها وقوى العمور (اللثة) وأطلق اللسان، وصفى الكلام ومنع الحفر (فساد الأسنان وتآكلها) وطيب النكهة ونقى الدماغ وشهى الطعام وأجود ما استعمل مبلولاً بماء الورد، ومن أنفعه أصول الجوز"[1] ومن ذلك ندرك مدى أهمية الفم والأسنان باعتبارها أول ما يستقبل الطعام فقد يكون الفم عرضة لمرور الميكروبات والجراثيم إلى داخل الجسم، حيث يصاب الإنسان بالأمراض كما تتعرض الأسنان واللثة للعفونة، وينتج عن ذلك روائح كريهة تؤذي الإنسان ومن حوله[2].

ولما كانت النظافة المتعلقة بالأبدان من الأمور المهمة عند المسلمين فقد كان هناك حرصا واضحاعليها لدرجة أن محمد بن رافع بن أبي محمد بن شافع بن محمد بن سلام السلامي (ت774ه/1372م) الذي عاش في العصر المملوكي قد " ابتلي بالوسواس في الطهارة حتى انحل بدنه وأفسد ذهنه وثيابه وتأسف هو على ذلك، ولم يزل مبتلي به حتى مات "[3].

وكان أحمد بن أحمد بن محمد الحسيني ثم الإسحاقي الحلبي (ت803ه/1400م) " ملازما للخير محافظا على الصلاة في أول وقتها مع الطهارة في البدن والثوب "[4].

وقد كان يعاب على محمد بن أيوب بن سعيد بن علوي، الحسباني الأصل الدمشقي الشافعي "طول الشارب وعدم السواك حتى سقطت أسنانه "[5].

لذلك نجد تعاليم الإسلام تحث على نظافة الفم والأسنان، خاصة وسائر البدن عامة، لأن عدم نظافة البدن عامة قد يؤدي إلى سد مسام العرق بالجسم، مما يجعل الإنسان عرضة للأمراض ويؤثر على كل أجهزة جسمه، فلا تتمكن من أداء الوظيفة التي خلقت لأجلها[6].

وقد استخدم السكان في العصر المملوكي العديد من مواد النظافة لتنظيف أبدانهم، فنجد المقريزي يقول: " لم أجد لإزالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيشة "[7].

---

[1] الأزرق، تسهيل، ص80. ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج3، ص169. كما زعم بعضهم أنه إذا استاك به المستاك كل خامس من الأيام نقى الرأس وصفى الحواس وأحد الذهن، وفيه عدة منافع يشد اللثه ويقطع البلغم ويجلو البصر، ويذهب الحفر ويصح المعدة، ويصفي الصوت ويعين على هضم الطعام ويسهل مجاري الكلام، وينشط للقراءة والذكر والصلاة، ويطرد النوم ويرضى الرب ويعجب الملائكة ويكثر الحسنات، ويستحب كل وقت ويتأكد عند الصلاة والوضوء والانتباه من النوم وتغيير رائحة الفم. انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج3، ص169.

[2] شاكر، أثر، ص242.

[3] ابن حجر، إنباء ،ج1،ص49. النعيمي ،الدارس ،ج1، ص71.

[4] السخاوي، الضوء ،ج1، ص220.

[5] ابن حجر،إنباء ،ج3، ص116.

[6] الصياد، نظرة، ص61.

[7]خطط ،ج3،ص230.

وكان المحتسب كما سيتقدم يحض البائعين وسائر أصحاب الحرف على النظافة " ويأمرهم بنظافة أثوابهم وغسل أيديهم وآنيتهم ومسح موازينهم ومكاييلهم "[1]، و" يلزمهم بالنظافة والطهارة في جميع أحوالهم "[2].

ب- عدم الاهتمام بنظافة الملبس:

لاشك أن نظافة الثياب وطهارتها تنقي صاحبها من الأمراض الخارجية التي تصيب الجلد[3] في حين أن الثياب الغير نظيفة تسبب الأمراض وتصيب جلد صاحبها بالفطريات، لذلك نجد الطهارة في الإسلام لم ترتبط بالبدن وحده ولكنها امتدت إلى الثياب أيضاً: فمن كان نظيف البدن والثوب كان أهلاً لحضور كل اجتماع، وللقاء فضلاء الناس وشرفائهم ويتبع ذلك أنه يرى نفسه آهلاً لكل كرامة يكرم بها الإنسان، وأما من يعتاد الوسخ والقذارة فإنه يكون محتقراً عند كرام الناس ولا يعدونه أهلاً لأن يلقاهم ويحضر مجالسهم، ويشعر هو في نفسه بالضعة والهوان، ومن دقق النظر في طبائع النفوس وأخلاق البشر، رأى بين طهارة الظاهر والباطن، أو طهارة الجسد واللباس وطهارة النفس وكرامتها ارتباطاً وتلازماً[4].

ونصوص القرآن الكريم التي تحث على نظافة الثياب كثيرة منها قوله تعالى:"يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد"[5]، كما أن نصوص السنة أكثر من أن تحصى ومنها ما روى أبو الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش"[6].

ولا شك أن توجيهات الكتاب والسنة هي لصالح العباد في المقام الأول، وأن عدم الاهتمام بنظافة الثياب أو الملابس يترتب عليه ظهور بعض الأمراض الجلدية.

فهذا إبراهيم بن عبد الله شمس الدين الوزير القبطي المعروف بكاتب أرنان (ت789ه/1387م) أصله من نصارى القبط فأسلم وخدم الأمراء " كان منذ ولي الوزارة لم يغير

---

(1) ابن الإخوة، معالم ، ص130.

(2) المصدر نفسه ، ص 227.

(3) إبراهيم، الطب، ص27.

(4) رضا، تفسير، ج6، ص263.

(5) سورة الأعراف، آية 31.

(6) داوود، سنن، مج2، ص380.

ملبوسه "[1] وبطبيعة الحال فإن ذلك سيؤدي إلى إصابته بالأمراض نتيجة إهماله لنظافته الشخصية، ونظافة ثوبه.

ج- تلوث المأكل والمشارب :

المطعم والمشرب هما أساس حياة الإنسان لذلك شدد الإسلام على ضرورة الاهتمام بنظافة الشراب والطعام حتى تتحقق للمسلم الصحة، ويعيش حياته بمنأى عن الأمراض الخبيثة. وقد ذكر المقريزي أن " الغالب على أهل مصر الأغذية الرديئة وليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة. وهذا أيضا مما يؤكد أمرهم في السخافة وسرعة الوقوع في الأمراض "[2].

ويشترط في كون الشراب نظيفاً وصحياً أن لا يتغير لونه ولا طعمه ولا رائحته لأنه إذا تغير عن أصله يصبح نجساً ضاراً بالصحة[3]، ولذلك ولأسباب أخرى حرم الإسلام شرب الخمر لأنه خرج عن مواصفات الشراب الصحي[4]، وحتى لا يتغير رائحة الطعام أو الشراب أو يلوث بالميكروبات، حض الرسول صلى الله عليه وسلم على ضرورة إغلاق ما هو مفتوح وربط قربة الماء بخيط ربطاً محكماً وأن تغطى الآنية حتى لا تكون عرضة للعق الشيطان والهوام والحشرات، والقوارض، والحيوانات الضارة مثل الفئران التي تنقل الأمراض للإنسان[5].

---

[1] ابن حجر، إنباء ،ج1، ص338.

[2] خطط ،ج1، ص84.

[3] الفنجري، الطب، ص28.

[4] لذلك حرم الشارع الحكيم الخمر فقال تعالى:"يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" سورة المائدة، آية 90. كذلك حرم النبي صلى الله عليه وسلم شرب الخمر، فقال: لعن الله الخمر وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه" وقوله أيضاً: وكل مسكر خمر، وكل خمر حرام. انظر: ابن قدامة، المغني، مج10، ص156-157. وقد أثبت الأطباء أن كل ما هو مسكر ضار بالصحة فهو يذهب العقل ويصيب أجهزة الجسم بالمرض ويعوقها، عن أداء وظيفتها التي خلقها الله لها، ويخرج الإنسان عن طبعه خاملاً ضعيف الإرادة يميل إلى العنف. أنظر: إبراهيم، الطب، ص37.

[5] مالك ، الموطأ، ص578، باب ما جاء في الطعام والشراب، حديث رقم 21،ونص الحديث:عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أغلقوا الباب وأوكوا السقاء واكفؤا الإناء أو خمروا الإناء واطفئوا المصباح فإن الشيطان لا يفتح غلقاً، ولا يحل وكاء ولا يكشف إناء وإن الفويسقة تضرم على الناس بيتهم. وقد توصل الأطباء في العصور التالية إلى أن الأمراض المعدية تنتقل عن طريق الهواء المحمل بالغبار والأتربة، والميكروبات من المريض إلى السليم إذا مر بآنية طعامه وشرابه، وكانت غير مغطاة ومن ذلك ندرك أن تعاليم الرسول سبقت هذه العصور بمراحل. انظر:الفنجري، الطب، ص27.

وقد أكد النويري على أن " الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه؛ وإذا سكن متنه، تحرّك نتنه "[1].

ويربط المقريزي بين الوباء ووضع الشبكة المائية المتدهورة مما كان يسهل انتشاره ويبدو أن السلطات قد تنبهت لهذه المسألة فعمدت في أواخر عام (773ه/1327م) إلى القيام بحملة تنظيف للشبكة المائية في مدينة دمشق التي كانت مياهها قد تغيرت لما خالطها في طول السنين، وبسبب ذلك صار الوخم يعتاد أهل دمشق في كل سنة، وقد تكرر ظهور مثل هذا الوخم، وبكثرة في دمشق (740ه/1340م)[2].

فقد " نظر تنكز[3] في مقاسم المياه بدمشق التي تتصرف في دور الناس وكسح ما فيها من الأوساخ وفتح ما استد منها حتى صلحت كلها فعم النفع بها، وكانت المياه قد تغيرت لما خالطها في طول السنين وصار الوخم يعتاد أهل دمشق في كل سنة "[4].

د- عدم الاهتمام بنظافة أماكن الإقامة والبيئة المحيطة:

شدد الإسلام على ضرورة تنظيف الدور من القاذورات والفضلات التي يؤدي تراكمها إلى الإصابة بالعلل والأمراض[5].

فلا شك أن إهمال الإنسان لنظافة مسكنه وداره والمكان المحيط به سواء كان طريقاً أو مورد ماء، يؤدي إلى تكاثر الحشرات المسببة للأمراض.

وقد حفلت نصوص السنة النبوية بالكثير من الأحاديث التي تحث على نظافة المساكن[6] والطرق[7] وموارد المياه[8] حتى لا يصاب الإنسان بالأمراض، حيث ثبت بعد ذلك أن التبول وإلقاء القاذورات في الماء عموماً والماء الراكد خصوصاً يغير من خواصه ويفسده ويجعله ضاراً بالإنسان[9].

---

(1) نهاية ،ج1، ص278.

(2) السلوك ،ج3، ص102. الشجاعي، تاريخ، ج1، ص76.

(3) تنكز بن عبد الله الحسامى الناصري، الأمير سيف الدين نائب الشام(741 هـ / 1340م) ، اشتراه الأمير لاجين، فلما قتل لاجين في سلطنتة صار من خاصكية السلطان، وشهد معه واقعة وادي الخزندار، ثم وقعة شقحب.ابن تغري بردي، المنهل ،ج4، ص156.

(4) المقريزي، السلوك ،ج3، ص102.

(5) شاكر، أثر، عدد 3، ص242.

(6) السيد سابق، فقه ، ج3، ص358.

(7) النووي، رياض ، حديث رقم 1771، ص448.

(8) ابن قدامة، كتاب الطهارة، ج1، ص194.

(9) قاسم، الطب، عدد 4، ص315.

ولا شك أن العصور الوسطى بما فيها العصر المملوكي قد شهدت إهمالا من الناس فيما يتعلق بشأن نظافة المساكن والبيئة المحيطة بهم، فقد كان أهالي القاهرة والفسطاط يهملون في التنظيف أمام مساكنهم ومنازلهم فيتراكم حول أبوابها التراب والأزبال[1].

وكان عبد الله بن محمد أبو الصلاح محيي الدين قاضي قضاة مصر ويعرف بابن عين الدولة الصفراوي الاسكندراني الأصل المصري الشافعي، يسكن " في بيت قليل الهواء كثير البق، وهو البرغش، ويسمونه الناموس"[2].

وكانت القاهرة بالقياس إلى الفسطاط تعتبر أقل قذارة وأبعد عن العفن لأنها تصرف حراراتها خارج المدينة في منطقة البطائح، كما أنها بعيدة عن الفسطاط وتأثير أبخرتها الملوثة قريبة من الشمال مما يعرضها لهبوب الرياح التي تساعد على انحلال الأبخرة وتحرك الهواء[3].

كما شكل الصرف الصحي أحد العقبات في مدينة الفسطاط بينما لم يكن كذلك في القاهرة والتي كانت تلقى بمخلفات حراراتها خارج المدينة في منطقة البطائح، ومما زاد الأمر سوءاً وساعد على ظهور الأمراض تلك العادات السيئة والتي كان يتبعها أهالي مصر والشام خلال تلك الفترة لاسيما أهالي الفسطاط فقد كان من شأن أهالي الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنانير[4] والكلاب وغيرها من الحيوان الذي يخالط الناس في شوارعهم وأزقتهم فتعفن وتخالط عفونتها الهواء وفي خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها في الهواء دخان مفرط[5]. هذا وبلا شك كان يلوث الهواء بالميكروبات المتصاعدة من جيف هذه الحيوانات الميتة والمتحللة إضافة إلى التلوث أيضاً من هذا الدخان المتصاعد من هذه المستوقدات العظيمة، والذي يستنشقه الإنسان ويؤدي إلى إصابته بالأمراض.

وقد ظهرت مشكلة اللاجئين والذين اكتظت بهم المدن الإسلامية[6]، بحيث تسمع أن مدينة مثل دمشق قد ضاقت بالسكان، بعد أن غدت مقراً للاجئين الذين تكاثفوا بها حتى صار عدد سكانها ضعفي ما تستوعبه مدينة مثلها[7].

---

[1] المقريزي، خطط، ج1، ص341، 366.

[2] اليونيني، ذيل، ج4، ص29.

[3] المقريزي، خطط، ج1، ص365، 366.

[4] السنانير: مفردها سنور، وهو حيوان أليف من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم، ومن خير مأكله الفأر، ومنه أهلي وبري. انظر: مجمع ، المعجم الوجيز، مادة سن، ص342.

[5] المقريزي، خطط، ج1، ص339، 340.

[6] علي، العلاقات، ص155.

[7] ابن طولون، القلائد، ق1، ص3،2،1. علي، العلاقات، ص156. انظر حول هجرة السكان من حلب: الذهبي، تاريخ ،ج48، ص67. ابن كثير،البداية والنهاية ،ج13،ص341.

ولا شك أن زيادة عدد سكان المدن عن العدد الطبيعي الذي يمكن أن تستوعبه هذه المدن يؤدي إلى انتشار الأمراض بين السكان.

2- الإسراف في المأكل والمشرب :

قال بعض الحكماء في شأن الإسراف في الطعام، الشبع داعية للبشم والبشم داعيـــة للـــسقم والسقم داعية للموت، قالوا ولو سئل أهل القبور عن سبب حتفهم لقالوا البطنة والتخم[1].

لذلك حفلت نصوص الكتاب والسنة بالنصوص التي تنهى عن الإسراف في تناول الطعـــام والشراب ومنها قوله تعالى: " كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين "[2].

وهناك الكثير من الحالات التي سجلت حول إسراف بعض المماليك في المأكل والمشرب، والـــذي يؤدي بالتالي إلى تردى الأحوال الصحية لصاحبها.

فقد كان الأمير سيف الدين أبو بكر بن أسبهسلار (ت679ه/1280م) قائد الشرطة بمصر " ممن زاد به السمن حتى قاسي منه شدة، وأشار عليه الطبيب بعدم النوم على جنب، وبقي مـــدة لا يرمي جنبه إلى الأرض خوفا من أن يغرق في النوم فيموت "[3].

ومن مظاهر الإسراف المضر بالصحة ما حدث فـــى ســـنة (748ه/1347م)ـــــ " ركـــب السلطان فى أمرائه الخاصّكيّة ونزل إلى الميدان ولعب بالكرة فغلب الأمير ملكتمر الحجازىّ فـــى الكرة، فلزم الحجازىّ عمل وليمة فعملها فى سرياقوس، ذبح فيها خمسمائة رأس من الغنم وعـــشرة أفراس، وعمل أحواضا مملوءة بالسكر المذاب، وجمع سائر أرباب الملاهى وحـــضرها الـــسلطان والأمراء، فكان يوما مشهودا "[4]. " وفي سنة(800هـــ/ 1397م) كان المهم المشهور في إســـطبل السلطان لأنه كان لعب بالأكرة مع الأمير الأتابك أيتمش فغلب أيتمش فأخرج مائتي ألـــف درهـــم ليعمل بها السماط وأنعم بها السلطان عليه وأمر الوزير ابن الطوخي والأستادار يلبغا بعمل المهـــم، فضربوا الخيم في الميدان وعملوا عشرين ألف رطل لحم ومائتي زوج إوز وألـــف طيـــر دجـــاج وعشرين فرساً، وقيل بل كانت خمسين فرساً وثلاثين قنطاراً من السكر وستين إردباً مـــن الـــدقيق عمل بها بوزة وعملت في الدنان، وقيل كان فيها مائة إردب وأضيف إليها عشرة قناطير حـــشيش فطحنت وخلطت بها وعمل من الزبيب ستون قنطاراً نبيذاً "[5].

---

[1] الأزرق، تسهيل، ،ص 56.

[2] سورة الأعراف: آية 31.

[3] الذهبي، تاريخ ، ج50، ص334- 335. المقريزي، السلوك ، ج2، ص138.

[4] ابن تغري بردي، النجوم ،ج10، ص155.

[5] ابن حجر، إنباء ،ج2، ص15.

وقد أدى الإسراف في المأكل إلى إصابة العديد من الأفراد بالسمنة المفرطة التي كانت تعيق حركتهم، وتصيبهم بالأمراض، فقد كان شمس الدين محمّد بن أبي بكر بن محمّد بن الشهاب محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الأصل الدمشقي (ت802ه/1399م) " مفرط السمن "[1].

وقد تم عزل قاضي القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن عليّ (ت802ه/1399م) قاضي قضاة الحنفيّة بالديار المصريّة " لثقل بدنه من السّمن، وقلّة حركته؛ فإنّه كان إذا طلع للسلام على السلطان وجلس عنده لا يستطيع القيام إلّا بعد جهد من السّمن "[2].
وفي سنة (810ه/1407م)ــ أسرع في القبض على الأمير " منطوق نائب قلعة دمشق ..؛ لثقل جثّته؛ فإنه كان فى غاية من السّمن "[3].

أما إبراهيم بن عبد الكريم القبطي المصري ويعرف بابن كاتب جكم (ت841ه/1437م)([4])، فقد " كان من المترفين المنهمكين في اللذات المنغمسين في الشهوات"[5]، وهذا مما أدى إلى وفاته " بعد مرض طويل بالسل وبالقولنج "[6].

كما كان الشهاب أبو الفضل أحمد بن علي بن قرطاي ويعرف بسيدي أحمد بن بكتمر الضوء له من " السمن الخارج عن الحد بحيث لا يحمله إلا الجياد من الخيل ...وتوفي بها في الطاعون ليلة الاثنين عاشر ذي القعدة سنة (841ه/1437م) وحمل جنازته ثمانية أنفس منهم أربعة بالخشب "[7].

---

[1] ابن حجر، إنباء ،ج2، ص345. ابن العماد، شذرات ،ج9، ص116.

[2] ابن تغري بردي، النجوم ،ج13، ص17.

[3] المصدر نفسه ،ج13،ص64.

[4] ابن كاتب جكم: ولد بالقاهرة قبل العشرين وثمانمائة ونشأ تحت كنف أبيه وأحضر إليه من أقرأه القرآن وعلمه الكتابة والعلم كالفقه على مذهب الشافعي والعربية حتى كتب المنسوب وبرع في الحساب والمباشرة فلما مات أبوه استقر في نظر الخاص ووكالة السلطان الخاصة به على ستين ألف دينار وسنه نحو من العشرين سنة فحسنت سيرته وسافر إلى آمد صحبة الأشرف برسباي ثم تغير عليه بعد عوده لكونه لم يوافقه على الاستقرار في الوزر وضربه واستقر بأخيه الجمالي فيها ثم أعفى وألزما بمال كثير جدا قاما به. السخاوي، الضوء ،ج1، ص 69. ابن حجر، إنباء ،ج4، ص75.

[5] المصادر نفسها، نفس الصفحات.

[6] المصادر نفسها، نفس الصفحات.

[7] السخاوي، الضوء،ج 2، ص31.

وكان محمد بن السلطان الملك الظاهر جقمق[1](ت847ه/1443م) " يشارك فى ملاعيب كثيرة، لولا سمن كان اعتراه، وكره هو ذلك، وأخذ يتداوى فى منع السمن بأشياء كثيرة، ربما كان بعضها سببا لهلاكه، مثل شرب الخل على الريق، ومنع أكل الخبز سنين، وكثرة دخول الحمّام، حتى أنه كان غالب جلوسنا معه – المتحدث هو ابن تغري بردي– فى الخلوة فى مسلخ الحمام الذي ابتناه بطبقة الغور من القلعة، ويداخله في الحرارة، وأشياء غير ذلك"[2].

أما الأمير غرس الدين خليل ابن أبي (ت882ه/1477م) والي أحد أعيان بيت المقدس " كان قد اعتراه السمن وتزايد حتى كان لا يستطيع القيام إلا بمشقة "[3].

كما كان عبد الناصر بن عمر بن أحمد بن علي المحلي الأصل القاهري الأزهري (ت882ه/1477م) " مفرط السمن "[4].

وحتى النساء كان منهن من اتصفت بالسمن المفرط، فكانت وزراء ابنة الشرف موسى بن مخاطة سبطة العلمي شاكر بن الجيعان (ت898ه/1492م) وزوج حفيدة الشرفي يحيى بن الجيعان وأم أولاده. مفرطة السمن "[5].

وأما في الأطفال فلأن الحوامل من النساء، والمرضعات يأكلن، ويشربن بشره، وحرص أكثر ما ينبغي من ألوان الطعام، والشراب فيتولد في أبدانها أخلاط غليظة مضادة للطباع فيؤثر ذلك في أبدان الأجنة التي في بطونهن، وفي أبدان أطفالهن من اللبن الذي هو فاسد، ويكون ذلك سبباً للأمراض، والأعلال، والأوجاع من الفالج، والزمانات، واضطراب البنية، وتشويه الخلقة، وسماجة الصورة ثم قال، ومن أراد السلامة من ذلك فلا يأكل، ولا يشرب إلا في وقت الحاجة بقدر ما ينبغي

---

[1] محمد ناصر الدين أبو المعالي بن السلطان الظاهر جقمق، قرأ القرآن واشتغل بالعلم وحفظ كتباً ومهر في مدة يسيرة، ونشا في معاشرة أهل العلم، ولازم الشيخ سعد الدين بن الديري قبل أن يلي القضاء، وتردد إلى كاتبه، وأخذ عن شمس الدين الكافياجي الرومي وغيره، وكان محباً في العلم والعلماء، وولي الإمرة بعد سلطنة أبيه بقليل. ابن حجر، إنباء ،ج4، ص 220.

[2] ابن تغري بردي، النجوم ،ج15، ص503–504. وهذا يعني أن المماليك استخدموا طرقا عديدة لتخسيس الوزن حفظا للصحة، وهو ما يسمى في مفهوم العصر الرجيم، فاستخدموا طرقا شبيهة بالطرق الحديثة، ومنها الساونة.

[3] العليمي، الأنس ،ج2، ص320.

[4] السخاوي، الضوء ،ج5، ص90. انظر أمثلة كثيرة متشابهه من نفس المصدر: ج7، ص124،201، ج9،ص 128،ج10،ص200، ج11، ص10.

[5] السخاوي، الضوء ، ج12 ، ص133.

من لون واحد بقدر ما يسكن ألم الجوع ثم يستريح، وينام ويمتنع من الإفراط في الحركة، والسكون[1]

ومن ذلك ندرك أن الأكل عند وجود الرغبة الصادقة في الأكل هو الذي ينفع أما غير ذلك فإنه يضر بالبدن غاية الإضرار، ويسبب أمراضاً كثيرة منها التخمة التي قد تؤدي إلى الوفاة، و التي قد أصيب بها بعض أفراد المجتمع المملوكي.

ومما سبق يتبين لنا نماذج عديدة عن الإسراف المضر بالصحة، و لكن برز من يهتم بصحته فلم يكن يسرف في طعامه، ويتحمى، فقد كان أحمد بن طوغان (ت808ه/1405م)[2] " يتعانى العمل بما يقتضيه قول أهل الطب فيما يتعلق بالغداء والعشاء، فيكثر الحمية في زمن الصحة، ولا يأكل إلا بالميزان "[3].

ونظراً لأهمية الغذاء ونوعيته وكميته وتأثيره على صحة الإنسان فإن بعض الأطباء لم يكتفوا بالكتابة في وصف الأمراض وطرق علاجها وأنواع الأدوية، وإنما سجلوا جميع أنواع الأغذية والأشربة وبينوا منافع ومضار كل منها، والكميات المناسبة لكل شخص حسب سنه وطبيعة تكوين جسمه، ومزاجه[4]، كما اهتم بعضهم بوضع الإرشادات اللازمة للناس فيما يجب على المرء فعله عند الطعام والشراب وبعده وغير ذلك من الأمور.

3- نقص الوعي الصحي:

يلعب نقص الوعي الصحي دوراً مهماً في إصابة الناس بالأمراض، ولعله راجع في المقام الأول إلى الجهل، فإن الإهمال الصحي يأتي من الإنسان الجاهل سواء كان غنياً أم فقيراً، ليس لديه وعي بأهمية الحفاظ على الصحة وإدراك أبسط القواعد والمبادئ الصحية حتى يتبعها[5].

فهذا الإنسان الجاهل لا يؤمن بالأطباء ولا بإمكانية علاجهم للأمراض وإنما يعتقد في الدجالين والمشعوذين لذلك يلجأ إليهم إذا مرض ويتبع نصائحهم والتي تؤدي إلى استفحال مرضه ونهاية حياته[6] بل امتد الأمر لنجد مجموعة كبيرة من أدعياء الطب والحلاقين يتصدرون لعلاج

---

(1) الشعراني، لوافح ،ج2، ص134.

(2) أحمد بن طوغان بن عبد الله الشيخوني المعروف بدويدار النائب، رباه سودون النائب فباشر الدويدارية عنده وأثرى. ابن حجر، إنباء،ج2، ص331.

(3) المصدر نفسه، نفس الجزء و الصفحة.

(4) السمرقندي، الأغذية، ق4، ورقة 2-56. الدينوري، عيون، ج3، ص293،292، 294، 303، 317.

(5) موافي، صحة، ص51.

(6) فخر الدين، الأمية، ص61.

المرضى[1] وختانهم، دون مراعاة لأبسط معايير السلامة، وطهارة الأدوات والمياه، فقد أحضر أحد السكان في مصر سنة (822هـ/ 1419م) " المزين لختن أولاده الأربعة فشرع في ختن واحد بعد آخر، وكل من يختن يسقى شراباً مذاباً بالماء على العادة، فمات الأربعة في الحال عقب ختنهم، فاستراب أبوهم بالمزين وظن أن مبضعه مسموم فجرح المزين نفسه ليبرئ ساحته فانقلب فرحهم عزاء، ثم ظهر في الزير الذي كان يذاب فيه الشراب حية عظيمة ماتت فيه وتمزقت فكانت سبب هلاك الأطفال "[2]. الأمر الذي يعكس الجهل ونقص الوعي الصحي خلال تلك الفترة والذي كان أحد أسباب انتشار الأمراض.

ولعل من العادات السيئة المترتبة على الجهل والتي ساعدت على انتشار الأمراض عادة التنفس عند الشرب في الإناء، والتي تؤدي إلى تلوث الشراب بالعلل والأمراض[3] فيسبب أضراراً صحية بالغة بمن يشرب بعد ذلك من نفس الإناء، حيث يمكن أن تنتقل إليه عدوى مرض مصاب به الشارب الأول، أو حامل لميكروب المرض، ولو كان هذا الشخص على علم بنصوص السنة النبوية المطهرة والتي تنهى الكثير من نصوصها[4] عن التنفس في الإناء، لأراح نفسه ومنع الضرر عن غيره.

كما أن جهل الراعي بالمناطق التي لا تصلح للرعي كان سببا في هلاك الكثير من الحيوانات كما حدث سنة(819 هـ/1416م)حيث " كان لبعض أهل الصعيد غنم يزيد على عشرين ألف رأس فرعت في بعض المراعي فماتت عن آخرها، وقيل إن ذلك من المراعي وكان فيه من حشائش السم "[5]. فلا شك أن الجهل والفقر كانا أحدا مسببات الأمراض خلال تلك الفترة من تاريخ مصر والشام.

---

[1] أتوشبيس، طب ، مج14، ص201.

[2] ابن حجر،إنباء ،ج3، ص199- 200.

[3] قاسم، الطب، ص315.

[4] من هذه النصوص: عن يحيى عن عبد الله بن قتادة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا بال أحدكم فلا يمسح ذكره بيمينه وإذا تمسح أحدكم فلا يتمسح بيمنه. انظر: ابن حجر ، فتح ، ج11، ص225، حديث رقم 5630. كما نهى النبي عن الشرب من فم السقاء، وذلك لتناوب الأفراد الشراب من إناء واحد مما يتيح الفرصة لانتقال المرض من فم المصاب إلى فم السليم وقد افرد ابن حجر العسقلاني باباً كاملا أسماه باب الشرب من فم السقاء نظراً لأهميته انظر: ابن حجر، فتح، ج11، ص223-225، أحاديث أرقام 5629،5628،5627.

[5] ابن حجر،إنباء ،ج3، ص143.

4- الفقر:

ويعد الفقر أيضاً عاملاً مساعداً في انتشار الأمراض، فهناك ارتباط وثيـق بـين الحالـة الاقتصادية للفرد وبين حالته الصحية، فالفرد الميسور الحال يمكن أن يوفر متطلباته مـن العـلاج والغذاء والملبس والمشرب والمسكن الصحي، بعكس الإنسان الفقير الـذي قـد تحـول ظروفـه الاقتصادية دون الاهتمام بالنواحي الصحية والطبية أو الأخذ بوسائل الوقاية من الأمراض[1].

فالمياه التي يشربها أكثرهم غير منتقاه مما يجعلها ضارة وغيـر صـالحة وغيـر مفيـدة والعجيب أنه إذا أصاب أحد هؤلاء الفقراء مرض لا يجد ما يعالج به نفسه وهو مـا يـؤدي إلـى استفحال مرضه، وإصابته ونقل العدوى لمن حوله، والمخالطين له والذين لا تختلف ظروفهم عـن ظروفه[2].

ويظهر هذا واضحاً في الريف والأماكن الغير حضارية والفقيرة والمزدحمة بالسكان حيث يكون اهتمام هؤلاء منصرف إلى توفير المأكل والمشرب والمسكن في حدود الإمكانيات المتاحـة، ولا شك أن هذه الإمكانيات محدودة للغاية فالغذاء يفتقر إلى التوازن بين العناصر اللازمـة لبنـاء الجسم ونشاطه[3] وسوء التغذية يضعف الجسم ويجعله عرضة للإصابة بالأوبئة والأمراض[4].

والملبس البسيط لا يقي من برد الشتاء أو من حر الصيف[5] والمسكن الغير صحي الذي لا يوجد به منافذ كافية للتهوية يجعل هواء البيت فاسداً، ويظهر هذا واضحاً في الريف إضـافة إلـى مشاركة الحيوان للفلاح في مسكنه[6].

وقد يؤدى التدافع على الصدقات عند الفقراء المحتاجين إلى قتلهم، فعندما مرض الـسلطان برسباي قرر أن " يتصدق بمال، فجمع الفقراء بالإصطبل فمات منهم في الزحمة نحو الخمسين نفساً وقيل أكثر من ذلك من الرجال والنساء "[7].

---

[1] فكري، الحضارة، مج2، ص38.

[2] موافي، صحة، ص49.

[3] المقريزي، خطط، ج1، ص45،44.

[4] أشتور، التاريخ، ص304.

[5] موافي، صحة، ص49.

[6] المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[7] ابن حجر، إنباء ،ج2، ص38.

5- الانحراف الخلقي:

سرت في المجتمع المملوكي بعض الظواهر الاجتماعية التي يمكن وصفها بالفاسدة، فقد حفلت الكتب الأدبية بالعديد من القصص التي تصور تدهور الأخلاق، وانحطاط القيم، ولم تقتصر هذه الأمراض الاجتماعية على فئة واحدة أو جماعة معينة، وإنما شملت قطاعات واسعة في المجتمع رجالا ونساء، أمراء ومملوكا، صعاليك وغوغاء، وعامة الناس، وقد جاءت أخبار فساد الرجال لتغطى صفحات ليست قليلة من كتب الأدب وسير الرجال، وتحدثت عن تفشي عدة ظواهر[1]، مثل: تعاطي الحشيشة، والزنا (البغاء) وحب الغلمان واللواط والسحاق والاتجار بالجواري واقتناءهن وشرب الخمر.

أ- تعاطي الحشيشة

شهد المجتمع المصري خلال العصر المملوكي بعضاً من مظاهر الفساد الخلقي والتي لا شك تؤدي إلى انتشار الأمراض، ومنها وإدمان بعض الأفراد على الحشيشة وتعاطيها حتى اشتهرت أرض الطبالة[2] وبعض المناطق في مصر والشام بزراعتة خلال ذلك العصر[3].

وقد ذكر المقريزي ما للحشيشة من مضار فقال: بأن نباته " يزرع في البساتين ويقال له الحشيشة ..، وهو يسكر جدّا إذا تناول منه الإنسان قدر درهم أو درهمين، حتى أنّ من أكثر منه يخرجه إلى حدّ الرعونة، وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم، وأدّى بهم الحال إلى الجنون، وربما قتلت "[4]، وسئل" علاء الدين بن نفيس: عن هذه الحشيشة فقال: اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة والرذالة، وكذلك جرّبنا في طول عمرنا من عاناها فإنه ينحط في سائر أخلاقه إلى ما لا يكاد أن يبقى له من الإنسانية شيء البتة "[5]. ويقول المقريزي " ورأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء

---

(1) الرواشدة، حيوات، ص215.

(2) أرض الطبالة: كانت هذه الأراضي في العهد الفاطمي ملكاً لإمرأة تقوم بالغناء أثناء مرور موكب الخليفة المستنصر الذي أقطعها هذه الأرض وصارت تعرض باسمها، وكان النيل يكتنفها من الغرب، والبرك والبساتين تحيط بها من الجنوب، والمناظر الرائعة في الشرق، وقد أدى هذا كله إلى تمتع أرض الطبالة بمنظر بديع لا سيما في فصل الربيع حتى أصبحت من أجمل متنزهات مصر. انظر: المقريزي، خطط، ج2، ص125. ويبدو أن الرجال والنساء كانوا يخرجون إلى هذه الأرض للتنزه بها، فكان الاختلاط يحدث بين الرجال والنساء وهو ما دفع ابن ميسر الى القول "أن أرض الطبالة كان لا يتنزه على بساطها إلا أهل الفساد". انظر: ابن ميسر، المنتقى، ص15.

(3) ابن كثير،البداية ،ج13،ص 370، ج14، ص130. الصفدي، أعيان ،ج1، ص158.ابن حجر، الدرر،ج1، ص 304.ابن طولون، مفاكهة ، ص12. حخفاجي، جوانب، ص22،21.

(4) خطط ،ج3، ص230.

(5) المقريزي، خطط ،ج3، ص230.

شتى، فمنهم من يطبخ الورق طبخا بليغا ويدعكه باليد دعكا جيدا، حتى يتعجن، ويعمل منه أقراصا، ومنهم من يجففه قليلا ثم يحمصه ويفركه باليد، ويخلط به قليل سمسم مقشور وسكّر ويستفه ويطيل مضغه، فإنهم يطربون عليه ويفرحون كثيرا، وربما أسكرهم فيخرجون به إلى الجنون أو قريب منه، وهذا ما شاهدته من فعلها، وإذا خيف من الإكثار منه فليبادر إلى القيء بسمن وماء سخن، حتى تنقى منه المعدة، وشراب الحماض لهم في غاية النفع، فانظر كلام العارف فيها واحذر من إفساد بشريّتك وتلاف أخلاقك باستعمالها، ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها إلّا أراذل الناس، ومع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة، وكان قد تتبع الأمير سودون الشيخونيّ رحمه الله الموضع الذي يعرف بالجنينة من أرض الطبالة وباب اللوق وحكر واصل ببولاق، وأتلف ما هنالك من هذه الشجرة الملعونة، وقبض على من كان يبتلعها من أطراف الناس ورذلائهم وعاقب على فعلها بقلع الأضراس، فقلع أضراس كثير من العامّة في نحو سنة ثمانين وسبعمائة، وما برحت هذه الخبيثة تعدّ من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد أحمد بن أويس فارا من تيمورلنك إلى القاهرة في سنة خمس وتسعين وسبعمائة، فتظاهر أصحابه بأكلها، وشنع الناس عليهم واستقبحوا ذلك من فعلهم وعابوه عليهم، فلما سافر من القاهرة إلى بغداد وخرج منها ثانيا وأقام بدمشق مدّة، تعلم أهل دمشق من أصحابه التظاهر بها. وقدم إلى القاهرة شخص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل، خلط فيها عدّة أجزاء مجففة، كعرف اللفاح ونحوه، وسمّاها العقدة وباعها بخفية، فشاع أكلها وفشا في كثير من الناس مدّة أعوام، فلما كان في سنة خمس عشرة وثمانمائة شنع التجاهر بالشجرة الملعونة، فظهر أمرها واشتهر أكلها وارتفع الاحتشام من الكلام بها، حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين، وبهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول، وتفاخروا بالمعايب، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة، وتحلوا بكل ذميمة من الأخلاق ورذيلة، فلولا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية، ولولا الحس لما حكمت عليهم بالحيوانية، وقد بدأ المسخ في الشمائل والأخلاق المنذر بظهوره على الصور والذوات "[1].

وقد كان الشيخ عماد الدين المقدسي، الصالحي أحمد بن الشيخ العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور (ت688ه/1289م) " له حظ من صلاة وصيام وذكر إلا أنه كان يأكل الحشيشة فيما بلغني، ويقول: هي لقيمة الذكر والفكر "[2].

وفي سنة (704ه/1304م) " أحضر إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية شيخ ... يسمى المجاهد إبراهيم القطان، ... واستتابه من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات"[3].

---

(1) المقريزي، خطط، ج3، ص230– 231.

(2) الذهبي ، تاريخ ،ج51، ص321.

(3) ابن كثير،البداية ،ج14، ص39.

وفي سنة (715ه/1315م) " قتل أحمد الرّويس الأقباعي بدمشق لاستحلاله المحارم وتعرضه للنّبوّة، وكان له كشف وإخبار عن المغيّبات، فضلّ به الجهلة،... وكان يأكل الحشيشة"[1].

ب- اللواط والسحاق:

كما عرف بعض أفراد المجتمع المصري والشامي العلاقة الشاذة مع الغلمان (اللواط) بين الفاسدين من الرجال[2]، في العصر المملوكي، وذلك لكثرة الغلمان الأعاجم من سبايا الحرب وتجارة الرقيق[3]، ويعبر عن ذلك المقريزي حين ذكر أن في عصر الظاهر برقوق سنة (791ه/1388م) فشى" إتيان الذكران.. وذلك لاشتهاره بتقريب المماليك الحسان وتهمته وتهمة أمرائه بعمل الفاحشة فيهم "[4] الذين كانوا يتصفون بالجمال، وشغف بهم الفاسدين من الرجال[5]، وأصبح الأمر ظاهرة غير صحية، لدرجة أن أحد أولئك أنه في سنة (825ه/1421م) " جب شخص مذاكيره بسبب أمرد كان يعشقه ولا يقدر عليه، فاتفق أنه أمكنه من نفسه فلم ينتشر ذكره فقطعه، فحمل إلى المارستان فمات "[6].

أما عبد الرحيم بن أبي بكر مجد الدين الجزري الفقيه النحوي الصوفي (ت698ه/1298م) فقد " كانت له حلقة اشتغال، يجالس إليه فيها من هو في محبته متغال. .. وابتلي بحب شاب شيب فوده، وحسن إلى الهلاك قوده، فكان إذا رآه ترعد فرائضه عشقا وصبابة، ويود لو نال من عظيم وصاله صبابة. فقويت عليه سوداؤه، وتحكم منها فيه داؤه. فأغلق الخانقاه الشهابية عليه، وطلع إلى سطحها وألقى بنفسه إلى الطريق فمات "[7]. ويذكر ابن تغري بردي أن السلطان الأشرف إينال " لم يكن بالعفيف عن الفروج، بل ربما اتهمه بعض الناس بحب الوجوه الملاح والصباح من الغلمان"[8].

ويروى ابن طولون أمرا غريبا شاع بدمشق ووقع بمصر حول الشذوذ الجنسي ووصفه بالعجيب وهو " أن شاباً متصوفاً متمصلحاً، اسمه محمد بن سلامة النابلسي الدمشقي، أتى إلى دمشق فتمصلح وأشهر نفسه، ثم سافر إلى مصر، ...فلما قرب شهر رمضان الماضي، أتي به في

---

(1) ابن العماد، شذرات ،ج8، ص65.

(2) التيفاشي، نزهة، ص193-56، 186، 187. السبكي، معيد، ص35-36. المقريزي، السلوك ،ج5، ص231.

(3) المقريزي، السلوك ،ج5، ص231. ابن تغري بردي، النجوم ،ج11، ص292. الصفدي، الوافي، ج12، ص199. الرواشدة، حيوات، ص215.

(4) السلوك ،ج5، ص231. انظر: ابن تغري بردي، النجوم ،ج11، ص292.

(5) الرواشدة، حيوات، ص215.

(6) ابن حجر، إنباء ،ج3، ص273.

(7) الصفدي،أعيان ،ج3، ص50.

(8) النجوم ،ج16، ص159.

زي بنت، في نقاب وجلباب مدلوك ومخطوط، إلى بعض مراكز الشهود بمصر، ويطلب أن يعقد نكاحه عليها، فأجيب إلى ذلك؛ ثم بعد أيام نم عليه بعض الجيران، فخاف الشهود، فأعلموا الأمير طراباي رأس نوبة النوب، فطلبه وتفقد أمره، فوجدوه صبياً في زي بنت، فادعى أنه خنثى، فكشف عليه النساء، فلم يروه إلا ذكراً، ولم يفحصوا بأمره، فجرح تحت مخرج الذكر وزعم أنه حيض، فكشف ... فرأوه زوراً، فأمر الأمير المذكور بضربه بالمقارع، وإشهاره بمصر على ثور، ثم أعيد عليه الضرب، وبعث به إلى المقشرة[1] إلى أن مات "[2]. ونتيجة لإعراض الرجال الفسقة عن النساء و إقبالهم على الغلمان أخذت النساء اللواتي هن من هذه الفئة بالتشبه بالرجال في لباسهن" لينفق سوق فسوقهن "[3]، " فاقتدى بفعلهنّ في ذلك عامة نساء البلد "[4].

أما ظاهرة السحاق فقد انتشرت بين النساء الفاسدات[5]. ومما ساعد على انتشار هذه الظاهرة فضلا عن حب الرجال للغلمان وابتعادهم عن النساء، أسباب ذاتية نفسية عند المرأة[6]، وقلة الوازع الديني، كما ساعدت على انتشارها وجود مؤسسات اجتماعية خاصة بالنساء سهلت الابتذال، كبعض الأديرة، والخوانق، والمدارس وقد وصف أحد الشعراء إحدى المدارس التي مورس فيها السحاق فقال:

في ذي المدرسا ... جماعة نسا
إذا أمسى المسا ... ترى فرقعه
نسا ذا الزمان ... عجب يا فلان
يكونوا ثمان ... يصيروا أربعه[7].

كما كانت المقابر والترب مكانا مفضلا لممارسة هذه الرذيلة عند بعض الجواري[8].

---

(1) يقع هذا السجن شمال مدينة القاهرة المملوكية بين جامع الحاكم وباب الفتوح على يمين الخارج من هذا الباب، أما موقعه في حدود سنة 1943م ففي مقبرة أثرية تسمى بقرافة سيدي الساعي، وقد عرف بهذا الاسم نسبة إلى دار قشر القمح التي كانت تشغل المكان قبل استخدامه كسجن. انظر: المقريزي، خطط، ج 2، ص 188. السخاوي، وجيز، ج 3، ص 970. مبارك، الخطط، ج 2، ص 76. زيادة، السجون، ع 262 ، ص 21.

(2) ابن طولون، مفاكهة ، ص240.

(3) المقريزي، السلوك،ج 5، ص231.

(4) المقريزي ، خطط ،ج3، ص188.

(5) التيفاشي، نزهة، ص 239-241.

(6) الرواشدة، حيوات، ص216.

(7) الأدفوي، الطالع، ص 456-457. الصفدي، اعيان، ج3، ص662.

(8) التيفاشي، نزهة، ص 239.

ج- الزنا :

قد وقع البعض في الحرام من خلال العلاقات المحرمة مع النساء[1]، والتي لا شك أنها أحد أسباب انتشار الأمراض الخبيثة، فقد انتشرت مجالس الفسق (المواخير)، والحانات التي مورس بها البغاء في بعض المدن المصرية[2]، والشامية[3]، فكانت قيسارية ابن الصقر التاجر في حارة البغيل بدمشق دارا لممارسة الرذيلة، وبعد إغلاقها انتقلت بيوت البغايا أو بنات الخطا إلى جوار المدرسة اليونسية بالشرف الأعلى[4]، كما وقفت بعض البغايا لطلب الفاحشة في الأسواق في العصر المملوكي[5]. وكانت حوانيت سوق الشماعين[6] مخصصة لجلوس البغايا فيجلسن فيه إلى منتصف الليل، ويقال لهن زعيرات الشماعين، " و لهنّ سيما يعرفن بها، وزيّ يتميزن به، وهو لبس الملاءات الطرح وفي أرجلهنّ سراويل من أديم أحمر، وكنّ يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال المشالقين في وقت لعبهم "[7]، وأوجد الأمير سودون بن عبد الرحمن[8] " في دمشق أيام نيابته بها عدة أماكن .. ووقوف البغايا والأحداث "[9]، ويذكر المقريزي أنه كان في بلاد الصعيد والوجه البحري " يفرد حارات للمغاني والبغايا تقوم كل واحدة منهن. بمال مقرر فيكون هناك من التجاهر بالزنا وشرب الخمر ما يشنع ذكره حتى لو مر غريب بتلك المواضع من غير أن يقصد الزنا لألزم بأن يأتي بغيا من تلك البغايا ويكره على ذلك أو يفتدى. بمال يدفعه إليها حتى تقوم به مما عليها من الضريبة"[10].

وكانت جزيرة بولاق والجزيرة الوسطانية في سنة (747ه/1346م)، قد بنيت فيها أخصاص" اجتمع فيها من البغايا .. وأنواع المسكرات ما لا يمكن حكايته،...، وكانت الأمراء

---

(1) التيفاشي، نزهة ، ص 198.

(2) المقريزي ، خطط ،ج1، ص 199.

(3) المقريزي،السلوك،ج7، ص369. ابن طولون، مفاكهة ، ص21.

(4) المصادر نفسها، نفس الصفحات.

(5) المقريزي، السلوك ،ج7، ص185،369.

(6) سوق الشماعين: هذا السوق من الجامع الأقمر إلى سوق الدجاجين، وهو معمور من الجانبين بالشموع الموكبية والفانوسية والطوافات. المقريزي ، خطط ،ج3، ص174.

(7) المصدر نفسه ،ج3، ص174-175. انظر: الرواشده، حيوات، ص217.

(8) سودون بن عبد الرحمن: من جملة المماليك الظاهرية برقوق. ترقي في الخدم حتى صار نائب الشام ثم عزل وسجن حتى مات. المقريزي،السلوك،ج7، ص369.

(9) المصدر نفسه، نفس الجزء و الصفحة.

(10) المقريزي،السلوك ،ج5، ص 4.

والأعيان تسير إليها ليلا إلى أن قام الأمير أرغون العلائي في أمرهـا قيامـا عظيمـا وأحـرق الأخصاص على حين غفلة وضرب جماعة وشهرهم فتلف بها مال عظيم جدا "[1].

ويذكر ان بعض مشاهير البزازين[2] " تزوج بنت أمير فعشقت عليه عبداً أسود فأدخلته في زي امرأة وقالت لزوجها إنها بنت أمير كبير، فعمل لها ضيافة وجلست يومهـا مـع ذلـك العبـد والزوج لا يجسر على دخول البيت إكراماً لها، فلما دخل الليل سألته أن يبيت في طبقة وحده وتبيت هي مع خوند إكراماً لها، فقبل ذلك ونامت هي مع محبوبها فسكرا فسولت لها نفسها أن اتفقت معه أن يقتل زوجها فهجم عليه بسكين فضربه فخابت الضربة، فاستغاث فأمسك العبد وضـرب فـأقر فأمضى فيه الحكم، وأما الزوجة فحلفت لزوجها أنها هي وبنت الأمير باتتا تلك الليلة ومـا علمتـا بقصة ذلك العبد أصلاً، فصدقها واستمر معها "[3].

وقد سرى اعتقاد كبير لدى الناس والمماليك أن السبب الرئيس لوقوع الكوارث، وانتـشار الأوبئة هو الفساد الأخلاقي وانتشر البغاء لذا عمل المماليك على الحد من هذه الظـاهرة[4]، ففـي سنة(840هـ/1397م) " وقع الوباء ببلاد الصعيد من أرض مصر وكثر بدمـشق وشـنع بحلـب وأعمالها فأظهر أهلها التوبة وأغلقوا حانات الخمارين ومنعوا البغايا الواقفـات للبغـاء والـشباب المرصدين لعمل الفاحشة بضرائب تحمل لنائب حلب وغيره من أرباب الدولة فتناقص الموت وخف الوباء "[5]، وهذا ما يؤكد أن انتشار الزنا يعد من أهم أسباب انتشار الأمراض.

د- الاتجار بالجواري واقتناءهن:

كما عرفت مصر والشام خلال العصر المملوكي تهافت الأثرياء على اقتناء الجـواري لا سيما بعد ازدياد كثرة سبي الحروب الذين أضافوا إلى الفئات المجتلبة من البلاد والأصقاع البعيدة أجناساً أخرى من الأرمن والأوروبيين واليونان وغيرهم، وقد فتن المسلمون بهذه الألوان الجديـدة وتنافسوا في اقتناء النساء منها خاصة، وكان طبيعياً في هذا العصر، أن يجمع الرجـل فـي داره مجموعة من ألوان ومشارب مختلفة ولم يتورع عن ذلك أكثر الناس تقوى، فقد كان " علـي بـن أفسيس الساوردي البعلبكي الدمشقي، كان صدراً رئيساً عاقلاً منفرداً فيمـا يعانيـه مـن الحـشمة

---

[1] المقريزي،السلوك ،ج 4، ص26.

[2] البزاز في الناس من يبيع ثوب القطن والكتان. وسوق البزازين الموضع الذي فيه ثوب القطـن والكتـان. دون الديباج والكساء.السرخسي، شرح ، ص728.

[3] ابن حجر، إنباء ،ج3، ص500.

[4] الدوادار، زبدة، ص105. المقريزي، خطط ،ج1، ص199؛ السلوك ، ج6، ص495، ج7، ص100، 369.

[5] المقريزي، السلوك ،ج7، ص347.

والرئاسة وحسن الملبس والتأنق في المسكن والمأكل والمركب وغير ذلك وولي نظر الزكاة بدمشق ... وكان مشكور السيرة محبوباً إلى التجار تجلب إليه الأشياء المستظرفة من البلاد الشاسعة ..، وصى الدلالين على مشترى جارية تعرف صناعة الغناء فحضر إليه بعضهم وأخبره أن بحضور شخص من بغداد .. ومعه جاريتين على الصفة المطلوبة فقال له أحضرهم فأحضر جارية واحدة فرآها وغنت فأعجبه غناؤها وهي لابسة بغلطاق طرح ثم سيرها وطلب الأخرى فحضرت وعليها ذلك البغلطاق بعينه فجعل يتأمله وسألها عنه فذكرت أن ليس لها سواه وأن أستاذهما يحبهما وإنما الضرورة حملته على عرضهما للبيع فسأل عن منزله وأخذ معه ألف درهم وعشر قطع قماش وتوجه بنفسه إلى منزل الرجل فسلم عليه وأعطاه ذلك فكسا الجواري واستغنى عن بيعهن ولم يشتر منه محي الدين رحمه الله شيئاً "[1].

"واتفق أن الملك الظاهر عند ما فتح الفتوحات المشهورة، وغنم الناس الجواري وتسروا بهن، سئل الشيخ تاج الدين عبد الرحمن الفراري فرّخص في ذلك، وصنف جزءاً في إباحة ذلك من غير تخميس "[2]. وكان عدة جواري مقداد بن شمّاس أربعمائة جارية[3]. وكان الملك الناصر شغف بالجوارى السّرارى[4]، "و فى آخر أيامه شغف بحبّ الجوارى المولّدات وحملن إليه، فزادت عدّتهنّ عنده على ألف ومائتى وصيفة "[5]. وكان لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمود بن أحمد أبي العز الأذرعي الأصل الدمشقي الحنفي المعروف بابن العز وبابن الكشك مائتين جارية[6].
أما عبد اللطيف بن عبد المحسن بن عبد الحميد بن يوسف السبكي نزيل دمشق قطب الدين ابن أخت التقي السبكي، " كان كثير التسري، يقال أنه وطئ أزيد من ألف جارية "[7].

وبلغ من ضرر الجواري أن محمد بن علي بن نم، الكيلاني غياث الدين ابن خواجا على التاجر، " تزوج جارية من جواري الناصر يقال لها سمراء فهام بها وأتلف عليها ماله وروحه وأفرطت هي في بغضه إلى أن قيل إنها سقته السم فتعلل مدة ولم تزل به حتى فارقها فتدله عقله من حبها إلى أن مات ولهاً بها، وتزوجت بعده رجلاً من العوام فأذاقها الهوان وأحبته، فأبغضها

---

[1] اليونيني، ذيل ،ج2، ص419–420. انظر: البنا، أحوال، ص487.
[2] اليونيني، ذيل ،ج3، ص285.
[3] ابن تغري بردي، النجوم ،ج9 ، ص36.
[4] المصدر نفسه ،ج9 ، ص 175.
[5] المصدر نفسه ،ج9 ، ص210. المقريزي،السلوك ،ج3، ص319.
[6] النعيمي، الدارس ،ج1، ص485.
[7] ابن حجر، إنباء ،ج1، ص324.

عكس ما جرى لها مع غياث الدين، و زارت غياث الدين في مرضه واستحللته فحاللها من شدة حبه لها وكانت قد ألزمته بطلاق زوجته ابنة عمه فطلقها لأجلها "[1].

هـ - شرب الخمر

كما كان من مظاهر الانحراف الخلقي خلال تلك الفترة شرب الخمور على نطاق واسع وإعداد مجالس خاصة للشرب، ففي سنة (678هـ/1279م)ــ " ظهر بالقاهرة ومصر رجلان من بزدارية الأمير جمال الدين أقوش الملقب بهيطلية عرف أحدهما بالجاموس لسواد لونه وعرف الآخر بالمحوجب. وأفسدا فسادا كثيرا وشغفا بشرب الخمر "[2]، وفي سنة (702هـ/1302م)ــ "حصل بالقاهرة ومصر من الفساد في الحريم وشرب الخمور ما لا يمكن وصفه[3]، وفي سنة (746هـ/1345م)ــ " تهتكت المماليك السلطانية بشرب الخمر والإعلان بالفواحش وركبوا في الليل وقطعوا الطريق على المسافرين واغتصبوا حريم الناس وصارت سرياقوس حانة "[4].

وكان محمد بن عزيز بن أيمن المعروف بالدبير " يتجاهر بشرب الخمر فاتفق أن العدو أغار على مكانه فخرج ورمى بنفسه فصرع واستشهد وذلك في حدود الثلاثين وسبعمائة "[5].

كما كان بهادر الحاج المنصوري الأمير سيف الدين نائب طرابلس " متظاهرا بشرب الخمر متهتكا فيه .. كان يشرب وهو راكب وربما مر بين القصرين وهو يتناول الخمر ويشربه لا يبالي وفعل هذا بدمشق غير مرة يدخل من الصيد ويشق السوق والساقي يناوله الخمر وهو يشرب "[6].

وكان الأمير سودون بن عبد الرحمن " مصرا على ما لا تبيحه الشريعة من شهواته الخسيسة وأحدث في دمشق أيام نيابته بها عدة أماكن لبيع الخمر ...، وضمنها بمال في كل شهر فاستمرت من بعده. واقتدى به في ذلك غير واحد فعملوا في دمشق خمارات مضمنة بأموال "[7].

ومن كل ما سبق ندرك أن السلوكيات الغير صحية لأفراد المجتمع في مصر والشام كانت أحد أسباب انتشار الأمراض.

---

[1] ابن حجر، إنباء، ج3، ص186.

[2] المقريزي، السلوك،ج2، ص128.

[3] المصدر نفسه، ج2، ص363.

[4] المصدر نفسه،ج4، ص13.

[5] ابن حجر،الدرر ،ج5، ص301.

[6] الكتبي،الوافي ، ج10، ص186.

[7] المقريزي، السلوك ، ج7، ص369.

والحقيقة أن الدولة المملوكية لم تتوانى عن محاربة الفساد، وشرب الخمور، وتعاطي الحشيشة، فقاموا بإجراءات لمحاربة الفساد وأماكن الرذيلة، ففي سنة (662ه/1263م) " أبطل السلطان ضمان الحشيشة الخبيثة وأمر بتأديب من أكلها "[1].

أما سنة (709ه/1309م)ــ " كبست دور من عرف بشرب الخمر منهم ومنها دار الأمير علاء الدين مغلطاي المسعودي أحد أمراء الألوف من البرجية "[2]، وأبطل الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوريّ: " سائر الخمارات من السواحل وغيرها من بلاد الشام، وسامح بما كان من المقرّر عليها للسلطان، وعوّض الأجناد بدله، وكبست أماكن الريب والفواحش بالقاهرة ومصر، وأريقت الخمور وضرب أناس كثير في ذلك بالمقارع، وتتبع أماكن الفساد وبالغ في إزالته، ولم يراع في ذلك أحدا من الكتاب ولا من الأمراء، فخف المنكر وخفي الفساد "[3].

وكذلك الأمر في سنة (822ه/1419م)ــ " تتبع صدر الدين محتسب القاهرة أماكن الفساد بنفسه ومعه والي القاهرة فأراق آلافا من جرار الخمر وكسرها ومنع النساء من النياحة على الأموات ومنع من التظاهر بالحشيش وكف البغايا عن الوقوف لطلب الفاحشة في الأسواق ومواضع الريب "[4].

وأيضاً في سنة (832ه/1428م)ــ " تتبع الأمير قرقماس حاجب الحجاب مواضع الفساد فأراق من الخمور وحرق من الحشيشة المغيرة للعقل شيئا كثيرا وهدم مواضع ومنع من الاجتماع في مواضع الفساد، و منع من التظاهر بالحشيش وكف البغايا عن الوقوف لطلب الفاحشة في الأسواق "[5].

6- الحروب :

تعد الحروب أحد الأسباب البشرية المسببة للأمراض وهي تنجم عن سياسات الحكام فالحروب يصنعها البشر وهي من العوامل الهامة التي تساعد على ظهور الأمراض بين القوات المتحاربة أو بين أهالي المدن والمناطق المحاصرة بسبب تعفن جثث الموتى أو حدوث المجاعات بسبب الحصار الذي يطول على أهالي المدن مما يسبب الأمراض والأوبئة.

---

(1) المقريزي، السلوك، ج2، ص36.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص430.

(3) المقريزي، خطط، ج4، ص286،287.

(4) المقريزي، السلوك ، ج6، ص495.

(5) المصدر نفسه، ج7، ص185.

فعندما طرق التتار بلاد الشام سنة (658ه/1259م) ــ قتلوا " أمم لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى وامتلأت الطرقات بالقتلى "[1].

وفي سنة (679ه/1280م) حين " وصلت التتار إلى حلب فقتلوا خلقا كثيرا "[2]، وفي السنة التالية " وصلوا حمص وهي مغلقة الأبواب، فقتلوا خلقا مـن العامـة "[3]، " والسـوّقة والغلمـان والرّجّالة المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة "[4].

وفي عام (704ه/1340م)ــ " كان نائب السلطنة في الصيد فقصدهم في الليل طائفة مـن الأعراب فقاتلهم الأمراء فقتلوا من العرب نحو النصف، وتوغل في العرب أمير يقال له سيف الدين بهادر تمر احتقارا بالعرب، فضربه واحد منهم برمح فقتله، فكرت الأمراء عليهم فقتلوا منهم خلقـا أيضا "[5].

وكذلك في سنة (709ه/1309م)ــ " وقع بين أهل حوران من قيس ويمن فقتل منهم مقتلة عظيمة جدا، قتل من الفريقين نحو من ألف نفس بالقرب من السوداء، وهـم يـسمونها الـسويداء، وكانت الكسرة على يمن فهربوا من قيس حتى دخل كثير منهم إلى دمشق في أسوأ الحال وأضعفه، وهربت قيس خوفا من الدولة، وبقيت القرى خالية والزروع سائبة "[6].
وحدث في سنة (802ه/1399م)ــ " بين العشير وهم عربان الشام اختلاف، فقتل منهم في المعركة نحو عشرة آلاف نفس "[7].

وهكذا قد حفل تاريخ مصر والشام خلال العصر المملوكي بالكثير من الحروب، سواء بين المسلمين والصليبيين أو التتار أو بين المماليك وبعضهم البعض، مما كان له أبلغ الأثر على القوات المتحاربة، وعلى أفراد الشعب القاطنين بالقرب من مواقع المعارك ومن ثم يمكن القول أن الحروب هي أحد أهم الأسباب البشرية (لأن الحروب من صنع البشر) المسببة للأوبئة والأمـراض خـلال العصر المملوكي في مصر والشام.

---

(1) الذهبي، تاريخ ،ج48، ص50.
(2) ابن كثير، البداية ، ج13، ص341.
(3) المصدر نفسه،ج13، ص345.
(4) ابن تغري بردي ، النجوم ،ج7، ص303.
(5) ابن كثير، البداية ، ج14، ص40.
(6) المصدر نفسه ،ج14، ص62.
(7) ابن حجر، إنباء ،ج2، ص91.

ثانيا: الأسباب الطبيعية:

مجموعة من الأسباب لا دخل للبشر فيها ولكنها من صنع الطبيعة حيث شاءت إرادة الله لمصر والشام أن تلعب هذه المسببات دوراً مهماً فيها في التأثير على الحالة الصحية العامة بها وأول هذه المسببات هو طبيعة مناخ مصر والشام وثانيها المجاعات الناجمة عن أسباب طبيعية.

1- طبيعة مناخ مصر والشام:

لا شك أن مناخ أي بلد وعناصره المختلفة من جفاف ورطوبة، وحرارة وبرودة تساهم بدور كبير في انتشار الأمراض، أو الحد منها أو التمكين لأمراض معينة تجد في مناخ هذا البلد البيئة المناسبة لها دون أخرى، فالبلاد الحارة مثلاً تعد من أكثر المناطق عرضة لنمو الجراثيم وتوالد الحشرات التي تنقل عدوى الأمراض[1].

فهناك علاقة وثيقة بين العناصر المكونة للمناخ من حرارة وأمطار ورياح ورطوبة وبين صحة الإنسان فكلما كان المناخ قارياً متطرفاً كلما زادت الأمراض وانتشرت الإصابة والعدوى بها، وكلما كان المناخ معتدلاً كلما قلت الأمراض وقل انتشارها وكذلك العدوى بها[2].

فكفر طاب، بالشام " من سكنها لا يكاد يمرض "[3] وذلك لأنها "أرض صحيحة الهواء "[4]

ويذكر العمري: أن حلب " سمتها ملوكية خلا أنها ذات وعر في الصيف بحجب الهواء عن اختراقها، ويعرض بها في الخريف، تغير ينسب إلى الوخم "[5].

وقد ذكر ابن تغري بردي أن " طرابلس القديمة كانت من أحسن المدن وأطيبها، ثمّ بعد ذلك اتخذوا مكانا على ميل من البلدة وبنوه مدينة صغيرة بلا سور، فجاء مكانا ردىء الهوى والمزاج من الوخم "[6].

وكان الأمير سيف الدين أولاجا: " قد تعلق به وخم عظيم من حمص فزاد ضعفه بصفد، وطلب طبيبا من دمشق، فجهز إليه وعالجه وتماثل من الضعف، ثم إنه نقض عليه الوخم الحمصي، فتعلل، ولم يزل إلى أن أولج أولاجا في الأرض "[7].

---

(1) صادر، الأمراض، ص400.

(2) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(3) الحميري، الروض ، ص500.

(4) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(5) مسالك ،ج3، ص534.

(6) النجوم، ج7، ص322 .

(7) الصفدي، أعيان ، ج1، ص638. الكتبي، الوافي، ج9، ص256.

وعن مصر يذكر المؤرخون أن مناخها يتسم بالحرارة وركود الهواء فيغلب على تربتها كثرة العفونة وهو يؤدي إلى كثرة الفضول في الهواء الذي ينتج عنه الإصابة بالأمراض[1] وذلك لأن الأتربة تتخلل الهواء حتى ترى الهواء في أيام الصيف كدراً يأخذ بالنفس، ويتسخ الثوب النظيف في اليوم الواحد، وإذا مر الإنسان في حاجة لم يرجع إلا وقد اجتمع في وجهه ولحيته غبار كثير ويعلوها في العشيات خاصة في أيام الصيف بخار كدر أسود وأغبر، سيما إذا كان الهواء سليماً من الرياح[2] وهو ما يؤدي إلى انتشار الأمراض.

وذكر المقريزي أنه " قد استبان أن الفصول بأرض مصر كثيرة الاختلاف وإن أردأ أوقات السنة عندهم وأكثرها أمراضا هو آخر الخريف وأوّل الشتاء وذلك في شهر هاتور وكيهك، فإذا اختلاف الفصول مشاكل لما عليه أرضهم من الرداءة، فمضرة الفصول إذا بالأبدان في أرض مصر أقل منها في البلدان الأخر إذا اختلفت هذا الاختلاف، واستبان أيضا أن السبب الأول في ذلك هو: مدّ النيل في أيام الصيف، وتطبيقه الأرض في أيام الخريف بخلاف ما عليه مياه الأنهار في العمارة كلها فإنها إنما تمتدّ في أخص الأوقات بالرطوبة وهو الشتاء والربيع، وقد استبان مما تقدم أن الرطوبة الفضيلة بأرض مصر كثيرة وظاهر أن أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه الرطوبة، فإني أنا قلما رأيت أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه كلها لا يشوبها في أول أمرها البلغم والخلط الخام، والأمراض كلها تحدث عندهم في الأوقات كلها،...، وما ذكرناه فيما تقدّم يوجب حدوث الأمراض كثيرا إلا أن مشاكلة هذه بعضها بعضا واتفاقها في سنة واحدة تمنع من أن تكون في أنفسها ممرضة متى لزمت العادة فأما إذا خرجت عن عادتها فهي تحدث مرضا. وخروجها عن عادتها بمصر هو الذي أعدّه اختلافا ممرضا لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم، والنيل ليس يحدث في الأبدان كل سنة مرضا، ولكنه إذا أفرطت زيادته ودام مدّة تزيد على العادة كان ذلك سببا لحدوث المرض الوافد "[3]

وقد كان لطبيعة المباني في مصر دور كبير في خلق بيئة مناسبة لبعض الأمراض مع هذا المناخ وخير شاهد على ذلك مدينة الفسطاط حيث كانت مرتفعة البناء ضيقة الأزقة والشوراع،

---

[1] رضوان، دفع، ورقة 10. الورتلاني، نزهة، ص561. ولقد نسب الأطباء حدوث الأمراض الباطنة العامة مثل الحميات إلى فساد هواء المنطقة التي يعيش فيها المصابون بالحمى أو فساد مياهها، أو إلى عفن يصيب بعض الأخلاط وخاصة الدم وكان رأيهم أن العفن الذي يبقى داخل العروق يسبب حمى الربع أما إذا خرج العفن إلى الأنسجة خارج الأوعية فينشأ من ذلك حمى الغب. انظر: حسين، الموجز، ص43.

[2] المقريزي، خطط، ج1، ص340.

[3] المقريزي، خطط ، ج1، ص87.

الأمر الذي كان يحول دون تجدد الهواء بها، وهو ما جعلها عرضة أكثر من غيرها للأمــراض[1] الأمر الذي أشار إليه الحكماء من قبل[2]. وأن" الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق "[3].

وقد أشار ابن خلدون (ت808هـ/1405م) " أن الناس في المدن لكثرة الازدحــام والعمــران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء الأعلى والأسفل ومن الانتفاع بظاهر البناء ممــا يتوقــع معــه حصول الضرر في الحيطان، فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان له فيه حق. ويختلفــون أيــضا فــي استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات "[4].

ولعل أحد أسباب الازدحام في بعض مدن الشام ومصر بالسكان؛ تدفق اللاجئين عليها فراراً من الحروب، فنجد مثلاً مدينة دمشق قد ضاقت بالسكان بعد أن غدت مقراً للاجئين الذين تكاثفوا بها وصار عدد سكانها ضعفي ما تستوعبه مدينــة مثلهــا[5]، و عنــدما هــاجم التتــار حلــب ســنة (858هـ/1454م) " انجفل الناس منها "[6]، أو كما حدث سنة (679هـ/1280م) حين " أقبلت التتار لما سمعوا بتفريق كلمة المسلمين، فانجفل الناس من بين أيديهم من سائر البلاد إلى الشام، ومن الــشام إلى مصر "[7]، و" اضطربت دمشق بأهلها وأخذوا في الرحيل منها على وجوههم، واشتروا الحمار بستمائة درهم والجمل بألف درهم، وترك كثير منهم حريمه وأولاده ونجا بنفسه "[8].

ولا شك بأن هذا الازدحام يؤدي إلى صعوبة في التنفس ويكثر من الجراثيم فــي الهــواء، الأمر الذي يؤدي إلى انتشار الأمراض لذلك كانت المدن الأقل سكاناً والأفضل في اعتدال الهــواء، أكثر صحية من غيرها من المدن ومن ذلك نذكر مدينة حلب بالشام حيث كانت مكاناً صحياً تهفــو

---

[1] المقريزي، خطط ، ج2، ص 165.

[2] وقد أشار أحد الحكماء إلى ذلك فقال: "إذا دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة المباني فاهرب منها لأنهــا وبيئة لأن البخار لا يدخل منها كما ينبغي لضيق الأزقة وارتفاع البناء. انظر: المــصدر نفــسه، نفــس الجــزء و الصفحة.

[3] ابن خلدون، تاريخ، ج1، ص377.

[4] المصدر نفسه ،ج1، ص513.

[5] الصالحي، القلائد، ق1، ص201. علي، العلاقات، ص156.

[6] الذهبي، تاريخ ،ج48، ص67.

[7] ابن كثير، البداية ، ج13، ص341.

[8] ابن تغري بردي، النجوم ،ج8، ص158.

النفس إلى الإقامة بها، ووضح ذلك من خلال حرص العلماء والحكماء والملوك والأمـراء علـى الإقامة بها منذ القدم وفي مختلف العصور[1].

وقد أدرك أطباء المسلمين منذ وقت مبكر تأثير المناخ والجو على الحالة الصحية فتجـدهم مثلاً ينصحون الأشخاص الذين يعانون من أمراض صدرية بالإقامة في الأماكن الدافئة والجافة في فصل الشتاء[2]، وتوصلوا أيضاً إلى أن بعض الأمراض المعدية تقتصر في الظهور على فصل أو موسم معين من السنة، وأن منها أوبئة تظهر فقط كل عدد معين من السنين[3] والسبب فـي ذلـك راجع إلى:

- التغير في كيفية الهواء بين فصول السنة الأربعة فيصبح أكثر حرارة أو برودة أو رطوبـة أو جفافاً من المعتاد في مثل هذه الأوقات[4].
- أو أن تخالط الهواء عفونة نتيجة لقدوم أشخاص مرضى على هذا البلد فتختلط أنفاسهم بالهواء، الذي يصبح ملوثاً فيتنفس هذا الهواء الملوث آخرون أصحاء فيصابوا هم الآخرون بالأمراض[5].
- كما يلعب البخر درجة كبيرة في تلوث الهواء، وذلك من خلال تلـوث الميـاه نتيجـة لتجمـع القاذورات والمخلفات والحيوانات النافقة وإلقائها في هذه المياه[6]، حيـث تـصبح الميـاه ملوثـة وتتعرض للبخر فتملأ الهواء بالميكروبات والجراثيم مما يؤدي إلى الإصابة بالأمراض.

وقد أدت الريح الشديدة أحيانا إلى اتساع نطاق الحرائق بعد نقل الهواء للنيـران فعنـدما " وقعت نار بخط البندقانيين من القاهرة فأحرقت دار هناك، ..وكان الهواء شديدا والدور متلاصـقة فاشتد لهب النار "[7].

---

[1] ابن العديم، بغية، ج1، ص499-451. وقد ذكر عن حلب أن هواءها معتدل يساعد على النماء لكـل الكائنـات وتربتها قليلة العفونة مما يساعد على مقاومة الأمراض إضافة إلى أن ماءها عذب رقيق فالماء بها نابع وقد صـنع عليه جبات فلا تخاف الظمأ أبد الدهر، والطعام يصبر فيها الدهر كله، وليس في شروط الحصانة أهم ولا أكد مـن هاتين الحالتين. انظر: ابن جبير، رحلة، ص202،203.

[2] لوبون، حضارة، ص594،593.

[3] رضوان، دفع، ورقة 10. الفنجري، الطب، ص27.

[4] الحموي، البيان، ورقة 60. رضوان. دفع، ورقة 10.

[5] رضوان، دفع ، ورقة 10.

[6] المصدر نفسه، ورقة 10،11. كما كانت الآلاف من الجثث البشرية المتخلفة عن المعارك الحربية تلقـى فـي المياه مما يؤدي إلى تلوثها ومن ذلك المعظم توران شاه الذي أحضر الأساري من الفرنج وضرب أعناقهم بالـسيف ثم قذفهم في البحر. انظر: ابن اياس، بدائع، ج1، ص108.

[7] المقريزي، السلوك ،ج4، ص118.

وكان لفساد الهواء دور في انتشار الأوبئة وبالتالي ازدياد عدد القتلى، ففي سنة 656هـ " أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام "[1].

وفي سنة (718ه/1318م) "جاءت ريح شديدة ببلاد طرابلس على ذوق تركمان فأهلكت لهم كثيرا من الأمتعة، وقتلت أميرا منه يقال له طرالي وزوجته وابنتيه وابني ابنيه وجاريته وأحد عشر نفسا، وقتلت جمالا كثيرة وغيرها، وكسرت الأمتعة والأثاث وكانت ترفع البعير في الهواء مقدار عشرة أرماح ثم تلقيه مقطعا "[2].

" وفي جمادى الآخرة (806ه/1403م) حدث بالقاهرة سعال عقب هبوب ريح جنوبية شديدة البرد كثيرة الرطوبة وفشا السعال ثم الحمى وجاء الشتاء شديداً أزيد من العادة ففشا الموت في أهل المسكنة وكان يموت بالجوع والبرد في كل يوم فوق الألف " فكان عدة من تم مواراتهم التراب اثني عشر ألف نفس وسبعمائة نفس[3]. وفي شوال تزايد هبوب الريح المريسي وكثرت الأمراض ووقع الطاعون والأمراض الحادة وغلت الأدوية حتى بيع القدح من لب القرع بمائة درهم وبيع الرطل الشيرشخت بمائة وثلاثين، والقنطار البطيخ الصيفي بثمانمائة درهم والفروج الواحد بسبعين درهماً والزهرة الواحدة من النيلوفر بدرهم والخيارة الواحدة البلدية بدرهم ونصف[4].

ومن ذلك يتضح لنا أن المناخ بعناصره المختلفة يلعب دوراً مؤثراً في الحالة الصحية، لا سيما عنصري الحرارة والبرودة فقد تسببت الحرارة الشديدة في فصل الصيف الكثير من المشاكل الصحية وكذلك الحال مع البرودة الشديدة في فصل الشتاء.

ومما سبق يتضح لنا أن مناخ مصر والشام كان له دور مؤثر في الحالة الصحية العامة لأهالي مصر والشام، إلا أن هناك عوامل طبيعية أخرى تنتج عنها الأوبئة وتكون سبباً في انتشار الأمراض فيها.

2- المجاعات:

تعد المجاعات أحد مسببات الأمراض وهي ترجع إلى أسباب طبيعية مثل الكوارث الطبيعية كالفيضانات أو نقص المياه، أو الزلازل أو الآفات الزراعية، التي تؤدي إلى هلاك المحاصيل، و قد تحدث ابن خلدون(ت 808 هـ/ 1405م) عن أسباب كثرة المجاعات في الدول، وربطه بانتهاء

---

[1] ابن كثير، البداية ،ج13، ص237.

[2] المصدر نفسه ، ج14، ص99.

[3] ابن حجر، إنباء، ج2، ص260.

[4] المصدر نفسه ،ج2، ص261.

آجالها، فقد ذكر في مقدمته فصلاً خاصاً بهذا الموضوع، و ذكر فيه أن عدم الاهتمام بأمور الزراعة والفلاحة، والانشغال بالعدوان في الأموال والجبايات والفتن الواقعة بين أفراد الشعب وكثرة الخوارج كل ذلك من الأسباب التي تؤدي إلى حدوث المجاعات[1].

أما المقريزي(ت 845هـ/ 1441م) فقد تحدث في كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" عن المجاعات التي حدثت في البلاد الإسلامية منذ أقدم الأزمنة حتى سنة(808ه/1405م)، و ابتداء يقرر المقريزي، أن هذه المجاعات والمحن مرتبطة بأسباب مشخصة، وأنها ليست قدراً لا يمكن الفكاك منه، إذ يرفض الاستسلام الجبري ويأخذ بمبدأ السببية، مقرراً أن ما يحدث من كوارث يمكن أن يتجاوزه الإنسان الذي بمقدوره تحاشي المجاعات أو الكارثة الطبيعية بالتخطيط والتصرف المستند إلى معرفة الأسباب والدوافع، فهي تنتهي بانتهاء هذه الأسباب المرتبطة بسوء السياسة الاقتصادية للمسؤولين في الدولة[2].

ويقرر المقريزي أن الأسباب التي تؤدي إلى حدوث المجاعات في المجتمعات تعود إلى أسباب مرتبطة بأحوال الجو وتقلباته، فالقحط الذي يحدث لقلة نزول الأمطار أهم هذه الأسباب، ومنها الآفات التي تصيب الغلال بسبب الرياح الحارة والجافة، أو إغارات أسراب الجراد على المزروعات، ويفسر المقريزي حدوث هذه الأمور مجتمعة بأنها عقاب من الله لعباده عند مخالفتهم أوامره وإتيانهم محارمه[3]. وأكثرها ضرراً هو:

- نقص المياه أو الفيضانات الشديدة:

من المعلوم أن الماء عنصراً ضروري للحياة على وجه الأرض، فلا تستقيم الحياة بدونه قال تعالى:" وجعلنا من الماء كل شيء حي"[4]، فلا غنى للإنسان أو الحيوان أو النبات عنه، وقد تميزت مصر طوال تاريخها بكثرة خيراتها وثرائها، وإن تخلل ذلك العديد من المجاعات التي يرجع أغلبها إلى نقص المياه سواء المطر أو النيل عن الحد المطلوب[5] لري الأراضي فلا يصل

---

(1) تاريخ،ج1، ص 376.

(2) إغاثة ، ص3 .

(3) المصدر نفسه ، ص36.

(4) سورة الأنبياء، آية 30.

(5) الحد المطلوب لري الأراضي في مصر خلال العصر الفاطمي كان ارتفاع الماء في النيل بمقدار ستة عشر ذراعاً تكفي لزراعة بعض الأراضي، ودرء خطر المجاعة عن البلاد، وليس هناك خطر محقق إذا بلغت الزيادة خمسة عشر ذراعاً، أما السبعة عشرة ذراعاً فهي كافية فقط لزراعة معظم الأراضي وليس كلها، ويكون حد الوفاء الذي يكفي لزراعة جميع الأراضي ويمكن معه الوفاء بالخراج دون عنت هو ثمانية عشر ذراعاً. انظر: الصاوي، مجاعات، ص28.

الماء إليها ولا يغطيها ومن ثم تكون البلاد قد شرقت[1] وعن ذلك يتحدث أحد المؤرخين قائلاً: هذا إقليم إذا أقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه، وإذا أجذب فنعوذ بالله من قحطه[2].

ولقد شهدت بلاد الشام خلال مرحلة الدراسة موجات عنيفة من الجفاف والتي تلاها في أحيان كثيرة حدوث المجاعات. ففي سنة (660هـ/1262 م) اشتد غلاء الأسعار في بلاد الشام بشكل كبير جداً، وانتشرت المجاعة، وخاصة في المدن الرئيسية في الشام كدمشق وحلب وحماة، وهلك في هذه المجاعة أعداد كبيرة من الناس[3]، وفي سنة (680 هـ/ 1282م) انحبست الأمطار في بلاد الشام، وحدث نقص شديد في المياه في المنطقة وخاصة في مدينة دمشق[4]، وفي سنة (697 هـ/ 1297م) حدث جفاف في بلاد الشام[5]، ونتيجة لاشتداد أمر هذا الجفاف" غارت الأعين والآبار ونقصت مياه الأنهر بدمشق"[6]، وفي سنة (704 هـ/ 1304م) انحبست الأمطار، " فأجدبت الشام من الغور إلى العريش، وجفت المياه "[7]، وكانت " بعض الضياع لم يوجد بها ماء لمشرب أهلها"[8]، وفي سنة (723 هـ/ 1322م) انحبست الأمطار في بلاد الشام، وأجدبت المنطقة الممتدة من دمشق إلى حلب، وأدى ذلك إلى جفاف الينابيع[9]، وفي سنة (747 هـ/ 1346م) انحبست الأمطار في كافة بلاد الشام فحدث جفاف في المنطقة[10]، وفي أواخر سنة (760 هـ/ 1359م) انحبست الأمطار ببلاد الشام، وحدث جفاف شديد، وانخفض منسوب مياه الأنهار، وحدث نقص حاد في المياه[11]، وفي سنة (777 هـ/ 1375م) حدثت مجاعة في بلاد

---

[1] البغدادي، الإفادة ، ص 152،153. وشرقت البلاد في كلام أهل مصر هي الأراضي التي لم يصل إليها ماء النيل، فإذا رويت جادت، وهي مشتقة من شرق فلان بالماء إذا غصه، وشرق اللحم إذا قده وبسطه في الشمس ليجف، والأرض جفت من عدم الري فهو شرق وهي شرقة . انظر: مجمع ، المعجم ، ص341.

[2] المقدسي، أحسن، ص202.

[3] اليونيني، ذيل ،ج 1، ص 220 .ابن كثير،البداية،ج 13 ،ص 272 . النويري، نهاية، ج 30 ،ص 39 .المقريزي،السلوك،ج 1،ص 541

[4] اليونيني، ذيل ،ج 2،ص 42.

[5] ابن الجزري، تاريخ ،ج 1،ص 394 . ابن كثير،البداية،ج 13 ،ص 417 . المقريزي،السلوك، ج 2، ص 292.

[6] ابن الجزري، تاريخ ،ج 1،ص 394.

[7] المقريزي،السلوك ،ج 2 ، ص 383-384.

[8] بيبرس المنصوري، التحفة، ص 176.

[9] شيخ الربوة ، نخبة، ص84-85.

[10] المقريزي، السلوك،ج 4،ص 40.

[11] ابن كثير، البداية،ج 14 ،ص 307.

الشام، وبشكل خاص في مدينة دمشق وحلب[1]، ومع شدة الغلاء اضطر النـــاس لأكـــل الميتـــات والقطط والكلاب، بل ذكر المؤرخون أن بعض الناس أكل لحم البشر من شدة الجوع، وباع بعــض الفقراء أولادهم ليحصلوا من ثمنهم لقمة تسد رمق جوعهم[2]، وفـــي ســـنة(818 هــــ/ 1415م) انحبست الأمطار في بلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية، فحدث جفاف في المنطقة([3])، وتكرر الأمر نفسه في سنة (825 هــ/ 1422م)[4]، وفي سنة (831 هــ/ 1425م)[5]، وســـنة (838 هــ/ 1434م)[6]، وسنة (873 هــ/ 1468م)، فارتفعت أسعار المواد الغذائية بشكل كبير جداً ،مما أدى إلى حدوث مجاعة شديدة في بلاد الشام، أدت إلى وفاة عدد كبير من الناس لا سيما فـــي مدينة دمشق[7].

تلك بعض الأمثلة على نقص المياه وانحباس الأمطار والمجاعات في الشام فـــي العـــصر المملوكي، والتي كان لها تأثير كبير على الأحوال الصحية، وسببت في انتشار الأمراض وهـــلاك الكثير من الناس والحيوانات.

ولم تكن مصر بأحسن حال أو بمنأى عن مثل تلك المجاعات والجفاف، فقد ابتليت مـــصر بمثل ذلك أو أكثر خاصة مع وجود نهر النيل المتذبذب في نقصانه أو زيادته، ففـــي ســـنة (694 هــ/ 1295م) انخفض مستوى نهر النيل، فحدث جفاف في مصر، وتلاه حـــدوث مجاعـــة فيهـــا، واستمرت هذه المجاعة إلى سنة (695 هــ/ 1296م)[8]، وقد وصـــف المؤرخـــون شـــدة هـــذه المجاعة، وأحوال الناس فيها، ومن ذلك قول ابن أيبك :" ووقع مع الغلاء والقحط،...، موت كثيـــر جداً في السعداء[9]، والفقراء، أما الفقراء فأكثرهم من الجوع، كان يقول الإنسان الفقير: لله لبابـــة، ويموت مكانه، وفي هذه المجاعة اضطر الناس لأكل لحوم الميتة والكلاب والحمير والقطط من شدة

---

[1] ابن حجر، إنباء ،ج 1 ، ص 154.

[2] ابن قاضي شهبة، تاريخ،ج 2،ص 484 . ابن العراقي ،الذيل ،ج 2،ص 402 . ابن حجر،إنباء،ج 154-155. المقريزي،السلوك،ج 4،ص 391 . السخاوي،الذيل،ج 1،ص 281 . ابن شاهين، نيل الأمل،ج 2،ص 106.

[3] المقريزي،السلوك،ج 6،ص 395.السخاوي،الذيل ،ج 1،ص 494.

[4] المقريزي،السلوك ،ج 7،ص 56 . ابن حجر، إنباء ،ج 7،ص 450 . ابن شاهين، نيل الأمل، ج 4، ص 108.

[5] المقريزي،السلوك ،ج 7،ص 177 . ابن شاهين، نيل الأمل،ج 4،ص 237.

[6] المقريزي، السلوك ، ج 7، ص 284 . مجهول، حوليات ، ص 129.

[7] الذهبي، العبر،ج 3، ص 117.

[8] بيبرس المنصوري، مختار، ص 101-102. الذهبي، تاريخ ،ج 52 ، ص 37-42. ابن الفرات ،تاريخ، ، م 8، ص 196-211. العيني،عقد ،ج 3،ص 275. المقريزي، السلوك،ج 2،ص 261-267؛ إغاثة ، ص 27 – 33.

[9] السعداء: يقصد بهم هنا الأغنياء، انظر: ابن منظور، لسان العرب ،ج 3، ص 213.

الجوع[1] ووصل الأمر بالبعض أن يأكل لحوم البشر[2]. " وقد تفانى الناس إلا القليل، ...، والموت عمال، فمات بها في شهر صفر مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفا "[3].

وقد ذكر المؤرخون حكايات لحالات أكل لحوم الميتات والحيوانات والبشر، ومنها ما ذكره ابن أيبك الدواداري، قال :" ولقد نظرت بعيني،...، جماعة كبيرة شبه الوحوش الضارية قد تغيرت عنهم معالم الإنسانية، وكل جماعة عندهم قدور ينتظرون الميتات التي تخـــرج وتُرمـــى بكيمـــان البرقية، فيأخذونها بالضراب بينهم من قوي على صاحبه، فيطبخونها ويأكلونهـــا وكـــانوا يـــأكلون الكلاب والقطط، وسائر ما يجدونه، حتى بعضهم البعض"[4].

وما سبق يؤدي بلا شك إلى تفشي العديد من الأمراض والأوبئة الفتاكة. وفي ســـنة (709 هـــ/ 1309م) انخفض مستوى ماء نهر النيل، فحدث جفاف في مصر[5]، وفي سنة (736 هـــــ/ 1335م) حدثت مجاعة في مصر[6]. وفي سنة(775 هــ/ 1373م) انخفض مستوى مـــاء نهـــر النيل، فحدث جفاف في مصر[7]. ولما استهلت سنة (776 هــ/ 1374م) وقعت المجاعة " وكثُـــر موت الفقراء والمساكين بالجوع "[8]. وتكرر انخفاض مستوى مياه نهر النيل ســـنة (787 هـــــ/ 1385م)[9].

---

(1) بيبرس المنصوري، مختار، ص 102. ابن أيبك الدواداري، كنز،ج 8 ، ص 364 .ابن الجـــزري، تـــاريخ، ج 1،ص 282 . الذهبي، دول ،ج 2،ص 222 .ابن الفرات، تاريخ، ، م 8، ص 196-211. ابن دقماق،النفحة، ص 97 . المقريزي، السلوك،ج 2،ص 267.

(2) بيبرس المنصوري، مختار،ص 102 . ابن أيبك الدواداري، كنز،ج 8،ص 364 . ابن الجزري، تاريخ،ج 1،ص 284 .ابن صصري، الدرة، ص 169 . ابن الفرات، تاريخ، ، م 8،ص 209 . المقريزي، السلوك،ج 2،ص 267.

(3) ابن كثير، البداية ،ج13، ص405.

(4) كنز،ج 8، ص 364.

(5) اليوسفي، نزهة ، ص 294.

(6) ابن أيبك الدواداري، كنز،ج 9 ، ص 163 . المقريزي، السلوك،ج 2، ص 865 .ابن دقماق، النفحة ، ص301 . ابن الجزري، تاريخ،ج 3،ص 864.

(7) ابن قاضي شهبة، تاريخ،ج 2،ص 431 . ابن العراقـــي، الـــذيل،ج 2،ص 368 . المقريـــزي، الـــسلوك،ج 4، ص362.

(8) المقريزي، السلوك،ج 4،ص 374.

(9) ابن صصري، الدرة ، ص 169 . المقريزي، السلوك، ج 5، ص 179 . ابن شاهين، نيل ، ج 2، ص232.

وفي أواخر سنة (796 هـ/ 1394م)[1] تبعه غلاء شديد في الأسعار ومجاعة سنة (797 هـ/1394م) استمرت إلى سنة (798 هـ/1396م)[2].

وفي سنة(806 هـ/1403م) انخفض مستوى ماء نهر النيل، فحدثت مجاعة استمرت لسنة (807 هـ/1404م- 1405م)[3]، فكان يموت في كل يوم بالجوع والبرد عدد كثير"[4]، وتكرر الأمر نفسه في سنة (818 هـ/1415م)[5]، و سنة (821 هـ/1418م)[6]، و سنة (822 هـ/1419م) إضافة إلى انحباس الأمطار، مما أدى إلى حدوث مجاعة، اضطر الناس معها إلى أكل القطط والكلاب من شدة الجوع[7]، كما حدث نفس الشيء سنة (831 هـ/1427م)[8]، وسنة (854 هـ/1450م)[9]، وسنة(873 هـ/1468م)[10]، وسنة(889 هـ/1483م)[11]، وفي سنة (891 هـ/1485م)[12] وسنة (916 هـ/1510م)[13]

وكما أن نقص مياه الأمطار أو النيل يسبب المجاعات فإن شدة الأمطار وفيضان النيل وزيادة ماؤه زيادة مفرطة وهو ما يعرف الاستبحار، يؤدي إلى غرق الأراضي وإعاقة زراعتها[14] وهو ما يترتب عليه معاناة الناس من المجاعة لعد الأقوات بالإضافة إلى انتشار الوباء الذي يعقب انصراف الماء وانحساره عن الأراضي[15].

---

(1) المقريزي، إغاثة ، ص 36 . ابن الصيرفي، نزهة،ج 1، ص 391- 387.

(2) المقريزي، السلوك، ج 5، ص 366

(3) المصدر نفسه ،ج 6، ص 9.

(4) المصدر نفسه ، ج 6، ص 103.

(5) المقريزي،السلوك ، ج 6، ص 357-297،395. السخاوي، الذيل، ج 1، ص 494 . ابن شاهين، نيل ، ج 3، ص 293 .الصيرفي، نزهة، ج 2، ص 356.

(6) ابن حجر، إنباء ، ج 7، ص 324، 360.

(7) المقريزي، السلوك، ج 6، ص 505. ابن حجر، إنباء ،ج 8، ص 150.

(8) المقريزي، السلوك ،ج 7، ص ص 168.

(9) ابن تغري بردي، حوادث ، ص 28؛ الذيل التام، ج 1، ص 43 – 55. السخاوي، التبر، ص 310- 313.

(10) ابن شاهين، نيل ، ج 6، ص 346.

(11) ابن إياس، بدائع، ج 3 ،ص 209.

(12) المصدر نفسه ، ج 3ص 224

(13) المصدر نفسه ،ج 4 ص 202 ،ص 217.

(14) المقريزي، خطط ،ج3، ص293. البيلي، الأزمات، ص20.

(15) المسعودي، مروج، ج1، ص342. ابن ظهيرة، الفضائل، ص160.

وقد تعرضت بلاد الشام خلال مدة الدراسة لعدد كبير من السيول والفيضانات. ففي (سنة 716 هـ/ 1316م) هطلت الأمطار بغزارة على بلاد الشام، وحدث جراء ذلك سيول، وخاصة في حلب وحماة وحمص، وكان أشده السيل الذي حدث في مدينة حمص، والذي ألحق أضراراً متنوعة فيها، فقد أهلك قرية كاملة فيها، وقتل جميع سكانها إلا خمسة أفراد نجوا بأعجوبة[1]. وفي سنة (717 هـ/1317م)، شهدت بلاد الشام حدوث سيول عدة، كان أشدها في مدينة بعلبك بحيث " أهلك خلقاً كثيراً من الناس"[2] وقد بلغ عدد القتلى الذين تم إحصاؤهم رسمياً في هذا السيل 147 شخصاً[3]، وقدر بعض المؤرخين عدد القتلى بألف وخمسمائة قتيل[4].

وفي سنة (726هـ/1325م) مثلا حدث " سيل عظيم في الفرات أعقبه مطر وأنه حدث وخم وفناء عم الناس من الفرات إلى دمشق فلم تبق مدينة فيما بين ذالك حتى كثر بها المرض والموت وباع بعض عطاري دمشق في كل يوم أدوية للمرضى بنحو الألف درهم وأبيع قدر فيه حسو شعير بزيادة على ثلاثين درهما وأخذ حجام في أجرة فصد وشراطة أذان في كل يوم أربعمائة درهم فإنه كان فصلا زموما وكان الموت فيه بالنسبة إلى المرض قليل "[5].

وفي عام (841 هـ/1427م) هطلت الأمطار بغزارة على المناطق المجاورة لمدينة حماة، فحدث سيل عظيم ، أدى إلى مقتل حوالي مائة شخص[6].

كما تعرضت مصر خلال مدة الدراسة لعدد كبير من السيول والفيضانات التي أثرت بطبيعة الحال على الحالة الصحية فيها.

---

[1] أبو الفداء، المختصر، ج 2،ص 423. النويري، نهاية، ج 32، ص 178. المقريزي، السلوك، ج 2، ص 515.

[2] ابن كثير،البداية ، ج 14 ، ص 93.

[3] النويري، نهاية ، ج 32 ، ص 190 .أنظر: ابن حبيب، تذكرة، ج 1، ص 80 ؛ الذهبي، العبر،ج 4، ص 46 .ابن كثير، البداية ، ج 14 ، ص 93 . اليافعي، مرآة ،ج 2،ص 239 . ابن العماد ، شذرات، ج 6، ص 43.

[4] النويري، نهاية ، ج 32 ، ص 190 . المقريزي، السلوك، ج 2، ص523.

[5] المقريزي،السلوك ، ج3، ص90.

[6] العيني، عقد ، ج3، ص 496.

ففي سنة (717 هـ/ 1317م) فاض نهر النيل[1]، كما فاض سنة (723 هـ/ 1323م)[2]، و في سنة (724 هـ/ 1324م)[3]، وفي سنة (744 هـ/ 1343م)[4]، وفي سنة (749 هـ/ 1348م)[5]، وفي سنة (755 هـ/1354م)[6]، وسنة (773 هـ/ 1371م)[7]، وسنة (778 هـ/ 1376م)[8]، و سنة (781 هـ/ 1379م)[9]، و سنة (783 هـ/ 1381م)[10]، وفي سنة (785 هـ/ 1383م)[11]، وفي سنة (825 هـ/ 1422م)[12]، وفي شهر سنة (835 هـ/ 1432م)[13].

وفي جميع الحالات السابقة أدى الفيضان إلى هلاك بعض الأشخاص، وأغرق أماكن عدة، وألحق أضراراً متفاوتة في المنشآت والممتلكات.

وإلى جانب فيضان النيل شكلت الأمطار الغزيرة معضلة بيئية وصحية على السكان، كالأمطار الغزيرة التي هطلت على مدينة القاهرة في سنة (725 هـ/ 1325م) ، وأدت إلى حدوث سيل عظيم صب معظمه في نهر النيل، وأدى ذلك إلى تلوثه[14]، وتكرر الأمر نفسه في سنة (745 هـ/1344م)[15]، و سنة (746 هـ/22 1346م)[16]، وسنة (756 هـ/ 1355م)[17]،

---

[1] النويري، نهاية، ج 32 ، ص 194 . ابن كثير، البداية ، ج 14 ، ص 93. المقريزي، السلوك، ج 2، ص524.

[2] المقريزي، السلوك ،ج 3 ،ص 67.

[3] ابن كثير، البداية ، ج 14 ، ص 129 . المقريزي، السلوك، ج 3 ، ص 75 .

[4] المقريزي، السلوك ،ج 3، ص400-401.

[5] المقريزي،السلوك ،ج 4، ص 75-78. ابن شاهين، نيل ، ج 1، ص 169.

[6] المصدر نفسه ،ج 4، ص 214- 215. المصدر نفسه ، ج 1، ص 276 - 277

[7] المقريزي،السلوك ،ج 4،ص 345.

[8] المقريزي،السلوك ،ج 5 ص 3. السخاوي، الذيل ، ج 1، ص 288. ابن شاهين، نيل ، ج 2، ص110.

[9] المقريزي، السلوك ،ج 5 ، ص 68 . ابن شاهين، نيل ، ج 2، ص 156.

[10] المقريزي،السلوك، ج 5، ص127. ابن حجر، إنباء، ج2، ص57. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص317.

[11] المقريزي،السلوك ،ج 5، ص 154.

[12] المصدر نفسه ،ج 7، ص 64-64. ابن الصيرفي، نزهة ، ج 3، ص9.

[13] المقريزي،السلوك،ج 7، ص 238. ابن الصيرفي، نزهة، ج 3، ص 241. ابن شاهين، نيل ، ج 4، ص 315.

[14] المقريزي، السلوك ،ج 3 ،ص 82 . السيوطي، حسن المحاضرة، ج 1، ص 316.

[15] المقريزي،السلوك،ج 3، ص 421. السخاوي، الذيل، ج 1، ص 69. ابن شاهين، نيل، ج1 ص 103- 105.

[16] المصدر نفسه ،ج 4، ص 18 . المصدر نفسه ، ج 1، ص 78 . المصدر نفسه ، ج 1، ص121.

[17] المقريزي، السلوك ،ج 4، ص 222 . ابن قاضي شهبة، تاريخ،ج 2، ص 78 . ابن شاهين، نيل ، ج 1، ص 285.

وسنة (779 هـ/1377م)[1]، وفي سنة (783 هـ/ 1381م)[2]، وفي سنة (818 هـ/ 1415م)[3]، وفي سنة (827 هـ/ 1423م)[4].

والحقيقة أن الأمثلة على حوادث الفيضان، والأمطار الغزيرة كثيرة، وقد تناولها باستفاضة جل المؤرخين القدامى، وعدد من الباحثين المحدثين[5].

ونظرا لما سبق سواء من حيث نقص أو فيضان النيل نجد أن نهر النيل قد حظي باهتمام الحكام المماليك[6] فأقاموا المقاييس[7]، والقناطر التي كان عددها في زمن المقريزي (ت845ه/1441م) أربع عشرة قنطرة[8]، والبرك[9] على شواطئه حيث كان حد وفاء النيل متغيراً ولم يكن ثابتاً عبر العصور المختلفة، فكان يتغير بتقادم الزمن بسبب ترسب الطمى أو إهمال حفر الترع وتعميقها[10]، وذلك حتى يتمكنوا من القضاء على الآثار الوخيمة لنقصان مياه النيل أو زيادتها زيادة مفرطة أو على الأقل التخفيف من وقعها، إلا أن الحذر لا يمنع من نزول القدر.

كما بنوا الجسور ومن أمثلتها الجسر من بولاق إلى منية الشيرج، ويذكر المقريزي أن " السبب في عمل هذا الجسر أن ماء النيل قويت زيادته في سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، حتى أخ

---

(1) المقريزي، السلوك ،ج 5 ص 32 . ابن شاهين، نيل ،ج 2، ص 127.

(2) المقريزي، السلوك ، ج 5، ص 127 . ابن حجر، إنباء ، ج 2، ص 57 . السيوطي، حسن المحاضرة، ج 1، ص 317.

(3) المقريزي، السلوك ، ج 6، ص 383. ابن حجر، إنباء ، ج 2، ص 57.

(4) المقريزي، السلوك ، ج 7،ص 92.

(5) انظر على سبيل المثال لا الحصر دراسة: أبو زيتون، المجاعات ،(رسالة ماجستير). وانظر: صلاح ، الكوارث، (رسالة ماجستير) .

(6) المقريزي، خطط ،ج3، ص 293.

(7) المقاييس: مفردها مقياس وهو عبارة عن عمود من الرخام قائم على شاطئ النيل بمصر له طريق إلى النيل يدخل الماء إليه إذا زاد وفي ذلك العمود خطوط معروفة عندهم عن طريقها يعرفون مقدار زيادة النيل كل عام. انظر: ياقوت، معجم، ج5، ص206. المقريزي، خطط، ج1، ص59. والمقاييس على النيل سابقة على الفتح العربي فقد عرفها قدماء المصريين منذ أقدم العصور حتى أن بعض المصادر العربية ترجع أول مقياس إلى يوسف عليه السلام وتذكر موقعة بمدينة منف، كذلك بني الرومان مقياساً عند حصن نابليون بقيسارية الاكسية، وقد ظل العرب يستعملون هذه المقاييس حتى أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. انظر: المناوي، نهر النيل، ص147.

(8) المقريزي، خطط ،ج3،ص 259– 269.

(9) المصدر نفسه ،ج3، ص269– 292.

(10) الصاوي، مجاعات، ص18. البيلي، الأزمات، ص12–16.

رق من ناحية بستان الخشاب، ودخل الماء إلى جهة بولاق، وفاض إلى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر وبساتين الخور، فهدمت عدّة دور كانت مطلة على البحر، وكثير من بيوت الحكورة "[1].

3- الزلازل[2]:

تعتبر الـــزلازل من الكوارث الطبيعية التي يترتب عليها هلاك ودمار، وخسائر في الأموال والأنفس والثمرات، وتكون سبباً في انتشار الأمراض والأوبئة وذلك عن طريق الأعداد الهائلة من الموتى المتخلفين عن الدمار الهائل الذي تحدثه هذه الزلازل، وقد نتج عن هذه الزلازل إبادة قـــرى أو مدن بأكملهاـــ ذهب ضحيتها آلاف البشر، مما أدى إلى تغيرات جوهرية في تركيب السكان[3].

وكان يصاحب الزلازل ظهور الأوبئة، وخاصة الطاعون، بسبب تعفن جثث الموتى تحـــت الهدم والتي كان يصعب استخراجها ودفنها وذلك لبدائية الأساليب المتبعة في ذلك، مما يؤثر علـــى الحالة الصحية للسكان[4].

وقد شهدت مصر والشام خلال العصر المملوكي العديد من هذه الزلازل، ومنها:

تاريخ الزلزلة	درجتها	المدن والقرى التي ضربتها	الآثار المادية للزلزلة	الآثار النفسية للزلزلة
1261/660م[5]	زلزلة شديدة	الشام الكرك، صفد الشويك	تساقط الجبال تقطع الصخور إغراق قماش القصابين اضرار في القوارب والسفن ومنارات الجوامع	هروب الناس إلى الصحراء
692هـــ/1292م[6]	زلزلة خفيفة	الرملة اللد غزة الكرك	انهدام ثلاث ابراج من قلعة الكرك	-
692هـــ/1292[7]	-	الشام	انهدام اسوار قلعة حماة	-
702هـــ/1302م[8]	عظيمة	صفد عكا دمشق	تشقق جدار جامع بني أمية	-
717هـــ/1317م	-	بعلبك	تهدم البيوت والحوانيت	-
722هـــ/1322م	زلزلة	طرابلس الشام	غرق المراكب وتهدم الجوامع	موت اناس

(1) المقريزي، خطط ،ج3، ص293.

(2) عن أسباب حدوث الزلازل وتفسير نشأتها. انظر: السيوطي، كشف الزلزلة.

(3) أبو زيتون، المجاعات، ص44.

(4) غوانمة، الزلازل، ص63.

(5) القلقشندي، مآثر، ج2، ص114.

(6) السيوطي، كشف، ص50.

(7) ابن الوردي، تتمة، ج2، ص360.

(8) العجلوني، تحريك، ج6، ص124.

	عظيمة			كثيرون
739هـ/1338م	–	طرابلس الشام	–	–
741هـ/1340م	عظيمة	حلب دمشق	تهدم أماكن كثيرة في حلب سقوط بعض أبراج القلعة.	هلاك معظم سكان منبج
768هـ/1366م[1]	هائلة	صفد	–	–
806هـ/1403م[2]	عظيمة	حلب اللاذقية بلاطنس جبلة	أخربت الدور والأبراج أخربت الجهة الغربية من حلب	–
811هـ/1408م[3]	عظيمة	حلب طرابلس اللاذقية بلاطنس	سقوط قلعة بلاطنس وخراب المدن	–
863هـ/1458م[4]	مهولة	الكرك القدس الجليل	خربت فيها الدور وقلعة الكرك وأبراجها واسوارها وقعت فيها عدة دور	مات فيها مئة انسان
889هـ/1484م[5]	شديدة	حلب	–	–
672هـ/1373م[6]	–	مصر	خراب أسوار الاسكندرية انفصال بعض أعمدة جامع عمر بن العاص عن بعضها البعض تساقط الدور	موت أناس كثيرون في مصر
701هـ/1301م[7]	–	مصر الاسكندرية	–	موت كثير من الناس
702هـ/1302م[8]	عظيمة	مصر القاهرة ثغر الاسكندرية	انهدام الاسوار والأبراج بعض أجزاء منارة الاسكندرية خراب الجوامع مثل جامع الحاكمي تهدم المدارس خراب جامع عمر بن العاص خراب الجامع الأزهر	هلك تحت الردم أناس كثيرون

---

(1) ابن الوردي، تتمة، ج2، ص273.

(2) ابن حجر، أنباء، ج5، ص27.

(3) ابن العماد، شذرات، ج7، ص89.

(4) ابن تغري بردي، النجوم، ج16، ص102، السيوطي، كشف، ص209.

(5) السيوطي، كشف، ص210.

(6) ابن الوردي، تتمة، ج2، ص360.

(7) النويري، الإلمام، ج6، ص124.

(8) السيوطي، كشف، ص204.

4- انتشار الحشرات والآفات الزراعية:

لا شك أن طبيعة المناخ في مصر وكونها بلد حار جعلها من أكثر المناطق عرضة للجراثيم وتوالد الحشرات التي تنقل عدوى الأمراض[1].

وكان وجود أماكن كثيرة بالشام تغطيها البرك والمستنقعات أحد أساليب توالد البعوض المسبب لمرض الملاريا[2]. ومن أمثلة الحشرات الذباب الذي انتشر بكثرة في بلاد الشام، وذلك نتيجة لعدم اهتمامهم بالنظافة ولعب دوراً كبيراً في نقل الأمراض لا سيما مرض حمى التيفود[3]

أما الآفات الزراعية مثل الجراد والفئران فهي تأثر على المحاصيل والغلال وتترك الأرض خراباً لذلك فهي تسبب المجاعات ومن ثم تسبب الأمراض، ويعتبر الجراد من أشد الآفات الزراعية خطورة على الأراضي الزراعية والمحاصيل حيث عانى المزراعون في مصر والشام من الجراد وأهواله، وقد تعرضت مصر وبلاد الشام خلال العصر المملوكي لموجات من الجراد في بعض السنوات أتت على الأخضر واليابس، وفي سنة (701 هـ/ 1302م) هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام، وكانت مدينة دمشق أشدها تضرراً[4]، فقد " ترك غالب الغوطة عصياً مجردة، وييست أشجار لا تحصى"[5]، وعادت أسراب الجراد في السنة التالية (702 هـ/1303 م) لمهاجمة جبل لبنان ،"وكان قليل الأذى إلا أن فرخه ارتعى الكرم"[6]، وفي سنة (703 هـ/1304م) عادت أسراب الجراد لمهاجمة المناطق الساحلية في بلاد الشام[7]، وفي سنة (748هـ/ 1347م) هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام، وبخاصة المنطقة الممتدة بين منبج والباب[8]، وانتشر أيضاً في المنطقة الممتدة من بعلبك إلى البلقاء[9]، وهاجمت قطعان الفئران حوران والجولان[10] فأكلت زروعها وخاصة محصول القمح[11]. وفي سنة (770 هـ/ 1369م) تكرر هجوم الجراد على بلاد الشام[1]،

---

[1] صادر، الأمراض، ص400.

[2] الملاريا:وهي وباء ينتشر عن طريق لدغ البعوض وتعرف بحمى المستنقعات. انظر: قاسم، الطب، ص292.

[3] إبراهيم، الأوبئة، ص6.

[4] ابن حبيب، تذكرة،ج 1،ص 239 . ابن كثير،البداية،ج 14 ،ص 22 . المقريزي،السلوك،ج 2،ص 348.

[5] الذهبي، دول ،ج 2،ص .233

[6] الدويهي،الأزمنة، ص 162.

[7] المقريزي،السلوك، ج 2،ص 370.

[8] الباب: بليدة من طرف وادي بطنان من أعمال حلب بينها وبين منبج نحو ميلين إلى حلب عشرة أميال. ياقوت ، معجم ، ج 1، ص 360.

[9] ابن الوردي، تاريخ ،ج 2،ص 334 .ابن شاهين، نيل ،ج 1،ص 144

[10] الجولاَنُ: قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران. ياقوت ، معجم ، ج 2، ص219.

[11] ابن قاضي شهبة،التاريخ، ج 1 ،ص 502.

الشام[1]، وأنتنت لكثرة ما قتل منه البلد، حتى صار أهل البلد يشمون القطران[2] ليغطي رائحته"[3].

وفي سنة (884هـ 1479م) " أفقس الجراد وسرح في الأرض إلى أن طم البلاد "، و" رعى ورق الشجر وأفسد المياه من كثرته وسد الأزقة والطرقات "[4].

هذا في بلاد الشام أما مصر فلم تكن بأحسن حال فقد تعرضت مصر خلال مرحلة الدراسة لأخطار الآفات الزراعية المختلفة، من إغارات أسراب الجراد، وهجوم قطعان الفئران والدود. ففي سنة (696هـ/1296 م) هاجمت قطعان الفئران المزروعات، وأتلفت شيئاً كثيراً منها[5]، وتكرر الأمر نفسه في سنة (698 هـ/1298م)[6] و سنة (705 هـ/1305م)[7]، وفي سنة (715 هـ/1315م)[8]، و سنة (738 هـ/ 1337م)[9]، و سنة (818هـ/1415 م)[10]، ولم تكن أسراب الجراد أو الفئران وحدها من كان يسبب الأمراض والأضرار نتيجة المجاعات فقد كان للدود دور ملحوظ في إلحاق الضرر بالمزروعات مما كان ينتج عنه المجاعات ثم انتشار الأمراض، فقد هاجم الدود المحاصيل الزراعية في سنة (728هـ/1327م) ، وأتلف محاصيل كثيرة[11]، وكذلك الأمر في سنوات (821 هـ/ 1418م)[12]، و(825 هـ/1422م)[13].

وما سبق إنما هو غيض من فيض مما تعرضت له مصر والشام من هجوم للجراد والفئران و غيرها[14]، وكلها كانت من أهم المسببات للأمراض إما بشكل مباشر أو غير مباشر.

---

[1] ابن كثير، البداية ،ج 14 ، ص 356 .المقريزي،السلوك ،ج 4، ص 280 .ابن شاهين، نيل، ج 1، ص 371.

[2] القطران: عصارة شجر الأرز والأبهل تطبخ ثم تطلى بها الإبل وفي التنزيل العزيز سرابيلهم من قطران، لأنه شديد الاشتعال، ومادة سوداء سائلة لزجة تستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس والحديد من الصدأ. مجمع، المعجم ، ج 2 ،ص 405.

[3] القلقشندى، صبح ،ج 1، ص .524

[4] ابن الحمصي،حوادث،ج 1،ص 229.

[5] ابن الفرات، تاريخ، ج 8، ص 231. المقريزي،السلوك،ج 2،ص 280.

[6] المقريزي،السلوك،ج 2،ص 315.

[7] العيني،عقد ، ج 1، ص 323.

[8] المصدر نفسه ،ج 2 ،ص 510.

[9] المصدر نفسه ،ج 3 ، ص 247.

[10] المصدر نفسه ،ج 6،ص 395.

[11] المصدر نفسه ،ج 3 ، ص 111.

[12] المقريزي،السلوك ،ج 6، ص 479 . ابن حجر، إنباء ،ج 7، ص 324.

[13] ابن حجر، إنباء ،ج 7 ،ص 465.

[14] للمزيد انظر: صلاح، الكوارث، ص194–215.

ثالثا: أسباب الإصابة بالأمراض الوافدة (مرض الطاعون)[1]:

أما عن أسباب الأمراض الوافدة فيذكر المقريزي أن حدوث " الأمراض الوافدة تكون عن أسباب كثيرة يجتمع في أجناس أربعة وهي تغير كيفية الهواء، وتغير كيفية الماء، وتغير كيفية الأغذية، وتغير كيفية الأحداث النفسانية. فالهواء تغير كيفيته على ضربين: أحدهما تغيره الذي جرت به العادة، وهذا لا يحدث مرضا وافدا، وليس تغيرا ممرضا. والثاني: التغير الخارج عن مجرى العادة وهذا هو الذي يحدث المرض الوافد.وكذلك الحال في الأجناس الباقية وخروج تغير الهواء عن عادته يكون: إما بأن يسخن أكثر، أو يبرد أو يرطب، أو يجفف أو يخالطه حال عفنة، والحالة العفنة إما أن تكون قريبة أو بعيدة، فالأمراض الوافدة بمصر تحدث إما عن فساد لم تجر به العادة يعرض للهواء سواء كان مادّة فساده من أرض مصر، أو من البلاد التي تجاورها كالسودان والحجاز والشام وبرقة، أو يعرض للنيل بأن تفرط زيادته، فتكثر زيادة الرطوبة والعفن، أو تقل زيادته جدّا فيجف الهواء عن مقدار العادة، ويضطرّ الناس إلى شرب مياه رديئة أو يخالطه عفونة تحدث عن جرب يكون بأرض مصر أو ببلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير، ويرتفع بخار جيفهم في الهواء فيعفنه، ويتصل عفنه إليهم، أو يسيل الماء، ويحمل معه العفن، أو يغلو السعر أو يلحق الغلات آفة، أو يدخل على الكباش ونحوها مضرة أو يحلق الناس خوف عام أو قنوط. وكل واحد من هذه الأسباب يحدث في أرض مصر مرضا وافدا يكون قوّته بمقدار قوّة السبب المحدث له وإن كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشدّ وأقوى وأسرع في القتل، وقد يتغير أيضا مزاج الهواء عن العادة بأن يصل وفد كثير قد أنهك أبدانهم طول السفر، وساءت أخلاطهم فيخالط الهواء منها شيء كثير، ويقع الأعداء في الناس، ويظهر المرض الوافد. والماء

---

[1] الطاعون: نوع من الوباء وهو عند أهل الطب ورم رديء قتال، يخرج معه تلهب شديد مؤلم جداً يتجاوز المقدار في ذلك، ويصير ما حوله في الأكثر أسود أو أخضر أو أكمد ويؤول أمره إلى التقرح سريعاً وفي الأكثر يحدث في ثلاثة مواضع في الإبط، وخلف الأذن، والأرنبة، وفي اللحوم الرخوة. انظر: ابن قيم الجوزية، الطب ، ص28. يعتبر الطاعون من أشد الأوبئة التي فتكت بالإنسان منذ القرن السادس ميلادي، وربما قبل هذا التاريخ، ولا يزال حتى اليوم متخفياً في بؤر محدودة في أنحاء متفرقة من العالم، وهو من الأمراض المعدية التي تسببها بكتريا "اليرسينيا الطاعونية" YERISINIA PESTIS، وهو حيواني المنشأ ZOONOSES ينتقل إلى الإنسان عن طريق الحيوانات التي تعتبر مصدراً للعدوى وهناك أكثر من 200 نوع من هذه الحيوانات أهمها الجرذان والكلاب، ويطلق على دورة الوباء التي تدور بين الحيوانات الدورة البرية للطاعون SYLVATIC PLAGE، وفيها ينتقل الميكروب من حيوان إلى آخر بواسطة أنواع متعددة من البراغيث، ومن ثم ينتقل إلى الإنسان عبر برغوث الفأر، ويأخذ مرض الطاعون عدة أشكال فهناك الطاعون الدبلي وهو الأكثر شيوعاً والطاعون التسممي حين يغزو الميكروب الدم ونسبة الوفاة فيه بدون علاج مئة بالمئة، والطاعون الرئوي الذي ينتقل من انسان إلى آخر عبر الهواء حيث يصبح التحكم بانتشار الوباء بالغ الصعوبة. انظر: مجمع ، المعجم ، مادة طعن، ص391. عطية، أمراض، ص181-184.

ضا قد يحدث المرض الوافد إما بأن يفرط مقداره في الزيادة أو النقصان، أو يخالطه حـــال عفنـــة ويضطرّ الناس إلى شربه، ويعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم، وهذه الحال تخالطه إما قريبا أو بعيدا بمنزلة ما يمرّ في جريانه بموضع خرب قد اجتمع فيه من جيف الموتى شيء كثير، أو بمياه تقاطع عفنة فيحذرها معه ويخالط جسمه، والأغذية تحدث المرض الوافد. إما إذا لحقهـــا اليرقـــان، وارتفعت أسعارها، واضطرّ الناس إلى أكلها، وإما إذا أكثر الناس منها في وقت واحد، كالذي يكون في الأعياد فيكثر فيهم التخم، ويمرضون مرضا متشابها. وإما من قبيل فساد مرعى الحيوان الـــذي يؤكل، أو فساد الماء الذي يشرب، والأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث في النـــاس خوف عام من بعض الملوك فيطول سفرهم وتفكرهم في الخلاص منه، وفي وقوع البلاء، فيـــسوء هضمهم وتتغير حرارتهم الغريزية. وربما اضطروا إلى حركة عنيفة في هذه الحال، أو يتوقعـــوا قحط بعض السنين فيكثرون الحركة والاجتهاد في ادّخار الأشياء، ويشتد غمهم بما سيحدث. فجميع هذه الأشياء تحدث في أبدان الناس المرض الوافد متى كان المتعرض لها خلق كثير في بلد واحـــد ووقت واحد. وظاهر أنه إذا كثر في وقت واحد المرضى بمدينة واحدة؛ ارتفع من أبـــدانهم بخـــار كثير فيتغير مزاج الهواء فإذا صادف بدنا مستعدّا أمرضه"[1].

وقال الأطباء "إذا وقع الخراج في اللحوم الرخوة والمغابن وخلف الأذن والأرنبة وكان من جنس فاسد سمى طاعوناً، وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد، مستحيل إلى جـــوهر ســـمي يفسد العضو ويغير ما يليه، وربما رشح دماً وصديداً، ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة فيحدث القيء والخفقان والغشى، وهذا الاسم وان كان يعم كل ورم يؤدي إلى القلب كيفية رديئة، حتـــى يـــصير لذلك قتالاً فإنه يختص به الحادث في اللحم الغددي، لأنه لردائته لا يقبله من الأعضاء إلا ما كـــان أضعف بالطبع، وأردؤه ما حدث في الإبط وخلف الأذن لقربهما من الأعضاء التي هي أرأس منه، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر الذي إلى السواد فلا يفلت منه أحد"[2].

أما عن أسباب الإصابة بمرض الطاعون فقيل إنه بقية رجز أرسل على بني إسرائيل كمـــا في الحديث[3] وورد فيه أنه وخز الجن، وجاء أنه دعوة نبي، وهذه العلل والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها كما ليس عندهم ما يدل عليها والرسل تخبر بالأمور الغائبة[4]، إلا أن الأطباء ذكروا جملة من الأسباب يكمن ورائها ظهور مرض الطاعون وهي:

---

[1] خطط ،ج1، ص88، 89.

[2] ابن قيم الجوزية، زاد ، ج3، ص99؛ الطب ، ص28. الحموي، البيان، ورقة 279. زادة، رسالة، ص59،58.

[3] عن عائشة أنها سألت الرسول عن الطاعون فأخبرها أنه كان عذاباً من الله يبعثه الله على من يشاء. انظر: ابـــن حجر، فتح، ج11، ص348.

[4] ابن قيم الجوزية، زاد ، ج3، ص100؛ الطب ، ص29.

1- **فساد الهواء:** جزء من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون فإن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة لغلبة أحدى الكيفيات الرديئة عليه كالعفونة والنتن والسمية[1]، كما أن تغير كيفية الهواء الذي يتنفسه الناس بأن يكون أسخن أو أبرد، أو أجف من المعتاد، أو يلوث نتيجة لتعفن جثث الموتى الذين لم يدفنوا، إضافة إلى أن قدوم أشخاص مرضى على بلد غير موبوء يؤدي إلى ظهور الوباء به[2].

2- **تغيير كيفية الماء:** وهذه نتيجة طبيعية لتغيير كيفية الهواء وركوده ويتمثل ذلك في نقص مياه الأنهار أو الأمطار، أو زيادتهما زيادة مفرطة، وهذا يؤدي بلا شك إلى حدوث المجاعات والأوبئة[3].

3- **كما أن فساد الماء:** الذي تسقى به الأرض، يؤدي إلى فساد وتلوث النبات الذي يخرج من الأرض والذي يتكون منه غذاء الانسان، وهو ما يسبب الوباء للانسان عند تناوله[4] إضافة إلى أن فساد الماء قد يترتب عليه نقص في المحصول وهو ما يؤدي إلى نقص الغذاء وبالتالي ارتفاع سعره، مما يؤدي إلى ظهور المجاعات والأوبئة في أي بلد يحدث فيها ذلك.

4- كما أن هناك سبب قوي يؤدي إلى ظهور مرض الطاعون، وهو **العامل النفسي** فالخوف الشديد من حاكم ظالم أو من أي شيء آخر يؤدي إلى اضطراب في النوم وطول فترة السهر، وبالتالي تضطرب وظائف الجسم المختلفة مما يجعله عرضة للإصابة بالأوبئة[5].

5- إضافة إلى أن **خوف الناس من القحط والغلاء في أي سنة من السنين** يجعلهم في حالة من التبرم والضيق، بحيث يحاولون بذل المزيد من الجهد لإدخار الأقوات الكافية لهذه السنة، وهو ما يؤثر على أبدانهم فيصابوا بأي وباء يفد عليهم[6].

---

[1] ابن قيم الجوزية، زاد ، ج3، ص100؛ الطب ، ص29.

[2] رضوان، دفع، ورقة 10. زادة، رسالة، ص43،42. والملاحظ أن فساد الهواء قد يكون في أي وقت من أوقات السنة إن كان أكثر حدوثه في أواخر فصل الصيف، وفي الخريف غالباً لاجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف، وعدم تحللها في آخره وفي الخريف لبرد الجو وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تحلل في فصل الصيف فتحصر فتسخن وتعفن فتحدث الأمراض العفنة، ولا سيما إذا صادفت البدن، مستعداً قابلاً رهلاً قليل الحركة كثير المواد فهذا لا يكاد يفلت من العطب. انظر: ابن قيم الجوزية، زاد، ج3، ص101،100؛ الطب ، ص30.

[3] ابن النفيس، المهذب، ص304. الذهبي، الطب ، ص131.

[4] الأزهري، رسالة مختصرة في الطاعون، ورقة 3.

[5] الحموي، البيان، ورقة 22،21. رضوان، دفع، ورقة 11.

[6] رضوان، دفع، ورقة 11.

6- كما تلعب الحيوانات والحشرات المصابة مثل الفئران والبراغيث التي تعيش ملاصقة لجسم الفئران، دوراً كبيراً في نقل عدوى الطاعون للإنسان[1] والذي يتسبب في وفاة الكثيرين في فصول معينة من السنة[2].

وهكذا نكون قد عرضنا لأهم أسباب انتشار الأمراض بمصر والشام سواء كانت أسباب بشرية أم طبيعية، وسننتقل الآن للحديث عن أشهر الأمراض التي انتشرت بمصر والشام خلال العصر المملوكي وطرق علاجها المعروفة آنذاك.

---

[1] البيلي، الأزمات، ص22. الخطيب، الوجيز، ص92، 93.

[2] إن في الخريف أشد ما تكون الأمراض وأقتل، وأما الربيع، فأصح الأوقات كلها وأقلها موتاً وقد جرت عادة الصيادلة ومجهزي الموتى، أنهم يستدينون ويتسلفون في الربيع والصيف على فصل الخريف، فهو ربيعهم وهو أشوق شيء إليه وأفرح بقدومه. انظر: ابن قيم الجوزية، زاد ، ص101؛ الطب ، ص30.

الفصل الرابع

أشهر الأمراض في مصر والشام وطرق علاجها في العصر المملوكي

أولا: الأمراض المتوطنة:

1- أمراض الحميات

2- مرض السل

3- الأمــــراض الجــلديـــــــة

4- أمراض الباطنة والجهاز الهضمي

5- أمراض العيون

6- أمراض الفم والأسنان

7- أمراض العظام

8- الأمراض النفسية

ثانيا: الأمراض الوافدة (الطواعين أو الموتان)

الأمراض هي: حالة للبدن تصيبه وتسبب أفعالها الأضرار من غير توسط وتكون خارجة عن الأمر الطبيعي[1]، وأمراض العادة أسبابها معها تمدها، فإذا كان سبب المرض معه فالنظر في السبب ينبغي أن يكون أولاً، ثم المرض ثانياً، ثم في الدواء ثالثاً[2].

والأمراض التي تخرج العضو عن هيئته إما في شكل أو تجويف، أو مجرى أو خشونة أو ملامسة أو عدد أو وضع أو عظم، فإن الأعضاء إذا تآلفت سمى تآلفها اتصالاً والخروج عن الاعتدال فيه يسمى تفرق الاتصال[3].

وقد تكون الأمراض آلية وهي التي تخرج العضو عن هيئته، أو تكون متشابهة وهي التي يخرج بها المزاج عن الاعتدال، وهذا الخروج يمسى مرضاً بعد أن يضر بالفعل أضراراً محسوساً[4].

والأمراض توجد في كل زمان ومكان، ولكن لكل مكان أمراض معينة يشتهر بها وهي الأماكن التي تتوفر فيها البيئة المعينة التي يقتضيها كل نوع من هذه الأمراض وهي ما يطلق عليها اسم الأمراض المتوطنة[5].

وثمة نوع آخر من الأمراض يسمى الأمراض الوافدة وهي التي تنتقل من مكان لآخر عن طريق الأشخاص أو غيرهم، وسنعرض خلال هذه الصفحات أمراض مصر والشام خلال العصر المملوكي سواء كانت أمراض متوطنة أو أمراض وافدة، وسنبدأ بالأمراض المتوطنة على أساس أنها الأكثر انتشاراً.

أولا: الأمراض المتوطنة:

وهي التي ترتبط بمكان أو بلد معين دون غيره لمسببات معينة وعوامل تتعلق بمناخ هذا البلد أو التغيرات التي تطرأ فيه خلال فصول السنة، ومياه الشرب والحالة التي عليها هذه المياه من كونها جارية أو راكدة، مياه أمطار أو مياه آبار، أم مياه أنهار أم مياه برك تجمعت فيها مياه الأمطار[6]. كما أن التربة تلعب دوراً مهماً في هذا المجال، فهناك تربة يابسة جافة وهناك تربة

---

(1) بختيشوع، الروضة، ص7.

(2) ابن قيم الجوزية، الطب، ص7.

(3) المصدر نفسه ، نفس الصفحة.

(4) المصدر نفسه ، ص8،7.

(5) ابن منصور، رسالة فيما يحتاج إليه الطبيب، ورقة 2.

(6) المصدر نفسه ، نفس الورقة.

رطبة عفنة كما أن السلوكيات الغذائية لأهالي المكان من مطعم ومشرب وأسلوب طريقة تناول الطعام والشراب لها دور مهم أيضاً[1].

إضافة إلى أن العادات والتقاليد في العمل ما بين الميل إلى النشاط والحركة، أو الخمول والدعة لها تأثير كبير في إصابة الإنسان بالأمراض[2].

ولا شك إن إلمام الطبيب بكل هذه العوامل السابقة، يمكنه إذا كان مقيماً بتلك المنطقة أو غريباً عنها، أن يتصدى بنجاح لعلاج تلك الأمراض، وإرشاد الناس للوقاية وحفظ الصحة[3]

ومن أهم هذه الأمراض التي ظهرت في مصر والشام من الأمراض المتوطنة:

1- أمراض الحميات[4]:

وهي التي غالباً ما تصيب الأشخاص في فصل الصيف، ويرجع سبب الإصابة بها في فساد الهواء الذي يستنشقه الشخص المريض، أو تعرضه إلى الحرارة الشديدة، أو الغضب والانفعال أو المعاناة من السهر، أو الامتلاء والتخم[5].

وهي تنقسم إلى قسمين: **عرضية:** وهي الحادثة أما عن الورم أو الحركة أو إصابة حرارة الشمس أو القيظ الشديد ونحو ذلك[6].

ومرضية: وهي ثلاثة أنواع وهي لا تكون إلا في مادة أولى، ثم يسخن منها جميع البدن، فإن كان **مبدأ تعلقها بالروح** سميت حمى يوم، لأنها في الغالب تزول في يوم ونهايتها ثلاثة أيام، وإن كان **مبدأ تعلقها بالأخلاط** سميت عفنية، وهي أربعة أصناف صفراوية، وسوداوية، وبلغمية، ودموية، وان كان **مبدأ تعلقها بالأعضاء** الصلبة الأصلية سميت حمى دق، وتحت هذه الأنواع أصناف كثيرة[7].

وهذه التقسيمات لأنواع الحمى وضعها أطباء المسلمين حسب العلامات والأعراض[8].

التي يمكن من خلالها معرفة الشخص المصاب بالحمى كالآتي:

---

[1] ابن منصور، رسالة فيما يحتاج إليه الطبيب ، ورقة 2.

[2] المصدر نفسه، نفس الورقة. أبقراط، كتاب الأهوية والمياه، ص17،18.

[3] أبقراط، كتاب الأهوية والمياه، ص17،18.

[4] الحميات: جمع حمى وهي حرارة غريبة تشتعل في القلب وتنتقل منه عبر مجرى الدم في الشرايين والعروق إلى جميع أجزاء البدن فتشتعل فيه اشتعالاً يضر بالأفعال الطبيعية. انظر: ابن سينا، القانون، ص20.

[5] ابن ربن الطبري، فردوس، ص285. جالينوس، كتاب جالينوس، ص39. كامل ، الموجز، ص43.

[6] ابن قيم الجوزية، الطب، ص21،20.

[7] المصدر نفسه ، ص21-25. ابن حجر ، فتح، ج11 ، ص329،328،327 ،330.

[8] ابن هبل، المختار، و 160،159. حسين، تاريخ، ص283،279.

شعور المريض بثقل في بدنه كله، ومعاناته من ألم في المفاصل مع ارتفاع شديد في حرارة الجسم يصاحبه عرق غزير وجفاف شديد بالفم، ومعاناة من البطء في حركة الجسم، وذبول البدن مع سرعة نبض القلب[1].

وقد زاد الحموي على هذه الأعراض أنه إذا صاحب هذه العلامات كمودة في لون المريض، أو سواد فهو نذير شؤم، وتعتبر هذه من أسوأ أنواع الحمى[2].

أما عن طريق علاج الحمى فإذا كانت الحمى في بدايتها فيمكن للمريض أن يستعمل المسهلات، حيث يستطيع التحمل أكثر مما لو كانت الحمى في شدتها والمريض واهن القوى وضعيف[3].

كما أن الحمى اليومية العرضية الحادثة عن شدة حرارة الشمس ينفعها الماء البارد شرباً واغتسالاً[4].

كما استخدم الأطباء الفصد[5] في علاج الحمى حيث كانوا يقومون بفصد المحموم واستخراج كمية من دمه على ألا تضر به[6] ثم يعطى أغذية وأشربة مرطبة[7].

ولا شك أن تناول الأغذية والأدوية النافعة، أعانة على تنقية البدن ونفي أخباثه وفضوله وتصفيته من مواده الردية، وتفعل فيه كما تفعل النار في الحديد في نفي خبثه، وتصفية جوهره وهذا القدر هو المعلوم عند أطباء الأبدان[8].

وقد وصف أطباء العصر المملوكي جملة من الأدوية والأغذية النافعة في علاج أمراض الحميات ومنها: " شرابُ الإجَّاص[9] وطبيخهُ وماءُ نقيعه، فإنَّ نَفْعَ ذلك للحميات الحادة عظيمٌ "[10]،

---

[1] ابن ربن الطبري، فردوس، ص585،584. حسين، تاريخ، ص293،292.

[2] البيان، ورقة 299.

[3] ابن رشد، الكليات ، ص370،369. حسين، تاريخ، ص313.

[4] ابن قيم الجوزية، الطب، ص20، وقد ورد في ذلك الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة منها:ما روى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحمي من فيح جهنم، فأطفئوها بالماء، وفي رواية عن عائشة عن النبي "فأبردوها بالنار" . انظر: ابن حجر ، فتح، ج11، ص326، الأحاديث رقم: 5726،5725،5723.

[5] الفصد: هو استفراغ كلي يتم في حالة كثرة الدم أو رداءته أو الاثنان معاً، ويفضل إجراؤه في فصل الربيع انظر: مجهول، الفصد والحجامة، مخطوط رقم 409، ميكروفيلم 20576.

[6] الحموي، البيان ، ورقة 251. ابن رشد، الكليات ، ص366.

[7] ابن النفيس، الموجز، ص275-289. ابن ربن الطبري، فردوس، ص585.

[8] ابن قيم الجوزية، الطب، ص23. ابن حجر ، فتح، ج11ص330،329.

[9] الأجاص: هو البرقوق حالياً. انظر: حفني ، الموجز ، ص319، حاشية2. وهو صنفان أبيض وأسود فالأسود هو أجاص على الحقيقة والأبيض هو المعروف بالشاهلوج، وأجوده الأجاص الكبير الرخو القليل القبوضة وارداؤه الصغير الصلب الشديد اللغوصة . انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص13.

[10] المصدر نفسه،مج1، ج1، ص14،13. ابن النفيس، الشامل ،ج1، ص203.

" وشَرَابُهُ شديدُ التسكين للصداع الكائن فى الحميات الصفراوية "[1]، وحماض الأترج " إذا شُـــرب شرابه أو رُبَّه، نفع جداً من الحميات الوبائية "[2]، ونبات الأذخر[3]: " إذا أُديم شرب طبيخ أصوله، نفع جداً .. من الحمِّيات البلغمية "[4]. والأَزادَرخْتِ[5] " لحاءُ هذا الشجر، فإنه إذا طُبِخَ مع الشَّاهْتَرَج والإهليلج[6] ورُوِّق، نفع من الحميات البلغمية "[7]، والأَسَـــارون[8] " هـــذا الـــدواء، لأجـــل إدراره وإخراجه الرطوبات الردئية بالبول، هو نافعٌ فى الحميات؛ وذلك إذا كانت عتيقة، ولم تكن مادتهـــا شديدة الحرارة "[9]، و الأَفسَنتينِ[10] " نافعٌ من الأمراض الحادة كلها. ومن جملة هـــذه الأمـــراض الحميات، فلذلك ينبغى أن يكون هذا الدواء نافعاً فيها، ولكن الحرارة الموجبة، لابد وأن تكون فـــى الحميات شديدة، وهذا الدواء كما علمت حارٌّ؛ لا بما هو منقٍّ؛ فلذلك إذا بطل إضراره بالحرارة لـــم يكن – حينئذ – ضارًّا، وذلك إذا كانت تلك الحميات فى آخرها؛ فإنَّ أواخر الحميات تستعمل فيهـــا الأدوية القليلة الحرارة؛ وذلك لأجل شدة الحاجة – حينئذ – إلى التحليل "[11].

---

[1] ابن النفيس، الشامل ،ج1، ص 194.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص161.

[3] الأذخر: هو نبات له أصل مندفن وقضبان دقاق ذفر الريح، وهو مثل الأسل إلا أنه أعرض منـــه بأولـــه ثمـــرة يطحن فتدخل في الطبيب وقلما تنبت الأذخر منفردة، وقد ينبت في الحجاز وفي غيره من البلاد. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص15.

[4] ابن النفيس،الشامل ،ج1، ص221. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص15، 16.

[5] الأزادرخت: لفظٌ فارسيٌ، ومعناه: شجرٌ مجرَّد وهو من الأشجار التي تعظم جداً، وثمره كالنبق، إلا أنه مجتمـــعٌ كالعناقيد الصغار المشبَّثة. ابن النفيس،الشامل ،ج1، ص271 –272.

[6] الإهليلج: هو أربعة أصناف أسود هندي صغار وأصغر وأسود كابلي كبار وحشف دقاق يعرف بالصيني ، وهو صالح للمعدة نافع بطبعه من المرة السوداء مخرج للأخلاط الرديئة .انظر: ابن البيطـــار، الجـــامع ، مـــج2، ج4، ص196، 198.

[7] ابن النفيس،الشامل ،ج1، ص275.

[8] الأَسَارون: نباتٌ يسمِّيه بعض الناس ناردين البرى له أصولٌ، وقضبانٌ وورقٌ، وزهرٌ، وبزرٌ. المصدر نفسه ،ج 2، ص279.

[9] المصدر نفسه ،ج2، ص286.

[10] الأَفسَنتينِ: نوعٌ من الشيح ولذلك يسمى: الشيح الرومى. وله أصولٌ وساقٌ، وأغصانٌ، وأوراقٌ، وزهرٌ، وبزرٌ، وعصارة . المصدر نفسه،ج2، ص479.

[11] المصدر نفسه ،ج2، ص496.

ونبات الكشوت[1]، ماؤه ينفع " من الحمّيات المركبة من البلغم والصفراء "[2]، و التمر هندي: ينفع من الحميات[3]، و الخيار: بارد رطب، ينفع من الحميات المحترقة[4]، وبزر الهندبا: ينفع من الحميات الصفراوية[5]، و المتطاولة[6]، "وشراب الورد المكرّر يطلق الطبيعة بأخلاط صفراوية، وينفع الحمّيات الصفراوية "[7]

أما عن الإصابة بالحمى في مصر والشام خلال العصر المملوكي، فقد تراوحت الإصابة بها ما بين فردية تصيب أشخاص معينين في مكان معين دون غيرهم مثلما حدث عندما أصيب الأمير علاء الدين ألطنبغا نائب الشام " بحمى مطبقة ومات منها "[8]. أو جماعية تأتي بشكل وبائي فكانت الحميات غالباً ما كانت تنتشر في صفوف السكان في مراحل الوباء الأخيرة، ففي عام (671-672ه/ 1273-1274م) تعرضت بلاد الرملة وبلاد القدس لـ"مرض وحميات" ترافقت مع وباء في مصر أهلك العديد من سكانها لا سيما الأطفال والنساء، والظاهر أسباب انتشار الحميات، في الرملة إلى أن سكانها كانوا يشربون من مياه الآبار[9].
وتكرر ظهور مثل هذه الحميات في تشرين الأول عام (815ه/1413م) في دمشق[10].

أما في مصر ففي سنة (727ه/1326م) " كثر مرض الناس بحميات حادة دموية فشت حتى لم يكد يسلم منها أحد فكان المريض يتمادى مرضه أسبوعا ويبرأ وربح بياعو الأدوية والأطباء والحجامون مالا كثيرا "[11] وفي سنة (806ه/1403م) " حدث في الناس بالقاهرة ومصر وضواحيهما سعال بحيث لم ينج أحد منه، وتبع السعال حمى فكان الإنسان يوعك نحو أسبوع ثم

---

[1] الكشوت: نبات محبّب، مقطوع الأصل، أصفر اللون، ويتعلق بالنبات مثال الخيوط، ويشرب من ماء النبات الذي يتعلّق به، ولا أصل له في الأرض، ولا ورق له، في أطراف فروعه ثمر لطاف، ويكثر في الكروم، ويسمو وتشتبك. العمري، مسالك ،ج22، ص19.

[2] المصدر نفسه ،ج22، ص 20.

[3] ابن الوردي، خريدة ، ص315.

[4] المصدر نفسه، ص338.

[5] المصدر نفسه، ص348.

[6] العمري، مسالك ، ج22، ص78.

[7] المصدر نفسه ، ج22، ص84.

[8] الصفدي،أعيان ،ج2، ص127.ابن حجر، الدرر ، ج2، ص72.

[9] ابن عبد الظاهر، الروض، ص428. النويري، نهاية، ج30، ص210.

[10] ابن حجر، إنباء، ج3، ص14.

[11] المقريزي، السلوك ، ج3، ص95.

يبرأ ولم يمت منه أحد. وكان هذا بعقب هبوب ريح غريبة تكاد من كثرة رطوبتها تبل الثياب والأجسام"[1].

كما تعد الحمى التيفودية أحد أنواع الحمى، والتي تظهر في فصل الصيف، وهي شديدة العدوى، وأعراضها عبارة عن ارتفاع في درجة حرارة جسم المصاب، مع ظهور طفح جلدي يصاحبه ألم في البطن وإسهال مستمر ونزيف بالأنف، وتعفن باللثة وتنتقل العدوى به عن طريق الحشرات مثل الذباب، أو عن طريق تناول أطعمة وأشربة ملوثة بهذا المرض[2].

2- مرض السل[3] الدرن:

وهو من الأمراض المعدية والتي ينبغي على الإنسان الصحيح ألا يجاور الإنسان المريض بالسل أو يخالطه حتى لا يصاب بالمرض[4]، وهذا المرض من الأمراض التي انتشرت في بلاد كثيرة ومنها مصر والشام.

ومن أعراض هذا المرض ومظاهره أن المصاب به ينقص وزنه، ويصبح نحيفا للغاية كما حدث مع محمد بن السلطان الملك الظاهر جقمق (ت847ه/1443م) فقد " أصابه السل، فصار بنقص كل يوم، ثم انقطعت عنه شهوة الأكل وخرج إلى النزهة في الربيع وهو بتلك الحال فما رجع إلا وهو كما به، وطرأ عليه الإسهال واستحكم به السل "[5]، أما ابن سيد الدار موسى بن أحمد الشرف السبكي (ت840ه/1436م) فعندما أصيب " بمرض السل فإن أطرافه كانت ترى في ثيابه كأنها الخيوط ولم يبق منه سوى الجلد حتى مات "[6]

وقد وصف ثمر الأثل[7] كعلاج لمرض السل فهو " يأكل اللحم الزائد (نقص الوزن) ، ويمنع من تآكل الإسنان ويحسن الألوان، ويصير سبباً للزيادة في لحومهم .. و كثيراً من المتطببين

---

[1] المقريزي، السلوك ،ج 6، ص103.

[2] إبراهيم، الأوبئة، ص16.

[3] السل: هو من الأمراض الصدرية التي تصيب الرئة بقرحة تسبب ضيقاً في التنفس، وبعد سعال شديد ونفث شديد ينتقص لحم الإنسان بصورة شديدة. انظر: الخوارزمي، مفاتيح ، ص132.

[4] أبو العباس، كامل ، ج2، ص65،64.

[5] ابن حجر، إنباء ،ج4. ص221. السخاوي، الضوء ،ج7، ص211.

[6] السخاوي، الضوء ،ج10، ص177.

[7] الأثل: هو شجر عظيم مندوح وله حب وقضبان خضر ملمع بحمرة وله ورق أخضر شبيه بورق الطرفاء، وفي طعمه غضوضة، وليس له زهر، ويثمر على عقد، على أغصانه حباً كالحمص، وفي داخله حب صغير ملتصق بعضه إلى بعض ويسمى حب الأثل. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص12،11.

إذا أرادوا أن يزيدوا في لحوم الجواري القضاف النحيفات الأبدان يسقونهن بدبا نقيع حب الأثـــل، ثلاثة أيام أو سبعة متوالية ثم يتبعون ذلك بالأقراص المبردة المرطبة المساعدة في زيـــادة لحـــوم المسلولين سبعة أيام، ثم يلزمونهن بشرب مخيض البقر ويعطونوهن إياه بالكثيراء[1] المسحوق أياماً فيزيد ذلك في لحومهن، زيادة بينة صالحة، وتحسن ألوانهن ويطويها ويفيدها نضارة ورونقاً "[2].

كما وصف الآسيُوس[3] " إذا لُعِقَ من هذا الدواء قدرٌ يسيرٌ جداً، مع عسلٍ كثيرٍ؛ نَقَّى قروح الرئة بما فيه من الجلاء والتجفيف والتنقية، ولذلك يكون نافعاً من السُّلِّ "[4]. و" الإسْفَنْجَ المحـــرق، إذا لعقه صاحب السُّلِّ انتفع به جداً؛ وذلك لأجل تنقيته لصاحب قرحة الرئة، بقوة جلائه وتجفيفـــه. فإن هذا المحرق كما يشتدُّ تجفيفه فإنه يشتد جلاؤه جداً، وذلك لما يكسبه بالاحتراق من الحدة، وإن كان إحراقه بعد غمسه بالزيت أو القفر كان نفعه لصاحب السُّلِّ، أزيد من أن يكون هـــذا المحـــرق ضاراً "[5].

وممن أصيب بهذا المرض في الشام في العصر المملوكي: أبو طاهر إسماعيل بن محمد بن يوسف بن البرزالي الشافعي (ت691ه/1291م) [6]، مرض بالسل ستة أشهر إلى أن توفي[7]، وفي مصر مات بمرض السل الأمير سيف الدين طقتمر الدمشقي[8]، وشرف الدين أبو الطيب محمد بن عبد الوهاب بن نصر الله (ت833ه/1429م) [9]، و إبراهيم بن عبد الكـــريم القبطـــي المـــصري

---

[1] الكثيراء: شجرةٌ خشبية يظهر منها شيءٌ يخرج منه أغصانٌ تنتشر على وجه الأرض، لها وَرَقٌ صغار وشـــوك مستتر بالورق. والكثيراء، هي الرطوبة التي تظهر على أصل هذه الشجرة، إذا ما قُطع منها موضع. ابن النفـــيس، الشامل،ج1، ص195.وهي **نوع نَبَات من الفصيلة القرنية**. مجمع، المعجم ،ج2،ص777.

[2] ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص11،12.

[3] آسيُوس: حَجَرٌ يعلوه شئٌ ملحيٌّ يسمُّوه الأقدمون من الأطباء بالثلج الصينى وأما فى العرف العامىِّ فإنه يـــسمَّى البارود، وهو شئٌ أبيضُ، شبيه دقيق الحنطة. ابن النفيس،الشامل،ج2، ص 359.

[4] المصدر نفسه،ج2، ص365.

[5] المصدر نفسه، ج2، ص377.

[6] أبو طاهر إسماعيل بن محمد: شاب، فاضل، دين، حفظ القرآن، وسمع من: أحمد بـــن أبـــي الخيـــر، والقاســـم الإربلي، والشيخ شمس الدين ابن أبي عمر. الذهبي، تاريخ ،ج52، ص113.

[7] المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

[8] ابن تغري بردي، النجوم ،ج9، ص237.

[9] ابن حجر، إنباء ،ج3، ص450. وهو شرف الدين أبو الطيب محمد بن عبد الوهاب بن نصر الله: ولد في ســـنة (797ه/1394م) ـــ، ونشأ في حجر السعادة وتعلم الكتابة واشتغل بالعلم، وكتب في الإنشاء، وعظم في دولة الظاهر ططر، وولاه نظر الكسوة ودار الضرب ونظر الأشراف وغير ذلك. المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

ويعرف بابن كاتب جكم (ت841هـ/1437م)، " مات بعد مرض طويل بالسل وبالقولنج في أثنائه بحيث حصل له صرع ولم يكثر واتهم طبيبه بأنه دس عليه سما "[1].

3- الأمراض الجلدية:

أ- الجذام[2]:

الجذام علة رديئة يصاب بها الإنسان نتيجة لانتشار المرة السوداء في جسده كله وهو غالباً يفسد مزاج الأعضاء وهيئتها وشكلها ولونها[3] وهو من الأمراض الوبائية التي انتشرت في كثير من البلاد ومنها الشام و مصر[4].

أما عن أسباب الإصابة بمرض الجذام فمنها: مخالطة أشخاص مرضى، واستنشاق هواء فاسد محمل بالمرض، أو تناول أطعمة غليظة مثل اللحوم والألبان، التي تسبب الامتلاء وانسداد المسام[5]، ولهذا المرض جملة من العلامات والأعراض[6] التي تصاحبه وهو أنواع: نوع بسيط وهو يكون نتيجة لردائة الدم وثقله ولا يترتب عليه سوى سواد اللون، وظهور الزوائد الجلدية المتحجرة، ويمكن أن ينجح فيه العلاج[7].

---

(1) السخاوي، الضوء ،ج1، ص69. ابن حجر، إنباء ،ج4، ص75.

(2) الجذام: علة تتأكل منها الأعضاء وتتساقط والذي تصيبه هذه العلة يسمى المجذوم انظر: مجمع ، المعجم ، ص97.

(3) ابن سينا، القانون، ج3، ص140. ابن حجر ، فتح، ج11، ص307.

(4) علي، خطط ، ص161.

(5) ابن ربن الطبري، فردوس، ص319. ابن النفيس، الموجز، ص303.

(6) أعراض مرض الجذام: هي عبارة عن حمرة لون الجسم وميله إلى السواد وكمودة العين وتتأثر شعر الحواجب والرموش وغلظ الشفتين وضيق التنفس وبحة الصوت، وشدة عرق الجسم، التي تميل إلى رائحة النتن، كما يشعر المريض بثقل في جسمه، وجفاف جلده، وتشقق أظافره ومع ازدياد الحالة سوءاً تظهر بالجسم زوائد جلدية ويأخذ البدن في التقرح وتبدأ الأعضاء في التآكل والسقوط. ابن النفيس، الموجز، ص303. ابن سينا، القانون، ج3، ص140،141. العباس،كامل، ج1، ص311.

(7) ابن قرة: الذخيرة ، ص138. جالينوس، كتاب جالينوس ، ص507،508. العباس، كامل، ج1، ص311. ولعل هذا النوع من الجذام يكون هو المقصود عندما أكل النبي صلى الله عليه وسلم مع الرجل المجذوم أي أنه كان به أمر يسير لا يعدي مثله في العادة، إذ ليس الجذمي كلهم سواء ولا تحصل العدوى من جميعهم، بل لا يحصل منه في العادة عدوى أصلاً، كالذي أصابه شيء من ذلك ووقف فلم يعدي بقية جسمه فلا يعدي. انظر:ابن حجر، فتح، ج11، ص310.

أما النوع الثاني فهو الناتج عن احتراق الصفراء بالجسم، وهو الذي يترتب عليه تساقط الأعضاء وتشوهها وهو أشده ولا يرجى بر صاحبه[1].

وقد كان هذا المرض من أسوأ الأمراض التي يبتلى بها الناس في العصر المملوكي لدرجة أن أحد المبتلين به تمنى أن يشفى من هذا المرض، حتى ولو أصبح بعدها شحاذا يستعطى الناس[2]، ومن كان يصاب بهذا المرض لم يكن يقال عنه بأنه أصيب بالجذام أو مرض بالجذام بل كان يقال، ابتلي بالجذام[3]، وصاحب هذا المرض: المبتلى[4]، مما يدلل على أن ذلك المرض كان شر وباء يصاب به الإنسان، ولا يقل خطورة عن غيره من الأمراض كالطاعون مثلا.

ومما يصور بشاعة هذا المرض أن ابن الفاخوري[5] (ت871ه/1466م) كان يلازم الطبيب الشهاب بن بطيخ، فلما مات هذا الطبيب زاد عليه الجذام " واستحكم منه مع كثرة ما كان يلازمه من التهكم والازدراء والتهتك "[6]، فيبدو أن شكل المريض بهذا المرض كان مدعاة للسخرية والتهكم.

أما عن طرق التداوي والعلاج من هذا المر ض فمن ما قيل أن ماء دمشق يساعد على مقاومة هذا المرض، بل ويوقف سير المرض في جسم المريض[7]، واعتقد البعض بالشفاء من هذا المرض بأن يشرب أحد معارف المريض ماء زمزم " بقصد شفائه وعافيته "[8].

وامتد هذا القول ليسري في مصر أيضاً فمن ما ذكره القزويني أن هناك عيناً بالإسكندرية يوجد بها نوعاً من الأصداف إذا طبخت وأكل منها المريض بالجذام يبرأ من مرضه[9].

ولا شك أن المبالغة لها نصيب كبير في هذا القول: بدليل أن المصابين بالجذام أهالي دمشق والإسكندرية لم يشفوا كلهم من مرضهم، لأنه تم عزلهم في موضع خاص بهم حتى لا يختلطوا

---

[1] ابن قرة: الذخيرة ، ص138. جالينوس، كتاب جالينوس ، ص507،508. العباس، كامل، ج1، ص311.

[2] وهو: عبد القادر بن محمد بن سعيد محيي الدين الحسيني سكنا الشافعي ويعرف بابن الفاخوري، وقد توفي بالجذام سنة871هـ. السخاوي، الضوء ،ج4، ص289.

[3] المقريزي، السلوك ،ج5، ص329.

[4] السخاوي، الضوء ،ج1، ص331.

[5] المصدر نفسه،ج4، ص289.

[6] المصدر نفسه، نفس الجزء و الصفحة.

[7] ابن الوطواط، غرر، ص240. علي، خطط ، ج6، ص161.

[8] السخاوي، الضوء ،ج4، ص289.

[9] آثار، ص147.

بالأصحاء، ولكن من الراجح أن تكون هذه أشياء تساعد في الشفاء وليس كل الشفاء فلا أحد ينكر أهمية الهواء المعتدل حينما يستنشقه الإنسان أو الشرب من مياه صافية متجددة خالية من الميكروبات والأمراض، وهو ما توفر في هواء دمشق وماءها، ولا شك أن أكل مطبوخ الأصداف يساعد جسم الإنسان وجلده على تعويض ما فقد منه وهذا رأي ثقاة الأطباء المحدثين، كما أشار إلى ذلك ابن البيطار أيضاً عند الحديث عن الأفاعي فقال: "لحوم الأفاعي لها من قوة التجفيف ما يفعل هذا الذي وصفته، وتتخذ منها أقراص تلقى منها في الترياق وتسحق وتنعم، وتنخل ناعماً ثم تلقى في الملح الذي يتأدم به هؤلاء... مع أنه لا يسخن قليلاً ويشبه أن تكون قوة هذا اللحم قوة تبادر إلى الصعود إلى الجلد فتنفض وتدفع منه جميع ما في البدن من الفضل ولذلك صار يتولد منه في البدن قل كثير متى كان الأكل إنساناً، قد اجتمع في بدنه أخلاط رديئة ويخرج أيضاً من الجلد ويسقط أيضاً شيئاً شبيهاً بالقشيرة، التي في ظاهره، وهي التي فيها خاصية تحبيس وتلحح من الأخلاط التي يصير إلى الجلد ما هو منها غليظ أرضي ومنها ما يكون الجرب والعلة التي يتقشر معها الجلد والجذام"[1]، وقد يعمل ملح من لحوم الأفاعي يفعل فعل الأفاعي غير أنه انقص منه فعلاً بأن تؤخذ أفعى حية وتصير في قدر جديدة ومعها من الملح والشبث والتين من كل واحد، مدقوقاً مسحوقاً رطل ونصف مع تسع أواقي عسل، ويطبق في فم القدر وتشوى في أتون حتى يلتهب الملح ويصير كالجمر ومن بعد ذلك يسحق وينخل ويخزن وربما خلط به سنبل الطيب وشيء يسير من ساذج يطيب طعمه"[2]، وقد ساق ابن البيطار أمثلة كثيرة لأناس أصيبوا بالجذام ثم إنهم تناولوا لحوم الأفاعي إما بالقصد أو بالمصادفة فبرئوا من هذا المرض[3]، وذكر ابن الوردي أن لحم الحمار " ينفع صاحب الجذام نفعاً جيداً "[4].

إلا أن أفضل طريقة لعلاج مرض الجذام والتي كانت تعطي نتائج باهرة وهي الفصد ويكون ذلك قبل استفحال المرض وتمكنه من جسم المريض[5].

---

(1) ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص48.

(2) المصدر نفسه، نفس الجزء و الصفحة.

(3) المصدر نفسه ، مج1، ج1، ص47،46.

(4) ابن الوردي، خريدة ، ص351.

(5) ابن القف، العمدة ، ج2، ص48. والفصد يكون في اليدين والرجلين وخلف الأذنين على أن يخرج الطبيب للمجذوم الدم الكثير ثم يغذي بأغذية ومشروبات خفيفة مرطبة ومسهلة، ويلتزم المريض بالراحة، وأخذ الحمام مع عدم البقاء مدة طويلة. انظر: مجهول، الفصد والحجامة ، ورقة 5. ابن سينا، القانون، ج3، ص142،141. ابن قرة، الذخيرة، ص139،138.

أما أشهر من أصيب بالجذام في العصر المملوكي: القاضي جمال الدين عبد الله بن الفيشي المالكي[1]، مات سنة 794هـ " بعد أن ابتلى بالجذام عدة سنين "[2]، وكذلك ابتلي بنفس المرض الأمير أرغون فمات سنة (819ه/1416م) ـ بالقدس[3]. وأحمد بن عبد الرحمن بن علي الشهاب المحلى القاهري الأصل الطولوني الشافعي المبتلي (كان حيا قبل سنة 900هـ)[4]، "ابتلى بالجذام ولازال في تزايد حتى مات "[5].

ب- البرص([6]):

وهو من الأمراض الجلدية والفرق بين البرص وبين الجذام هو أن البرص لا يؤدي إلى تأكل الأعضاء وتساقطها كما يفعل مرض الجذام كما أن البرص لا ينتقل من شخص لآخر كما ينتقل الجذام[7]، وقد تعرف أطباء العصر المملوكي نوعاً من النبات يعرف باسم آطريلال[8] يساعد بدرجة كبيرة في علاج مرض البرص[9].

"و بزره هو المستعمل منه خاصة في المداواة وينفع من البهق والوضح نفعاً بيناً شرباً "[10]، وقد ذكر ابن النفيس بأن " المعالجين بهذا الدواء، وقع بينهم الاختلاف في الدواء الذى يخلطونه به؛ فبعضهم كان يخلط مع هذا الدواء مثل ربعه عاقِر قَرْحا وبعضهم كان يخلط مثل ثلثه سَلْخ الحية، ومثل ثلثه ورق السَّذَاب فيكوِّن من هذين جزءٌ، ومن آطرِيلالِ جزءٌ ونصف، يسحق كلٌّ على حدة، ويخلط الجميع. يستفُّ منه كل يوم، وزن ثلاثة دراهم، ويُردف قليلَ شرابٍ عتيق. يُفعل ذلك خمسة أيام. وبعضهم يسحق هذا الدواء، ويعجنه بالعسل، ويشرب منه كل يوم وزن مثالين بماءٍ

---

[1] جمال الدين عبد الله بن الفيشي: أحد نواب القضاة المالكية بالقاهرة. وكان نقيبا للقضاة ثم تولى الحكم ورتب درسا بالجامع الأزهر وأجرى عليه وقفا. المقريزي، السلوك ،ج5، ص329.

[2] المصدر نفسه ، نفس الجزء و الصفحة.

[3] الأمير أرغون: أمير أخور في أيام الناصر فرج. المقريزي، السلوك ،ج6، ص426.

[4] أحمد بن عبد الرحمن: قرأ القرآن على الديروطي وحضر دروس أبي البركات الهيثمي ويعقوب المغربي، وسمع من السخاوي. السخاوي، الضوء ،ج1، ص331.

[5] المصدر نفسه ،ج1، ص332.

[6] البرص: برصا ظهر في جسمه البرص فهو أبرص وهي برصاء والجمع بُرص وهو بياض يقع في الجسد لعلة. انظر: المعجم الوجيز، ص45.

[7] علي، الأمراض، ص28.

[8] آطريلال: اسم بربري وتأويله رجل الطير، ويعرف في الديار المصرية برجل الغراب. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص4. العمري، مسالك ،ج22، ص115.

[9] المصدر نفسه، مج1، ج1، ص4. المصدر نفسه، ج22، ص115

[10] المصدر نفسه، مج1، ج1، ص3،4. المصدر نفسه،ج22، ص116.

حارٍّ. يُفعل ذلك خمسة عشر يوماً، والأجودُ عندى أن يكون ما يُسقى من هذا الدواء فى أول الأمر، بقدرٍ يسير؛ وذلك بقدر نصف درهم، ثم يزاد قليلاً قليلاً. لأن استعمال الكثير، بغتةً مما يملأُ البدن، أو يستفرِغُ، أو يسخِّنُ، أو يبرِّدُ، أو يحرِّك بنوعٍ آخر من الحركة، أيَّ نوعٍ كان خطر. وكل ما كان كثيراً، فهو مقاومٌ للطبيعة مفسدٌ لها. وأما ما يكون قليلاً، فمأمونٌ متى أردت انتقالاً من شـــئ إلـــى غيره، ومتى أردت غير ذلك، وينبغى أن يكون استعماله، بالعسل أو بالشراب؛ لأن كل واحدٍ مـــن هذين، فإنه يسرع نفوذه إلى ظاهر البدن. أما العسل فلأجل محبة الأعضاء له – لحلاوته – فتجذبه بسرعة، وينجذب معه ما يكون مخالطاً له من الدواء. وأما الشراب فلأجل شدة نفوذه؛ ولذلك، كان شارب الخمر يحمرُّ بسرعة، لأجل سرعة نفوذ الخمر إلى ظاهر البدن "[1].

"و تأثيره مختلفاً، ففي بعض يسرع انفعاله فيه، في أول دفعة من شربه أو دفعتين أيـــضاً، وفي بعض أكثر من ذلك لا يزال يسقى العليل منه ، وتقعده في الشمس مرة وثانية وثالثة إلـــى أن ينفعل بدنه ويتبين له صلاحه[2].

أما عن أفضل أوقات تناوله فيشير ابن النفيس إلى ذلك بقوله: " فينبغى إذا أُريد العلاج بهذا الدواء، قصد أمرين. أحدهما: أن يكون البدنُ شديدَ النقاء جداً من البلغم، وذلك بأن يُبالغ فى استفراغ البدن منه لأنه إذا لم يكن كذلك، فقد يكون تناول هذا الدواء سبباً للزيادة فى البرص. وذلـــك إمـــا لتكرار معاودته – كما قلناه – لأجل وجود البلغم الفضلى فى البدن واندفاعه إلى الجلد الحادث، قبل استحكام قوته – كما ذكرناه – أو لأجل انجذاب قسط من البلغم إلى موضع البَرَصِ لأجل تـــسخُّنه بحرارة هذا الدواء، وثانيهما: أن يُعان هذا الدواء على إحراق البلغم الذي يكون فى موضع البرص، وإفساده، حتى يكون مُقرِّحاً مُسقطاً للجلد المبروص، وهذه الإعانة إنما تكون بتقوية حرارته علـــى ذلك، وذلك يكون بأمرين. أحدهما: أن يخلط معه ما يزيد فى حرارته، وذلـــك كمـــا يخلـــط معـــه العاقِرقُرْحا ونحوه. وثانيهما: أن يسخِّن موضع البرص، فتصير فيه سخونةٌ تُعين حرارة هذا الدواء على إفسادها فى ذلك الموضع من البلغم. وهذا التسخين، يتم بكشف الموضع للشمس الحارَّة، ونحو ذلك، وإذا فُعل الأمران، كلاهما، فلا شك أن فعل هذا الدواء يكون أتم. فلذلك، يؤمر متنـــاول هـــذا الدواء بكشف مواضع البَرَصِ للشمس الحارة لتصيبه فتسخِّنه، ولا أقل من أن يكون ذلك بقدر ساعة أو أكثر قليلاً، وذلك بحسب قوة الشمس وضعفها؛ وأن يخلط مع هذا الدواء ما يقوى حرارته"[3]

---

[1] ابن النفيس، الشامل،ج1، ص79– 80. ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص3،4. العمـــري، مـــسالك ،ج22، ص116.

[2] ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص4. العمري، مسالك ،ج22، ص116.

[3] ابن النفيس،الشامل،ج1، ص78–79. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص4. العمري، مـــسالك ،ج22، ص116.

أما بالنسبة للأعراض الجانبية لهذا العلاج فيذكر ابن النفيس أن " من الناس مَنْ يحدث لـــه تقرُّح موضع البَرَصِ عند تناول هذا الدواء مرةً واحدة، وبعضهم إنما يحدث له ذلــك، إذا تكـــرَّر تناوله له مرات كثيرة وبعضهم يحدث له ذلك بتناوله مرتين؛ وذلك بحسب لين الجلد وكثافته، ونحو ذلك ".

ويبدو أن هذا الدواء كان هو الأكثر استعمالاً في علاج مرض البرص، خلال عصر الدولة المملوكية، لا سيما أن الذي ذكره وتحدث عنه هو: ابن النفيس[1]، و ابن فضل الله العمري،الذي نقل عن ابن البيطار، في مؤلفه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، والذي كتبه بناء على تكليــف مــن الملك الصالح نجم الدين أيوب آخر السلاطين الأيوبيين[2].

وأشهر من أصيب بالبرص في العصر المملوكي: محمد بن علي بن محمد بن علي الشمس القدسي الرباطي، وقد " عرض له برص فانتفخت يده فوضع عليها المراهم فانتفخــت واســتمرت المادة تخرج منها حتى مات في 834هـــ "[3]. و قاسم بن علي الجــابي (ت878ه/1473م) ابتلـــي بالبرص[4]

ومحمد بن محمد بن محمد معين الدين الفارسكوري الأصل الدمياطي" ابتلاه الله بـــالبرص ولا زال يتزايد حتى امتلأ بدنه وصار لونه الأصلي لا يعرف، ومات وهو كذلك"[5].

ج- مرض الجدري[6]:

من الأمراض التي وجدت لها بيئة مناسبة في مصر والشام مــرض الجــدري فهــو مــن الأمراض المتوطنة والتي تظهر بكثرة في البلاد الحارة الرطبة[7].

---

(1) يقول ابن النفيس بأن هذا الدواء " لم يُعرف بالبلاد المشرقية إلا فى زماننا، وأنـــه يـــستخدم لعـــلاج اليرقـــان". الشامل،ج1، ص75. ولم يكن بالبعيد زمانا عن ابن البيطار.

(2) ابن البيطار، الجامع، مقدمة المؤلف، ص2.

(3) السخاوي، الضوء ،ج9، ص22.

(4) المصدر نفسه،ج6، ص183.

(5) المصدر نفسه،ج10، ص14.

(6) الجدري: حمى معدية تتميز بطفح حليمي على الجلد، يتقيح ويعقبه قشر والجدرة ندبة لها نسيجها وارتفـــع عـــن الجلد والذي أصابه الجدري يقال له مجدر انظر: مجمع ، المعجم ، مادة جدر، ص95. وانظر: ابن ربن الطبـــري، فردوس، ص307. العاني، معجم ، مج39، ص123.

(7) الحموي، البيان ، ورقة 270.

أما عن أسباب ظهور هذا المرض، فتكمن في هبوب الرياح المحملة بالجراثيم وأبخرة هذا المرض من الأماكن الموبوءة إلى الأماكن الصحيحة[1]، وهذا سبب طبيعي وله أسباب أخرى منه: سبب لا إرادي داخل جسم الإنسان هو: فوران الدم بالجسم نتيجة لقيام الطبيعة وهي القوة المدبرة للأجسام والماسكة لصورها[2]، بدفع الدم الفاسد فيظهر على هيئة الجدري[3] أو سبب إرادي يتعلق بنوع الأطعمة التي يتناولها الإنسان فالإكثار من الأطعمة الحارة المرطبة مثل اللحوم والتمور والألبان والحلوى بمختلف أنواعها، هذه كلها أسباب تؤدي إلى الإصابة بهذا المرض[4].

وهو من الأمراض المعدية والتي يكثر انتشارها بين الأطفال، لا سيما في فصل الربيع وإن كان بعض الكبار يصابون به أيضاً، خاصة الشباب[5].

والمعروف أن الجدري له عدة أشكال منها الخطر، ومنها الأقل خطورة فأما الخطر فيظهر قبل الحمى ببطء في الأجزاء الباطنة من الجسم ويكون لونه بنفسجي يميل إلى السواد، غير منتظم الشكل له رؤوس سوداء يابسة صغيرة الحجم، كثيرة العدد متصلة ببعضها[6].

وأما النوع الثاني الأقل خطورة وهو الذي يظهر مباشرة عقب الحمى ويكون في الأجزاء الظاهرة من الجسم، ويكون أحمر اللون مستديراً، كبير الحجم قليل العدد، متباعد عن بعضه البعض سريع التقيح[7].

ولهذا المرض جملة من الأعراض يدل ظهورها على شخص على إصابته بمرض الجدري، وهي عبارة عن حمى تصيب الشخص مع احمرار في الوجه والعينين والميل إلى العطاس، وحك الأنف، ووجع الحلق، والشعور بآلام في الظهر، ورعشة مع ثقل في البدن[8].

---

(1) العباس، كامل، ج1، ص310. صدقي، رسالة عن الطب، ص42.

(2) بختيشوع، الروضة، ص18.

(3) الحموي، البيان ، ورقة 270، ابن القف، العمدة ، ج1، ص146.

(4) الحموي، البيان، ورقة 270. ابن القف، العمدة ، ج1، ص146. العباس، كامل، ج1، ص310.

(5) الحموي، البيان، ورقة 270.

(6) المصدر نفسه، نفس الورقة. الذهبي، الطب ، ص133،132. ابن القف، العمدة ، ج1، ص146، حسين، تاريخ، ص271، 272.

(7) الحموي، البيان، ، ورقة 270. الذهبي، الطب ، ص133،132.

(8) ابن ربن الطبري، فردوس، ص307. حسين، تاريخ، ص270.

ولتخفيف الأعراض الناجمة عن مرض الجدري للمصابين به، أوصى الأطباء بعلاج الحلق وغرغرته بالقوابض[1] وعلاج العين، والاهتمام بالنظافة وتطهير الأجزاء المصابة من جسم المريض[2].

أما عن طرق العلاج من هذا المرض فكانت على نوعين: الأول: عن طريق تناول الأدوية والأغذية التي تخفف من هذا المرض[3]، والثاني: علاج جراحي، يعتمد على الفصد، وكانوا يلجأون إليه في حالات معينة، كان لم يظهر الطفح الجلدي على الجسم كله عقب الحمى، أو ذا وجد الطبيب غلبة الدم على المريض فيفصده في الكاحل ويخرج له من الدم مقدار الحاجة، أو ما تحتمله قوة المريض[4]، أما إذا كان المريض صبياً صغيراً فيحجم[5] في الكاحل والساقين ويخرج له الدم بوفرة[6].

ومن الأمراض التي كان يحدث الخلط بينها وبين مرض الجدري مرض الحصبة[7]، وذلك لتشابه الأطوار الأولى للمرضين[8]، فالحصبة تأتي أيضاً نتيجة لهبوب الرياح المحملة بميكروب المرض لا سيما في فصل الصيف[9].

---

(1) أشار ابن البيطار إلى أنواع من الأدوية تستخدم لعلاج الحلق، ومنها حب الأترج: موسع للحلق من السدد البغلمية لأنه من شأنه فتح السداد التلغمية كما أشار إلى أهمية شجرة الأجاص فقال: فهي إذا طبخت صارت نافعة لمن يتغرغر بها من ورم اللهاة والنغانغ.. وتقطع سيلان المواد إلى اللهاة وعضلتي اللوزتين. انظر: الجامع، مج1، ج1، ص11، 13.

(2) الحموي، البيان ، ورقة 271.

(3) ابن قرة، الذخيرة، ص65. ومن هذه الأدوية، دخان نبات الآثل قال عنه ابن البيطار، ينفع الجدري والموم، انظر: الجامع، مج1، ج1، ص12.

(4) مجهول، الفصد والحجامة، ورقة 4،5. ابن القف، العمدة، ج2، ص10.

(5) الحجامة: تكون سبباً في نقاء الجلد وتستخرج الدم الرقيق أكثر من الغليظ وتحدث في العضو المحجوم ضعفاً ويؤمر باستعمال الحجامة لا في أول الشهر لأن الأخلاط لا تكون قد تحركت وهاجت ولا في آخره لأنها تكون قد نقصت بل في وسط الشهر لأن الأخلاط تكون هائجة بالغة في تزايدها لتزايد النور في جرم القمر. انظر: مجهول، الفصد والحجامة، ورقة 7. ابن سينا، القانون، 212. ابن قيم الجوزية، الطب ، ص38.

(6) مجهول، الفصد والحجامة ، ورقة 4،5. ابن القف، العمدة، ج2، ص10.

(7) ابن ربن الطبري، فردوس، ص307، حسين، تاريخ، ص 270.

(8) الحصبة: حمى حادة طفحية، معدية، يصحبها زكام سعال، وغيرهما من علامات النزلة. انظر: مجمع ، المعجم ، ص154.

(9) عطية، العلاقات، ص226. باشا، التراث، ص169.

وقد أشار الأطباء المسلمون إلى الأعراض التي تصاحب مرض الحصبة وتتمثل في ارتفاع شديد لحرارة المريض، واحمرار العينين، وكثرة سيلان الدموع منها، وانتفاخ الوجه والأصداغ، وجفاف اللسان، ووجود آلام بالحنجرة والصدر[1]، ومع ظهور هذه الأعراض وتراجع حدة الحمى يبدأ ظهور الطفح الأحمر على الجلد، وهو سطحي ليس له عمق أو نتوء، وهذا أسلم الأنواع[2].

أما أشد أنواع الحصبة ما كان طفحه داخل الجوف وهو ما ينشأ عنه في الغالب النزيف المعوي وقد يؤدي إلى الوفاه[3].

وثمة نوع آخر رديء إلا أنه أقل من سابقه، وهو ما يظهر ببطء ويميل لونه إلى السواد أو الخضرة[4]، وكان العلاج من مرض الحصبة ينقسم إلى قسمين: الأول علاج بالأغذية والأدوية، وذلك عن طريق الشراب والغذاء والإكثار من تناول المبردات والمسهلات[5].

وأما القسم الثاني: وهو الذي يكون في مرحلة لا يستطيع الغذاء والدواء إسعاف المريض، فهذا يعالج بالفصد، وإذا كان صغيراً فيحجم في الساقين والأذنين والكاحل[6].

وكان ينبه على المريض بهذا المرض أن يتجنب الهواء البارد، وذلك لأن البرد يسد مسام الجلد، فيحول دون خروج الفضل من جسم المريض فتكون النهاية لذلك يجب على المريض الإكثار من التغطية في فصل الشتاء[7].

وقد أورد المقريزي معلومات عن انتشار وباء الجدري في أواخر عام (830ه/ 1426م) دون أن يحدد المكان وقد ترافق مع نزلات وسعال استمرت أسبوعاً، دون أن تتسبب بأية خسائر بشرية[8].

كما عرفت بلاد الشام عام (917ه/1511م) جدري قوي جداً وجرب أصاب العديد من الناس وكان من شدته يمنعهم عن النوم والقعود كما أصاب البقر أيضاً[9].

---

(1) حسين، تاريخ، ص 270.

(2) الحموي، البيان، ورقة 271. ابن قرة، الذخيرة، ص164.

(3) باشا، التراث، ص181.

(4) ابن النفيس، الموجز ، ص301.

(5) الحموي، البيان، ورقة 271. ابن القف، العمدة، ج2، ص41.

(6) مجهول، الفصد والحجامة ، ورقة 44-47. ابن القف، العمدة، ج2، ص41.

(7) الحموي، البيان، ورقة 271.

(8) السلوك، ج3، ص95.

(9) ابن طولون، مفاكهة، ص357. انظر: الدويهي، الأزمنة، ص381.

وممن أصيب بالجدري في العصر المملوكي: أحمد بن أبي بكر ت(749ه/1349م) [1] " وقد اثر الجدري في وجهه "[2]. وعلي بن إسماعيل الحلبي كان حيا في(846ه/1442م)[3] " عرف بنقيش لقب لقب به لطلوع جدري في وجهه بقي أثره فيه ...، ومرض بعد ذلك مرضا احتاج في علاجه إلى لزوم المكث في الحمام "[4]، و علي بن أبي بكر بن أحمد بن شاور العلاء البرلس (ت874ه/1469م) [5] " حصل له جدري في السابعة من عمره وكف "[6].

وأحمد بن إسماعيل البحيري (898ه/1492م) [7] " كان أعور العين اليسرى من جدري كان عرض له وهو صغير "[8]، و أحمد بن رمضان السليماني (من القرن التاسع الهجري)[9] أضر في بصره " من جدري عرض له "[10]،

4- أمراض الباطنة والجهاز الهضمي :

لا شك أن أمراض الباطنة واحدة من أكثر الأمراض انتشاراً في كل الأزمنة لاسيما في العصر المملوكي، حيث أن النظام الغذائي الذي كان متبعاً، يعد أحد الأسباب الرئيسية للإصابة بهذه الأمراض.

وقد كان الأطباء الطبائعيين في العصر المملوكي على دراية تامة بفسيولوجية المعدة والأمراض التي تصيبها مثل وجع المعدة: وسببه إما سوء مزاج مادي، وأكثره صفراوي، أو

---

[1] أحمد بن أبي بكر الأمير شهاب الدين ابن الأمير الكبير سيف الدين نائب الشام، وأحد الولدين الذكرين اللذين خلفهما الأمير سيف الدين تنكز، كانا بمصر من جملة الأمراء ، توفي في طاعون مصر 749هـ، الصفدي، أعيان ،ج1، ص207.

[2] المصدر نفسه ، نفس الجزء و الصفحة.

[3] علي بن إسماعيل بن حسن بن أحمد بن يوسف بن عبد الله الحلبي الشافعي الكعكي . انظر: السخاوي، الضوء، ج5، ص193.

[4] المصدر نفسه ، نفس الجزء و الصفحة.

[5] علي بن أبي بكر بن أحمد بن شاور العلاء البرلسي البلطيمي الشافعي الضرير: فتحول إلى القاهرة ثم انتقل إلى صفد ثم إلى دمشق ثم إلى طرابلس ثم انتقل إلى حمص. انظر: المصدر نفسه ، ج5، ص198-199.

[6] المصدر نفسه ، ج5، 198.

[7] أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن جمعة البحيري الأصل القاهري . المصدر نفسه ،ج1، ص231.

[8] المصدر نفسه ، نفس الجزء و الصفحة.

[9] أحمد بن رمضان بن عبد الله الشهاب السليماني ثم الحلبي الشافعي الضرير: نزيل القاهرة ويعرف بالشهاب الحلبي. انظر: المصدر نفسه ،ج1،ص302- 303.

[10] المصدر نفسه ،ج1، ص303.

سوداوي، أو عن مأكول، وأكثره الحار اللاذع، ومن الناس من توجعه معدته على الجوع، فإذا أكل سكن، وذلك بسبب انصباب الصفراء للحلو، ويعرف غلظ بكرارة الفم، وعلامات الصفراء خروجها بالقيء، وقد يكون وجع المعدة من شراب ماء بارد على الريق، وقد ينحدر وجع المعدة إلى الأمعاء فيصير قولنجاً، أما علاج وجع المعدة فحدده الأطباء الطبائعيين باستفراغ الخلط الفاعل بأدويته كطبيخ الفاكهة، أو بالقيء و تعديل المزاج[1]، من أمراض المعدة أيضاً المغص: سببه أما ريح مختلفة أو فضل صفراوي، أو بلغم مالح جارد أو سوداوي غليظ أو قرحة أو ورم، وقد يكون السبب في البدن، وقد يكون لغذاء يولد ذلك، وقد يكون بحرانياً فينذر بالإسهال، وإذا ابيض البول في الأمراض الحادة وقل لم تكن هناك علامة آفة في الدماغ ولا في الأحشاء، وهنالك مغص فقد وجب أن يقع الإسهال، وإذا اشتد المغص أشبه القولنج وعولج بعلاجه[2].

ومن الأدوية التي وصفها الأطباء الطبائعيين الهندباء[3]، أما السنا[4]

فأجوده الحجازي، وينقي الفضول والمقدار الذي وصفه الأطباء ليؤخذ منه في المرة الواحدة مقدار خمسة دراهم[5].

كما وصف الأطباء الطبائعيين نبات الخردل[6] ووصفوا الجورشنات[7] مثل جورشن السفرجل الممسك وهو يدفع الفضلات من المعدة ويقويها، ويقوي الكبد، والأنيسون[8] والبابونج [9]

---

[1] ابن النفيس، الموجز ، ص198-199.

[2] المصدر نفسه، ص224.

[3] نبات بارد رطب ويفتح السدد ويريق الدم وينفع الكبد والعروق. انظر: ابن الوردي، خريدة ، ص187،

[4] السنا: نبات طبيعي كأنه الحناء ، ويفيد في علاج الجنبين والوركين، ويذهب البواسير، وأوجاع الظهر. انظر: داود ، تذكرة ، ج1، ص285.

[5] ابن الوردي، خريدة ، ص187-188.

[6] الخردل: هو اللبسان وأصوله بمصر تسمى الكبر، وهو نافع لكل مرض بارد كالفالج والنقرس واللقوة. انظر: داود ، تذكرة ، ج1، ص197.

[7] الجورشنات: معنى جورشن باللغة الفارسية هاضم الطعام وأكثر ما يقع هذا الاسم على المعجونات، انظر: ابن أبي البيان، الدستور ، ص23.

[8] الأنيسون: نبات ذو أصل وساق، وأغصان وأوراق وزهر، وبذر والمستعمل من هذا النبات بدره، شديد النفع للكبد، لأن يفتح شددها، مع التقوية التي بها تحفظ قوة الكبد وبما فيها من الحرارة ينضج فضول الكبد، ، يفتح شدد الطحال ويقويه لأنه لأجل لطاقته يسهل نفوذه إلى الطحال. انظر: ابن النفيس، الشامل، ج3، ص667، 656. انظر: ابن الأكفاني، كشف ، ورقة، 109.

[9] البابونج: معدل لمزاج الدماغ وأجزائه، فلذلك فهو مقو لأعضاء الرأس، خاصة هو عطر، فيكون مقوي بعطريته، و هو نافع من أوجاع المعدة، ومن المغص، وفي القولنج. انظر المصدر نفسه، ج4، ص35-38. المصدر نفسه، ورقة 109، 110.

(الشيح الجبلي)، ويوصي ابن النفيس الأطباء في أمر العلاج، ينبغي إلا تعود الطبيعة الكسل بـأن يعالج كل منحرف عن الصحة، وإلا يجعل شرب المسهل والمتقيء وحيث أمكن التـدبير بأسـهل الوجوه فلا يعدل إلى أصبعها، ويتدرج من الأضعف إلى الأقوى إذا لم يغن الأضعف إلا أن فـوت القوة، وحينئذ يجب أن يبدأ بالأقوى، ولا يقيم في المعالجة على دواء وأحد فتألفه الطبيعة ويقل نفعها عنه، ولا يدوم على الغلظ، أو تهرب عن الصواب لتأخر أثرهما، ولا تجسر على الأدوية القوية في الفصول القوية[1].

ولما كان المماليك مولعين بالألعاب الرياضية وممارستها، ولذلك قدم إليهم أطباؤهم نصائح غالية في ذلك الصدد: فنهوهم عن الحركة السريعة بعد تناول الطعام، فالحركـة المعتدلـة قـوى الأسباب في حفظ الصحة فإنها تسخن الأعضاء وتحلل الفضلات وتجعل البدن خفيفاً نشيطاً ووقتها بعد انحدار الغذاء عن المعدة[2].

أ- القولنج:

ويعد القولنج واحداً من الأمراض التي انتشرت خلال العصر المملوكي وهو مرض معوي مؤلم يتعسر معه خروج ما يخرج بالطبع والسبب فيه في الأمعاء الغلاظ، ويعدون من أسبابه الريح المتعرضة، والالتواء، والفتق، والديدان، والبراز اليابس، وزخير المـستقيم وورمـه، وقـد ينـشأ بالمشاركة مع أمراض الكبد أو المثانة أو الكلى[3].

أما أنواع مرض القولنج فهناك نوع يعرف باسم القولنج البلغمي وآخر يعرف باسم القولنج الريحي، ويشبهان إلى حد كبير ما نسميه الآن باسم تقلص القولون العصبي، وثمة نوع آخر يعرف باسم القولنج الورمي، ويغلب على الظن، أنه أطلق على ما نسميه الآن التهاب الزائدة الدودية ومن علاماته: وجع متعدد ثابت في موضع واحد مع ثقل وضربات ومع التهاب وحمي حادة، وعطـش شديد وحمرة في اللون واحتباس في البول، وربما أحمر ما يحاذيه من البطن[4].

ولمرض القولنج جملة من الأعراض والعلامـات[5] اسـتفاض الأطبـاء المـسلمون فـي شرحها[6].

---

[1] ابن النفيس، الموجز ، ص75.

[2] البغدادي، الطب ، ص24. ابن قيم الجوزية، زاد، ج4، ص274.

[3] حسين ،الموجز، ص67.

[4] المرجع نفسه ، نفس الصفحة.

[5] انظر: المرجع نفسه ، ص67-68.

[6] ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص89.

أما عن الأدوية المستعملة في علاج مرض القولنج فقد أشار الأطباء إلى مجموعة من النباتات والأدوية تستعمل في علاج هذا المرض نبات الحزاءة[1] ونبات الحسك[2] والحلزون[3]. والحنظل[4]، والحرمل[5].

وقد كان بعض الأطباء يلجأون إلى تسكين الوجع من خلال استخدام المخدر مثل شرب الخمور وغيرها[6]، ولكن هذا ليس بعلاج حقيقي في شيء ولكن العلاج الحقيقي هو قطع السبب والتخدير تمكين لسبب وإبطال للحس به كما أن شرب المسهلات من فوق أمر في غاية الخطورة لأنه إذا شرب الدواء من فوق استفرغ لا من المعدة والأمعاء وحدهما بل من مواضع أخرى لا حاجة بها إلى استفراغ بها البتة وذلك يورث ضعفاً لا محالة ويفضل في ذلك الحقن[7].

أما عن الحقن فكان يتم عن طريق إدخال الخنصر في المقعدة ثم يتم دفع الأنبوبة دفعاً لا يوافي محبساً من الأمعاء، بل لا يجاوز المعى المستقيم ويحقن العليل مستلقياً أو باركاً أو مضجعاً على اليسار، والحقن باركاً أوصل للحقنة إلى معاطف الأمعاء[8].

ووصف ابن النفيس علاج مرض القولنج: " أول شيء يبدأ به الحقن، ولتكن أولاً لينة، ثم تستعمل الحادة، وقد يغلظ بأن يكون السبب الساد في أعلى الأمعاء، فإن جذب بالحقن إلى أسفلها عظم الوجع فيظن أن الحقنة ضارة فلا يفرغ من ذلك، ولتعد الحقنة، أما الأغذية: مرقة ديك هرم

---

[1] نبات الحزاءة: هو اسم لنبتة جزرية ، وهو يسخن المعدة ويطرد الريح، وهو نافع لأصحاب الرياح الغليظة والملغمين وأصحاب الجشاء الحامض. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج2، ص19.

[2] نبات الحسك: تسمية عامة المغرب بالأندلس حمص الأمير ، وهو ينفع من القولنج وكل ما يفعله بزره يفعله عصير ورقة إذا شرب رطباً أو جفت عصارته واستعملت. انظر: المصدر نفسه، مج1، ج2، ص20،21.

[3] الحلزون: قيل هو حيوان وقيل هو صنف من ذوات الصدف وهو الحلزون البري، ومنه نوع آخر وهو الحلزون البحري، وإذا دقت كما هي بأغطيتها وسحقت وشربت بشيء يسير من مر أبرأت أصحاب القولنج، وأصحاب أوجاع المثانة. المصدر نفسه ، مج1، ج2، ص29.

[4] الحنظل: هو نبات والثمرة إذا جففت وسحقت وخلطت ببعض أدوية الحقن نفعت من عرق النسا والفالج والقولنج وأسهلت بلغماً. انظر: المصدر نفسه ، مج1، ج2، ص36.

[5] الحرمل: وينفع من القولنج وعرق النسا ووجع الورك .انظر: المصدر نفسه ، مج1، ج2، ص15،14.

[6] ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص89.

[7] حسين، الموجز، ص69، 70. ويفضل الحقن لأنه ربما كانت السدة قوية فإذا توجه إليها خلط من فوق فربما لم تجد منفذاً ويؤدي إلى خطر عظيم وينصح مريض القولنج الريحي أن يجرب أشكال الاضجاع والاستلقاء والانبطاح أيها أوفق له وأدفع للريح. انظر: المرجع نفسه، ص70.

[8] المرجع نفسه، نفس الصفحة.

وحمص أسود، ومصطكي، وفلفل، ومرقة الفراريج أو الفراريج نفسها إن كانت الشهوة قوية، أمـــا الأدوية الموضعية فهي: الكمادات، ويدهن الجوف بدهن ورد، وسنبل ومصطكي وعنبر، ويغـــسل بالصابون والماء الحار في الحمام الحار بعد خفة الوجع، وأما إن كان من حرارة أو يبوسة فالحقن اللينة، وشراب البنفسج بماء حار ولعاب حب سفرجل أو بذر كتان "[1].

ب- الإسهال:

أو مرض الذرب[2] والذي كان معروفاً خلال العصر المملوكي ويكون نتيجة لتلوث الطعام الذي يتناوله الانسان، أو وجود الديدان بالمعدة والأمعاء وقد يسبب الكثير من الآلام[3]

أما عن طريق العلاج المستخدمة خلال هذا العصر لهذا المرض، فيبدوا أن العـــسل ظـــل مستخدماً لعلاج استطلاق البطن الإسهال، كما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك[4] كما أشـــار الطبيب المملوكي ابن البيطار إلى مجموعة من النباتات والأدوية تستخدم في علاج الإسهال، ومنها نبات عصا الراعي[5] وقوته قابضة مبردة وإذا شرب ماءوه وافق نفث الدم من الصدر والإسهال[6].

وثمة نبات آخر ذكره ابن البيطار أيضاً لعلاج الاسهال وهو نبات أبو قابس[7] فإنه يخلـــط بالكرسنة، ويؤخذ منها مقدار أربع أوثولوسات بالشراب المسمى ماء القراطن، وقد يؤخذ هذا النبات

---

[1] ابن النفيس، الموجز ، ص225-226.

[2] مرض الذرب: هو استطلاق البطن، وذلك بأن يخرج الانسان ما يأكله من الطعام سريعاً كمثل هيئته عندما أكل. انظر: جالينوس، كتاب جالينوس، ص233-234.

[3] حسين، الموجز، ص71.

[4] عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أتي النبي فقال أن أخي يشتكي بطنه وفي رواية استطلق بطنه فقال:" اسقه عسلاً فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فلم يغن عنه شيئاً وفي لفظ فلم يزده إلا استطلاقاً فأمره مرة أو مرتين أو ثلاثاً كـــل ذلك يقول له أسقه عسلاً فقال له في الثالثة أو الرابعة صدق الله وكذب بطن أخيك". انظر:ابن حجر، فـــتح، ج11، ص284. انظر: ابن قيم الجوزية، الطب ، ص26.

[5] عصا الراعي: هو البطباط وهو نوعان ذكر وأنثى ، فهو في الدرجة الثانية من درجات الأدوية التي تبرد انظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج3، ص124.

[6] المصدر نفسه ، مج2، ج3، ص124.

[7] أبو قابس: هو الغاسول الرومي، وكان أهالي إيطاليا يغسلون بأصولهما الثياب كما يفعل أهـــل الـــشام بأصـــول العرطنينا ومن الناس من يسميه أبو قابوس. انظر: المصدر نفسه ، مج1، ج2، ص8،9.

كما هو بأصله فيجفف ويدق ويعطى منه مدقوقاً ناعماً مع نصف قوطولي، من الشراب المسمى ماء القراطن وقد يستخرج من أصل هذا النبات عصارة ويعطى منها للإسهال مقدار درهمين[1].

وقد أرجع الدميري حدوثه لعدة أسباب: " منها الإسهال الحادث من التخم والهيضات[2]، وقد أجمع الأطباء، في مثل هذا، على أن علاجه بأن تترك الطبيعة وفعلها، فإن احتاجت إلى معين على الإسهال، أعينت مادامت القوة باقية، وأما حبسها فضرر عندهم، واستعجال مـرض، فيحتمـل أن يكون هذا الإسهال لهذا الشخص المذكور في الحديث، كان من امتلاء هيضة، فدواؤه ترك الإسهال على ما هو عليه، أو تقويته "[3].

ويذكر أن أحد الأطباء " ركّب للأفرم نائب الشام سفوفا يعينه على الهضم، ويسهله، فلمـا أخذ منه الأفرم أفرط به الإسهال، ووثب مماليك الأفرم بابن الوكيل ليقتلوه، فأتى الأمـين سـليمان وكفهم عنه ثم دخل على الأفرم، واعتبر إعراضه، ثم أعطاه أمراق الفراريج، وشرع في إعطـاء المسهلات له، واستفرغه حتى كمل إخراج تلك المـادة التـي انـدفعت، ثـم أعطـاه المقبّـضات والممسكات، فبرأ وأفاق "[4].

وقد علق العمري على هذه الحادثة بقوله " إنما أعطاه أولا المسهّلات مع وجود الإسـهال، لأنه رأى السفوف قد هيج مادّة رديّة، ولم يتم اندفاعها، وإن انحباس بقيتها مفسد للبدن، فاسـتعمل استفراغ تلك المادة الردية، ثم أمسك ما سواها، وهذا من محاسن العلاج "[5].

ج- عسر البول والحصوات:

بلغ من مهارة الأطباء المصريين خلال عصر سلاطين المماليك أن فرقوا بين حصاة الكلى والقولنج: فقد " يقع الشبه بين القولنج وحصاة الكلى بسبب مشاركة القولون للكلية والفرق بينهما أن وجع الحصاة صغيرة كأنه مسلي، يبتدئ من أعلى، وينزل حيث يـستقر مـن أي جنـب كـان، والقولنجي يبتدئ من أسفل ومن اليمين ثم ينبسط، والقولونجي يخف على الخوف، والحصوى يشتد، والقولونجي يكون دفعة ويتحرك إلى جهات، والحصوى قليلاً قليلاً ثم يثبت، والقولونجي ينفعه لين

---

[1] ابن البيطار، الجامع ، مج2، ج1، ص9.

[2] الهيضة: معاودة الهم والحزن والمرضة بعد المرضة ومرض من أعراضه القيء الشديد والإسـهال والهـزال (الكوليرا). مجمع، المعجم ،ج2، ص1003.

[3] حياة ،ج2. ص469.

[4] العمري، مسالك ،ج9، ص549.

[5] المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

الطبع وخروج الريح كثيراً، والحصوى لا ينفعه ذلك إلا بمقدار قلة المزاحمة، والحصوى يتقدمه بول رمل وألم ظهر، والقولونجي تخم وغثيان وسقوط شهوة ورياح[1].

كما فرقوا أيضاً بين حصاة الكلى والمثانة: "علامات حصاة الكلي: ثقل في القطن ووخز عند امتلاء الأمعاء للمزاحمة وبول فيه رمل احمر، وعلامات حصاة المثانة: حكة في أصل القضيب والعانة ووجعها وانتشار القضيب وكثرة العبث به ويشتهي البول عقيب الفراغ منه، وإذا تعسر البول سهل بغمز العانة وشيل الوركين وادخال الاصبع في الدبر، وتنحية الحصاة، وبول فيه رمل رمادي، والسبب في المادي لهما بلغم، غليظ أو مدة أو دم وهما نادران والفاعلي حرارة قوية تحجزه، والكلوية حمراء لأن مادتها أكثر دموية، والمثانية بين الرمادية والصفرة والكلوية تكثر في المشايخ لأن قواهم الطبيعية ضعيفة بخلاف الصبيان فإن قواهم الطبيعية قوية فيقوى على دفعها من الكلى إلى المثانة ولا يقوى إذا كانت في المثانة لأنها في طرف البدن والمثانية أكثر في الصبيان والشبان لأن قواهم تقوى على دفع موادهم إلى أسفل الأعضاء، والمشايخ أغلظ خلطاً، وأكثر من به حصاة الكلى سمين، وأكثر من به حصاة المثانة نحيف والنساء تقل فيهن حصاة المثانة لسعة مجرى بولهن وقصرة وقلة تعاريجه، ومن الناس من يكون لتولد الحصاة فيهم ولخروجها نوائب محفوظة بين ستة أشهر إلى عام، والحصاة مما يورث"د[2].

كما توصل أحد أطباء العصر المملوكي، وهو رشيد الدين أبو حليقة إلى صناعة ترياق نفذت قوته" إلى موضع الحصاة ففتتتها وخرجت من الأراقة (البول) وهي مصبوغة بالدواء وخلص لوقته "[3].

وقد مات تاج بن سينا بن عبد الله، الشويكي – نسبة إلى الشويكة مكان بدمشق – بعلة عسر البول، و كان لقي منه شدائد، " بحيث أنه شق مرة فخرجت حصاة كبيرة وأفاق دهراً، ثم عاوده ثم كانت هذه القاضية "[4].

5- أمراض العيون:

لاشك أن طبيعة المناخ في مصر والشام، أحد العوامل المساعدة على ظهور أمراض العيون بها[5]، هذا ولم تشر المصادر التاريخية إلا لبعض الحالات الفردية التي أصيبت بأمراض

---

[1] ابن النفيس، الموجز ، ص239.

[2] ابن النفيس، الموجز، ص239، 240.

[3] ابن ابي اصيبعة، عيون، ص593. انظر: الذهبي، تاريخ ،ج49، ص324. ابن شاكر، فوات ،ج4، ص250. ابن حجر، إنباء ،ج4، ص27. السخاوي، الضوء ،ج3، ص24. عاشور، فضل ، ص58.

[4] ابن حجر، إنباء ،ج4، ص27. السخاوي، الضوء ،ج3، ص24.

[5] طوقان، العلوم، ص19.

العيون خلال تلك الفترة، إلا أن اهتمام الأطباء المعاصرين للعصر المملوكي، بـأمراض العيـون، وأفرادهم مؤلفات كاملة لهذه الأمراض، ومن هؤلاء الأطباء ابن النفيس في مؤلفه المهذب في الكحل المجرب[1] يشير إلى أن هذه الأمراض كان لها نصيب من الوجود خلال العصر المملوكي.

ومن أشهر أمراض العيون، مرض الرمد، وهو من أمراض الطبقة الملتحمة وهو أكثـر أمراض العين وقوعاً[2]، وهو ورم حار في الملتحمة عن مادة العين، أو منحـدرة مـن الـرأس، فيعرف ذلك بثقله وتقدم الصداع، وقد يكون من الحجاب الداخل، وقد يكون مـن الخـارج فيـسبق الانتفاخ إلى الجفن، وتعرف مادة الورم بالعلامات المذكورة، ويعرف الريحي بالخفة، وفرط التمدد مع قلة الحمرة[3]، والسبل هو عروق تنتسج على الطبقة الملتحمة، وهو غشاوة تشاهد في العين ذات عروق محمرة[4]. وأكثر وجوده شتاءً وربيعاً ويكثر في الشبان والكهول[5].

ومن أسبابه حر الشمس والغبار والدخان فإن برأه يكون بزوال تلك الأسـباب واسـتعمال الأدوية المبردة المقوية للعين كالضماد بخرق مبلولة بماء ورد وشيء يسير من الكافور، أو يكتحل بالبارود الكافوري، المعمول من التوتيا[6] الكرماني الرقيق النقي خمسة دراهم يسحق ناعماً ويلقـى عليه كافوراً مسحوقاً ناعماً حبتان[7].

وإن كان الرمد من أسباب سابقة وكان معه ورم يسير وحمرة ليـست بالـشديدة، فعلاجـه بالفصد مع مراعاة القوة والسن والزمان، فإذا كان العليل صبياً يحجم، ويغذي بأغذية مبردة، كالخل والزيت بلب الخيار والقثاء أو سويق الشعير بسكر مبرد، ويستعمل الـشياف الأبـيض المركـب

---

[1] ابن النفيس، المهذب، ملحق رقم 10.

[2] الإنطاكي، بغية ، ص57.

[3] ابن النفيس، الموجز ، ص155. الحموي، نور، ص268. الأنطاكي، بغية ، ص57.

[4] ابن النفيس، الموجز ، ص352. الحموي، نور ، ص314.

[5] ابن أبي المحاسن، الكافي، ص126.

[6] التوتيا: منها ما يكون في المعادن ومنها ما يكون في الأتالين التي يسبك فيها النحاس، كما يسمى الإقليمية وهو ما يسمى باليونانية بقولس، وأما المعدنية فهي ثلاثة أجناس فمنها بيضاء ومنها إلى الخضرة ومنها إلى الصفرة مشرب بحمرة، ومعادنها على سواحل بحر الهند والسند، وأجودها البيضاء التي يراها الناظر كأن عليهـا ملحـاً، وبعـدها الصفراء، أما الخضراء فإن فيها جروشة، وهي مثقبة ويؤتي بها من الصين، والبيضاء ألطف أجناسها والخـضراء أغلظها، وأما التي تكون في الأتالين فلونها مائل إلى السواد ويوجد فيها غاش وشعر وتراب لأنه هو إنما هو كناسة الأتالين والمواضع التي يخلص فيها النحاس وأشباه ذلك من المواضع التي يسبك فيها. انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص143.

[7] حسين ، الموجز، ص180.

بالأفيون، فإذا أسكن الوجع تستعمل القطور الجيدة، فإذا زالت الحمرة وتحلل الورم، فيدخل العليل الحمام وفي النهاية تغسل العين بالماء الفاتر، فإن ذلك يزول وتنقضي العلة[1].

أما النوع الثاني من الرمد، فهو أصعبها وأشدها حمرة ووجعاً وأعظمها ورماً فينبغي أن يفصد أولا ويستكثر من إخراج الدم، ويفعل ذلك مرة أو مرتين بحسب ما تحتمل قوة العليل[2].

ومن أمراض العين أيضاً القروح التي تصيبها، وهي تحتاج إلى دواء مجفف جلاء ليجفف الرطوبة المجتمعة فيها، وينقي الوسخ منها، وتكون أكثر قروح العين مع ورم حار، أي مع رمد ، احتيج إلى أدوية تسكن الحرارة وأخرى كبياض البيض واللبن والنشاء، وما يجري هذا المجرى، وإلى أدوية تسكن الوجع كالأدوية المخدرة مثل الأفيون[3]، [4] وغيرها[5] من الأدوية.

وقد ذكر الأطباء المسلمون أمراضاً كثيرة تصيب العين، استخدم في بعضها العلاج الجراحي[6]، وفي بعضها كانت تستخدم الأدوية والعقاقير[7].

وكان يتم العلاج للكثير من أمراض العيون في مكان بعيد عن الغبار والدخان والرياح الخارجة عن الاعتدال، على أن يكون قليل الإضاءة بمنأى عن أشعة الشمس الشديدة، لأن أمراض العين تتضرر من شدة الضوء والأشعة[8].

---

[1] ابن النفيس، المهذب، ص78.

[2] المصدر نفسه، ص78 فإن كان العليل صبياً يحجم ويسقى ماء الرمان، وشراب البنفسج مع استعمال اليسير من الأدوية التي تسكن الحدة والحرارة وتلين وتغذي.انظر: حسين ، الموجز، ص181،180.

[3] الأفيون: ابن الخشخاش الأسود إذا أخذ منه شيء يسير سكن الأوجاع وأرقد وأنضج وينفع من السعال المزمن وإذا أخذ منه كثير أنام نوماً شديد الاستغراق جداً. انظر : الرازي، الحاوي، ج7،ص376. ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص45، 46، ابن النفيس، الشامل، ج2، ص503–509؛ ،المهذب ، ص209. النويري، نهاية ،ج11،ص24. الإنطاكي، تذكرة ، ج1، ص80.

[4] حسين ، الموجز، ص183.

[5] ذكر ابن البيطار مجموعة من الأدوية لعلاج قروح العين. انظر: الجامع، مج1، ج1، ص21.

[6] من الأمراض التي تحتاج العلاج الجراحي: تشمير جفن العين الأعلى، والشترة للعين الأرنبية أي قصر الأجفان وارتفاعها حتى لا يمكن أن تغطي العين، وتصير وكأنها عين الأرنب ومنها أيضاً الشرناق وهو جسم شحمي ينبت تحت جلده الجفن الأعلى، والأجفان الملتصقة والبردة والغدة والتأليل والسلع التي في أصول الأجفان، والظفرة وهي زيادة عصبية تنبت من الماق وتمتد حتى تنبسط على السواد وتعظم حتى تغطى الناظر وتمتع النظر، والمدى التي تكون تحت القرنية، وكذلك قدح الماء من العين. انظر: حسين ، الموجز، ص185–189.

[7] أما الأمراض التي تحتاج إلى الأدوية والعقاقير، مثل الرمد والانتفاخ والجساء الحادث في الملتحمة والحكة في العين والسبل والطرفة والودقة، والصفرة قروح العين والبثر والمدة، ونتوء العنبية والإثر والبياض. انظر: المرجع نفسه، ص180–185.

[8] ابن أبي البيان، الدستور،ص 53–56.

وعند إجراء الكحال عملية القدح[1] للمريض، كان عليه أن يجلسه على كرسي أو وسـادة وقدماه معتمدتان على الأرض حتى يتمكن من إجراء العملية[2].

وبعد الانتهاء من العملية الجراحية يتم تعصيب العين (ربطها) ففي ذلك عشر فوائد هـي: منع العين من الحركة والتبصير كما يفعل بعد القدح، وذلك لئلا يعود الماء بحركـة العـين ولـئلا يخرج الروح من الثقب الذي أحدثه المهت، وذلك إذا فتح العين قبل انضمامه، ومنع العين المؤوفـة من الحركة تبعاً لحركة العين الصحيحة التي تربط لتبطل حركتها كما تعصب العين الثحيحة عنـد قدح الأخرى، ومنع الدواء من النفوذ إلى المقلة، وذلك بمنع العين مـن الانتفـاخ، كمـا إذا دررت الأجفان بما له حدة، فإن المقلة تتضرر بما ينزل إليها من ذلك قبل أصلاح الأجفان له، وأكثر مـا يحتاج إلى ذلك في أعين الأطفال، لأن ذلك الغرض لا يتم فيهم بأمرهم بالتغميض، وحفظ ما يوضع على العين من الأضمدة ونحوها، وزيادة تحليل المواد بحبس الأبخرة في العين فتزيـد فـي قـوة الأدوية، وكذلك تستعمل العصابة لذلك المقصود إذا كان المرضى في آخره، لأن الحاجة حينئذ إلى التحليل كثرة، وحفظ العين من الأهوية ونحو ذلك كما قد تعصب العين عقيب السبل مدة يسيرة، ثم تحل لئلا تمنع العصابة من تحريك المقلة فليلتصق بها الجفن، وضغط العين ودفعها إلى الخلف، كما يفعل في علاج الجحوظ أو رد بعض أجزائها إذا برز كما يفعل في علاج النتوءات، ومنع ما يتوقع حدوثه من الجحوظ والنتوء والانخراق ونحو ذلك، وتعصب العين الصحيحة عند امتحـان بـصر المعالج فلا يتوهم أن البصر بالصحيحة، كما يفعل عند قدح إحدى العينين، أو كشط البياض عنهـا ونحو ذلك ومنع الأوجاع، وتسكينها كما تعصب العين عند القيء[3].

وبعد ذلك يأتي دور وضع الأدوية التي تعالج بها العين، ولما كانت تلـك الأدويـة منهـا معدنية، ومنها حجرية ومنها صدفية، ومنها نباتية، ومنها حيوانية، وجميع تلك إنما توافق إذا كانت على هيئة مخصوصة كالكحل والشياف[4] ونحو ذلك ولا بد وأن تكون خالية من الكيفيات الضارة، وجب أن تختلف طرق عملها بحسب اختلاف قوامها وكيفياتهـا فجيمـع المعـدنيات والاحجـار والأصداف يجب أن يبالغ في تصغير أجزائها لئلا تكون خشنة فتؤذي المقلة بتحريكها عليها بحركة

---

[1] القدح: هو إخراج الماء الفاسد النازل في العين .انظر: قاسم، الطب ،ج1، ص307، 308.

[2] ابن النفيس، المهذب ، ص171.

[3] المصدر نفسه، ص171، 172.

[4] الشيافات: مفردها شياف، وهو من التراكيب القديمة ومن المعروف اطلاق هذا الاسم على ما يخص العين، وما يعجن ويقطع إلى استطالة ويجفف في الظل ويستعمل محكوماً، والشياف ألطف على العين مـن الأكحـال، وهـو كالطلاء للبدن، وقد تطلق على الفتل المحمولة وهذا قليل. انظر: حفني، الموجز، ص378.

الجفن، ومن الأدوية ما يحتاج بعد سحقه إلى غسل كثير مثل الأسفيداج[1]، وذلك لإزالة ما يكون فيه من الحموضة الضارة بالعين[2].

وإذا وضع فيها الكحل وضمدت يرقد وينام العليل مستلقياً[3]، فإن ذلك أمكن لأشراف المعالج على العين، وأولى في بقاء ما يقطر فيه[4].

وعند وضعه القطورات للمريض في عينيه، كان على المريض أن يكون مستلقياً حتى لا تخرج القطرة من العين أما عند القدح أو الاكتحال فلا بد أن يكون جالسا متربعاً ليكون أقرب إلى الثبات وأبعد عن الميل[5].

وكان على الكحال أن يكون صاحب مهارة فائقة عند علاجه لأمراض العين المختلفة فعند معالجته للرمد وأمراض الأجفان كان عليه أن يجتهد حتى لا تصل الأكحال المقلة فتؤذيها[6].

وقد نجح الأطباء في عصر سلاطين المماليك في علاج الكثير من أمراض العين بواسطة تدبير الغذاء وذلك بالابتعاد عن الأغذية الضارة بالعين والأخذ بالأغذية النافعة، التي قد تقل كميتها أو تكثر أو تلطف أو تغلظ حسب نوع المرض وحالة المريض الصحية[7]. فعند علاج الصداع الناشئ عن زيادة ضغط العين، وهو المرض المعروف بالجلوكوما، كانوا يصفون الراحة والسكون في الحالات الشديدة، وعنوا بغذاء المريض، حيث يجعلونه خفيفاً لطيفاً ويكون باردا كشوربة الشعير بالسكر[8].

وفي أحيان أخرى كان العلاج يتم من خلال استعمال الأدوية وقد أشار ابن النفيس إلى العديد من الأدوية والتي كانت تستخدم في علاج العين في العصر المملوكي، ومنها نبات يقال

---

[1] اسفيداج: هو رماد الرصاص وأجوده ما يعمل بجزيرة رودس. انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج 1، ج1، ص31. ابن الأكفاني، كشف ، ورقة 108.

[2] ابن النفيس، المهذب ، ص172،171.

[3] ابن الأكفاني، كشف ، ورقة 156.

[4] ابن النفيس، المهذب ، ص156.

[5] المصدر نفسه، ص26-29.

[6] ابن أبي البيان، الدستور، ص 53-56.

[7] ابن النفيس، الموجز ، ص156.

[8] حسين ،الموجز ، ص179.

خاماسوقي[1] حيث " ينفع لبن عيدانه غشاوة البصر والقرحة العارضة في العين التـي يقـال لهـا احيلوش والتي يقال لها يفاليون والأثر العارض في العين اندمال القروح، كما قد يخلط مع العسل ويذهب الأثر الغليظ الحادث في العين ويجلو الظلمة الحادثة في البصر من قبل الأخلاط الغليظـة، ولابتداء الماء في العين "[2].

وقد كانت سائر أنواع الأدوية تختلف من شخص إلى آخر على حسب مـزاج كـل عـين والمرض الذي أصابها[3] وفي بعض الحالات حين لا تجدي الأدوية كان يتم التدخل الجراحي وذلك باستخدام مجموعة من الآلات الطبية المتطورة.

وعالج الأطباء في عصر سلاطين المماليك كثيراً من أمراض العين مثل الالتـصاق فـي الأجفان وقد يكون الالتصاق في أحد الجفنين بالآخر، وقد يكون في أحد الجفنين أو كليهما بالمقلـة، وسببه: إما قروح طال انطباق الجفن عليها وأما خطأ وقع بعد لقط السبل أو قطع الظفرة، أما عـن العلاج فيقول ابن النفيس:" لا أعرف لهذا علاجاً سوى الحديد، ينبغي أن يكون ذلك بعد تنقية البدن والرأس[4]، والشعيرة: وهي ورم صغير صلب مستدير كالشعيرة في شكله، يحـدث فـي طـرف الجفن، أما علاجه: يبدأ بتنقية البدن بمثل الفصد والإسهال، ثم يستعمل الكماد بالشحم المذاب والشمع المذاب، أو دقيق الشعير[5].

أما عن علاج العين فيتم بأمور ثلاثة هي: التدبير بالغذاء، وهو التـصرف فـي الأسـباب الضرورية وحكمه من جهة الكيفية وحكم الأدوية، حيث يجب اختيار نوع الغذاء فإن أجود الأغذية للعين هي التفهة اللينة السهلة الانهضام والانحدار عن المعدة الجيدة كحساء الشعير، أمـا الأغذيـة المبخرة والمدخنة والمكدرة للدم والمثورة للمواد والمجففة والمالحة والشديدة الحموضـة والـشديدة الحلاوة والدمة والمرخية للمعدة والضارة بفم المعدة والضارة بالأعصاب فكلهـا رديئـة والعـلاج بالأدوية ووجب أن تكون أنواع أدوية العين على عدد أنواع أمراضها فيكون منها مبدلات المـزاج

---

[1] هو نبات شديد المرارة من الناس من يسميه سوفي ، وهو نبات له عيدان وطولها نحو من أربعة أصابع، وهـي لاطئة مع الأرض على استدارة، وهي مملوءة من لبن، وعليها ورق شبيه بور ق العدس .انظـر: ابـن البيطـار، الجامع ، مج1، ج2،ص45.

[2] المصدر نفسه ، مج1، ص45.

[3] السيوطي، الرحمة ، ص53-61.

[4] ابن النفيس، المهذب ، ص288، 289. الظفرة: هي زيادة عصبية تبدو من أحد الماقين (طرف العين مما يلـي الأنف) أو منهما. انظر: الإنطاكي، بغية ، ص57.

[5] المصدر نفسه ، ص270.

وهي إما حارة كالمسك، والزعفران[1] أو يابسة مجففة كالتوتيا، والإثمد[2] أو رطبة كاللبن ومنها محللات مستفرغات المواد من العين كالحلبة، ومنها منضجات المواد كالزعفران والحلبة، ومنها مسكنات للوجع مخدرات كالأفيون والبنج، والخشخاش[3]، ومنها مصلحات لهيئة العين كالأدوية التي ترد النتوء وتمنع الجحوظ، وكأدوية الحول ونحو ذلك، ومنها أدوية تدمل وتلحم ما يعرض في العين من تفرق والاتصال، وهي الأدوية التي فيها تجفيف غير كثير، وبعيدة من اللذاع، ومنها الأدوية التي تستعمل في أورام العين كالرداعات، مثل بزر السفرجل[4].

ومن الأدوية المركبة التي عالج بها الكحالون الأكحال مثل كحل الورشنايا ومعناه جالب النور، وهو نافع من ضعف البصر والغشاوة[5]، وكحل العزيزي وهو كحل يجلو البصر وينفع من ظلمته ومن الدمعة، ويقوي العين ويحفظ صحتها[6]، وكحل الشاذج وهو دواء يحفظ صحة العين ويقويها[7]، كذلك الشيافات مثل شياف السنبل، يكتحل به من داخل العين ويطلي من الخارج فينفع من بقايا الأرماد ويحلل غلظ الأجفان وينفع من الجرب الخفيف والحكة[8].

كما استخدم الكحالون الرفادة – الدعامة كالعصا ونحوها تشد على العضو، فأكثر نفعها في رد الجحوظ والنتوء وفيما يتوقع حدوثه من ذلك، وقد ترفد العين عند قدح الأخرى حيث تمنع حركة التي تقدح تبعاً لحركة التي ترفد وتربط، وأن يكون منع البصر بالتي تربط أشد، فيكون دفع الريبة كثر، وينبغي أن تكون الرفادة ذات سمك يعتد به ليصل إليها قوة ربط العصابة وضغطها لها مع قيام الأنف تحتها[9].

---

[1] الزعفران: أجوده الذكي الرائحة، مفتح محلل منضج قابض، ويجلو البصر.انظر: ابن النفيسن المهذب ، ص219.

[2] الإثمد: يصفي روح العين فلذلك يحد البصر لأجل تنقيته لفضول الأجفان ويزيل المانع عن نبت الأهداب فلذلك هو ينبت شعر الأجفان ولذلك يدخل في الشيافات التي تستعمل لعلاج العين، ابن النفيس، الشامل ، ج1، ص181؛ المهذب ، ص208، ابن الأكفاني، كشف ، ورقة 108.

[3] خشخاش: رؤوسه مستطيلة وبزره أبيض وقوة جميع الخشخاش قوة تبرد إلا أن الخشخاش الذي يزرع في المناهل والبساتين بزره ينوم تنويماً معتدلاً قصداً. انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج2، ص60. الإنطاكي، تذكرة ، ج2، ص195

[4] ابن النفيس، المهذب ، ص153–155.

[5] ابن أبي البيان، الدستور ، ص53–57، ابن النفيس، المهذب ، ص229.

[6] ابن النفيس، المهذب ، ص230.

[7] المصدر نفسه، ص233.

[8] ابن أبي البيان، الدستور ، ص53–57.

[9] ابن النفيس، المهذب ، ص172. الحموي، نور، ص104.

أما أولى الأوقات لعمل أدوية العين من الشيافات والذرورات ونحوها هو الربيع لاعتدال الهواء فيه، لكن أوائل الربيع بالشيافات أولى لئلا تتحلل قواها بقوة الحرارة وفي مدة تجفيفها، فلذلك ينبغي تجفيفها في الظل أما الذرورات فيجوز تأخيرها إلى آخر الربيع[1].

وينبغي أن يكون كل واحد من الأكحال والأشيافات بمفرده، ولا تجمع عدة من الشيافات في وعاء واحد لئلا يكتسب كل واحد منها قوة من الآخر، وتضعف بذلك قوة وتبطل، وكذلك فإن المسك تقل حرارته إذا جاوز الكافور، وتقل برودة الكافور إذا جاوز المسك[2]. [3]

ويجب عند العلاج بالأدوية أن يراعي اجتناب: المخدرات كالأفيون إلا عند شدة الوجع جداً وما له كيفية مفرطة كالخل[4].

وينبغي على الكحال قبل أن يصف علاجاً لمداواة العين أن يعتبر في كل مرض عشرة هي: نوع المرض، فإن المجهول مجهول الضد لا محالة ومقدار المرض، فإن المرض القوي يحتاج إلى دواء قوي، والضعيف يكفيه ما هو دون ذلك، وسبب المرض ليزال، فإن زوال السبب مع بقاء سببه متعذر، وقوة المريض فلا بد وأن تكون بحيث تفي بدفع المرض، ومزاج المريض، فلا يكفي ما يرد العين إلى المزاج الطبيعي لعين الإنسان مطلقاً، بل إلى المزاج الخاص بتلك العين، وسن المريض، فلا يدبر الشيخ بتدبير الطفل، وعادة المريض، فالعين المعتادة ضرباً من العلاج لا يغير عنها إلا لضرورة، والوقت الحاضر من أوقات العام، أي فصولها، فليس التدبير في الصيف كما هو التدبير في الشتاء، والبلد، فليس التدبير في بلاد مصر، وحال الهواء في وقت العلاج فإن اليوم الحار يناسب في أحكامه للفصل الحار، وكذلك البارد للفصل البارد[5].

وينبغي على الكحال عند وصف الدواء للمريض أن يكتب المقادير التي يتكون منها الدواء المركب، فعلى سبيل المثال دواء مثل كحل الشاذنج، أخلاصة: أثمد ستة دراهم، مرقشيشاً[6] أربعة

---

[1] ابن النفيس، المهذب ، ص174.

[2] المسك: لطيف مقوي للعين وينشف رطوبتها ويجلو البياض. انظر: المصدر نفسه، ص219.

[3] المصدر نفسه ، ص174، 175.

[4] المصدر نفسه ، ص109.

[5] المصدر نفسه، ص152، 153.

[6] مرقشيشاً: هو حجر توجد فيه بعض أنواع المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد، ويسمى بحجر النور لنفعه للعين. انظر: ابن النفيس، المهذب ، ص219، 220.

دراهم، إقليمياً[1] درهمان، بسذ[2] لؤلؤ[3] وزعفران من كل واحد نصف درهم، شـــاذنج[4] هنـــدي درهم، مسك قيراط[5].

وربط أطباء الكحالة بين الأمراض التي تصيب العين وبين الأحداث النفسانسة، فينبغـــي أن تجتنب منها الحزن والهم والغم والغضب والفرح المفرطين، ثم الفكر والتخيل الزائدين، وخاصـــة فيما يكتب القلب، وليحذر البكاء الشديد، فإنه مضر، بالعين والروح الباصر[6]، كما ربط الأطبـــاء بين أمراض المعدة وأثرها على أمراض العين، وإذا كانت هذه الأمراض بمشاركة المعدة تقـــدمها علامات آفات المعدة، واختلف ذلك بحسب الخلو والامتلاء وفي الأكثر يكون ذلك مـــع خيـــالات، وكذلك إذا كانت هذه الأمراض مشاركة الرحم ونحوه[7]، وجاء ذلك المعنـــى فـــي وثيقـــة وقـــف البيمارستان المنصوري، فإن كان فيهم من به قروح أو أمراض في عينيه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي راجعة وأحضره معه وباشر معه من غير انفراد عنه، وراجعه في أحوالـــه إلـــى حين برؤه وشفائه[8].

6- أمراض الفم والأسنان:

يعتبر الفم المدخل الطبيعي لجسم الانسان، فعن طريقه يعبر الغذاء والشراب إلى الجـــوف، فإن كان الفم والأسنان بهما أمراض فلا شك أن ذلك يؤثر على باقي أجهزة الجسم[9].

ومن ذلك أن الإنسان إذا أقدم على خلع أحد أسنانه، في حالة وجود عفن في عظم الفك فقد يلحق به الضرر، لأن ذلك من شأنه أن يهيج الوجع الشديد، وربما يهيج وجع العين والحمى[10].

---

(1) إقليمياً: زبد يعلو المعدن عند سبكه وثقل يرسب تحته انظر: الإنطاكي، تذكرة ، ج1، ص101.

(2) بسذ: هو المرجان وأجوده الأحمر الدقيق، قابض مجفف يقوي العين ، ويجفف الدمعة. انظـــر: ابـــن النفـــيس، المهذب ، ص210. الإنطاكي، تذكرة ، ج1، ص155.

(3) لؤلؤ: ينشف ويقوي العين ويحفظ صحتها، انظر: ابن النفيس، المهذب ، ص219.

(4) شاذنج: يسمى حجر الدم منه معدني ومصنوع من المغناطيس إذا تم حرقه ويستخدم في عـــلاج العـــين فيقـــوي البصر. انظر: الإنطاكي، تذكرة ، ج1، ص500.

(5) ابن النفيس، المهذب ، ص233.

(6) ابن أبي المحاسن ، الكافي، ص91. ابن أبي الحوافر، نتيجة، ص72.

(7) ابن أبي المحاسن ، الكافي ، ص121.

(8) ابن حبيب، تذكرة ، ج1، ص365، 366.

(9) موسوعة الدين والحياة، ج5، ص238.

(10) ابن سينا، القانون، ج2، ص192.

ومن ذلك ندرك مدى عناية أطباء هذا العصر بمعرفة دقائق الفم والأسنان لأنهما أول ما يستقبل الطعام، لذلك توصل الأطباء إلى عملية ترميم الأسنان المتآكلة وحشوها بمعاجين مكونة من الكبريت والقطران والشيح والكافور المصطكي[1].

كما عرف الأطباء المسلمون طرق تقويم الأسنان ببرد وخلع الشاذ منها[2] واتخذوا بدائل للأسنان المخلوعة باستخدام قطع من عظم البقر، وتثبيتها بالفم على قواعد من ذهب وفضة[3]، كما استعمل الأطباء المحاليل والمساحيق التي تجلوا الأسنان وتمنعها من التآكل[4].

وقد كان لأطباء العصر المملوكي دور مهم في بث الوعي الصحي فيما يتعلق بأمراض الأسنان وطرق الوقاية منها، ومن ذلك الطبيب داود بن أبي البيان[5] في مؤلفه الدستور البيمارستاني، والذي أفرد فيه باباً كاملاً، وهو الباب الحادي عشر، لأدوية الفم والمسنونات[6].

كما ذكر ابن البيطار وهو من اطباء العصر المملوكي ايضاً مجموعة من الأدوية لعلاج الفم والأسنان منها الأرفطيون[7] الذي متى طبخ أصله وثمرته بالشراب سكن أوجاع الأسنان إذا أمسك طبيخهما في الفم[8]، والحلتيت[9] أيضاً قد يوضع في التآكل العارض في الأسنان فيسكن وجعها، ويخلط بالكندر ويلطخ على خرقة ويوضع على الأسنان فيسكن وجعها[10].

---

(1) ابن سينا، القانون، ج2، ص190.

(2) الزهراوي، التصريف، ص66.

(3) عبد الرازق، الحضارة، ص166. فكري، الحضارة، مج2، عدد3، ص57.

(4) عبد الرازق، الحضارة، ص166.

(5) داود بن ابي البيان: (556 – 643 هـ/1161 – 1245م) سليمان بن اسرائيل ابن سليمان بن مبارك الاسرائيلي (أبو الفضل) طبيب، ولد بالقاهرة، من تصانيفه: كتاب الاقراباذين، تعاليق على كتاب العلل والاعراض، ودستور الأدوية المركبة. الصفدي، الوافي، ج13، ص292. البغدادي، هدية، ج1، ص360. كحالة، معجم، ج4، ص136.

(6) ابن أبي البيان، الدستور، ص 2.

(7) الأرفطيون:هو نبات ورقه شبيه بورق قلومس إلا أنه أكثر زغباً منه وأشد استدارة وله أصل حلو أبيض لين وساق رخوة طويلة وثمر شبيه بالكمون الصغير الحب. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1،ج1، ص19.

(8) المصدر نفسه، مج1، ج2، ص27.

(9) الحلتيت: وهو صمغ الأنجان، وهو أكثر ألبان الأشجار حرارة ولطافة ولذلك هو أشد تحليلاً وقد يجمع من الإنجدان الصمغ بأن يشرط أصله وساقه. انظر: المصدر نفسه ، مج1، ج2، ص27.

(10) المصدر نفسه ، مج1، ج2، ص27.

علاج أمراض الأسنان:

وقد برع أطباء العصر المملوكي في معرفة أنواع كثيرة من الأدوية لتسكين وجع الأسنان وإزالة أعراضها، وقد ذكر الطبيب ابن النفيس العديد، ومنها نبات العاقر قرحا[1]، حيث أن "قوته محرقة تحرق وبسبب هذه القوة صار يسكن وجع الأسنان الحادث من البرودة"[2] كما توصل أحد أطباء العصر المملوكي، وهو رشيد الدين أبو حليقة إلى صناعة ترياق يتسوك به المريض بأسنانه فيبرأ في الحال[3].

ومنها نبات الأَثْلَ " لأجل ما فى هذه الثمرة من العفوصة القبَّاضة، والمرارة المجفِّفة المنقِّية الجلاَّءة؛ صارت هذه الثمرة شديدة التشديد للَّثةِ، والتقوية للأسنان، والتثبيت لها إذا كانت متقلقلة، وبقوة تجفيفها، تأكل اللحم الزائد في اللثة، وتنفع من تآكل الأسنان، وذلك لأجل تنقيتها لها بالتجفيف والتحليل. ولأجل تحليلها، هي تسكِّن وجع الأسنان، وإذ هذه الثمرة تفعل فى اللثة هذه الأفعال، فهى – لامحالة – تطيِّب النكهة إذ كان حدوثُ البخر، عن ترهُّل اللثة، أو فسادها وعفنها، وعفن الأسنان[4].

" وشراب الآسِ يشدُّ اللثة ويقوِّيها، لما فيه من التجفيف والتقوية، وكذلك رُبُّه؛ وهذا الرُّبُّ أقوى فى ذلك. وكذلك إذا تُمضِمْضَ بعصارة الآسِ فَعَلَ ذلك، وإذا طبخ الآسُ فى الشراب، وتُمضمض به؛ قوَّى الأسنان ومتَّنها، وقوى الغمور وشَدَّ اللَّثَة ونفع من استرخائها، وينفع كذلك من البَخَر[5].

ولم ينس الأطباء في العصر المملوكي زهرة الحياة الدنيا الأطفال فذكر ابن النفيس " أن دماغ الأرنب إذا دُلِّكت به لَثَةُ الأطفال؛ نفع من الورم العارض لهم من نبات الأسنان... والسببُ في نفع دماغ الأرنب، في إبطال وجع الأسنان إذا دُلِّكت به اللثة، هو أن هذا الدماغ، مع أنه ليِّنٌ دَسِمٌ، مسهِّلٌ لخروج الأسنان بتليينه اللثة فإنه بحرارته يسهِّل خروج السِّنِّ، لأن الحرارة جذابة للمادة إلى موضعها[6].

---

[1] العاقر قرحاً: هو دواء عند أهل الصناعة بدمشق، ويعرف بعود القرح الجبلي، وهو كثير بأرض الشام يشبه نباته ما عظم من نبات الراز ايانج. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج3، ص115.

[2] المصدر نفسه، مج2، ج3، ص115.

[3] ابن أبي أصيبعة: عيون ، ص592.

[4] ابن النفيس، الشامل ،ج1،ص 170.

[5] المصدر نفسه،ج2،ص 339.

[6] المصدر نفسه ،ج1،ص 260-261.

كما صنع ابن النفيس الدواء المسمَّى بالإذخر " يُتَمَضْمَضُ بطبيخه، لأوجاع الأسنان "[1].

وقد حذر ابن النفيس من استخدام نبات الأُتْرُجِّ؛ لأنه يفرز حمض " يضرُّ الأسنان بغوصه فيها وقوَّةِ جلائه المزيل لما عليها من الرطوبات التى تدفع عنها أضرار الملاسات وذلك، فإن هذا الحمض شديد الإحداث للضرَس، ومع ذلك، فلأن هذا الحمض - لأجل إضراره بالعصب - يضرُّ الأسنان بإضراره بالأعصاب الآتية إلى اللثة. ولذا كان هذا الحمض ضاراً بالأعصاب، لأنه مع قوة برده وتقطيعه، فإنه شديدُ النفوذ، غوَّاصٌ "[2].

ويبدو أن أمراض الفم والأسنان كانت تعالج داخل بيمارستانات مصر والشام في العصر المملوكي، بدليل أن أدوية الفم والأسنان كانت تصنع داخل هذه البيمارستانات[3].

7- علاج أمراض العظام:

وقد توصل علاج الكسر جبره أي تصحيح الكسر وإعادته إلى الوضع السابق قدر الإمكان وهذا ما اتفق الأطباء العرب عليه ومارسوه أو ما زلنا نمارسه إلى يومنا هذا وقد اتفق الأطباء على عدة مبادئ نستعرضها فيما يلي[4]:

1- السرعة في العلاج:- "واعلم أن العظم إذا انقصف واندق باثنين من غير أن تحدث فيه شظايا إلا أنه قد زال كل جزء عن صاحبه فينبغي لك أن تبادر من حينك إلى تقويمه وتسويته قبل أن يحدث له ورم حاد فإن حدث ورم حاد فاتركه أياماً حتى يسكن الورم الحاد ثم سده بأي وجه من الرفق والحيلة ".

2- الشد برفق وتجنب الألم "ويجب أن يحذر الإيجاع الشديد عن المد والشد في الكسر والخلع معاً، وكثيراً ما يعرض من الشد الشديد وإبطاء الحبل وقلة تعهد ذلك أن يموت ذلك العضو ويعفن ويحتاج إلى قطعه "[5]. لقد استعمل الأطباء إذن الشد بالحبل بالإضافة إلى الشد باليدين لتسوية الكسر.

أما طريقة علاج الكسور، فينصح أن تكون مباشرة بعد الكسر وقبل أن يحدث ورم حاد، فإذا حدث ورم فينبغي أن يترك حتى يسكن الورم الحاد ويسوى بأي وجه ممكن ويبدأ العلاج أولاً

---

[1] ابن النفيس، الشامل، ج1، ص213.
[2] المصدر نفسه ،ج1، ص150.
[3] ابن أبي البيان، الدستور، ص 2.
[4] اللبدي ، جراحة، http://www.altibbi.com/article/290.
[5] ابن سينا ،القانون ،ج3، ص 258.

بتسوية الكسر، أما باليد وإما بحيلة حتى يعود العضو إلى شكله الطبيعي وطريقة شد العضو تتلخص فيما يلي[1]:

أولاً: يحاط العضو بعجينة خاصة مثل غبار الرها المعجون ببياض البيض (الجبس).

ثانياً: بعد ذلك يلف العضو بالأربطة.

وللرباطات المستعملة في الكسور صفات يذكرها ابن سينا[2]:

" يجب أن تكون خرق الرباط نظيفة فإن الوسخ صلب يوجع وتكون رقيقة لينفذ شيء إذا طلي بهـا وخفيفة لئلا يثقل على العضو الألم.

ويجب أن يأخذا الرباط من الوضع الصحيح شيئا له قدر، فإن ذلك أضبط للمجبور من أن يزول ".

" أما شكل الرباط فيكون عريضاً أو رقيقاً حسب العضو ولكن بحسب ما يمكن في كل عضو فليس ما يمكن من ذلك في الصدر مثل ما يمكن في اليد ".

وكيفية الربط أيضاً محددة "يجب أن يبدأ بالربط من الموضوع المكسور ومن حيث يميل إلى العظم وهناك يكون أشد ما يكون شداً وحين الكسر أشد يجب أن يكون الربط أقوى وبالجملة موضع الكسر والموضوع الذي يحتاج أن يدفع عنه المواد وأن يحفظ عليه الوضع وذلك يؤمن من تعفن العظم ".

" ولا ينبغي أن يبلغ بشد الرباطات والجبائر مبلغاً يمنع وصول الغذاء والدم فذلك يمنع الإجبار "، و " أن يحل الرباط يوماً ويوماً فإن ذلك أولى بأن لا يضجر العليل ولا يغريه بالعبث به وحله لما لا بد أن يتأذى العضو المصاب من رطوبة رقيقة مؤذية ".

ثالثاً: تشد على تلك اللفاف الجبيرة وهي مصنوعة من أغصان القصب العريض المجوفة أومن خشب الصنوبر، او من جرائد النخل وتكون الجبيرة على هيئة نصف اسطوانية. " فـإذا انجـذب العظم ورفع إلى موضعه دهون بدهن ورد وذر عليه آس مدقوق وزر ورد منزوع الأقماع وتوضع عليه الجبائر من جوانبه الأربعة وأجود ما تتخذ منه خشب قد جمع الصلابة واللين مثل خشب الدفلا والرمان"[3]." وإن وضعت الجبائر من الجوانب الأربع فهذا أحوط ولا بأس لو كان لها فضل طول فإنه لا معبرة في ذلك ولا خسران في أن يأخذ من قرب المفصل عن غير أن يعيش المفصل نفسه وأطول جانبيه الجانب الذي يلي حركة ميل العضو"[4].

---

(1) اللبدي، جراحة، http://www.altibbi.com/article/290.

(2) ابن سينا، القانون ،ج3،ص261.

(3) اللبدي: جراحة، http://www.altibbi.com/article/290.

(4) ابن سينا، القانون ج3،ص263،

إذن فالجبائر تربط بعد تأمين عدم حدوث الورم الحاد من المفصل إلى المفصل ومن الجوانب الأربع ويكون عرضها وطولها حسب طول وعرض العظم المكسور.
رابعاً: يشد على الجبائر بعصابة أخرى من الأربطة[1].

وعند تكون الدشبذ، وهو المادة المتكونة حول الكسر ولها صلابة العظام يقول ابن القف: "بل يلتصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر وينسج عليه جسم أبيض شبيه بالعصب يسميه الأطباء بالدشبذ والأطباء تختلف في إنتاج هذا الجوهر". ويتابع "وأوقات الربط على الشرط المذكور عشرون يوماً فإن هذا هو وقت ابتداء إنتاج الدشبذ وفي مثل هذا الوقت يجب على الجرائحي أن يعتمد في تدبير العضو أمور خمسة أحدها أن يجعل الشد رخواً لئلا يمنع مادة الدشبذ من النفوذ وألما العضو المكسور وثانيها أن يمنع العليل من الحركة والجماع والفصد والسكون في المواضع الحارة فإن هذه جميعها تذيب مادة الدشبذ ولا في المواضع الباردة جيداً فأنها تجمد مادة الدشبذ وتمنعه عن سرعة النفوذ والوصول إلى العضو المكسور وثالثها أن يمنع من الشراب لا سيما الكثير المزاج – وكغيره الأباريز[2] الحارة في الطعام فإنها تلطف مادة الدشبذ وذلك مما يرقف الجبر ورابعها أن يجعل أغذية فيها لزوجة ليسهل توليد الدشبذ منها وخامسها أن ينصل موضع الكسر عند رفع الرفائد عنه بماء – طبخ في زر الورد والأسى والجلنار والبابونج"[3].

وهذا الحرص والدقة دليل على فهم الميكانيكية والباثولوجي لجبر الكسور وهذا وإن كان يفتقر إلى الفهم الحديث إلا أنه يتمتع بالدقة والفهم الملائم في ذلك العصر والكافي لفهم ميكانيكة العلاج[4].

وعلى الطبيب " أن يجتهد في تسكين الألم ولو باستعمال المخدرات " فرفع العضو مهم لتخفف الورم وللسكون والسكون مهم لتكوين الدشبذ والتحام العظم هذه معرفة مهمة في علاج العظم ما زالت صالحة حتى في أيامنا[5].

ولقد عرف الأطباء في العصر المملوكي أهمية الوقت في علاج الكسور وعرفوا اختلاف الوقت اللازم في كل عظم وكسر وأن أضافوا في الغالب ويعالج حتى يبرأ ولكن الجراحين يتفقون على كسر الترقوة في ثمانية وعشرين يوماً، والعضد في خمسين يوماً إلى شهرين لا يكلف الموضع

---

[1] حسين ،الموجز ،ص145.
[2] الأباريز: التوابل. مجمع، المعجم، ج2، ص732.
[3] اللبدي، جراحة، http://www.altibbi.com/article/290.
[4] المرجع نفسه. نفس الصفحة.
[5] المرجع نفسه. نفس الصفحة.

هذه المدة بحمل شيء ثقيل أو يضرب بها إلى مرتب ستة أشهر بعد كمال الجبر والذراع في ثلاثين يوماً وفي اثنين وثلاثين وربما أجبر في ثمانية وعشرين، والفخد والساق في خمسين يوماً ، وعقب عملية التجبير أو العلاج كانت المواضع المكسورة تضمد ببعض الدهانات والنباتات التـــي تـساعد على اكتمال الشفاء وقد أشار ابن البيطار إلى بعضها ومنها نبات يقال له "الحلاب"[1] قـــال بـــأن " عصارته إذا خلط معها دقيق حواري[2] وضمد به بقايا الكسور والفكوك والـــوهن والـــوفى نفـــع منها"[3].

8-علاج الأمراض النفسية:

ومن الأمراض التي عرفها الأطباء النفسيين خلال عـــصر ســـلاطين المماليـــك مـــرض المالنخوليا، وأعراض ذلك المرض هي تشوش الفكر والظنون إلى الفساد والخوف، ويبتدئ بسرعة غضب، وحب الخلوة، وخوف مما لا يخاف منه عادة، فـــإذا اســـتحكم قويـــت تلـــك الأعـــراض، وعروضه للرجال أكثر وللنساء أفحش[4]، أما عن علاج ذلك المرض فيكون بالفصد إن وجد فـــي الدم كثرة[5]، أما الأدوية فيصف الأطباء الشعير المبذر كما يشير العلامة الطبيـــب ابـــن النفـــيس بالتركيز على العلاج بالغذاء[6].

ومن الأمراض النفسية أيضاً العشق، وذلك المرض إذا تمكن من القلب واســـتحكم وقـــوي سلطانه، أفسد الذهن وأحدث الوسواس، ويلحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعـــون بها[7]، كما أن المريض بالعشق يعزف عن تناول الطعام والشراب وتبدوا عليه علامـــات النحـــول والمرض، ويذكر ابن أبي أصيبعة عن ذلك المرض حادثة وقعت للطبيب رشيد الدين أبي حليقـــة، وهو من الأطباء الذين برعوا في مداواة الأمراض النفسية حيث " جاءت امرأة من الريف، ومعهـــا ولدها وهو شاب قد غلب عليه النحول والمرض فشكت حال ولدها وأنها قد أعيت فيه المداواة، وهو

---

[1] الحلاب: هي حشيشة صغيرة تنبت في أطراف العمارات والأرضين الحرشا، وورقها دقيق ولها قضبان دقـــاق، ولها زهر رقيق أبيض، وطول هذه الحشيشة مقدار شبر لا أزيد، وقوتها باردة يابسة . انظر: ابن البيطار،الجامع ، مج 1، ج2، ص26-27.

[2] دقيق حواري: أجود أنواعه الأبيض وكانت الرملة تنتجه. المقدسي: أحسن، ص181. ابن منظور: لسان، مـــادة (حور). المقريزي: السلوك، ج5، ص205.

[3] انظر: الجامع ، مج 1، ج2، ص26-27.

[4] ابن النفيس، الموجز ، ص139. الكازروني، شرح، ميكروفيلم، 31054 طب 189.

[5] ابن النفيس، الموجز ، ص140، الشيرازي، الحاوي ، ميكروفيلم، 48467 طب 1804.

[6] ابن النفيس، الموجز ، ص140، 141.

[7] ابن قيم ، الداء ، ص277.

لا يزداد إلا سقاماً ونحولاً وكانت قد جاءت إليه بالغداة قبل ركوبه، وكان الوقت بارداً فنظر إليه واستقر حاله، وجس نبضه، فبينما هو يجس نبضه ، قال لغلامه أدخل ناولني الفرجية حتى اجعله علي، فتغير نبض الشاب عند قوله تغيراً كثيراً، واختلف وزنه وتغير لونه أيضاً فحدس أن يكون عاشقاً، ثم جس نبضه بعد ذلك فتساكن وعندما خرج الغلام إليه وقال له: هذه الفرجية، جس نبضه فوجده، أيضاً قد تغير، فقال ان ابنك هذا عاشق والتي يهواها اسمها فرجية، فقالت أي والله يا مولاي هو يحب واحدة اسمها فرجية[1]، وقد عقب ابن أبي أصيبعة بقوله: " وهذا يدل على وفور العلم وحسن النظر في تقدمة المعرفة "[2].

ومن الأمراض النفسية أيضاً الصرع وسبب الصرع سده غير تامة في مجاري الأعصاب المحركة للأعضاء فيمنع الروح النفساني عن السلوك الطبيعي فيها فلذلك يهيج سريعاً ويسكن سريعاً لأنه كريح غليظ فيشنج جميع الأعضاء المتحركة ويغم جميع البدن لأن السدة عرضت لمبادئ الأعصاب، وحدد الأطباء علامات الصرع وهي رداءة الحواس وخبث النفس وثقل الرأس وتقدم أو جاعة وصفر اللون وشدة الغضب من غير سبب، أما العلاج فهو تنقية البدن والدماغ بحب الأرياج والصبر ومطبوخ الزبد[3].
ومن العقاقير التي استخدمها أطباء الأمراض النفسية: الأفيون، والخشخاش، والأسطرخودانس[4].

ومن المعالجات الجيدة المشتركة لأكثر الأمراض الفرح ولقاء من يسر وملازمة من يستحي منه، ويستأنس بحضرته، حتى ربما برئ المريض بالعشق بزيارة من معشوقه بعد الجفاء دفعه[5].

وثمة نوع من أنواع العلاج اشتهر خلال العصر المملوكي، كان في المقام الأول علاجاً نفسياً ولكنه سبباً في شفاء العديد من الأمراض العضوية، وذلك من خلال استخدام مجموعة من الطاسات النحاسية أو البرونزية، أو ما يطلق عليها اسم "طاسة الخضة" أو الرجفة أو الشفاء أو الطلسم، أو الطاس السحرية[6]. وكانت عبارة عن أواني صغيرة تتصل بها عادة سلسلة بها قطع

---

[1] ابن أبي اصيبعة، عيون ، ص595.

[2] المصدر نفسه، نفس الصفحة

[3] الكازروني، شرح، ميكروفيلم، 31054 طب 189. الشيرازي، الحاوي، ميكروفيلم، 48467 طب 1804.

[4] الاسطوخودانس (الشيح الجبلي): إن هذا الدواء شديد النفع في المنالخوليا والصرع والرعشة وجميع أمراض العصب، ويقوي الذهن، لأنه يلطف الروح النفسائي والحيواني، تلطيفاً كثيراً لذلك يفرح ويسر النفس. انظر: ابن النفيس، الشامل ، ج1، ص295.

[5] ابن النفيس، الموجز ، ص69.

[6] عبد الرازق، الفنون ، ص122.

صغيرة من الحديد تعرف باسم المفاتيح، وكانت تملأ بالماء، أو الماء المخلوط بالزعفران أو الماء الحار، أو الزيت أو باللبن، وتترك مكشوفة في الهواء الطلق ليلة بأكملها، وفي الصباح يشرب المريض ما فيها ويكرر ذلك العمل ثلاث ليال أو سبع ليال أو أربعين ليلة حتى يزول المرض أو الألم[1].

ويفهم من الكتابات المنقوشة عليها أنها كانت تستعمل في شفاء جميع العلل أو الآفات أو الأوجاع أو الأسقام والأوضاع ولكل شيء من كل شيء إلا علة الموت[2].
فمن الأمراض التي كانت تستخدم في علاجها، لدغة الحية والعقرب والحمى، والطلقة التي تعاني ألم الطلق أثناء الوضع، وليس المطلقة التي انفصل عنها زوجها بالطلاق كما اعتقد أحد الباحثين[3].

كما كانت تستخدم لإدرار اللبن للولد المغل[4]، وتنفع كذلك من عضة الكلب (المسعور) والمغص والقولنج والشقيقة[5] والزريان (الاسهال)، وحمى الكبد، وحمى الطحال، ولرد اللقوة[6] ورمي الدم أو قطع الدم (الدوسنتاريا) ووجع القلب والعين والنظرة وافاقة المسروع والفلج ووجع الركب ووجع الظهر، وإبطال السحر وعسر البول، ووكز الدبيب (ابعاد الزواحف) ونكد الأطفال والبنت المتعسرة في الولادة والخبالة ووقف النزيف ولدغ الدبور وقتل الوزعة والبواسير والرمد وقطع الرعاف (نزيف الأنف) والصداع والهوام والحب ووجع الكرش وحل المعقود والحمرة والجمرة[7].

كما استخدمت في مجالات أخرى مثل الصلح بين الأقران وللدخول على الأمراء والسلاطين وللقهر ولسباق الخيل وللرمي بالسهام، وإذا وجدت في مكان لا يسرق و يعتزون بها ولا يفرطون فيها[8].

---

(1) عبد الرازق، الفنون، ص123.

(2) المرجع نفسه، ص122.

(3) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(4) الولد المغل: هو الذي حملت أمه وهو لا يزال يرضع، والغلة هي شدة العطش وحرارت. انظر: المعجم الوجيز، ص453، 454. لأن لبن الأم يقل فيشتد عطشه فيسمى مغل.

(5) الشقيقة: هي صداع يعرض في مقدمة الرأس إلى أحد جانبيه .الحنبلي، صحيح ، ص79.

(6) عبد الرازق، الفنون ، ص122، 123.

(7) المرجع نفسه، نفس الصفحات.

(8) المرجع نفسه، نفس الصفحات.

ومن الواضح أن السبب الرئيسي لشفاء هذه الطاسات لكل هذه الأمراض، هو سبب نفسي في المقام الأول، حيث كان المريض يقبل على استخدام هذه الطاسات وهو يعتقد تمام الاعتقاد أنها ستكون سبباً في شفائه فكان الشفاء يتم بإذن الله، لذلك يمكن القول أن استخدام هذه الطاسات، كان نوعاً من العلاج النفسي الذي كان يتم خلال العصر المملوكي.

ثانيا: الأمراض الوافدة (الطواعين أو الموتان) :

وهي الأمراض التي تعم خلقاً كثيراً في بلد واحد وزمان واحد وقلما ينجو منها من يصاب بها[1].

فقد شكلت الأوبئة والأمراض في القرون الوسطى، وبخاصة في العصر المملوكي ظاهرة مثيرة للاهتمام، ويتبين من خلال المصادر المتوافرة أن الطاعون، كان بلا منازع أهم تلك الأوبئة وقد شكل مادة تاريخ غير قليلة لمؤرخي تلك الحقبة.

وباستثناء الطاعون لم يلحظ انتشاراً هاماً لأي وباء آخر ولكن هناك بعض الإشارات الضعيفة إلى أوبئة أو أمراض لم تحدد المصادر نوعها أو عوارضها، والواقع أن التعابير الواردة في المصادر المملوكية كثيرة التنوع، فغالباً ما استخدمت كلمة فناء، وباء، الموت، بلاء، وخم، للإشارة إلى الطاعون وبالرغم من وجود تخوف من اعتماد المؤرخين هذه التعابير بشكل اعتباطي وبصورة خاطئة للدلالة على وباء الطاعون، إلا أن مقارنة المصادر ببعضها البعض تظهر أن هذه التعابير كانت تستخدم للإشارة إلى الطاعون، إضافة إلى أن ظواهر المرض ودلالاته تعزز هذا الرأي[2].

وإلى جانب الطاعون عرفت بلاد الشام الخنوق والجدري والجرب والحميات، في سنوات محدودة جداً من دون أن تترك آثاراً هامة على المجتمع المصري أوالشامي أما الطاعون فقد خلف وراءه انعكاسات بالغة الخطورة على البنية السكانية والاجتماعية والاقتصادية في المنطقة بعد أن تحول إلى مرض متوطن فيها بشكل شبه دائم طيلة الحقبة المدروسة[3].

ولعل أشهر وأهم الأمراض الوافدة على الإطلاق هو مرض الطاعون، وهو مرض يكثر في الوباء وفي البلاد الوبيئة، وقيل أن الوباء هو الطاعون والحقيقة أن بينهما عام وخاص فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون فإنه واحد منها[4].

---

(1) رضوان، دفع، ورقة 10. المقريزي، خطط ،ج1، ص88.

(2) توا، المناخ، ص375.

(3) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(4) ابن قيم الجوزية، الطب ، ص29.

والطاعون من الأمراض الوبائية المستعصية العلاج[1]، لذلك كانت التدابير الوقائية تتخذ للحيلولة دون انتشار هذا المرض ومنها:

1- تطهير المساكن وتلطيف هوائها بالتبخير بالكافور والصندل والمسك والعنبر[2] وليس للبخور وقت معين بل كل وقت يمكن فيه التبخير فليفعل[3].

2- استعمال الروائح الزكية إذ يسببها تنشط النفس وتندفع الروائح الحاصلة من اختلاط الأهوية الرديئة من الوباء، مثل ماء الورد وخله حيث يدهن به الإنسان نفسه وخلف أذنه وتحت إبطه وصدره[4] او يستخدم طيب الصندل، ويبخر بدنه بالعود أو العنبر أو المصتكي أو قشر الرمان، حيث يترك قشر الرمان على النار والأس ويرش عليه الخل فإنه ينفع من الوباء[5].

3- الإقامة في الظل وفي الأماكن الجافة والبعيدة عن التيارات الهوائية الباردة، والتزام السكون والإقلال من الحركة الشديدة[6].

4- إصلاح الماء بإضافة الملح إليه قبل الشرب والابتعاد عن الاستحمام بالماء الحار[7].

5- إصلاح الغذاء، وذلك من خلال المأكل السالمة من الرطوبة كالنواشف والحوامض كالخل وماء الحصرم أو الرمان أو السماق، أو النارنج، وممن النواشف العناب باللوز، وإذا أكل اللحوم وأراد السلامة من ضررها في زمن الوباء فلتكن مطبوخة بأحد الحوامض المذكورة وأقبر[8] اللحوم في زمن الوباء ذوات الأربع كالغنم مثلاً وأخفه الدجاج والحمام[9] ولا يأكل الطعام وهو حار ولا يكثر من المرق عليه بل عليه بالنواشف، ويحترزون العطش والجوع، ومن الامتلاء الزائد، ومن السهر المفرط، ولا يكثر من الأدوية المسهلة[10].

---

[1] السبكي، طبقات ، ج2، ص71.

[2] الحموي، الجوهر ، ورقة 2.

[3] الأزهري، رسالة مختصرة في الطاعون، ورقة 4.

[4] المصدر نفسه، نفس الورقة.

[5] المصدر نفسه، نفس الورقة.

[6] كتخدا، رسالة في كشف افات الوباء، ورقة 3.

[7] الحموي، الجوهر، ورقة 3. ابن قرة، الذخيرة، ص168..

[8] أقبر اللحوم: أي أن أكلها يؤدي إلى دخول القبر قال الله تعالى: "ثم أماته فأقبره" سورة عبس، آية 21.

[9] الأزهري، رسالة مختصرة في الطاعون، ورقة3. رضوان، دفع، ورقة 16. الخوارزمي، مفيد، ص387. كذلك فإن العدس المقشور يطبخ بأحد الحوامض أيضاً وأكل البصل نياء يقطع سمومات الأهوية خصوصاً للمسافر وأن يقل من استعمال الحلو الخالص كالسكر وكذلك الفواكه البارة في طبعها مضرة. انظر: الأزهري، رسالة مختصرة في الطاعون ، ورقة 3.

[10] المصدر نفسه ، ورقة 5.

6- ومن طرق الوقاية أيضاً الابتعاد عن المرضى وعدم الاختلاط بهم لأن استنشاق الهواء المحيط بالمرضى والذي يختلط بأنفاسهم يمكن أن يصيب المخالطين بالمرضى[1] وذلك من خلال عدم الإكثار من المرور في الشوارع وفي الأسواق إلا بقدر الحاجة[2].

7- استعمال الفصد في زمن الوباء والطاعون لأنه يؤدي إلى اعتدال الطبع والطبيعة وحتى لا يشوش على الفكر بما يغم النفس، وأن يدفع عنها اختلاط الأهوية الرديئة ومما ينبغي أيضاً إخراج الدم الفاسد، والفصد من العرق المشترك أولى[3].

ومن خلال طرق الوقاية والعلاج المشار إليها حاول الأطباء في مصر والشام التقليل من الآثار الناجمة عن مرض الطاعون حيث كانت مصر والشام أكثر البلاد إصابة بالأوبئة والطواعين خلال العصر المملوكي، ولا شك أن ذلك راجع في المقام الأول إلى كثرة الحروب والثورات، وكثرة القتلى وتعفن الجثث، إضافة إلى تعرض البلاد للفيضانات والمجاعات و القحط، والتي تضطر أصحابها إلى أكل جيف الحيوانات الميتة والأطعمة الفاسدة، مما يؤدي إلى ظهور مرض الطاعون، والذي يعني الهلاك والموت لكل من يصاب به.

عوارض المرض:

نادراً ما لجأت المصادر إلى وصف أعراض الأوبئة والأمراض التي كانت تصيب السكان، وقد كان من الممكن لو حدث ذلك بشكل دقيق، أن يكون مفيداً للغاية في التعرف إلى هوية تلك الأوبئة والتأكد من أنواعها[4].

وكان من أعراض هذا الوباء ارتفاع في درجة الحرارة وغثيان متتابع يستمر إلى أن يبصق المريض دماً فيموت في الحال، ويتبعه أهل داره واحداً بعد الآخر حتى يفشوا جميعاً في ليلة واحدة أو ليلتين، ولم يفلح الأطباء في عمل أي شيء لتخفيف حدة الوباء ولم يجد استخدام الدواء نفعاً، وباستثناء طاعون (749هـ/1348م)، فإن المعلومات ضئيلة أو شبه معدومة حول تلك العوارض، أما أهم عوارض ذلك الطاعون فكانت:

---

[1] كتخدا، رسالة في كشف افات الوباء ، ورقة 3.

[2] الأزهري، رسالة مختصرة في الطاعون ، ورقة 4.

[3] الأزهري، رسالة مختصرة في الطاعون، ورقة 4. ابن القف، العمدة، ج2، ص28. زادة، الشفاء، ص63. وبعد اتمام عملية الفصد ينبغي أن يأخذ الانسان على بركة الله ترمساً مدقوقاً درهمين بكل ثلاثة أيام يسف درهمين ويفعل ذلك ثلاث مرات. انظر: الأزهري، رسالة مختصرة في الطاعون ، ورقة 4.

[4] توا،، المناخ، ص379.

1- ظهور بثور وراء الأذن، ثم "كبة" وخيارة[1]، وهي على الأرجح أنواع من أورام تظهر تحت الإبط.

2- يذكر ابن تغري بردي أن المريض في بغداد كان يظهر بوجهه طلوعاً فما هو إلا أن يمد يده على موضع الطلوع فيموت في الوقت[2].

3- بصق دماء يميل لونها إلى الأصفر[3].

4- صعوبة في التنفس على ما يبدو إذا كان المريض "يصيح"[4].

5- تعلو الوجوه صفرة[5].

6- ارتفاع في درجات الحرارة وغثيان[6].

7- وفاة المصاب بعد 50 ساعة[7].

وقد شهدت مصر والشام خلال تاريخها العديد من الأوبئة والطواعين وكانت بعض مدنها مهيئة لظهور الأوبئة بها، وذلك راجع إلى ازدحامها بالسكان[8]، وكثرة وضيق دروبها، وغلبة الأتربة والأزبال عليها مما يجعل مساكنها سيئة التهوية، وجوها لا يبرح أن يكون كدراً بما تنثره الأرجل من التراب الأسود[9]، فلا شك بأن هذا الجو السيئ والهواء الخانق جعل من بعض مدن مصر والشام بيئة مناسبة لظهور الأوبئة والطواعين.

واستناداً إلى المصادر المتوافرة لم يسجل في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، سوى انتشار لوباء واحد حصل في دمشق عام(656هـ/ 1258م) حيث اجتاحها "وباء" لم تحدد المصادر نوعه، لكنه كان قوياً على ما يبدو حيث بلغت نسبة الوفيات فيه 1200نسمة يومياً، وقد قضى على عدد كبير من سكان المدينة وهناك ما يساعد على الاعتقاد بأن هذا الوباء هو الطاعون

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص198، ابن حبيب، تذكرة، ج3، ص110-111..

(2) ابن تغري بردي، النجوم ، ج10، ص196.

(3) المقريزي، السلوك، ج4، ص 81.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص 81.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص 85.

(6) ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص204.

(7) المصدر نفسه ، ج10، ص198.

(8) البيلي، الأزمات، ص24. البراوي، حالة مصر، ص80.

(9) المقريزي، خطط، ج1، ص366.

وقد انتقل إلى دمشق من مدينة حلب التي وصل إليها بواسطة النازحين من العراق بعد احتلاله من قبل التتار[1].

و قد حفل القرن الرابع عشر بجائحات الطاعون، وقد عرفت بلاد الشام ما لا يقل عن 28 جائحة على امتداد القرن المذكور[2]، أي بمعدل جائحة واحدة كل أقل من أربع سنوات وأشهرها بلا ريب طاعون (749هـ/1348م)[3].

وحتى هذا التاريخ تعرضت المنطقة لبعض الأوبئة لم تحدد المصادر هوية بعضها بدقة كـ" الوخم والفناء" الذي لم تسلم منه مدينة من الفرات إلى دمشق حسب المقريزي، وقد تفشى هذا الوباء في سنة(726هـ/1326م) ، ويبدو أنه كان منتشراً بشكل واسع بين السكان، حتى أن مدخول الحجامين لقاء فصد وشراطة آذان، كان يبلغ 400 درهم يومياً[4]

وكانت طرابلس قد تعرضت بدورها لـ"وباء" خلال (734-735هـ /1334-1335م) لم يعرف مدى قوته أو الخسائر البشرية التي ألحقها بالمدينة[5].

ومن أشهر الطواعين التي تعرضت لها مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، وأخطرها: طاعون(749هـ/ 1348م)[6].

وليس هناك أي دليل يمكن من خلاله الاستفادة في معرفة كيفية انتقال العدوى إلى المنطقة لكن مراقبة خط انتشاره يجعلنا نعتقد أن الوباء قد وصل إلى مصر بحراً، وإذا ما صحت هذه التوقعات فهذا يدل أن البحارة والتجار قد لعبوا دوراً مهماً في ذلك[7].

ووصل الوباء إلى مصر بات يعني أن بلاد الشام أصبحت معرضة لهذا الخطر في أي وقت وليس من قبيل المصادفة أن يبدأ ظهوره فيها في غزة وعسقلان[8] وهما محطتان تجاريتان متقدمتان على الحدود مع مصر، ويلفت الانتباه بعض الشيء بداية انتشار الطاعون في المناطق

---

(1) الذهبي، العبر، ص226. ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص60. اليونيني، ذيل، م1، ص91. الدويهي، الأزمنة، ص238. ابن العبري، تاريخ، ص307.

(2) انظر: توا، المناخ، ص 483 – 500.

(3) المقريزي، السلوك، ج3، ص 90.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص 90.

(5) ابن أبي الفضائل، النهج، ص59.

(6) أبو الفداء، تاريخ، ص176.ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص195-223.

(7) ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص200. سالم، تاريخ، ص301.

(8) ابن تغري بردي، النجوم ،ج10 ، ص195-223.

الساحلية ثم ارتداده شرقاً نحو التجمعات السكانية الهامة، من عسقلان إلى عكا ثم القدس، ومن صيدا وبيروت باتجاه دمشق[1].

أما عن حجم ضحايا هذا الطاعون فيبدو أن مصر كانت أكثر البلاد تأثرا، فكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نفس في كل يوم، وعم الوباء مختلف أنحاء مصر، وتعطل الصيد من البحيرة بموت الصيادين وصارت الأموات على الطرقات في جميع الوجة البحري ولا يوجد من يدفنها[2]، وغلقت دار الطراز لعدم الصناع[3].

كما قضى الوباء على سكان بلبيس ومات سكان بيوت الشعر أي العربان، ودوابهم ومواشيهم وامتلأت مساجد بلبيس وفنادقها وحوانيتها بالموتى[4].

وما أن طل ذو القعدة (749هـ/1348م) إلا والقاهرة خالية مقفرة لا يوجد بشوارعها مار، وتنكرت وجوه الناس وامتلأت الأماكن بالصياح فلا تجد بيتاً إلا وفيه صيحة ولا تمر في شارع إلا وترى فيه عدة أموات، وخلت أزقة كثيرة وحارات عديدة من الناس[5]. فأرسل الوزير منجك إلى الغربية كريم الدين بن الشيخ مستوفي الدولة و محمد بن يوسف مقدم الدولة فدخلا على سنباط وسنود وبوصير[6] وسنمهور[7] وغيرها من البلاد، وأخذوا مالاً كثيراً لم يحضروا منه سوى ستين ألف درهم[8]. وظل الوباء في التزايد حتى عجزوا عن حصر الموتى[9].

وقضى الوباء على معظم البلاد المجاورة وخربت بلاد الصعيد على الرغم من اتساع أرضها، فمع أن أسيوط كانت تشمل على ستة آلاف شخص يؤخذ منهم الخراج إلا أنه في فترة الوباء أصبح هذا العدد مائة وستة عشر نفراً[10].

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم ،ج10 ، ص195-223.

[2] المصدر نفسه، ج10، ص201.

[3] المصدر نفسه، ج10، ص199.

[4] المصدر نفسه ، ج10، ص203.

[5] المصدر نفسه، ج10، ص 206-207.

[6] يوجد في مصر عدة قرى باسم بوصير، المقصود هنا بوصير الواقعة بمحافظة الغربية وهي من المدن المصرية القديمة. المصدر نفسه ، ج10، ص202.

[7] يوجد بمصر عدة قرى باسم سنهور المقصود هنا سنهور بمحافظة الغربية وهي أيضاً من المدن المصرية القديمة، المصدر نفسه ، نفس الجزء و الصفحة.

[8] المصدر نفسه ، ج10، ص202-203.

[9] المصدر نفسه، ج10، ص204-205.

[10] المقريزي، السلوك، ج4، ص90. ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص 209.

أما في دمشق فقد بلغ معدل ضحايا الطاعون 100 نسمة يومياً، ثم ارتفع إلى 200 نسمة في اليوم الواحد، ويؤكد ابن بطوطة الذي كان موجوداً في دمشق في تلك الفترة أن العدد اليومي للوفيات قد فاق هذا الرقم بكثير ويجعله 2000 نسمة يومياً[1]، لكن مصادر أخرى تذكر أن أكثر ما ضبط في دمشق في اليوم 400 نفس[2]. وازداد أمر الطاعون استفحالاً، فكان يصلى في الجامع الأموي في دمشق على 100 نسمة كل يوم "دون الذين لا يؤتى بهم إليه ودون ما حول البلد وأرجائها"[3].

ويصف ابن تغري بردي حال السكان في دمشق في تلك الفترة فيقول: "علت وجوه السكان صفرة ظاهرة في وادي دمشق كله، وأخذ فيهم الموت مدة شهر رجب فبلغ في اليوم ألفاً ومائتي إنسان وبطل اطلاق الموتى من الديوان، وصارت الأموات مطروحة في البساتين على الطرقات[4].

ولم ينج من هذا الوباء الدواب والدواجن وحتى الأسماك فقد تعرضت للموت، وصحبت هذه الكوارث والنكبات آفات أصابت جميع مزارع البر ومعظم النخيل، وقد وجدت طيور كثيرة ميتة بين الزرع، كما وجدت آثار الكبد بين ريشها[5]

وقد ترتب على هذا الوباء ارتفاع فاحش في أسعار السلع المطلوبة؛ خاصة أثمان ثياب التكفين، وما يحتاج إليه المريض: كالسكر وبزر الرجلة والكمثري، أما بالنسبة للأدوية فلم تكن تستعمل إلا قليلاً نظراً لسرعة موت المصاب بهذا الوباء[6].

ولم تجد استخدام الأدوية والعقاقير نفعاً، فلجأ الناس إلى الورع والتقوى بعد أن أيقنوا باقتراب آجالهم، وعمد بعض الناس إلى التزود بأوراق تتضمن تفصيلات عن أسمائهم ومحال سكناهم حتى إذا صادفهم الموت في الطريق أمكن التعرف عليهم[7].

---

(1) رحلة، ج2، ص60-61.

(2) الذهبي والحسيني، من ذيول، ص270.

(3) ابن كثير، البداية، ج14،ص225-228.

(4) ابن تغري بردي ، النجوم، ج10، ص203.

(5) المقريزي، السلوك، ج2، ص784. ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص209.

(6) المصدر نفسه ، ج7، ص 206. المصدر نفسه ، ج14، ص340.

(7) ابن اياس، بدائع، ج2، ص133.

واستمرت موجة الطواعين، فقد تعرضت بلاد الشام لـ17 جائحة من الطاعون بمعدل جائحة واحدة كل أقل من ثلاثة سنوات وقد كان لدمشق النصيب الأكبر منها، ومن هذه الطواعين: طواعين(762هـ/1361م)[1] و(763هـ/1362م) و(764هـ/1363م)[2].

وفي القرن الخامس عشر تعرضت المنطقة لحوالي 26 جائحة طيلة القرن المذكور بمعدل جائحة واحدة كل أربع سنوات تقريباً، ومن بينها 16 جائحة في النصف الأول منه أي بمعدل جائحة كل 3 سنوات، أما في النصف الثاني فكل 5 سنوات جائحة[3].

ثالثا: أمراض الحيوانات.

عرف البياطرة العديد من الأمراض التي كانت تصيب الخيول والدواب وغيرها من الحيوانات، حيث قسموا الأمراض التي تصيب الحيوان إلى: أمراض ناتجة عن تشوهات خلقية أو عيوب خلقية[4]، وأمراض أخرى حادثة[5]، ومن هذه الأمراض:

1- مرض السعال :

حيث كان يصيب الدواب عموماً خاصة الخيل والإبل ويكون عن برد أو غبار، ومن علاماته ارتفاع درجة حرارة الدابة قبل السعال بثلاثة أيام مع الامتناع عن الأكل مع الهزال[6] فإذا كان السعال ناتجاً عن البرد فإن الدابة تعطي الأدوية التي ترخي وتسخن، وإذا كان ناتجاً عن غبار فينبغي أن تستخدم الأدوية التي تفتح وتلين وتعزل الدابة عن باقي القطيع حتى لا يصاب، مع استخدام الدهانات لمنخار الدابة ورأسها لمدة ثلاثة ايام[7].

---

[1] المقريزي، السلوك، ج4،ص92،ج7، ص204.

[2] ابن حبيب، تذكرة، ج3، ص259. انظر: ابن العماد، شذرات، ج8، ص34.ابن تغري بردي، النجوم، ج11، ص17،25.ابن حجر، الدرر، ج4، ص130. ابن كثير، البداية، ج14، ص305. الذهبي والحسيني، من ذيول، ص362، ابن اياس، بدائع، ج1، ق1، ص592.

[3] انظر: ابن حجر، إنباء، ج2، ص430. ص482. ج3، ص459، 469.الدويهي، الأزمنة، ص199. الصيرفي، أنباء، ج3، ص277. البصروي، تاريخ، ص80-81، 83. ابن إياس، بدائع، ج1، ق2، ص803. العليمي، الأنس، ج2، ص286. ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص103.ابن العماد، شذرات، ج9، ص198. 245. انظر: توا، المناخ، ص 385-388.

[4] الحديدي، البيطرة، ص230،.

[5] المرجع نفسه، ص233، 234.

[6] ابن الأحنف، مختصر، ورقة 212-217.

[7] المصدر نفسه ، نفس الورقات. هرمز، بيطرة الخيل، ورقة 9، 10.

2- مرض الخنان :

هو مرض تصاب به الخيل والبغال ويتسبب في ارتخاء الجزء المصاب مع ضعف عام في الحركة، حيث لا يستطيع الحيوان مع هذا المرض الاعتدال، ويصيب هذا المـرض الـوركين أو المفاصل أو القلب، وهذه العلة غالباً ما تؤدي إلى وفاة الدابة[1] لذلك عرف البياطرة خطورة هـذا المرض فحرصوا على وقاية الدواب منه قبل أن تصيبها، وذلك من خلال اطعام الدواب التي يخشى عليها من مرض الخنان بجرعات من أدوية مركبة من الأعشاب ثلاث مرات يوماً بعد يوم، وبهذه الطريقة يستطيع الحيوان النجاة من الإصابة بهذا المرض اللعين[2].

3- مرض الحمى :

يصيب هذا المرض الدواب وأعراضه عبارة عن نشف باللسان واحمـرار بـالعينين مـع سخونة بالغة[3]، وتكون فيه الدابة عالية النفس منتشرة المنخـرين مـسترخية الـرأس والأذنـين، مضطربة القوايم ممتنعة عن العلف وعيناها مغمضتان تسيل منهما الدموع ويكثر أنينها ولا تـسير إلا لعنف الضرب[4].

أما عن علاج هذا المرض فيكون من خلال شرب الدابة للماء العذب، مع منعها من العلف اليابس لمدة ليلة وتأكل الحشيش الأخضر مع مطبوخ من الأعشاب[5].

4- مرض الصداع :

وهو مرض تصاب به الدواب ومن أعراضه أن تميل الدابة رأسها إلـى الأسـف، حيـث تعرض لها غشاوة في عينها، ويهطل منها دموع كثيرة والعلاج يكون بالفصد أو إعطـاء مـدرات للبول بالإضافة إلى الأعشاب[6].

5- مرض النعاس :

وهو مرض يصيب الضان والماعز نتيجة لأكل شجر أخضر مر، أو شرب المـاء آخـر النهار عند رواحها من المرعى، وأعراض هذا المرض أن يقشعر جسد الحيوان ويـرد ويـنـتفض

---

[1] ابن الأحنف، مختصر، ورقة 173-178.

[2] هرمز، بيطرة الخيل، ورقة 7.

[3] ابن الأحنف، مختصر، ورقة 282، 283. هرمز، بيطرة الخيل ، ورقة 8.

[4] هرمز، بيطرة الخيل ، ورقة 46، 47.

[5] المصدر نفسه، ورقة 47.

[6] المصدر نفسه، ورقة 7، 8.

ويقل نشاطه[1]، أما عن علاجه فيتم من خلال منع الحيوان من الأكل والشرب وربطه في مكان دافئ[2].

6- مرض الرهصة[3] :

وسبب هذا المرض طول مقام الحيوان في المواضع الرطبة، وتصاب به الحمير والبقر دون غيرهما من الحيوانات، وأعراضه تقرح مؤخرة الحافر وخروج الصديد منه، فلا يستطيع الحيوان الوقوف عليه، وعلاجه يكون بوضع خليط الحناء والليمون على مؤخرة الحافر حتى يخرج جميع القيح ثم يعالج مكان التقرح بالمراهم واللبخات حتى يجف تماماً[4].

7- مرض الألطع :

وهو ضرب من البرص الذي يوجد لغراميل الخيل وفي خصاها أيضاً ضرب من البرص، وربما عرض ذلك لحشفة القضيب المختون أما لطبع الحديد وإما لقدم عهده بالأحداء[5].

8- داء الكلب:

وهو مرض يصيب الجمال مثل الكلاب، ولا علاج لهذا الداء مطلقاً بل تنحر الدابة، ولا يأكل لحمها، بل تلقى مثلها مثل الحيوانات الضارة، وذلك خوفاً من أن تنقل عدوى هذا المرض للبشر[6].

9- مرض القرحة :

ويصيب هذا المرض النياق أو البعير، ويظهر على سطح الجلد على هيئة حبوب صغيرة شبيهة بالجدري وأعراض هذا المرض تتمثل في قلة أكل البعير وقلة نشاطه[7]، أما عن علاج هذا المرض فيتم من خلال منع هذه الحيوانات من الشرب، على أن تربط تحت شجرة أو سقف بعيد

---

(1) ابن رسول، المغني، ورقة 69، 70.

(2) نفس المصدر، ورقة 70.

(3) العامة تقولها بالصاد (الرهصة) و (الرهسة) السين هي ما يكون في الحافر من صدفة ونحوها .انظر: الحديدي، البيطرة ، ص234.

(4) ابن رسول، المغني، ورقة 53، 68.

(5) الحديدي، البيطرة، ص234.

(6) السبكي، طبقات ، ج5، ص288.

(7) هرمز، بيطرة الخيل، ورقة 46، 47.

عن الشمس والمطر، وييسر لها أكل ورق الشجر الأخضر صباحاً ومساءاً، مع عزلها عـن بـاقي الحيوانات حتى لا تنتقل العدوى إلى غيرها[1].

10- أمراض المغطار والخنازير والغدة :

والمغطار هو عبارة عن خراج يظهر عند نحر الناقة أو البعير، أو بجانبي ضرع الناقـة، وعلاجه يكون بوضع لبخات عليه من الملح حتى ينتفخ، فإن لم يجدي ذلك قام البيطري بشقه حتى يخرج ما فيه ثم يعالجه علاجه للجرح[2].

أما الخنازير فهي عبارة عن انتفاخ أو ورم حار تحت الفم على الجانبين يحول دون تناول المهر للعلف، وموضع ظهوره تحت حنك المهر مباشرة ويكون علاجها بالجراحـة فيـشق مكـان الخنازير، وتستأصل حتى لا يبقى منها شيء ثم يعالج المكان علاج الجرح[3].
أما الغدة فتكون في الظهر أيضاً بإزاء السرة والعنق وهو انتفاخ وورم بقدر الرمانة وأقل مما يلـي الخاصرة وهو عيب فاحش لا علاج فيه[4].

11- مرض الجرب:

وهو مرض يصيب الدواب جميعاً، وينتج عن مرة ودم قد اشتد بها حرارة مفرطة تكون في باطن البدن فتدفعه إلى ظاهرة[5]

وعلاماته تظهر على سطح جلد الدابة، حيث تظهر حبوب متصلة ويلحق بعـضها بعـضا حتى ييبس الجلد ويبيض[6].

أما علاج هذا المرض فكان يتم بالفصد وإخراج الدم من الأرنبتين والودجين، ثم يدهن الجلد بالزفت والرماد والنطرون حتى يخرج الفضل إلى خارج الجلد بسرعة ثم يعالج الجلـد بـالمراهم المركبة ويغسل بالماء الفاتر[7].

---

[1] هرمز، بيطرة الخيل ، ورقة 47.

[2] ابن رسول، المغني، ورقة 57.

[3] هرمز، بيطرة الخيل 17، 18.

[4] الحديدي، البيطرة، ص233.

[5] هرمز، بيطرة الخيل ، ورقة 24.

[6] ابن رسول، المغني، ورقة56.

[7] المصدر نفسه، ورقة 56.

12- أمراض الأسنان :

ومن أشهر الحيوانات التي تصاب بها الخيل[1] كما يصاب بها البقر والضأن والماعز وعلاجه خلع السن المصاب إما إذا كان الألم نتيجة لطول الأنياب كما يحدث في الجمال عند كبر السن، فيكون العلاج البرد بمبرد حاد حتى يتمكن الجمل من مضغ الطعام بدون ألم[2].

13- أمراض الأذن :

كانت آذان بعض الحيوانات تصاب ببعض القرح وكان البياطرة يستخدمون لعلاج قرحة الأذن الأدوية والمراهم والخل والعسل وكذلك كان يستخدم لعلاج الأورام والخراريج التي تكون داخل الأذن أو خارجها[3].

14- أمراض العيون :

ومن هذه الأمراض البياض العارض في عين الحيوان والذي إذا أهمل يمكن أن يتسبب في فقدان الحيوان للإبصار وهذا المرض يصيب الخيل وغيره من الدواب، وأما علاجه فيكون بتكحيل عين الحيوان في اليوم مرتان إلى جانب الأعشاب[4]، فإن لم يكن ذلك مجدياً استخدم العلاج الجراحي وذلك بقطع العروق التي على حبتها وعروق وجهها ثم تعالج بالأدوية[5]. أما إذا كانت عين الحيوان بها قروح وليس بها بياض فإنها تعالج باستخدام المراهم[6].

15- أمراض العظام (الكسور) :

تعرض الكثير من البياطرة في مؤلفاتهم للحديث عن أمراض العظام لاسيما الكسور التي كانت تصيب العديد من الحيوانات لا سيما الدواب، فإذا كان الخلع أو الكسر تحت الركبتين أو بأحد الأضلاع، فيجبر بأن يمسك المكان المكسور ويعاد إلى مكانه ويربط عليه بصوف وكتان، ويوضع حوله ثلاثة عيدان أو قضبان ويربط على ذلك بخيط، ثم يسقى كل يوم بزيت وخل بعد أربعين يوماً

---

[1] ابن الأحنف، مختصر، ورقة 14-20.

[2] ابن رسول، المغني، ورقة 63، 67.

[3] ابن الأحنف، مختصر، ورقة 191، 192.

[4] هرمز، بيطرة الخيل ، ورقة 26.

[5] المصدر نفسه، ورقة 14-20.

[6] المصدر نفسه، ورقة 53.

تنجبر العظام، فتنفك الجبيرة وتمشى الدابة رويداً ويدهن مكان الكسر بالمراهم[1]. أما إذا كان الكسر في عظام الفخد أو الكتف فإنه ينجبر أصلاً لأن هذا لا يجدي فيه[2].

هذا وقد استفاض البياطرة في ذكر الأمراض الحادثة للحيوان بمختلــف أنواعــه وطــرق علاجها، إلا أنه في بعض الأحيان كان البياطرة يقفون عاجزين، وذلك حينما تتعرض الحيوانـــات والدواب للوباء حيث كان يقضى عليها بأكملها.

لذلك وكان المحتسب يشترط على البيطري قبل السماح له بممارسة المهنة أن يكون خبيراً بعلل الدواب وأن يكون على معرفة جيدة بها، وأن لا يقدم على فصد أو قطع أو كي الدابة بغير علم فيؤدي ذلك إلى هلاك الدابة أو عطبها[3].

---

[1] ابن الأحنف، مختصر، ورقة 282. هرمز، بيطرة الخيل ، ورقة 100، 101.

[2] ابن الأحنف، مختصر، ورقة 282.

[3] الشيزري، نهاية ، ص80، 81. ابن بسام، نهاية ، ص124، 125.

الفصل الخامس

التنظيم الإداري والرقابي للأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام

- التنظيم الإداري للمنشآت والمؤسسات الطبية والصحية.
- الدور الرقابي للدولة على الشئون الصحية والطبية.

أولا: دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على أصحاب المهن الطبية.

ثانيا: دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على أصحاب المهن المتعلقةبالأشربة والأطعمة.

ثالثا: دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على المرافق والمنشآت العامة.

التنظيم الإداري للمنشآت والمؤسسات الطبية والصحية.

كان للمنشآت والمؤسسات الطبية والصحية كغيرها من المؤسسات في الدولة المملوكية، تنظيمها الإداري، الذي ساهم بشكل فعال في أنجاح سير العملية الصحية من ناحية، وحسن سير العمل فيها من ناحية أخرى.

1- رئاسة الطب:

رئيس الأطباء، هو المتحدث باسم تلك الطائفة، وهو الذي يقوم بامتحانهم[1]، وإذا ثبت أن أياً من الأطباء غير جدير بممارسة المهنة، أخبر المحتسب بذلك، ومن هذا يتبين أن العلاقة بين رئيس الأطباء والمحتسب والأطباء لا تنتهي بمنح الأطباء ترخيص مزاولة المهنة، وإنما هي علاقة أبديه، ورئيس الأطباء يمتحن أطباء البلد في أي وقت فهم دائماً عرضة لتلك المحنة، لأن أرواح الناس أمانة بين أيديهم[2].

وقد تولى عدد كبير من الأطباء لمنصب رئاسة الطب، ومن هؤلاء إبراهيم بن أبي الوحش بن أبي حليقة علم الدين الرشيد الذي استقر رئيسا للأطباء بمصر والشام، وقد كان نصرانياً فبلغ في دينه أن عين للبطريكية فلم يوافق ودخل في الإسلام وعالج الظاهر بيبرس فعوفي فوهب له الأمراء أشياء كثيرة فاستكثره السلطان فأعطاه جزءاً منه[3] وهو أول من عمل شراب الورد الطري، ويقال أن تركته بلغت حوالي ثلاثمائة ألف دينار[4]، وذلك وأن دل إنما يدل على أن صناعة الطب كانت رابحة من ناحية ومن ناحية أخرى أن ذلك الطبيب كانت له شهرته التي جعلته يتملك تلك الثروة العظيمة.

ومن الأطباء الذين ذاعت شهرتهم في دولة السلطان قلاوون وتولوا رئاسة الأطباء، ثلاثة أخوة، حيث تولي مهذب الدين وعلم الدين وموفق الدين أولاد أبي حليقة رياسة الطب[5] حيث كتب لهم تقليد برئاسة الأطباء في 11 من شهر رمضان المعظم عام (684هـ/10 من نوفمبر 1285م)[6].

---

(1) القلقشندي، صبح ، ج5، ص467.

(2) ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص121.

(3) ابن حجر، الدرر، ج1، ص53.

(4) ابن حبيب، تذكرة، ج1، ص291. ابن حجر، الدرر، ج1، ص53.

(5) ابن تغري بردي، النجوم ، ج8، ص22.

(6) المقريزي، السلوك،ج2، ص189.

ومن الأطباء الذين تولوا رئاسة الأطباء بديار مصر الطبيب أحمد بن المغربي الأشبيلي كان يهودياً يقال له سليم فأسلم في أيام الملك الأشرف خليل بن قلاوون عام (690هـ/1291م)، وسمي أحمد وكانت وفاته في ليلة 20 من صفر عام (718هـ/1318م)، وكان بارعاً في عدة علوم[1].

ونذكر منهم أيضا الشيخ الأديب شهاب الدين أحمد بن يوسف بن هلال الصفدي الطيب (ت738هـ/1338م)[2]، وكتب له تقليد بتولي رئاسة الطب في المحرم من عام (709هـ/1309م)[3].

ونذكر من بين من تولوا رئاسة الأطباء في عهد المؤيد شيخ الطبيب سليمان بن جنية علم الدين رئيس الأطباء توفي وقد أناف على ثمانين عام في 16 صفر عام (824هـ/1421م)، وكان أبوه يهودياً ونشأ سليمان ذلك مسلماً يتكسب بصناعة الطب ويعاشر الأعيان فصار من مشهورين الأطباء وعرف بحسن العلاج ثم ولى رئاسة الأطباء في عام (813هـ/1410م) وكان فاضلاً في علم الطبً جميل المعاشرة يكتب الخط الجيد[4].

وكذلك شغل وظيفة رئاسة الأطباء في عهد السلطان الظاهر جقمق الطبيب الحكيم تقي الدين المسمى فيما قيل عبد اللطيف ابن أخ العفيف "واستقر في يوم السبت ذي الحجة عام (852هـ/1449م) في رئاسة الطب والكحل بمفرده مع نقصه في الصناعة، وكونه حديث العهد بالإسلام بعد صرف جماعة لا نسبة لديهم في القدم والفضيلة"[5] وتولية ذلك الطبيب رئاسة الأطباء مع عدم تمكنه في الصناعة يدل على أن مستوى الأطباء بدأ يأخذ منحنى الانهيار.

وقد كان هناك رئيس لكل اختصاص طبي، فكان هناك رئيس للكحالين وكان من اختصاصاته " النظر في حال جماعته أيضا، ومعرفة أحوالهم، وأن لا يصرّف منهم إلا من عرف بحسن المداواة والملازمة في العلاج، ويأمر كلّا منهم أن لا يقدم على مداواة عين حتّى يعرف حقيقة المرض، وأن يلاطفها بما يناسبها من الغذاء، وأن يتخيّر من الكحل ما فيه شفاء العين وجلاء البصر، وأن يستشير الأطباء الطبائعيّة فيما أهمّ، مما لا يستغنى عن رأي مثلهم فيه، من تخفيف المادّة بالاستفراغ أو نقص دم أو غير ذلك"[6].

---

[1] المقريزي، السلوك ، ج2، ص161. انظر أيضاً: عيسى، معجم، ص125.

[2] ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص317.

[3] القلقشندي، صبح، ج11، ص374.

[4] المقريزي، السلوك، ج4، ص406. انظر أيضاً: عيسى، معجم، ص206، 207.

[5] ابن اياس، بدائع، ج1، ق2، ص517. انظر أيضاً: عيسى، معجم، ص154.

[6] القلقشندي، صبح ، ج 11، ص 99.

" وحكمه في الكلام على طائفة الكحّالين حكم رئيس الأطبّاء في طائفة الأطبّاء "[1].

وهو الذي يمتحن الكحالين متى أمره السلطان بذلك، ويرفع نتيجة محنـــة الكحـــالين إلـــى المحتسب، فمن وجده غير آهل لمهنة الكحل أوقفه المحتسب عن العمل فـــوراً، ويكـــون اعتبـــاراً الكحال بكتاب العشر مقالات في العين لحنين بن اسحق[2].

وكان أمير مجلس هو الذي يتحدث عن الأطباء والكحالين، ومن شاكلهم ولا يكون إلا واحدًا[3].

ومن المهام التي كانت توكل إلى رئيس الكحالين عملية التكحيل[4]، والهدف منها أذهـــاب البصر، وتنفذ بطريقتين إما بتكحيل عين المذنب بميل حديد يحمى على النار فيفقـــد عينـــه[5]، أو بغمس الميل بمادة تسمى (أبي عيش) كفيلة بأن تذهب البصر[6]، وقد يكحل الشخص مرتين وصولا إلى فقدان البصر تماما[7]، كما تكحل أحدى عينيه ثم تسمل[8].

ولعل هذه المهمة الصعبة أوكلت لرئيس الكحالين لخطورتها من ناحيـــة ، حتـــى لا يفقـــد المعاقب حياته، ولخصوصيتها من ناحية أخرى، حيث من يصدر مثل هذه العقوبة لابد أن يكـــون صاحب مستوى رفيع في الدول المملوكية.

وكان للجرائحيين رئيساً يشرف عليهم يسمى رئيس الجرائحية " يحكـــم علـــى الجرايحيـــة والحكماء وغيرهم "[9]، ويجب أن يكون عارفاً ببهرجتهم لأن حيلهم خطيرة ومن يدلس من هؤلاء الجرائحية على المرضى يتم احالته من قبل رئيس الجرائحية إلى المحتسب الذي يوقف الطبيب عن ممارسة المهنة[10].

---

[1] القلقشندي، صبح، ج 5، ص439.

[2] ابن الأخوة، معالم ، ص168. ابن بسام، نهاية ، ص119. الشيزري، نهاية ، ص100.انظر أيـــضاً: عيـــسى، تاريخ، ص53.

[3] القلقشندي، صبح ، ج4، ص19. ابن العماد، شذرات، ج10، ص64.

[4] ابن ايبك الدوداري، كنز، ص 300.

[5] دهمان، معجم، ص48.

[6] ابن ايبك الدوداري، كنز، ص 300.

[7] المقريزي، السلوك، ج7، ص220.

[8] المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة .

[9] الشيزري، نهاية ، ص102. ابن الأخوة، معالم ، ص168. ابن بسام، نهاية ، ص121. القلقشندي، صبح ،ج 5، ص439. ابن تغري بردي، النجوم ،ج9،ص 287. وانظر: شرف الدين، الأوراق ، ص 182.

[10] ابن الأخوة، معالم ، ص169. ابن بسام، نهاية ، ص122.

ومن أبرز من تولى رئاسة الجرائحية في العصر المملوكي الطبيب أبو عبد الله محمد ابـــن إبراهيم بن بركة العبدلي البقيعي، ثم الدمشقي، وقد تولى رئاسة الجرائحية بدمــشق، تــوفي ســنة (711هـ/1311م) بدمشق[1].

والأمير سيف الدين طرجى بن عبد الله الساقى[2][3]، والطبيب محمد بن عبــد الله شــمس الدين بن زين الدين، الجرائحي المعروف بابن الديفي التباني، اشتغل في علم الجراحة، وكان يسكن منطقة التبانة في مصر، " وتقدم في صناعته واستقر في الرياسة "[4]، و جمال الدين عبد الله بـــن عبد الحق بن إبراهيم رئيس الجرائحية " وتميز في صناعته وباشر رئاسة الجرائحية وقتا، مات في ربيع الأول سنة (891هـ/[5] مارس1486م).

أما أطباء العظام "المجبرون فـ" مقدمهم هو "رئيس الجرائحية وحكمه في الكلام على طائفة الجرائحية والمجبرين[6].

ويقوم رئيس الجرائحية بامتحان المجبرين، ومن وجده غير ماهر أحاله إلى المحتسب لوقفه عن العمل[7].

وكما كان هناك رئيساً للأطباء، فقد جعل المماليك للصيادلة رئيساً بكل بلد يتولى امتحانهم، فإذا تبين له معرفتهم بالأدوية وتركيبها أعطاهم رخصة لمزاولة المهنة وقيد أسمائهم في ســجلات خاصة بالصيادلة، أما إذا تبين له عكس ذلك فكان ينهاهم عن العمل ويمنعهم من ممارســة مهنــة الصيدلة[8]، وبذلك لا يستطيع أي صيدلي ممارسة مهنة الصيدلة إلا بعد أن يتم امتحانه علـــى يـــد رئيس الصيادلة في بلده.

---

[1] ابن ناصر الدين، توضيح ،ج6،ص103.

[2] طرجي بن عبد الله الناصري الساقي، الأمير سيف الدين: أصله من جملة مماليك الملــك الناصــر محمــد بــن قلاوون، وساقيه، ثم رقاه إلى أن جعله أمير مجلس وهي يوم ذاك أكبر من وظيفة أمير ســلاح. تــوفّى فــي يــوم الأربعاء سادس شهر ربيع الآخر سنة (731هـ/1330م). ابن تغري بردي ، النجوم، ج 9،ص287. المقريــزي، السلوك،ج3، ص 147.

[3] ابن تغري بردي، النجوم ،ج9،ص 287. وانظر: شرف الدين، الأوراق ، ص 182.

[4] ابن حجر، إنباء ج4، ص127. السخاوي، الضوء ،ج7،ص 245.

[5] السخاوي، الضوء ،ج5، ص22-23.

[2] القلقشندى، صبح ، ج5، ص467.

[7] ابن الأخوة، معالم ، ص168. ابن بسام، نهاية ، ص121. الشيزري، نهاية ، ص102.

[8] الشيزري، نهاية، ص42. وانظر: الملا، أثر ، ص142، 144. هاشم، فضل، ص443.

2- إدارة البيمارستانات:

أما بالنسبة لإدارة البيمارستانات، وتنظيمها، فقد كان يتم اختيار من يعمل بالبيمارستان بعناية فائقة، وكان يطلق عليه الناظر أو المباشر، وكانت مهمته تنطوي على الاهتمام بأحوال البيمارستانات وفي أحوال المرضى، وراعى المماليك أن يعينوا لتلك البيمارستانات نظار أكفاء، وكان من العادة أن يتولى صاحب الوقف النظر في أوقافه التي أوقفها على البيمارستان أثناء حياته، ثم يعهد بعده لأولاده وذريته، أو لمن يعينهم من الأمراء الذين يخلفونه في وظيفته، أو الشيوخ أو القضاة، وربما يكون النظر في ذلك الوقف مشاركة بين أحد الأفراد بحكم منصبه أو أبناء الواقف أو أحد عتقائه[1]، أي لا يشترط فيه معرفة الطب.

ونظرا للعناية الواضحة بإدارة البيمارستان فقد ألزم ابن الأكفاني " ناظر البيمارستان المنصوري بأن لا يشتري شيئاً إلا بعد عرضه عليه"[2]، وهذا يدل على اطلاع كبير وخبرة تامة من ابن الأكفاني في أمور البيمارستان؛ لأن البيمارستان يريد كل ما في الوجود مما يدخل في الطب والكحل والجراح وغير ذلك[3].

وعندما بدأت دولة سلاطين المماليك تأخذ في منحنى الانهيار تولى أمر نظر البيمارستان الجاهل والمرتشي، ومن يبتغي القربة ليس من الله، وإنما يبتغيها من السلطان، ومن هؤلاء الذين صاروا في البيمارستان المنصوري سيرة سيئة الولي السفطي[4] الذي قال عنه ابن تغري بردي:" خلع السلطان على القاضي ولي الدين السفطي باستقراره قاضي الديار المصرية مضافاً لما بيده من تدريس الشافعي ونظر البيمارستان ونظر الكسوة ووكالة بيت المال، ومشيخة الجمالية ونظرها، وغير ذلك من الوظائف ومع هذا كله والبلص عمال "[5]، تلك العبارة تدل على أن تولي المناصب الكبرى صار بالبذل والبراطيل (الرشوة)، وبالطبع إذا كان الراشي سيدفع مبالغ طائلة، فعليه أن يستعيد تلك المبالغ أضعاف ما دفع، بعدما تصبح مقاليد الأمور في يده، ولذلك صار للسفطي الذي

---

[1] انظر: ابن حبيب، تذكرة ، ج1، ص392-393.

[2] ابن حجر، الدرر، ج3، ص366.

[3] العمري، مسالك، ج9، ص293.

[4] السفطي: هو ولي الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف بن حجاج السفطي الشافعي، ولد عام 796 هـ/ 1393 م. حفظ القرآن وتلقى العلم، عين نائباً للقاضي الشافعي، فكثر ظلمه، ثم عين قاضياً للقضاة بالديار المصرية، فساءت سمعته، عزل عن القضاء(853 هـ/ 1448 م)، ثم صودر وسجن بالمقشرة، توفي سنة(845هـ/ 1441م). انظر: ابن تغري بردي: حوادث، ج 1، ص 176-178، 312 - 314 . السخاوي، الضوء، ج7 ، ص 118- 121.

[5] ابن تغري بردي، النجوم ، ج15، ص375.

تولى نظر البيمارستان المنصوري عام (849هـ/1445م)، سيرة سيئة مع الناس، مما حدا بـابن تغري بردي بأن ينعته بقوله:"صاحب العظمة في أوله والأهوال في آخره"[1].

ولم يسلم نزلاء البيمارستان المنصوري من متاعب السفطي حيث لاقى منه الناس الشدائد فكان لا يمكن أحد من المرضى من دخول البيمارستان إلا برسالة وبعد أيام قليلة يـأمر بـإخراج المريض قبل أن يتم شفاؤه[2]، فالسفطي يتبع إجراءات تعسفية مع المرضى ليوفر أموال الأوقـاف الخاصة بالبيمارستان ويدفعها لمن لا يستحقها[3].

وبلغ من تعنت الولي السفطي ما ذكره السخاوي أنه أكثر من التحري في المريض المنزل فيه بحيث زاد عن الحد، وقل من المرضى فيه العدد، وتحاشى الناس المجـيء إليـه بأنفـسهم أو بمرضاهم، وأمر بمسح دهاليز وكنسه، وكان لا يمكن المرضى مـن المـشي فـي البيمارسـتان بالنعال[4].

ونتيجة للإجراءات التي اتبعها السفطي في أثناء نظارته للبيمارستان تجمعت له من الأوقاف أموال كثيرة تفوق الوصف[5] ولكنه بدلاً من صرفها على البيمارستان ورعاية المرضى ورعايـة طلاب العلم فأنه صعد بها إلى السلطان الظاهر جقمق في شهر ذي الحجة بأربعة عشر ألف دينـار من حاصل البيمارستان فعرضها عليه فشكره على ذلك وغفل عن كونه لم يعمل فيه بمراد الواقف وأن تلك الأموال مخصصة لمرضى البيمارستان[6]، وإذا كان السفطي فعل ذلك الأمر فإن السلطان أمام الأموال التي بذلها له السفطي تناسى وصية وقف البيمارستان والتي لا تجيز للسلطان أو غيره أن يمد يده إلى أموال ذلك المعروف الجليل فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه إلـى ربه الكريم صائر من سلطان أو أمير أو وزير أو مشير أو قاض أو محتسب أو وكيل بيت مال أو آمر أن يبطل هذا الوقف ولا شيئاً منه، ولا ينقصه ولا شيئاً منه ولا يغيره ولا شيئاً منه، ولا يسعى في نقصه ولا في إبطاله، ولا نسخة بأمر ولا بإيماء ولا بمشورة ولا فتوى، يعلم بها الذي يعلم السر

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم ، ج15، ص555.

(2) المصدر نفسه ، ج15، ص556، 557.

(3) المصدر نفسه ، ج15، ص371. انظر أيضاً: عيسى، تاريخ ، ص128. إسماعيل، بعض أضواء، ص221.

(4) السخاوي، التبر ، ص187. انظر أيضاً: عيسى، تاريخ، ص128.

(5) السخاوي، التبر ، ص336.

(6) ابن تغري بردي، حوادث، ج1، ص115. السخاوي، التبر ، ص187.

والنجوى، فمن فعل ذلك أو أعان عليه أو سعى فيه فالله تعالى حسيبه وطليبه ومجازيه بفعله ومؤاخذه بعمله يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة وسوء الدار[1].

وممن تولى نيابة نظر البيمارستان يوسف السمين[2] وذلك نيابة عن أبيه إذ مشى مع أهل البيمارستان على قالب لا يرضون عنه وصار لا يلتفت إليهم، كما أساء التصرف في أموال البيمارستان، فصار يتغذى في كل يوم في البيمارستان بمائتي درهم[3].

وإلى جانب ما وصل له البيمارستان من إهمال فإن سلاطين المماليك نظروا إلى الأوقاف التي يصرف منها على مصالح البيمارستان فالسلطان الغوري مد يده إلى الأوقاف الخيرية التي يصرف منها على البيمارستان[4].

وإلى جانب منصب ناظر البيمارستان كان هناك، وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن وظيفة الناظر، وهي وظيفة شاد البيمارستان، وكان لصاحبها حق السيطرة والمراقبة، و الإشراف والتفتيش والمعاونة، والتوجيه على البيمارستان[5].

وفي ظل الفساد الإداري الذي استشرى في ظل ولاية السفطي للبيمارستان، ومن سار على نهجه، ظهر من حاول إصلاح الفساد الإداري في البيمارستانات، فهناك قرار اتخذه قجماش شاد البيمارستان النوري بحماة سنة(802هـ/1399م) تنازل بموجبه عن راتبه لصالح المرضى، ودعا للاقتداء به، وقد نقش هذا القرار بمثابة مرسوم على مدخل البيمارستان المذكور[6].

ومن بين من تولو هذا المنصب الحساس: علاء علي بن الطبلاوي شاد المارستان المنصوري سنة 792هـ[7]، و علاء الدين على بن الحريري سنة 801هـ[8]، و صلاح الدين محمد بن بدر الدين حسن بن نصر الله[9][10].

---

[1] انظر: ابن حبيب، تذكرة ، ج1، ص393.

[2] يوسف بن محمد بن محمد الجمال بن بدر أبي الفتح منوفي الأصل، القاهري المولد أبوه كاتب المماليك، ويعرف بابن أبي الفتح المنوفي باشر عن أبيه البيمارستان انظر: السخاوي، الضوء ، مج5، ج10، ص332.

[3] الصيرفي، أنباء، ص438، 439.

[4] ابن إياس، بدائع، ج3، ص280. انظر أيضاً: الرافعي، مصر، ص525. عاشور، الأيوبيون، ص295.

[5] الباشا، الفنون، ج3، ص606.

[6] الحسيني، النقوش، 385.

[7] المقريزي، السلوك، ج5، ص292.

[8] المصدر نفسه، ج5، ص429.

[9] صلاح الدين محمد بن بدر الدين حسن بن نصر الله: كاتب السر بمصر، مات بالطاعون سنة841هـ، وكان صلاح الدين أولاً يلقب غرس الدين واسمه خليل، ثم غيره أبوه في الدولة المؤيدية واستمر، ونشأ صلاح الدين – فهماً يقظاً فتعلم الخط المنسوب والحساب. ابن حجر، إنباء، ج4، ص84.

[10] المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

و هناك وظائف يجدر الإشارة إليها في البيمارستان، منها: القومة والفراشـين مـن كـلا الجنسين، يتولون خدمة المرضى، ويقومون بغسل ثيابهم، وتنظيف أماكنهم، وخدمتهم في الحمـام، كما أفرد بالبيمارستان مكانا لطبخ الطعام[1]، " ولكل منهم الجاري والراتب على قدره "[2].

ومن بين العاملين بالبيمارستان أيضا من هو مختص بتقديم الأدوية للمرضـى ومباشـرة تعاطي كل منهم لدوائه، وأطلق عليه: " قيم للشراب خاناه وهو مهتار الشراب متسلم لحواصلها، له مكانة علية، وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة، يطلق على كل منهم شراب دار، ، ولها مهتـار يعرف بمهتار الشراب خاناه[3].

كما كان فيه معملا لصناعة الأدوية والأشربة، والمراهم، ، والدهانات، وتركيب المعاجين، والأكحال، ، والشيافات، والسفوفات، والترياقات، والأقراص، ونحو ذلك، وخـصص مكانـا بـه لصرفها، وكان لا يصرف للمريض إلا بقدر الحاجة دون زيادة[4].

وقد كان محمد بن إبراهيم بن ساعد (ت 749هـ) " مرصدا لتركيب الترياق في كل سـنة بالبيمارستان المنصوري، وله في كل سنة مبلغ ست مئة درهم، ولما باشر الأمير جمال الدين نائب الكرك نظر البيمارستان أعجبه كثيرا، وأضعف معلومه – لأنه كان ستين درهما – فجعلـه مئـة وعشرين درهما، وكان يعطيه الذهب من عنده خارجا عن الجامكية المقررة له "[5].

3- إدارة الحمامات:

كانت الحمامات منشآت منظمة تخضع لمجموعة من القواعد تنظم عملها، وتضم مجموعة من العاملين بها[6] ومنهم العمال الذين يقومون على تنظيفها وإشعال البخور فيها، والقيم الذي يتولى

---

[1] النويري، نهاية، ج29، ص282. ابن حبيب، تذكرة، ج1، ص303، 305. المقريزي، خطـط، ج4، ص260. وانظر: العقباوي، الحياة، ص250.

[2] القلقشندي، صبح ، ج3، ص569.

[3] المصدر نفسه، ج4، ص9، ص22، ج5، ص440.

[4] النويري، نهاية، ج29، ص282. المقريزي، خطط، ج4، ص260. وانظر: العقباوي، الحياة، ص250.

[5] الصفدي، أعيان ، ج4، ص230.

[6] انظر حول القائمين على الحمام: العقباوي، الحياة، ص239-231. المقابلة، المؤسسات، ص117-119. زيادة، الحمامات، مج1، ص69-75.

حفظ ثياب المستحمين بالحمام[1] والبلان[2] والناطور[3] الذين اشترط فيهما أن يكونا على قدر كبير من النظافة والطهارة في الثوب والبدن[4] حتى لا ينقلوا الأمراض إلى المترددين على الحمام.

و كان يتم التنبيه على قصاد الحمامات من المستحمين بالبعد عن المزاحمة ومعاملة بعضهم البعض برفق فيعين القوى الشيخ الهرم، ويفسح الكبير للصبي الصغير[5]، وينبه عليهم أيضاً بعدم البول في المواضع المعدة للطهارة في الحمام[6].

كما كانت بعض الحمامات العامة مخصصة للرجال والبعض الآخر مخصص للنساء باعتبارهن في حاجة للنظافة والاستشفاء مثل الرجال حيث وضعت لكل من الرجال والنساء مجموعة من القواعد والآداب العامة التي ينبغي على كل منهم الالتزام بها عند دخول الحمام[7]، ومن هذه الحمامات: الحمامان اللذان أنشأهما القاضي الفاضل[8] بالقاهرة وجعل أحدهما للرجال والآخر للنساء[9]، و الحمامان اللذان في خانقاه سرياقوس، وقد خصص أحدهما للرجال والآخر للنساء والذي استجدّ بعد سنة (790هـ/1388م)[10].

---

[1] السبكي، معيد ، ص137. فإن فرط القيم أو نعس أو نام ففقدت الملابس كان عليه دفع ثمنها، ولو اختلف الداخل والحمامي، في الملابس الموضوعة بالمسلخ فقال الحمامي هذه ثيابك وقال الداخل ثيابي أجود منها فالقول للحمامي لأنه أمين. انظر: المناوي، النزهة، ورقة 15.

[2] هو الذي يقوم بالحلاقة للمترددين على الحمام. انظر: الشيزري، نهاية، ص88، حيث كان يتولى حلاقة شعر الرأس وإزالة الشعث، أما الترف وحلق عانة المستحم فكان منهياً عنه. انظر: المناوي، النزهة، ورقة15.

[3] هو الذي يتولى تدليك جسم المستحم ورأسه وإزالة الجلد الميت من القدم بواسطة حجر خشن ولا بد أن يكون تقي عارفاً بالآداب العامة وما يترتب على النظر إلى العورة، ويشترط فيه أن لا يكون أمرد لأنه إذا حرم النظر إليه فكيف بالخلوة به وملامسته، وكذلك لا يحل لخنثى أن يتولى هذا العمل فإن لم يوجد بلاناً أو ناطوراً بهذه الصفات فعلى المستحم أن يتولى تدليك جسمه بنفسه، ويباح له التدليك بنحو أشنان وسدر صابون وغيرهما من المنقيات، وقد يدهن بالزيت وعليه أن يساوي في التدليك بين أعضاء البدن المختلفة. انظر: المناوي، النزهة، ورقة 7، 8، 9.

[4] الشطي، اللب، ص12.

[5] المناوي، النزهة، ورقة64.

[6] المصدر نفسه، ورقة52.

[7] ابن الحاج، المدخل، ج2، ص179. العقباوي، الحياة، ص233.

[8] القاضي الفاضل: هو أبو المجد على بن الحسن بن البيساني المولى الأجل الفاضل، كان أبوه قاضياً بعسقلان مدينة بالشام على ساحل البحر من أعمال فلسطين. ابن شمائل، مراصد ، ج2، ص940. انظر: ابن كثير، البداية، ج13، ص31، 32. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص158–162.

[9] المقريزي، خطط، ج2، ص80.

[10] المصدر نفسه، ج4، ص295.

الدور الرقابي والإشرافي للدولة المملوكية على ما يتعلق بالصحة العامة:

لما كانت الصحة هي أثمن ما في الحياة، فقد حرصت الدولة المملوكية في مصر والشام على الرقابة والإشراف على كل ما يتصل بالصحة من خلال نظام دقيق يعرف باسم "الحسبة"[1] حيث خول من خلال هذا النظام للمحتسبين الكثير من السلطات والصلاحيات للرقابة والإشراف على جميع ما يتعلق بصحة الإنسان.

والحسبة نظام إسلامي قديم عرفه المسلمون منذ العصور الأولى، إلا أنه تطور تطوراً كبيراً خلال العصر المملوكي حيث ازدادت فيه السلطات المخولة للمحتسب واتسع مجال عمله، لذلك استعان بالكثير من الأعوان لمعاونته في أداء مهامه على أكمل وجه، و كان للمحتسبين دور بارز في مختلف جوانب حياة المجتمع لاسيما النواحي الصحية والطبية.

هذا وقد قام المحتسبون بدوراً متميز في الرقابة على كل ما يتعلق بالطب والصحة العامة، فراقبوا على أصحاب المهن الطبية ، كما أشرفوا على أصحاب المهن المتعلقة بالأشربة والأطعمة. ولم يتوقف دور الدولة الرقابي والإشراف متمثلاً في المحتسب عند هذا الحد بل امتد ليشمل الرقابة والإشراف على المرافق والمنشآت العامة.

ومن الأمور التي يرثى لها في أواخر العصر المملوكي تدهور وظيفة الحسبة في مصر ومن المعروف أن الحسبة وثيقة الصلة بالرعاية الصحية ، ووصل الأمر بتلك الوظيفة الجليلة إلى أن طمع بها الطامعون، ولما رأى السلاطين التكالب على تلك الوظيفة فإنهم تشجعوا وزايدوا عليها وأعطوا أمرها لمن يدفع أكثر، وبذلك أصبح على المحتسب أن يأخذ هو الآخر (الرشوة) لكي يعوض ما بذله من براطيل للسلطان، فأصبحت الرشوة علنية حيث وصل الحال أن أرغم المحتسب الباعة والتجار وأصحاب الحرف والصنائع بدفع مقررات شهرية له[2].

ومعنى وصول الحسبة إلى ذلك الحد من التدهور أن الرعاية الصحية أصبحت في خطر فطالما أن المحتسب سيفرض مقررات شهرية على الباعة، فذلك سيجعل الباعة لا يراعوا ذمة في

---

[1] الحسبة: في اللغة اسم من الاحتساب بمعنى التدبير، فيقال فلان حسن الحسبة في الأمر أي حسن التدبير والنظر فيه. انظر: ابن منظور، لسان، مج1، مادة حسب. وفي الشرع: هي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله. انظر: ابن تيمية، الحسبة، ص6. الماوردي، الأحكام، ص207. النويري، نهاية، ج6، ص291. والمقصود بالمعروف هنا هو كل قول وفعل وقصد حسنه الشارع وأمر به، والمنكر هو كل قول وفعل وقصد قبحه الشارع ونهي عنه. انظر: أبو زيد، الحسبة، ص43.

[2] أحمد، البذل، ص118، قاسم، الأسواق، ص173.

غش البضائع، وذلك الغش سيصبح وسيلة سهلة، وذلك الأمر سيكون على حساب الحالة الــصحية للرعية.

أولا : دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على أصحاب المهن الطبية.

1- الرقابة والإشراف على الأطباء:

كان المحتسب يأخذ على الأطباء عهد ابقراط[1]، " الذي أخذه على سائر الأطباء ويحلفهم ألا يعطوا أحداً دواءاً مضراً ولا يركبوا له سما، ولا يصفوا التمائم عند أحد من العامة، ولا يــذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وليغضوا أبــصارهم عــن المحارم عند دخولهم على المرضى ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار "[2]. كمـا كــان علــى المحتسب أن يتأكد أن الطبيب لديه جميع أدوات الطب مما يحتاج إليه في صــناعته[3] وعليــه أن يمتحن الأطباء فيما جاء في كتاب حنين بن اسحق المعروف بمحنة الطبيب[4]

ومن منطلق أهمية الطب علماً وصناعة فإن سلوك الطبيب كان من أهم المحاور التي كتب عنها المهتمون بالطب، ولأن الطبيب يؤتمن على أرواح البشر فلذلك:" يجب أن يكون الطبيب حسن الهيئة كامل الخلق صحيح النية نظيف الثياب طيب الرائحة يسر من نظر إليه وتقبل النفس علــى تناول الدواء من يديه وأن يتقن بقلبه العلوم التي توقف الإصابة في العلاج عليها وأن يكون متينــاً في دينه متمسكاً بشريعته دائراً معها حيث دارت واقفاً عند حدود الله ورسوله، نسبته إلــى النــاس بالسوا خلى القلب من الهوى لا يقبل الارتشاء، ولا يفعل حيث يشاء ليؤمن معه الخطأ وتــستريح إليه النفوس من العناء "[5].

ويجب على الطبيب أن يراعي الله تعالى وحدوده ويكون أمينا على حياة مرضـــاه الــذين وضعوها بين يديه، " ولا يعطي للمرضى ما يضرهم، بل يكون خيراً ناصحاً وأميناً على مرضاه، ولا أعطي إذا طلب مني دواء قتال ولا أشير أيضاً بمثله هذه المشورة، وكــذلك أيــضاً لا أرى أن أدنى من النسوة فرزجة تسقط الأجنة، واحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الذكاء والطهــارة، ولا أشق أيضاً عمق من في مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل"[6].

---

(1) حسين ، الموجز ، ص240،.

(2) الشيزري، نهاية ، ص98.

(3) المصدر نفسه، ص98، 99، 100. حسين ، الموجز ، ص240.

(4) المصدر نفسه، ص 99، 100. المرجع نفسه ، نفس الصفحة.

(5) الإنطاكي، تذكرة ، ج1، ص10.

(6) ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص45.

والطبيب الأمين لا ينظر إلى ما حرمه الله في البيوت التي يدخلها ويغض طرفه عنهـــا، " وكل المنازل التي أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى"[1].

ويجب أن يتحلى الطبيب بصفات حميدة تدل على سلوك قويم أن يكـــون كتومـــاً لأســـرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم، أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الـــذكاء جيـــد الرؤية عاقلاً ذكوراً خير الطبع، أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمـــسه من الأجر، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء، أن يكون حريصاً علـــى التعليم والمبالغة في منافع الناس، أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر ببالـــه شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الإعلاء فضلاً عن أن يتعرض لهم بـــشيء منها، أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواء قاتل ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه[2].

وينبغي أن لا يقعد مع الطبيب غيره ممن يظن به بأن المريض لا يريد أن يطلع على حاله لأنه قد تكون به أمراض لا يريد أن يطلع عليها أحد لا سيما لو كان المـــريض مـــن العلمـــاء أو الأولياء[3].

وضرب ابن النفيس أروع الأمثلة في السلوك القويم للأطباء عندما رفض أن يتناول الخمر وقد نصحه الأطباء وهو في علة مرضه الأخيرة بأن يتناول الخمر وزعموا أنها فيها شفاء لعلتـــه، ففضل الموت بهذه العلة، عن معصية الله تعالى، لا ألقى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر[4].

وكان المحتسب يراقب الأطباء على مختلف تخصصاتهم، فكان المحتسب يمتحن الكحـــالين في كتاب حنين ابن اسحق(215 – 298هـ/ 830 – 910م) [5] وهو بعنوان العشر مقالات فـــي العين حتى يتأكد أنهم على معرفة تامة بتشريح العين وعدد طبقاتها السبع ورطوباتها الثلاث إضافة إلى معرفة أمراضها المتعددة، علاوة على الإلمام بتركيب الأكحال وغيرها ممـــا يلـــزم لمعالجـــة

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون. ص45.

(2) المصدر نفسه، ص565.

(3) ابن الحاج، المدخل، مج2، ج3، ص123.

(4) العمري، مسالك ، ج9، ص617.

(5) إسحاق بن حنين بن إسحاق العباديّ: طبيب مترجم أفاد العربية بما نقله إليها من كتب الحكمة وشروحها. خـــدم بعض الخلفاء من بني العباس، وألف كتبا كثيرة، منها (الأدوية المفردة) و (اختصار كتاب أقليدس) و (آداب الفلاسفة ونوادرهم) و (تاريخ الأطباء). الزركلي، الأعلام، ج1، ص294.

العين[1]، فمن نجح من الكحالين في هذا الامتحان أذن له المحتسب بمعالجة أعين الناس وحتم عليه أن لا يفرط في شيء من آلات مهنته[2]، وثمة نوع من الكحالين كانوا يعرفون بكحالي الطرقات فكان المحتسب يأخذ عليهم العهد أن لا يتصدوا لعلاج أمراض العين بدون علم أو خبرة وأن لا يغشوا العقاقير والأكحال التي يحملونها معهم حتى لا يتسببوا في إلحاق الضرر بمرضى العيون[3] وبالرغم من وجود كحالين على درجة عالية في البيمارستان المنصوري إلا أن العامة كانت تلجأ إلى كحالو الطرقات ويرجع ذلك إلى أن هؤلاء الكحالون كانوا يبهرجون على الناس بالحيل والخداع ولسذاجة العامة كانوا يثقوا بهم، وأما كحالوا الطرقات فلا يوثق بأكثرهم إذ لا دين لهم ويصدهم عن التهجم على أعين الناس بالبضع والكحل بغير علم ومخبرة بالأمراض والعلل الحادثة ولا ينبغي لأحد أن يركن إليهم في معالجة عينه ولا يوثق بإكحالهم وآشيافهم، وجميع غشوش أكحالهم لا يمكن حصرها فيحلفهم المحتسب على ذلك إذ لا يمكن منعهم من الجلوس لمعالجة أعين الناس[4]. كما كان المحتسب ينبه على مرضى العيون أن لا يلجأوا إلى كحالي الطرقات أو أن يثقوا بعلاجهم[5]، حتى لا يكون ذلك سبب في فقد أبصارهم التي هي أغلى ما يملكون، ويكون الكحال على دراية بتشريح العين، وعدد طبقاتها وعدد رطوباتها، وعدد أمراضها، وأن يكون خبيراً بتركيب الأكحال وأمزجة الأدوية[6].

وأن يكون على معرفة ودراية " في صنعة الكحل، والتقدّم على أبناء صنعته فيه، والمعرفة بحال العين وأمراضها، وأصناف الأكحال، وما يوافق كلّ علّة من ذلك، وما ينخرط في هذا السّلك"[7].

أما أطباء الجراحة أو الجرائحيون فكان المحتسب يلزمهم بمعرفة كتاب جالينوس المعروف بقطاجانوس[8] في الجراحات والمراهم[9] وكتاب الزهراوي[10] في الجراحة وأن يكونوا على دراية

---

(1) الشيزري، نهاية، ص100. حسين، الموجز، ص240.

(2) الشيزري، نهاية، ص100. ابن الأخوة، معالم، ص168.

(3) المصدر نفسه، نفس الصفحة. المصدر نفسه، ص168، 169.

(4) ابن الأخوة، معالم ، ص168، ابن بسام، نهاية ، ص119.

(5) بدوي، الحياة ، ص309.

(6) ابن الأخوة، معالم، ص168. ابن بسام، نهاية، ص119. انظر أيضاً: عيسى، تاريخ، ص53. الشطي، اللب، ص62.

(7) القلقشندي، صبح ، ج 11، ص 89.

(8) قطاجانوس: أو قطاجانس، وهو اسم يوناني يطلق على المقالات السبع الأولى من كتاب جاليونس الخاص بتركيب الأدوية. انظر: الشيزري، نهاية ، ص101، حاشية 6.

(9) الشيزري، نهاية ، ص101، 102. حسين، الموجز ، ص241.

(10) الزَّهْرَاوي: خلف بن عباس الزهراويّ الأندلسي، أبو القاسم(427 هـ / 1036 م) طبيب، من العلماء. ولد في الزهراء. جاء في دائرة المعارف البريطانية إنه أشهر من ألف في الجراحة عند العرب، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف. أشهر كتبه (التصريف لمن عجز عن التأليف). الزركلي، الأعلام ،ج2، ص310.

ومعرفة تمكنهم من تشريح أجزاء جسم الإنسان، ويعرفوا أماكن الشرايين والأعصاب والعــضل، حتى يتجنبوا الجراح والقطع في هذه الأماكن عند الفتح[1].

ويقوم رئيس الجرائحية بامتحان المجبرين، ومن وجده غير ماهر أحاله إلى المحتسب لوقفه عن العمل، ومن هؤلاء الجرائحية من يهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدفنونها في الجرح ثم يخرجونها بمحضر من الناس ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها لذلك على المحتــسب أن يراقبهم ويعتبر عليهم ذلك[2]

كما اشترط المحتسب على الجراحين أيضاً أن تكون جميع أدوات الجراحــة مــن الآلات والمباضع اللازمة معهم أثناء إجراء العمليات الجراحية، وإن يكونوا أمناء صادقين مع المرضى و لا يدلسوا عليهم أو يغشوهم[3].

2- الرقابة والاشراف على الفصادين والحجامين :

وكذلك كان من حق المحتسب الإشراف على الفصادين والحجــامين ومــراقبتهم([4]) فكــان المحتسب يمتحن الفصادين قبل السماح لهم بمزاولة مهنة الفصد، حتى يتبين مدى علمهم بــالعروق التي يمكن أن يتم الفصد بها[5]، مثل عرق اليافوخ والجبهة والأذنين والصدغين واللثــة واللــسان والذقن وعرق النساء والأكحلان والركبتين[6].

كذلك كان المحتسب يلزم الفصادين أن يكون معهم أثناء عملية الفصد المباضــع الكثيــرة ذوات الشعيرة وغيرها، والآلات النظيفة الضرورية، وأن تتم هذه العملية في مكان مضيء، كمــا كان ينبه على الفاصد أن يكون هادئاً غير منزعج حتى يؤدي عملية الفصد على خير وجه[7].

كما كان المحتسب يؤكد على الفصادين أن يكونوا على درجة عالية من المهارة في تشريح الأعضاء والعروق والعضل والشرايين، ويعرفوا كيفية تركيبها حتى لا يصيب المبضع عرقــاً أو شرياناً غير مقصود، فيترتب على ذلك هلاك الشخص المفصود[8].

---

[1] الشيزري، نهاية ، ص101، 102. ابن الأخوة، معالم ، ص169. حسين ، الموجز ، ص241.

[2] ابن الأخوة، معالم ، ص168،.ابن بسام، نهاية ، ص121. الشيزري، نهاية ، ص102.

[3] الشيزري، نهاية ، ص 102، ابن الأخوة، معالم ، ص169. حسين، الموجز ، ص241.

[4] جرونيباوم، حضارة، ص287.

[5] الشيزري، نهاية ، ص92. ابن الأخوة، معالم ، ص161.

[6]مجهول ، الفصد والحجامة ، ورقة 2، 3، 4.

[7] المصدر نفسه ، ورقة 16، 17.

[8] الشيزري، نهاية ، ص 89.

وحتى تكتسب أصابع الفصاد المهارة الفائقة كان عليه أن يتمرن أولا على فصد ورق السلق حتى يتقنه، ثم يتصدى بعد ذلك لفصد البشر، وقد كان المحتسب حريصاً على أن تظل أصابع الفصاد تتمتع بكامل المهارة في إجراء عملية الفصد، فكان يشترط على الفصاد أن لا يمارس أي مهنة يمكن أن تكسب أنامله صلابة تعوق عمله كفصاد[1].

ولما كانت عملية الفصد تحتاج إلى دقة عالية من حيث إجراء الفصاد لها في أماكن دقيقة من الجسم بين العروق والشرايين فقد كان المحتسب حريص على أن يظل بصر الفصاد قويا حتى يتبين هذه المواضع الدقيقة، فكان يلازمه بتعاهد عينية بالاكحال حتى يستمر بصره قوياً سليماً[2].

كما كان المحتسب ينبه على الفصادين أن يحملوا معهم من باب الاحتياط بعض المواد المنبهه كالمسك أو النشادر وغيرها لاستخدامها في بعض حالات الإغماء التي يتعرض لها بعض الأشخاص المفصودين[3].

وفي إطار الحرص على النفس البشرية من التلف كان المحتسب يأخذ على الفصادين العهد بأن لا يفصدوا طفلاً أو شيخاً إلا بعد مشاورة الأطباء الثقات، وأن لا يفصدوا أصحاب الأبدان النحيفة، أو شديدة النحافة أو الأبدان الضعيفة، التي طالت بها الأمراض، أو أصحاب الأبدان المفرطة وغير ذلك ممن لا يتحملون عملية الفصد[4].

كما خضع الحجامون لرقابة وإشراف المحتسب، فقد كان المحتسب حريصاً على إجراء امتحان للحجامين قبل السماح لهم بممارسة مهنة الحجامة، وذلك من خلال لصق المحتسب لورقة على آجرة ثم يأمر الحجام بشرطها فإن نفذ الشرط كان الحجام ثقيل اليد غير متمكن، وإن لم ينفذ الشرط كان هذا دلالة على تمكن الحجام من صنعته، وبالتالي يسمح له المحتسب بممارسة مهنة الحجامة[5].

---

[1] الشيزري، نهاية ، ص 89.

[2] مجهول، الفصد والحجامة ، ورقة 15، 16.

[3] المصدر نفسه، ورقة 16، 17. طاهر، الحسبة ، ص42.

[4] الشيزري، نهاية ، ص89، 90. ابن الأخوة، معالم ، ص160.

[5] الشيزري، نهاية، ص95.

وكان من ضمن الشروط التي وضعها المحتسب لممارسة مهنة الحجامة كون الحجام خبيراً بارعاً بالصناعة، خفيف اليد حتى لا يؤلم المحجوم وإن يختار الوقت المناسب للحجامة[1]، وذلك لأن كل الأوقات لا تصلح للحجامة ولكن هناك أوقات معينة تفضل فيها الحجامة[2].

كما خضع أطباء العظام والمجبرين لإشراف ورقابة المحتسب حيث كان المجبرين لا يستطيعون التصدي لعملية جبر الكسور إلا بعد أن يحكموا ويتقنوا دراسة المقالة السادسة من الكناش[3] المعروف بكناش بولص[4] في الجبر[5] إلى جانب معرفتهم بعدد عظام الإنسان وهي مائتان وثمان وأربعين عظمة، فضلاً عن معرفتهم بصورة كل عظمة من هذه العظام وأشكالها وقدرها، حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلع تمكن هؤلاء المجبرون من معالجة هذه العظام وإعادتها إلى سابق عهدها[6].

والمحتسب يراقب القوابل في عملهن ويعتبر أدواتهن بل ويأخذ عليهن عهد أبقراط الذي يتخذه على الأطباء، حيث إنهن يشاركن الأطباء في العمل الطبي فيأخذ عليهن العهد بألا "تسقط الأجنة"[7].

---

[1] مجهول، الفصد والحجامة ، ورقة 43.

[2] الشيزري، نهاية، ص95، 96. وأفضل أوقات الحجامة وسط الشهر الهجري حتى تكون الاخلاط قد هاجت وتحركت فيتم الغرض من الحجامة . انظر: الشيزري، نهاية، ص 95، 96. وقد تستحب الحجامة في وسط الشهر وبعد وسطه وبالجملة في الربع الثالث من أرباع الشهر لأن الدم في أول الشهر لم يكن بعد قد هاج، وتبيغ وفي آخره يكون قد سكن وأما في وسطه وبعيده فيكون في نهاية التزيد، لتزايد النور في جرم القمر. انظر: ابن قيم ، الطب ، ص38.

[3] الكناش: هو الأوراق تجعل كالدفتر تسجل فيها الفوائد والشوارد .انظر: مجمع، المعجم الوجيز، مادة كناشة، ص543. وقيل الكناش هي مجموعة المذكرات الطبية المصطلح عليها .انظر: الشيزري، نهاية ، ص95، 96.

[4] بولص: هو بولص الجانيبطي وهو من الأطباء المشهورين بعد وفاة جالينوس، وقد ذكر ابن ابي أصيبعة أن اسمه فولس الجانيطي وله من المؤلفات "كناش الثريا" و"مقالة في تجبير الصبي وعلاجه" .انظر: ابن ابي اصيبعة، عيون، ص150. وقد أقام بالاسكندرية حتى توفي بها سنة (61 هـ/680م) وكان هذا الطبيب خبيراً بأمراض النساء، يأتي إليه القوابل فيرشدهن، وله كتاب الكناش في الطب الذي نقله عنه حنين بن اسحق إلى العربية. القفطي، تاريخ، ص261، 262. انظر: ابن النديم، الفهرست، ص293.

[5] الشيزري، نهاية، ص101. حسين ، الموجز ، ، ص241.

[6] الشيزري، نهاية، ص101. ابن الاخوة، معالم، ص169.

[7] ابن أبي أصيبعة، عيون ، ص44.

3- الإشراف على البياطرة :

لم تقتصر رقابة المحتسب على أطباء البشر فحسب أيضاً، فقد امتازت لتشمل أطباء الحيوان أو ما يعرف بالبياطرة، فكان المحتسب يشترط على البيطري قبل السماح له بممارسة مهنة البيطرة أن يكون خبيراً بعلل الدواب وعلى معرفة جيدة بها، وأن لا يقدم على فصد أو قطع أو كي الدابة بغير علم فيؤدي ذلك إلى هلاك الدابة أو عطبها[1].

كما كان المحتسب يأمر البيطري أن ينظر إلى " رسغ الدابة ويعتبر حافرها قبل تقليمه، فإن كان أحنف أو مائلاً، نسف الجانب الآخر قدراً يحصل به الاعتدال، وان كانت اليد قائمة، جعل المسامير المؤخرة صغاراً والمقدامة كباراً، وان كانت يدها بالضد من ذلك صغر المقدمة وكبر المؤخرة، ولا يبالغ البيطار في نسف الحافر فتغمس الدابة ولا يرخي المسامير فيتحرك النعل ويدخل تحته الحصى والرمل فترهص الدابة، ولا ينبغي له أن يشدها قوياً على الحافر فتزمن الدابة، واعلم أن النعال المطرقة الزم الحافر، واللينة الزم للمسامير الصلبة والمسامير الدقيقة خير من الغليظة "[2].

" وإذا احتاجت الدابة إلى فتح عرق أخذ البيطار المبضع بين أصبعيه، وجعل نصابة في راحته واخرج من رأسه مقدار نصف ظفر، ثم فتح العرق تعليقاً إلى فوق بخفة ورفق و لا يضرب البيطار العرق حتى يجسه بأصبعيه سيما عروق الأوداج، فإنها خطرة لمجاورتها المريء فإذا أراد أن يفتح شيئاً من عروق الأوداج خنق الدابة خنقاً شديداً حتى تبذر عروق الأوداج فيتمكن حينئذ مما أراد "[3].

ومن خلال هذا النص يتبين لنا مدى دقة رقابة واشراف المحتسب على البياطرة وإسدائه لهم العديد من التوجيهات التي تساعدهم في مهام عملهم.

4- الإشراف على الصيادلة:

نظراً لأهمية مهنة الصيدلة وتعلقها بحياة الناس فقد نظمت عملية الحسبة على الصيادلة بما يضمن أن يرقبوا الله في ذلك وللمحتسب أن يفطنهم ويخوفهم بالعقوبة والتعزير ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل أسبوع[4].

---

[1] الشيزري، نهاية ، ص80، 81. ابن بسام، نهاية، ص124، 125.

[2] الشيزري، نهاية، ص80.

[3] المصدر نفسه، ص80، 81.

[4] عيسى، تاريخ ، ص57. حسين ، الموجز ، ص241.

وقد كان الغش أكثر ما يقع في هذه المهنة، لذلك فقد أسند إلى المحتسب أمر الرقابة على الصيادلة، والضرب علي أيديهم إذا خالفوا أصول المهنة، وأضافوا إلى عقاقيرهم ما يفسدها ويخرجها عن خواصها الطبيعية والعلاجية[1].

ويشير إلى ذلك الشيرزي بقوله: "تدليس هذا الباب والذي بعده كثير لا يمكن حصر معرفته على التمام، فرحم الله من نظر فيه وعرف استخراج غشوشه فعرفها في حواشيه تقرباً إلى الله تعالى، فهي أضر على الخلق من غيرها لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة والتداوي على قدر أمزجتها، فمنها ما يصلح لمرض ومزاج فإذا أضيف إليها غيرها أحرفها عن مزاجها فأضرت بالمريض لا محالة فالواجب على الصيادلة أن يراقبوا الله عز وجل في ذلك "[2].

وقد كانت بعض الأدهان نادرة الوجود أو أن الكميات المتوفرة منها قليلة لا تكفي الطلب عليها، فكان بعض الصيادلة يخلطون هذه الدهانات ببعض المواد التي تكثر منها، ومن ذلك خلط البعض لدهان البلسان ببعض المواد[3]، فكان المحتسب يراقب هذه الامور أشد المراقبة وينبه على عدم فعلها.

وحتى يتسنى للمحتسب إحكام الرقابة على الصيادلة فقد أقام عليهم عريفاً ثقة، خبيراً بمهنتهم بصيراً بغشوشهم، لأن العقاقير نحو ثلاثة آلاف عقار، ولها أشباه وأمثله تدانيها وتقاربها في الصورة وتنافيها وتبعد عنها في المزاج والمنفعة[4].

ومن ذلك أن بعض الصيادلة كانوا يلجأون إلى الغش في بعض النباتات والأدوية فكان ينبه على ذلك من خلال توضيح صفات الجيد من الرديء فمثلاً كان الجيد من عود البلسان، ما كان

---

[1] الشيرزي، نهاية ، ص42، ابن بسام، نهاية ، ص85.

[2] الشيرزي، نهاية ، ص42.

[3] حيث كان الجيد في البلسان هو " الحديث القوي الرائحة خالصها ليس فيه شيء من رائحة الحموضة سريع الانحلال بالماء لين قابض يلدغ اللسان لدغاً يسيراً وقد يغش على ضروب، لأن من الناس من يخلط به بعض الادهان مثل دهن الحبة الاياء ودهن الحناء، ودهن شجرة المصطكي ودهن السوسن ودهن البان والدهن الذي يقال له ماطونيون وهو دهن المثة، وبعض الناس يخلط به عسلاً أو شمعاً قد خلط بدهن الاس، أو دهن الحناء= =حتى يرق جداً والسبيل إلى معرفة ذلك هينة، وذلك أن الخالص إذا قطر منه على صوفه وغسلت بالماء من بعد فليس يؤثر بها وأما المغشوش فإنه يبقى فيه أثر وأيضاً الخالص إذا قطر على لبن أجمد والمغشوش لا يفعل ذلك والخالص إذا قطر في الماء انح ثم يصير إلى قوام اللبن بسرعة طول الزمان يثخن فيشتد وقد يغلط من يظن أن الخالص إذا قطر على الماء يغوص أولاً في عمقه ثم يطفو عليه وهو غير منحل" . انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص108.

[4] ابن بسام، نهاية ، ص85.

حديثاً دقيق العيدان أحمر طيب الرائحة خشناً يفوح منه رائحة دهن البلسان واختر من حبه فإن الحاجة إلية اضطرارية ما كان منه أشقر ممتلئاً كبيراً ثقيلاً يلدغ ويحذو حذواً يسيراً ويفوح منه رائحة دهن البلسان وقد يؤتى بحب من البلاد التي يقال لها انطرانيون شبيه بالأوفاريقون يغش به حب البلسان ويستدل عليه من أنه صغير فارغ ضعيف القوة شبيه بطعم الفلفل[1].

وقد كان المحتسب يعتبر على الصيادلة عقاقيرهم في كل أسبوع وكان بصيراً بوسائل الغش المتعددة في الأدوية والتي يلجأ إليها الصيادلة "فمن غشوشهم المشهورة أنهم يغشون الأفيون المصري بشياف ماميثا[2] ويغشونه أيضاً بعصارة ورق الخس البري ويغشونه أيضاً بالصمغ وعلامة غشه، أنه إذا أذيب في الماء ظهرت له رائحة كريهة كرائحة الزعفران إن كان مغشوشاً بالماميثا وإن كانت رائحته ضعيفة وهو خشن كان مغشوشاً بعصارة الخس، والذي هو مر صافي اللون ضعيف القوة يكون مغشوشاً بالصمغ[3]"

وكذلك من نماذج الغش التي كانت موجودة في ذلك العصر والتي كان يلجأ إليها بعض الصيادلة أنهم "قد يغشون الروند[4] بنبتة يقال لها رواند الدواب[5] تنبت بالشام، وعلامة غشه أن الرواند الجيد هو الأحمر الذي لا رائحة له، ويكون خفيفاً وأقواه الذي يسلم من السوس، وإذا انقع في الماء كان في لونه صفرة وما خالف هذه الصفة كان مغشوشاً بما ذكرناه"[6].

---

[1] ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص108.

[2] ماميثا: أو ماميثا وهو نبات شبيه بالخشخاش وكان أكثر ما يغش هذا النبات بالخشخاش وذلك لأن الخشخاش المقرن والماميثا لا فرق بينهما في صورة الورق والزهر والثمر ولون الأصل من الصفرة إلا أن الماميثا تختص بالأراضي الطيبة والبراري والخشخاش يختص بالسواحل البحرية برمليها وبحريها كذلك من الماميثا ما يكون في أسفل ورقة نكتة دكنة اللون ومنه مالا نكتة فيه وكذا من أنواع الخشخاش ما يشبهه إلا زهر هذا أحمر وشنقته قائمة فصار فيها خشونة بخلاف شنقة الخشخاش المقرن والماميثا فان زهر ثمرتها معوج كالقرون . انظر: المصدر نفسه، مج2، ج4، ص124، 125، 126.

[3] الشيزري، نهاية ، ص42. ابن بسام ، نهاية ، ص85. حفني ، موجز ، ص308، حاشية 2، ص318، 319.

[4] الرواند: هو أصل أسود وهو شبيه بالقنطوريون الكبير إلا أنه أصغر منه وأقرب إلى حمرة الم لا رائحة له رخوة إلى الخفة وله لزوجة وقبض ضعيف، وإذا مضغ كان في لونه صغرة وشيء من لون الزعفان، وإذا شرب نفع من الريح وضعف المعدة وأوجاع كثيرة، وينبت في المواضع التي فوق البلاد التي يقال سيقورس ومن هناك يؤتى به . انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج2، ص129.

[5] رواند الدواب: يجلب من نواحي عمان من ارض الشام وهي عروق خشبية طوال مستديرة في غلظ الإصبع أو أكثر إلى الصلابة ما هي ظاهرة أغبر اللون كمدة ومكسرها املس تعلوه صفرة مشوية بيسير من الزرقة. انظر: المصدر نفسه، مج1، ج2، ص131.

[6] الشيزري، نهاية، ص42، ابن بسام، نهاية، ص85. معالم ص118. حفني ، الموجز، ص318، 319.

كما أشاروا إلى نماذج أخرى من غش الصيادلة في الأدوية والتي ينبغي على المحتسب أن يكون على دراية تامة ومعرفة كاملة بها ومنها أنهم: قد يغشون الطباشير[1] بالعظــام المحروقــة بالأتانين، ومعرفة غشها أنها إذا طرحت في الماء رسب العظم وطفا الطباشير[2]، وأيضاً قد يغشون اللبان الذكر بالقلفونية[3] والصمغ ومعرفة غشه أنه إذا طرح في النار التهبــت القلفونيــة ودخلــت وفاحت رائحتها[4]، كما أنهم قد يغشون التمر هندي[5] بلحم الأجاص[6].

وقد يغشون الحضض[7] بعكر الزيت ومرائر البقر في وقت طبخه، ومعرفة غشه أنــه إذا طرح منه شيء في النار فإن الخالص منه يلتهب ثم إذا أطفئته بعد الالتهاب يصير له رغوة كلون الدم، وأيضاً فإن الجيد منه أسود ويرى داخله ياقوتي اللون وما لا يلتهب ومــالا يرغــى يكــون مغشوشاً بما ذكرناه[8].

---

(1) الطباشير: قيل أن أجوده أشده بياضاً وخاصة عقده وفلوسه التي في جوف قصبته وشكلها مستدير كالدرهم وانما يوجد هذا منه مما احترق من ذاته عند احتكاك بعضه ببعض بريح شديدة تهب عليه وقد يغش بعظام أصول الضأن المحترقة إذا ارتفعت قيمته في غير موضعه، أما في موضعه فإنه يسلم من ذلك لإتضاع قيمته هناك وقيمة المن من الطباشير تقدر بنحو ستة دراهم إلى ثمانية دراهم . انظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج3، ص96.

(2) ابن الاخوة، معالم ، ص122.

(3) القلفونية: قيل هو صمغ الصنوبر الذي يسمى باليونانية قوفا، وإذا طبخ كان منه القلفونيا وقيل هو الراتينج وأنــه هو العلك كله، وهذا خطأ لأن حنين ابن اسحق خص واحد من أصناف العلك وهو القلفونيا باســم الــرتينج فــسماه خاصة راتينجيا وسائر أصنافه يسميها علوكاً وصموغاً .انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج 2، ج4، ص31.

(4) ابن الاخوة، معالم ، ص122.

(5) التمر هندي: هو الحومر وبعض الأعراب يقولون أن الحمر شجر عظام كــشجر الجــوز وورقــه نحــو ورق الخلاف، وثمره مودن نحو ثمرة القراط، ويطبخ به الناس وهو بالسراة كثير وبلاد عمان وقيل ينبت باليمن وبــلاد الهند وبلاد السودان وقد ينبت بالبصرة، وورقه كورق اللوبيا صلب وثمره غلف دقاق عليها عــسلية تــدبق باليــد، وبداخل الغلف حب صلب مركن أحمر اللون غير مستعمل وهو ينزل المرة الصفراء ويكسر وهج الدم، وقيل الثمر الحامض يتداوى به من أمراض كثيرة . انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص104. ابن الوردي، خريدة ، ص315.

(6) ابن الاخوة، معالم ، ص122.

(7) الحضض: هو شجرة مشوكة لها أغصان طولها ثلاثة أذرع أو أكثر عليها الورق وهي شبية بورق شجر البــق ملزز ولها ثمر شبيه بالفلفل أسود ملزز من المذاق أملس وقشر الشجر أسود شبيه بالحضض المدوف بالماء، ولها أصول كثيرة ذاهبة في جانب خشنة، وينبت في أماكن الأرض الوعرة وقد يخرج عصارة الحضض إذا دق الورق كما هو ويطبخ مع الشجرة . انظر: ابن البيطار، الجامع، ج2، ص23.

(8) الشيزري، نهاية، ص43. ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص24.

وأيضاً كان على المحتسب أن ينتبه إلى أن بعض الصيادلة قد يغشون القسط[1] بأصول الراسن[2] ومعرفة غشه أن القسط له رائحة إذا وضع على اللسان يكون له طعم والراسن بخلاف ذلك[3].

وقد يغشون زغب السنبل بزغب القلقاس ومعرفة غشه أنه بوضعه في الفم يغثى ويحرق وقد يغشون الأفريبون بالبافلاء[4] اليابس المدقوق[5].

كما كان بعض الصيادلة يغشون المصطكي[6] بصمغ الأبهل[7] ومنهم من يغشون المقل[8]

---

[1] القسط: أجوده ما كان من بلاد العرب، وكان أبيض خفيفاً وكانت رائحته طيبة قوية، وبعد هذا الصنف الذي من بلاد الهند، وهو غليظ أبيض خفيف مثل القثاء، وبعد هذا الصنف البقس، وهو الشمشاد تتبين رائحته ساطعة وأجوده ما كان حديثاً ممتلئاً وكان كثيفاً يابساً لا متآكلاً ولا زهماً يلدغ اللسان وحذوه، وقيل أن في القسط كيفية من مرارة كثيرة جداً وكثيفة حرارة وحرافة حتى لا يقرح لذلك فه فوائد طيبة كثيرة .انظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج4، ص18.

[2] الراسن: هو الجناح بلغة أهل الأندلس وهو شبيه بالدقيق الورق من النبات الذي يقال له قلومس غير أنه أخشن وأطول وليس له ساق، وله أصل عظيم طيب الرائحة فيه حرافة ياقوتي اللون تؤخذ منه شعب لتتبت كما يفعل بالسوس والصنف من اللوف البري الذي يقال له ادن ويكون في مواضع جبلية فيها شجر رطب وأصله يقلع في الصيف ويجفف وانفع ما في هذا النبات أصله فإن أصله ليس يسخن ساعة يلقى على البدن ولذلك ينبغي أن يقال أنه ليس بحار يابس صادق الحرارة واليبس كالفلفل الأود ولكنه مع ذلك فيه فضل رطوبة لذلك صار يخلط في اللعوقات. انظر: المصدر نفسه ، مج1،ج2، ص128.

[3] ابن الأخوة، المعالم، ص 123.

[4] الباقلاء: هو المعروف حالياً باسم الفول. انظر: صابر ، موجز، ص319، حاشية 7.

[5] الشيزري، نهاية، ص44. ابن الاخوة، معالم ، ص 123.

[6] المصطكي: هو علك الروم، وشجرة المصطكا مركبة من جوهر مائي حار قليل من جوهر أرضي بارد يابس ليس بكثير المقدار، وبسببه صارت تقبض قليلاً وتجفف في الدرجة الثانية عند انقضائها وأجزاء هذه الشجرة على مثال واحد في عروقها وقضبانها وأوراقها وأغصانها وأطرافها وفي ثمرتها أيضاً ولحائها فقد يستعمل أيهما كدواء .انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج2، ج4، ص158.

[7] الأبهل: زعمت جماعة من الاطباء أنه العرعر وهو خطأ وقيل هو صنف من العرعر كبير الحب وهو شجر كبير له ورق شبيه بورق الطرفاء وثمرته حمراء ودسمة تشبه النبق في قدرها ولونها، وما داخلة مصوف له نوى ولونه احمر اذا نضج كان حلواً في المذاق وفيه طعم بعض القطران ويجمع في وقت قطاف العنب وقيل هو صنفان وهو نبات قوي التجفيف في كيفيته الموجودة في طعمه .انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص6.وانظر: ابن النفيس: الشامل ، ج1، ص105.

[8] المقل: هو صمغ شجرة تكون ببلاد العرب وأجوده ما كان مرا صافي اللون كأنه الغراء المتخذ من جلود البقر وباطنه عرق لازوقي سريع الانحلال لا يخالطه شيء من خشب ولا وسخ وإذا بخر به كان طيب الرائحة شبيهاً بالإظفار وقد يوجد منه شيء أسود وسخ غليظ كبير المقدار ورائحته كرائحة الدار شيشغان أو رائحة قشر الكفري، يؤتى به من بلاد الهند، وقد يؤتى شيء منه من البلاد التي يقال لها باطوناس شبيه بالرتينج قريب من لون الباذينجان وهو ثان بعد الجيد في قوته، وقد يغش المقل بصمغ عربي وغراء يخلطونه ، انظر: ابن البيطار، الجامع، مج 2، ج4، ص162.

بالصمغ القوي، ومعرفة غشه أن الهندي تكون له رائحة ظاهرة أذا بخر به وليس فيــه مــرارة[1] كذلك يغشون اللافتيمون[2] الاقريطشي بالشامي وليس بضار ويغشونه أيضاً بزغب البسبايج[3]

ومنهم من يغش المحمودة[4] بلبن اليتوع[5] المجمد ومعرفة غشها، أن توضع على اللــسان فإن قرصته فهي مغشوشة، ومنهم من يغشها أيضاً بنشارة القرون وتعجن بماء الصمغ على هيئــة المحمودة، ومنهم من يغشها بدقيق الباقلاء ودقيق الحمص، ومعرفة غش ذلك كلــه أن الخالــصة صافية اللون مثل الغرى والمغشوشة بخلاف ذلك[6].

كما أن بعض الصيادلة قد يغشون المر بالصمغ المنقوع في الماء وصفة غشه أن الخالص يكون خفيفاً ولونه واحداً وإذا كسر ظهر فيه أشياء كشكل الأظفار ملساء تشبه الحسى وتكــون لــه رائحة طيبة، وما كان منه ثقيلاً ولونه لون الزفت فلا خير فيه[7].

---

(1) الشيزري، نهاية، ص44. ابن البيطار، الجامع، مج 2، ج4، ص162.

(2) اللاقتيمون: هو ما يطلق عليه حديثاً cuscutaepithmum ، صابر ، موجز، ص320، حاشية 1. وهذا الاســم اسم يوناني وقيل سرياني والاكثرون أجمعوا على أنه يوناني وهو زهر الصنف من النبات الصلب الشبيه بالــصعتر وله رؤوس وله فوائد طبية عديدة ، انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج 1، ج1، ص40، 41.

(3) البسبايج: يطلق عليها حديثاً polypodium vulgare ، انظر: صابر ، موجز، ص320، حاشية 2. قد ذكــره ابن البيطار تحت اسم البسفايج وقال انه نبات ينبت بين الصخور التي عليها خضرة، وفي سوق شجر البلوط العتيقة على الأشنة طولها نحو من شبر ويشبه النبات المسمى بطارس عليه شيء من زغرب وهو مشرف وليس تــشريفه بدقيق مثل بطارس، وله أصل غليظ عليه شيء من زغب أيضاً وله شعب وهو شبيه بــالحيوان المــسمى أربعــة وأربعين وغلظه مثل غلظة الخنصر وإذا حل ظهر ماء لون داخله أخضر، وطعمه عفص مائل إلى الحلاوة . انظر: الجامع، مج 1، ج1، ص92.

(4) المحمودة: السقمونيا convul valus scammonia . انظر: صابر ، موجز، ص320، حاشية 3 وهو نبات له أغصان كبيرة مخرجها من أصل واحد طولها نحو من ثلاثة أذرع أو أربعة عليها رطوبة تضيق باليد، وشيء مــن زغب وله ورق وعليه زغب، وهو شبيه بورق النبات الذي يقال له العسني . انظر: ابن البيطار، الجامع، مــج 1، ج3، ص 17، 18.

(5) اليتوع: كل ما كان له لبن حاد يقرح البدن كالسمقونيا والشبرمر واللاعية وقيل أنه سبعة أصناف صــنف منــه يعرف بالذكر وآخر يعرف بالأنثى وغيرهما، واليتوع من الصنف الأول له قضبان طولها أكبر من ذراع وفي لونها حمرة مملوءة من لبن حاد وورق على القضبان يشبه ورق الزيتون إلا أنه أطول منه وأرق وأصل غلــيظ خــشبي وعلى أطراف القضبان جمة من قضبان دقاق شبيه بقضبان الأذخر على أطرافها رؤس إلى التجويف، وفــي هــذه الرؤوس ثمرة هذه النبات حيث ينبت في أماكن خشنة ومواضع جبلية، ويستخرج لبن هذا النبات فــي أوان القطــان بأن تجمع القطبان وتقطع وينبغي أن يميل رأس القضبان إذا قطعت ليسيل في أناء . انظر: االمصدر نفسه، مــج 2، ج4، ص 204–207.

(6) الشيزري، نهاية، ص45. ابن البيطار، الجامع، مج2، ج3، ص109. ابن الاخوة، معالم ، ص123، 127.

(7) الشيزري، نهاية، ص45. ابن البيطار، الجامع، مج2، ج3، ص109.

ومنهم من يغش قشر اللبان بقشور شجر الصنوبر[1] وصفة غشه أن يلقى في النـــار فـــإن التهب وفاحت له رائحة طيبة فهو خالص وان كان بالضد فهـــو مغـــشوش ومـــنهم مـــن يغـــش المرزنجوش[2] ببذر الحندقوق[3]، وقد يغشون الشمع بشحم المعز وبالقلفونية وقد يذرون فيه عنـــد سبكه دقيق الباقلاء أو الرمل الناعم أو الكحل الأسود المسحوق ثم يجعل ذلك بطانة في الشمعة ثـــم يغشى بالشمع الخالص ومعرفة غشه انك إذا اشتعلت الشمعة ظهر فيها ذلك[4] وقد يغشون الزنجا[5]

بالرخام والقلقند[6] ومعرفة غشه أن تبل ابهامك وتغمسه فيه، ثم تدلك به السبابة فإن نعـــم وصار كالزبد فهو خالص وان ابيض وتحبب فهو مغشوش وأيضاً يترك منه شيء بين الأسنان فإن

---

[1] الصنوبر: لحاء شجر الصنوبر الصغير فيه من قوة القبض ما يبلغ به إلى أن يشفي من السحج إذا وضع عليـــه كالضماد وشفاء لا غاية بعده وإذا شرب حبس البطن ويدمل أما الصنوبر فقوة ورقه وقوة لحائه قوة واحدة، وقيل أن شجرة الأرز هي ذكر الصنوبر لا يثمر شيئاً ولكنه يستفاد من خشبة ولحائه وشمعة أما أنثى الـــصنوبر فلهـــا ثمـــرة تستخدم في علاج الكثير من الامراض . انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج 2، ج3، ص87، 88.

[2] المرزنجوش: ويقال له أيضاً مرزجوش أو مردقوش، وهو فارسي واسمه السمسق بالعربية والعنقر أيضاً وحب القثاء، ويكون بالبلاد التي يقال لها قبرص وأما بمصر فإنه دون ذلك الجودة ويسمونه قورنفس، وهو نبـــات كثيـــر الأغصان ينبسط على الارض في نباته وله ورق مستدير عليه زغب شبيه بالفالامنى الدقيق الورق، وهـــو طيـــب الرائحة جداً مسخن وقد يستعمل في الأكاليل وطبيخه ينفع من أوجاع كثيرة . انظر: ابن البيطار، الجـــامع، مـــج2، ج4، ص144. ويطلق على المرزنجوش في الصيدلة الحديثة اسم majorana hortensis انظر: صابر، مـــوجز، ص320، حاشية 6.

[3] الحندقوق : هو نوعان حندقوق بستاني وحندقوق بري البستاني يسميه بعض الناس طريفلن وقوته تجلو وتجفـــف أما البري فيطلق عليه اسم الذرق والحباقي وهو ينبت كثيراً في البلاد التي يقال لها لينوي وله ساق طولها نحو من ذراعين يتشبع منها شعب كثيرة ولها ورق شبيه بورق الحندقوق الذي ينبت في المروج، وله بزر شبيه ببزر الحلبة إلا أنه أصغر منه بكثير وهو كريه الطعم ، انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج2، ص39، 40.

[4] الشيزري، نهاية ، ص45.

[5] الزنجار: كان اليونان يسمونه قشيطس أي المحرود، ويعمل من خلال صب خل خفيف في خابية أو إناء آخـــر شبيه بالخابية ويغطي الإناء بغطاء من نحاس ويكون الغطاء مقبياً فإنه أصلح فإن لم يتهيأ أن يكـــون مقبيـــاً فلـــيكن مبسوطاً وليكن مجلياً ولا يكون فيه ثقب ولا يخرج منه البخار أصلاً وفي كل خمسة عشر يوماً يؤخذ الغطاء فيجرد عن باطنه ما اجتمع عليه من الزنجار كما قد يحضر الزنجار من سبيكة النحاس مع عصير عنب حديث أو في ماء قد حمض، هذا وللزنجار فوائد صحيه كثيرة .انظر: ابن البيطار، الجـــامع ، مـــج1، ج2، ص168، 169، 170. والزنجار حالياً هو كبريتات (سلفات) الحديدوز green vitriol. انظر: حفني ، موجز، ص320، حاشية 9.

[6] القلقند: أو القلقنت أو القليميا وهو يتكون من الأتانين التي يذاب فيها النحاس إذا ما القيت المربة فيها كلها التـــي تكون منها النحاس في الأتون وارتفع، وقد تكون في المعادن التي تخرج منها الفضة عندما تخلص هذا التخلـــيص، وإذا أذيب أيضاً الحجر المعروف بالمرقيشيا صار منه قليما وقد يوجد من غير أتون في جزيرة قبرص وفي مجاري الماء . انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج2، ج4، ص30، 31.

وجدته كالرمل فهو مغشوش بالرخام وأيضاً تحمي صفيحة في النار ثم يذر عليها فإن احمر فهو مغشوش بالقلقند وإن اسود فهو خالص[1].

وكان على المحتسب أن ينتبه أيضاً إلى أن بعض الصيادلة "قد يختارون من الإهليلج الأسود إهليجاً أصفر، ويبيعونه مع الكابلي[2]
ويختارون من الهليلج الأصفر المعصب حباشه[3] الكابلي ويبيعونه مع الكابلي[4].

وقد ذكر ابن البيطار عند حديثه عن الإهليلج أنه " قد تبيع الصيادلة صنفاً أسود من الإهليلج الأصفر وذلك إذا ما تناهى نضجه على شجرة على أنه الهليلج الأسود وليس كذلك وإنما سواده على قدر نضجه في شجره والأصفر غير نضج[5] وأكثر منه لحماً لأنه بلغ في شجره ونضج[6].

ومن الصيادلة من يرشون الماء على الخيار شنبر[7] وهو ملفوف في الأكيسة عند بيعه فيزيد رطله نصف رطل[8] ومنهم أيضاً " من يأخذ اللك[9] ويسبكه على النار ويخلط معه الأجر

---

[1] الشيزري، نهاية ، ص45، 46. ابن البيطار، الجامع، مج1، ج2، ص169.

[2] الكابلي: هو نوع من الهليلج يؤتى به من كابل وهو أفضل الهليلج وهو أسود دسم أطيب طعماً من غيره .انظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج4، ص197.

[3] الحباشة: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة، والمقصود هو المخلوط من أنواع الهليلج .انظر: صابر ، موجز، ص321، حاشية 2.

[4] الشيزري، نهاية، ص 46.

[5] الجامع، مج2، ج4، ص197.

[6] المصدر نفسه، مج2، ج4، ص197.

[7] الخيار شنبر هو شجر معروف وثمره مألوف بمصر والإسكندرية وما والاهما كثير ويحمل منهما إلى بلاد الشام وشجرة كقدر شجرة الجوز وورقه كورقة إلا أنه أصغر قليلاً وأطرافه حادة ويظهر ظهراً عجيباً غاية في الجمال لم تر العين مثله وعندما يخرج الثمر من الزهر يستحيل لونه إلى البياض ويزوي ويسقط وتبرز أنابيب القضيب الشنبرية على الشكل المعروف، منها الطويل ومنها القصير كعناقيد الخرنوب. انظر: المصدر نفسه، مج1، ج2، ص81.

[8] الشيزري، نهاية، ص46.

[9] اللك: يهزل السمان بقوة شديدة وينفع في الخفقان ويفع الكبد ويقويها وينفع من اليرقان والاستسقاء اللحمي إذا أضيف إلى أحد المعجونات النافعة لذلك. أنظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج4، ص110. ويعرف اللك حالياً باسم rhus oxycatha . انظر: صابر ، موجز، ص321، حاشية 5.

المسحوق والمغرة[1] ثم يعقده ويبسطه أقراصا ثم يكسوه بعد جفافه ويبيعه على انه دم الأخـــوين[2] ومنهم من يدق العلك[3] دقاً جريشاً، ثم يجعل فيه شيئاً من الجاوشير[4] ويطبخه على النار في عسل النحل ويلقى فيه شيئاً من الزعفران فإذا على وأرغى طرح به العلك وحركه إلى أن يشتد ثم يعمله أقراصاً إذا برد، ويكسره ويخلط معه الجاوشير فلا يظهر فيه[5].

وعلى المحتسب أيضاً أن ينتبه إلى أن الأدهان والمراهم هي الأخرى لم تسلم مـــن غـــش الصيادلة فــ" جميع الأدهان الطبية وغيرها فإنهم يغشونها بدهن الخل بعد أن يغلـــى علـــى النـــار ويطرح فيه جوز ولوز مرضوض ليزيل رائحته وطعمه ثم يمزجونه بالأدهان ومنهم من يأخذ نوى المشمش والسمسم ثم يعجنها بعد دقهما ويعصرهما ويبيع دهنهما على انه دهن اللوز[6]، ومنهم من يغش دهن البلسان بدهن السوسن[7].

---

[1] المغرة: منها ما هو منسوب إلى البلاد التي يقال لها السويس وأجوده ما كان كثيفاً صلباً ولونه شبيه بلون الكندر وليس فيه حجارة ولا مختلف اللون واذا بل بالماء ربا وقوته قابضة مجففة مغرية، ولذلك تقع في أخـــلاط المـــراهم المليئة. انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج2، ج4، ص160،161.

[2] دم الأخوين، هو دم التنين ودم الثعبان أيضاً وقيل هو صمغ شجرة يؤتى به من سقطري وهي جزيـــرة الـــصبر السقطري وتداوى به الجراحات ويقطع نزف الدم من أي عضو كان . انظر: المصدر نفسه، مـــج1، ج2، ص96، 97.

[3] العلك: هي صمغة تعلك أي تمضغ . انظر: صابر ، موجز، ص321، حاشية 8.

[4] الجاوشير: قد يغرس في البساتين لقلة صمغة الشجرة ولها ورق خشن قريب من الأرض شديد الخـــضرة شـــبيه بورق التين في شكله مستدير مشرف ذو خمس شرف ولها ساق طويلة شبيهة بالقنا طويلة وعليها زغب= =شـــبيهة بالغبار أبيض وورق صغار جداً وعلى طرفها اكليل شبيه باكليل الشبت وزهراً أصفر طيب الرائحة. انظـــر: ابـــن البيطار، الجامع ، مج1، ج1، ص154، 155.

[5] الشيزري، نهاية ، ص46. ابن الاخوة ، معالم ،ص 120.

[6] دهن اللوز: هو دهن معتدل البرد كثير الرطوبة ينفع من ورم الثدى ووجع المثانة إذا نالتهما حرارة وينفع مـــن عسر البول والحصا والقولنج وعضة الكلب وينفع من الصداع ووجع المعدة والسرسام وخشونة الحلق وقصبة الرئة ومن السعال ويضر بالأعضاء والأحشاء الضعيفة وهو أفضل بكثير من دهن السمسم وهو أفـــضل الأدهـــان فـــي الترطيب لأصحاب التشنج كما أن لزوم فقار الظهر بدهن اللوز الحلو أمان من النقوس وهو الانحناء الـــشيخوخي. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج2، ص112.

[7] الشيزري، نهاية، ص46. ودهن السوسن: يصنع من خليط عبارة عن تسعة أرطال من الزيت وخمس أواق من قصب الذيره خمسة أرطال وعشرة أواق ومن المرخمة مثاقيل دق القصب والمر، وتعجن بخمر طيـــب الرائحـــة، وتطبخ بالزيت، وتصفى وتصب على ثلاثة أرطال ونصف قردمانا مدقوق منقوع في ماء، ثم يعصر ويؤخذ الـــدهن المحمص ثلاثة أرطال ونصف وتصب على ألف سوسنة وتقلب، وأجود دهن السوسن ما كان من قليقيا وما كان من مصر حيث تسطع منه رائحة السوسن . انظر: ابن البيطار، الجامع ، مج1، ج2، ص100، 101.

و هذا هو ما اشتهر غشه بين الصيادلة ويتعاطاه كثير منهم في الوقت الذي أمسك فيه عن ذكر أشياء غير مشهورة لخفى غشها ولامتزاجها بالعقاقير مخافة أن يتعلمها من لا دين له فيدلس بها على المسلمين، إلا أن أكثر هذه الأشياء قد ذكر أكثرها صاحب كتاب كيمياء العطر[1]، ويدعو الشيزري من وقع هذا الكتاب في يديه أن يمزقه تقرباً إلى الله عز وجل[2].

ومما سبق يتبين لنا أن المحتسب قد لعب دوراً مهماً في الرقابة على الصيادلة والإشراف عليهم من أجل منع حالات الغش في صناعة الأدوية والتي انتشرت بين الصيادلة.

وكان أكثر الخوف يأتي على صحة المرضى من الصيادلة الذين يعملون لحسابهم ويفتحون حوانيت لبيع الأدوية والأعشاب، فهؤلاء همهم الأول هو التكسب وليس صحة المرضى وهذا يتضح من الموقف الذي حدث بين ابن النفيس وأحد العشابين،عندما قال له: "وأما إذا قعدت عندي فلا تصف إلا السكر والشراب والأدوية"[3]، أي أنه كان لايحبذ العلاج الموصوف من العشابين،وأن يكون العلاج حسب أرشادات الطبيب.

5- الإشراف على الشرابيين:

والشرابيون هم الأشخاص الذين يقومون بصناعة وتركيب الأدوية السائلة، وكانوا يبيعونها في حوانيت خاصة بهم[4].

ومن منطلق حرص دولة سلاطين المماليك على صحة المرضى فإنها أوكلت مهمة هؤلاء الشرابيون إلى المحتسب الذي كان يعتبر- يختبر- الشرابيون، وحوانيتهم فكان المحتسب يخوفهم ويعظهم وينذرهم العقوبة ويحذرهم بالتعزيز ويعتبر عليهم أشربتهم وعقاقيرهم في كل وقت على حين غفلة بعد ختم حوانيتهم من الليل ويشترط عليهم أن لا يطبخوا الأشربة إلا من السكر الطيب النقي المصري، وأن يقرر عليهم ما هو في دستور الطب وهو لكل عشرة أرطال سكر ثلاثة أرطال وثلث من ماء الفاكهة وأن لا يكثروا شراب التفاح ولا شراب الانجبار ولا شراب البنفسج وأمثالها بليمون فإنه يجرد الأمعاء ويضر المريض، كما يعتبر المحتسب على الشرايين أيضاً عقاقير الأقراص والمعاجين والسفوفات قبل عملها بمن ظهرت مخبرته وكثرت تجربته للعقاقير ويكون من أهل الخير والصلاح لذلك ولا يركبها إلا من على الحوائج ويلزمهم أن يستعملوا عقاقير

---

[1] مؤلفه: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي. انظر: ابن النديم، الفهرست ، ص 315.

[2] نهاية، ص46، 47 .

[3] العمري، مسالك ، ج9، ص 618.

[4] القلقشندي، صبح ، ج5، ص469. هونكة، شمس ، ص329.

دستور البيان، كما يلزمهم بأن يكون تحت أيديهم ماء نظيف ويكون معهم المذبة لأجل الذباب لــئلا يقعد على الكوز أو على وعاء المشروب فمن رأى تلك قامت نفسه منه، ويمصه الإنسان فيــؤدي إلى فرقة ويلزمهم بغسل مواعينهم في كل يوم وتغطيتها ويعمل على حانوت سكنه في الليل سدة من قصب أو جريد لتمنع الكلاب وكذلك يأمرهم إذا عتقت الكيزان وتغيرت رائحتهــا أن لا يرجعــوا يستعملوها مرة أخرى ويغيروا قصديرها في كل ثلاثة أشهر ويبخرها قبل ملئها ويعتبر كل ذلــك جميعة عليهم[1].

كما كان المحتسب لا يسمح لأحد من الشرابيين بتركيب الأشربة والعاجين والجوارشنات[2]، إلا لمن ذاع صيته واشتهر بالمعرفة والخبرة وكثرة التجربة عن طريق الدراسة النظرية والعمليــة لتركيب العقاقير بمقاديرها المختلفة والواجبة والمحددة على يد الأساتذة من أرباب هذه الصناعة[3].

كما كان المحتسب يشترط على الشرابي أن لا يركب أشربته إلا من الكناشــات المعروفــة والأقرباذينات المشهورة[4] وكذلك كان على المحتسب أن يشترط على من يمتهن صناعة الأشــربة أن لا يدخل على الأشربة ما يسلبها خواصها ويذهب بفائدتها[5].

كما كانت توجه من قبل المحتسب جملة من التوجيهات لصناع الأشربة أو الشرابيين ومنها أن يحرص كل منهم على نظافة ميزانه وكفته وصنجه وأوعيته التي يعد فيها الأشربة وأن يراعى مواصفات الجودة في كل دواء قبل استعماله، وعند تخزينه ينبغي أن يضعه فيما يصلح له ويحفــظ عليه قوته وخواصه وعند تحضير الأدوية المركبة يجب أن يدق كل واحد منها بمفرده جيداُ قبل أن يخلطها معاً لتكون صالحة للاستعمال وعلى درجة كبيرة من النقاء[6].

وهناك صفات كان يجب أن يتصف بها الشرابي هي: تحري ما وضعه المتقــدمون مــن التراكيب الأمانة عند عمل الأشربة والبعد عن التدليس[7] ومعرفة قوة الأدوية ومقدارها.

---

[1] ابن الأخوة، معالم ، ص115-121.

[2] الجوارشنات: مفردها جوارشن، وهو لفظ فارسي معناه الهاضم وهي الأدوية التي لم يتم سحفها ولم تطرح على النار بشرط تقطيعها رقاقاً وأغلب محتوياتها البهارات العطرية وتعجن بالعسل وتستعمل غالبــاً لاصــلاح المعــدة والأطعمة وتحليل الرياح وهي لم تنسب إلى اليونان ولا إلى الأقباط ولكن تنسب للفرس. انظر: صــابر ، مــوجز، ص376، 377.

[3] الشيزري، نهاية، ص56.

[4] العطار، منهاج، ص146. الشيزري، نهاية، ص56، 57.

[5] الشيزري، نهاية، ص57.

[6] العطار، منهاج ، ص146-155.

[7] المصدر نفسه ، ص4.

ويجب أن يكون الشرابي عنده معرفة بالطب أو بطرف منه فيتأكد القصد إليه وإيثاره على غيره ممن لا يعرف ذلك، وينبغي للشرابي أن يتأنى فيما يطلب منه من الأشربة وغيرها يسأل من يطلب ذلك منه ويكرر عليه السؤال فربما غلط الطبيب أو غفل عن شيء فيكون الشرابي يستدرك ذلك عليه، ويتعين عليه إذا قدم الشراب عنده لا يبيعه حتى يبين للمشتري أنه قديم لأنهم يقولون أن الفاكهة الجديدة إذا دخلت على الأشربة ذهبت فائدة ما عمل من الفاكهة المتقدمة وكذلك يقولون في العقاقير والأدوية إذا كانت قديمة لا تفيد من استعملها أو تفيد بعض فائدة وذلك هو الغالب، ويجب أن يكون الشرابي كتوماً للسر فيما يحكى له من حال المريض، وأن كان صبياً يكون عارفاً بما يطلب منه من الأشربة وبالوزن وإعطاء الحق، وينبغي للشرابي إذا نزل من دكانه لضرورة لا يترك صبياً صغير يبيع ويشتري إلا إذا كان مشاركاً في علم الطب لئلا يكون الطبيب قد غلط فيما وصفه وأن كان الغش محرماً على الجميع إلا أن غش الشرابي يؤول إلى إرهاق النفوس والزيادة في الأمراض أو طولها لأن غالب ما يشترى منه للمريض والمريض إذا استعمل ما لا يوفقه تضرر بذلك وقد تعسر مداواته فيتعين عليه أن لا يأخذ حاجة حتى يتبين له سلامتها من الغش[1].

ولم يكتف المحتسب بالإشراف على الشرابيين بل كان يفتش على الأشربة والمعاجين كل شهر ويختبرها بنفسه حتى يتأكد من عدم غشها وأنها صالحة للاستعمال ولم يتسرب إليها الفساد[2].

وكان المسئول عن دار الشراب السلطان يوصي: بـ" تفقّد أحوال الحاشية على اختلاف طوائفها، وأنواع وظائفها، وليرتّبها في الخدمة على ما يجب، وينظر في أمورهم نظرا لا يخفى معه شيء مما هم عليه ولا يحتجب، وليبدأ بمهمّ السّماط المقدّم الذي يقدّم، وما يتنوّع فيه من كل مطعم، وما يمدّ منه في كل يوم بكرة والعصر، وما يستدعى معه من الطّواريء التي لا يحدّها الحدّ ولا يحصرها الحصر، وأحوال المطبخ الكريم الذي منه ظهور تلك المخافي، ووفاء ذلك الكرم الوافي، والتقدّم إلى الأمناء والمشرفين فيه بأمانة الإنفاق، وصيانة المآكل مما يعاب على الإطلاق. ثم أمر المشروب وما تغلق عليه أبواب الشراب خاناه السعيدة من لطائف مأكول ومشروب، وشيء عزيز لا يجود إلا فيها إذا عزّ المطلوب، ومراجعة الأطباء فيما تجري عليه قوانينها، وتشبّ لطبخه من حمر اليواقيت كوانينها، وإفراز ما هو للخاص الشريف منها وما هو للتفرقة، وما لا يصرف إلا بخط الطبيب ولا يسلّم إلا إلى ثقة "[3].

---

(1) ابن الحاج، المدخل، مج2، ج3، ص144-148.

(2) الشيزري، نهاية، ص57.

(3) القلقشندي، صبح ، ج11، ص167.

ثانيا: دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على أصحاب المهن المتعلقة بالأطعمة والأشربة.

لم يتوقف دور المحتسبين على الرقابة والإشراف على أصحاب المهن الطبيــة بــل امتــد ليشمل أصحاب الصانع والمهن الأخرى والمؤثرة في صحة الإنسان وقد تمثل ذلك في:

1- الرقابة والإشراف على السقائين:

نظراً لأن الماء هو قوام حياة الإنسان وأن الحياة بدونه لا تستمر فقد لعب الــسقائون دوراً مهماً في حياة المجتمع في مصر والشام في العصر المملوكي، من خلال توفيرهم الميــاه النظيفــة الصالحة للشرب والاستعمال الآدمي لأفراد المجتمع.

لذلك لم تترك هذه الفئة من السقائين دون رقابة أو إشراف فكان المحتسب يعين عريفاً على السقائيين يساعده في مراقبتهم والاشراف عليهم، نظراً لأهمية عملهم وحاجة الناس الشديدة إلــيهم وأن أي اهمال يقع من جانب تلك الفئة يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة[1].

فكان هذا العريف يصدر العديد من الأوامر والتوجيهات للسقائيين، فكان يــأمرهم عنــدما يملأون قربهم من ماء النيل أن يتوغلوا داخل الماء بعيداً عن الشطوط لتجمع الأقــذار والأوســاخ عليها وأن لا يستقوا من مكان قريب من مستحم أو مجراة حمام، وإذا استخدموا قربة جديدة فليقلوا الماء بها أياماً ولا يستعمل هذا الماء في الشرب لتغير طعمه ورائحته من أثر الدباغ وعندما يزول هذا التغير يمكن للسقائين بيع مائها[2].

كما كان المحتسب يلزم السقائين بالمحافظة على نظافة قربهم وأبارهم، وإحكام أغطيتها وأن يحرصوا على جلاء الكيزان النحاسية كل يوم وتطييب رائحتها باللادن[3] "[4]، "ولهم عيار: وهــو أربعة وعشرون دلوا، كل دلو: أربعون رطلا، وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم، وهي زرق "[5].

---

[1] ابن بسام، نهاية، ص25.

[2] المصدر نفسه، ص25، 26.

[3] اللادن: هو صنف من القسوس ويسميه بعض الناس ليدون وهي شجرة شبيهة بالقسوس إلا أن ورقها أطول وأشد سواد ويحدث له شيء من رطوبة تلتصق بيد اللامس، لها في الربيع زهر قابض يصلح لكل ما يصلح له القــسوس ومن الناس من يأخذ هذا ويصفيه ويعمل منه أقراصاً ويبخر به الناس وأقواه ما كان طيــب الرائحــة لونــه إلــى الخضرة ما هو سهل لين، إذا دلك يطبق باليد ليس فيه شيء من الرمل وليس بهش يشبه الراتينج والذي بقبرص هو على هذه الصفة وأما الذي في بلاد المغرب والذي من لينوي فإنه أحسن. انظر: ابن البيطار، الجامع، مــج2، ج4، ص90.

[4] ابن بسام، نهاية، ص25، 26. المقريزي، خطط ، ج2، ص388.

[5] المقريزي ، خطط ، ج2 ، ص388.

ولقد بلغ عدد السقائين في مصر في العصر المملوكي اثنا عشر الف سقاء على حد قول ابن بطوطة[1]، قد حرص المحتسب على متابعتهم ومراقبتهم، وتعيين عرفاء للإشراف عليهم[2]، ولقد بلغ أجر الواحد منهم خمسة عشر دينارا ونصف[3]، أما راوية الماء فقد تفاوت سعرها مابين الربع درهم، والنصف درهم، وقد وصل ثمنها إلى درهمين في بعض الأحيان، بعد أن ارتبط بارتفاع أو انخفاض منسوب النيل[4].

ولقد لعب السقاؤون دورا مهما في المحافظة على حياة الناس، فشاركوا في إطفاء الكثير من الحرائق، والتي كان أخطرها حريق القاهرة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة[5].

2- الرقابة والإشراف على الخبازين.

وكان المحتسب كذلك يمنع الخبازين من إضافة أي مواد غريبة إلى العجين بغرض زيادة وزنه وتحسين شكله لأن في ذلك ضرر بالغ بصحة الإنسان[6].

كما كان المحتسب ينبه على مدى جودة الخبز ونوعيته فقد كان الخبز على أنواع كثيرة كلا من الناس يأخذ النوع الذي يرتاح فيه ويتوافق مع الحالة الصحية له فقد كان الخبز الكثير النخالة سريع الخروج من البطن قليل الغذاء وبالضد القليل النخالة يبطئ غاية الابطاء في الخروج ويكثر غذاؤه وعجين مثل هذا الخبز لزج يمتد إذا مد ولذلك فهو أحوج إلى التخمير[7] وكثرة العجن والخبز وأن لا يخبز من ساعته، وأما عجين الخبز كثير النخالة فبضد ذلك ولذلك لا يحتاج أن يلبس كثيراً في التنور، وبين هذين متوسط في كثرة النخالة وقلتها، والنخالة تكثرها لأنه معمول من حنطة خفيفة الوزن رخوة وأن يكون معمولا بغير استقصاء وثقل تغذية هذا، وأجود أنواع الخبز للاستمرارأكثرها اختماراً وأجودها عجيناً المتصفح بنار معتدلة لئلا يشيط خارجه ويبقى داخله نيئاً

---

[1] ابن بطوطة، رحلة ،ج1،ص203.

[2] المقريزي ،خطط، ج2، ص387.

[3] المصدر نفسه، ج4، ص54.

[4] المقريزي، السلوك ، ج4، ص27.

[5] المصدر نفسه، ج3، ص40؛ خطط ، ج4، ص443.ابن تغري بري، النجوم، ج9، ص65.

[6] الشيزري، نهاية، ص23. ابن الأخوة، معالم، ص91، 92.

[7] التخمير: يتم من خلال الخميرة وهي نبات وحيد الخلية غالباً من الفطريات الزقية، بيضية أو مستديرة الشكل تتولد بالتبرعم غالباً، وتستخدم في تخمير العجين. انظر: مجمع، المعجم الوجيز: مادة خمر، ص211، وقد يتخذ الخمير من الدقيق والزيت إذا عدم أصله وذلك بأن يعجن الدقيق بقليل من الزيت والماء ويترك ليلاً فإنه ينضج من الغد خميراً قاطعاً. انظر: ابن البيطار: الجامع، مج1، ج1، ص69.

فإن الخبز الذي هذا حاله رديء لأن باطنه نيئ وظاهره خزفي وأما النار الضعيفة فتتــرك الخبــز نيئاً[1].

وقد كان الغش في أنواع الخبز يمثل مشكلة خطيرة وذلك لارتباطه بصحة الناس، "وبعض أنواع الخبز أوفق لبعض الأبدان، وأوفق الخبز للذين يرتادون رياضة صعبة كثيرة الذي لم يستحكم نضجه وليس فيه خمير ولا ملح كثير، وأما المشايخ التاركين للرياضة والناقهين فــالكثير الخميــر المحكم النضج، فأما الفطير فإنه غير موافق لأحد من الناس، ولا يقدر على اســتمرائه الفلاحــين على أنهم أشد الناس وأكثرهم كمداً فضلاً عن غيرهم، وهم أقوى الناس على استمراء جميع الأغذية الغليظة"[2].

ومن أنواع الخبز التي كانت معروفة خلال فترة الدراســة ومــا قبلهــا والتــي حــرص المحتسب على تواجدها في الأسواق تلبية لرغبات الناس وحاجاتهم المختلفة "خبز السميذ والحواري والخشكار، على مراتبها في ذلك من قلة النخالة وكثرتها، والفطيــر والمختمــر والكثيــر الملــح والبورق والعديمة وخبز التنور، والفرن، والملة، والطبق"[3]، ويعد خبز الــسميذ أفــضل الأنــواع السابقة وأكثره غذاء، وأبطئها انهضاماً لقلة نخالته، ويتلوه خبز الحــواري فــي ذلــك ثــم خبــز الخشكار[4].

وقد حرص المحتسب على أخذ التدابير اللازمة للمحافظة على ثبات أســعار القمــح فــي الأسواق، ففي عام (833هـ/1429م)" حجر المحتسب أينال الششماني على جلاب القمح مــن البيــع وشغل الطحانين جميعهم بشراء القمح من شؤن السلطان، واستمر على ذلك مدة فكثرت الغلال من الجلابة فانحط السعر كثيراً "[5].

وكان السلطان حريصا على متابعة المحتسب بنفسه ، وعلى ثبات وزن رغيف الخبز ففــي سنة(823هـ/1420 م)" مر السلطان في طريقه بخباز فاخذ منه رغيفاً ..، فوزن الرغيــف فجــاء نصف رطل فأنكر على المحتسب، وكان يذكر أن الرغيف ثماني أواق، فشق على المحتسب لمــا بلغه وضرب الخباز ضرباً مبرحاً "[6].

---

(1) ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص48.

(2) المصدر نفسه. نفس الجزء و الصفحة.

(3) المصدر نفسه، مج1، ج1، ص48.

(4) المصدر نفسه، مج1، ج1، ص49.

(5) ابن حجر، إنباء، ج3، ص436.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص215.

وعند تقصير المحتسب في عمله وإهماله له، كان يتم الثورة عليه مثلما حدث في (827هـ/ 1424م)حيث " ثار جماعة على المحتسب وهو القاضي بدر الدين العيني بسبب إهمال أمر الباعة وشدة غلاء الخبز مع رخص القمح. ورفعوا للسلطان فلم يأخذ لهم بيد بل ضرب جماعة منهم وهدد جماعة وحبس نحو العشرة، فعدم الخبز من الحوانيت وتزاحموا على الأفران، ثم تراجع الحال، وكثر الخبز مع زيادة السعر في الشعير والقمح والفول "[1].

3- الرقابة والإشراف على الفرانيين:

لم يكتف المحتسب بالإشراف على الخبازين بل امتدت رقابته لتشمل الفرانيين فكان المحتسب يتفقد الأفران في آخر النهار حتى يتأكد من عدم مبيت أي شخص من صناع الخبز داخل أكيسة العجين، أو في مكان فرش العجين، فكان يأمر الخبازيين بنشرها على الحبال بعد نفضها وغسلها في كل وقت[2].

كما كان المحتسب يشدد على الفرانيين بأن لا يخرجوا الخبز للاستعمال إلا بعد التأكد من نضجه بالأفران لأن الخبز الغير ناضج ثقيل على المعدة وضار بالصحة، كما يأمرهم بإصلاح مداخل الأفران وتنظيف بلاط الفرن في كل ساعة من اللباب المحترق والرماد المتناثر حتى لا يلتصق بأسفل الخبز منه شيء[3].

ومن جملة توجيهات المحتسب للفرانيين اشتراطه عليهم أن يكون لهم مخبزان أحدهما للخبز والآخر للسمك حتى يجعل السمك بعيداً عن الخبز بألا يسيل شيء من دهنه على الخبز فيصبح غير مرغوب فيه[4].

ومن توجيهات المحتسب أيضاً إلزام كل فران أن يجعل بين يديه إناء نظيف من ماء، فإذا فرغ من الخبز أراق ما بقي فيه، لأنه إذا بقي فيه تغيرت رائحته وأصبح غير صالح للاستعمال، وعليه أن يعيد غسل الإناء مرة أخرى في اليوم الثاني، وأن يحافظ على نظافة اللوح الخشبي الذي يرش به العجين باستمرار[5].

---

[1] ابن حجر، إنباء ، ج3، ص350.

[2] ابن الأخوة، معالم، ص 92.

[3] الشيزري: نهاية، ص22، 23. ابن الأخوة، معالم، ص91، 92.

[4] المصدر نفسه، ص24. المصدر نفسه ، ص92.

[5] الشيزري: نهاية، ص24.

4- الرقابة والإشراف الصحي على الباقلانيين:

كان المحتسب يقيم على الباقلانيين عريفاً ثقة بصيراً بعملهم وكانت تعليمات هذا العريف تشدد على هؤلاء الباقلانيين بعدم عمل الباقلاء المسوس وإلا يكون هذا الباقلاء منقى من القديم ومنقى أيضا من الحجارة والطين[1].

أما باعة الحمص فكان ينبه عليهم بعدم خلط ما بقي مسلوقاً من حمص الأمس بحمص اليوم ويأمرهم كذلك أن ينثروا عليه الملح المطحون والكمون الأبيض عند بيعه ليدفع مضاره وكذلك عليهم أن يقوموا بنقع الترمس في الماء لمدة ثلاثة أيام لتزول مرارته ثم يسلق جيدا، ويرش عليه الكمون المدقوق بالملح وكذلك يفعل في كل الباقلاء حتى يتيسر هضمها[2].

5- الرقابة والإشراف على الجزارين والقصابين:

انطلاقاً من السلطات الواسعة المخولة للمحتسب في الرقابة والإشراف على الجزارين والقصابين، وحفاظاً من المحتسب على الصحة العامة فقد كان المحتسب يستعين في الإشراف على الجزارين بعريف منهم يكون بصيراً بغشوشهم المختلفة، فكان هذا العريف يأمر الجزارين بعدم ذبح دوابهم على أبواب حوانيتهم، لأن ذلك يؤدي إلى تلوث الطريق بالدم والروث فيؤذي الناس ويضربهم[3].

كما كان هذا العريف يمنع الجزارين من ذبح الحيوانات المريضة لأن لحومها ضارة بصحة الإنسان[4].

وعند ذبح الشياه كان هذا العريف يمنع الجزارين من نفخ لحم الشاه بعد السلخ، لأن نكهة الآدمي تغير اللحم وتزفره وذلك لما كان يفعله بعض الجزارين من أنهم كانوا يشقون اللحم من

---

(1) ابن بسام، نهاية، ص51.

(2) المصدر نفسه. نفس الصفحة.

(3) أبو زيد، الحسبة، ص204.

(4) ابن الأخوة، معالم، ص99. أما أفضل اللحوم لصحة الإنسان فهي لحوم الضأن الفاضلة وهي حارة لطيفة، والفتيء من الماعز والعجاجيل ولحوم الصغار منها أقبل للهضم وألطف غذاء والجدي أقل فضولاً عن الجمل،ولحم الرضيع عن لبن محمود جيد، وأما عن لبن غير محمود فرديء وكذا لحم العجيف ولحم الأسود أخف وألذ وكذلك لحم الذكر والأحمر المفصول من الحيوان الكثير السمن والبياض أخف، والمجزع أقل غذاء ويطفو في المعدة وأفضل اللحم غائره بالعظم والأيمن أخف وأفضل من الأيسر. انظر: ابن البيطار، مج2، ج4، ص104.

الصفاقين[1] وينفخوا فيه الماء حيث كانوا يعرفون من اللحم أماكن معينه ينفخون فيها الماء، فكان على المحتسب مراقبة هؤلاء عند غيبة العريف وتعزيرهم[2].

أما القصابون[3] فكان يشدد عليهم من قبل المحتسب أو العريف معاونه إلا يخلطوا لحوم الماعز بلحوم الضأن، وحتى يتضح ذلك ألزمهم أن يتركوا أذناب الماعز معلقة على لحومها حتى آخر البيع[4].

وما زالت هذه العادة موجودة حتى الآن يحاول من خلالها بعض الجزارين والقصابين أن يثبتوا بها لجمهور المستهلكين مدى نزاهتهم وشرفهم وعدم غشهم فهم بذلك يتركون ذنب الحيوان المذبوح معلقاً بلحمه حتى نهاية البيع، حتى يتعرف المشتري على نوع هذه الذبيحة.

كما كان ينبه على القصابين بعدم إخراج اللحوم أمام حوانيتهم حتى لا تلاصق ثياب الناس فيتضررون منها أشد الضرر[5].

أما في حالة شك المحتسب في الحيوان هل ميتة أم ذبح ذبحاً شرعياً، فكان يتحقق من ذلك من خلال إلقاء الحيوان في الماء، فإن رسب فهو مذبوح، وإن كان غير ذلك فهو ميتة[6].

كما كان المحتسب ومعاونه حريصيين على أن تكون الأدوات التي يستخدمها القصاب نظيفة، فكان يشدد على القصاب إذا انتهى من البيع عليه قبل انصرافه إلى بيته أن يضع ملحاً مسحوقاً على القرمية[7] التي يقطع عليها اللحم حتى لا تلعقها الكلاب أو يدب عليها شيئاً من هوام الأرض وفي حالة عدم وجود الملح كان عليه أن يستعمل الأشنان[8] حتى تظل القرمية نظيفة غير ملوثة[9].

---

[1] الصفاقين: مفردها الصفاق وهو جلد البطن. الشيزري، نهاية، ص27، حاشية: (6) وقيل الصفاق هو الجلد الباطن تحت الجلد الظاهر والجمع صفق. انظر: مجمع، المعجم ، ص366.

[2] الشيزري، نهاية، ص27. ابن الأخوة، معالم، ص99.

[3] القصابون: مفردها قصاب والقصاب الجزار، يقال قصب الجزار الشاه قصبا أي فصل قصبها وقطعها عضواً عضواً فهو قصاب انظر: مجمع، المعجم ، ص503.

[4] الشيزري، نهاية ، ص28، 29. ابن الأخوة، معالم، ص99، 101.

[5] المصدر نفسه، ص29. المصدر نفسه ، نفس الصفحات.

[6] المصدر نفسه ، نفس الصفحة. المصدر نفسه ، ص100.

[7] القرمية: هي قطعة من الخشب السميك يقطع عليها اللحم، انظر: الشيزري، نهاية، ص28، حاشية 8.

[8] الأشنان: هو أجناس كثيرة وكلها من الحمض والأشنان هو الحرض وهو الذي يغسل به الثياب وقيل أشنان القصارين هو الغاسول الذي يغسل به الثياب ويحل به اللك حتى تمكن به الكتابة وقيل هو نبات لا ورق له وله أغصان رقاق فيها شبيه بالعقد وهي رخصة كثيرة المياه ويعظم حتى يكون له خشب عظيم يستوقد به دخانه كريهة وطعمه إلى الملوحة وهو حمض وهو أنواع ألطفها الأبيض ويسمى جزء العصافير وأجوده الأخضر، وله فوائد طبية كثيرة جداً ودخان الأشنان الأخضر ينفر الهوام انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج1، ص38.

[9] الشيزري، نهاية، ص28، 29. ابن الأخوة، معالم، ص99، 100.

وحتى يأمن الناس على صحتهم وسلامتهم عند تناول اللحوم فكان يشترط فيمن يقوم بعملية الذبح من الجزاريين والقصابين أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً يذكر اسم الله على الذبيحة وأن يستقبل القبلة ويذبح البقر مضطجعة على الجانب الأيسر ولا يجر الشاة برجلها جراً عنيفاً ولا يذبح بسكين كالة أي غير قاطعة لأنه تعذيب للحيوان[1].

6- الرقابة والإشراف على الشوائين:

كان من مهام المحتسب أيضاً الرقابة والإشراف على الشوائين فكان حريصاً على التفتيش على لحومهم حتى يتأكد من نضج اللحوم وكان سبيله إلى التحقق من ذلك عن طريق جذب كتف الشواء بسرعة، فإذا جائت فالشواء نضج أو أن يشق ورك الشواء فإن ظهر فيه عروق حمراء ونزل منه ماء اللحم فهو نيئ وغير ناضج[2].

كما كان المحتسب يمنع الشوائين من دهن اللحم بالعسل لأنه إذا نزل في التنور على هذه الحال فإنه يحمر بسرعة فيخيل لمن يراها بأنها ناضجة فيقبل على شرائها[3].

كذلك كان المحتسب يلزم الشوائين بعدم تغطية الشواء عند إخراجه مباشرة من التنور، وأن لا يوضع في أواني مصنوعة من الرصاص أو النحاس وهو ساخن حتى لا يتسمم كما يقول الأطباء[4].

أما بالنسبة لتنانير الشوائين فكان المحتسب يأمر الشوائين أن يطينوها بطين حرق عجن بماء طاهر حيث أنهم كانوا يستعينون أحياناً بطين أراضي حوانيتهم وهو لا شك نجس من اختلاطه بالدم والمخلفات الأخرى فإذا اندثر منه شيئاً على الشواء نجسه وجعله غير صالح([5]).

7- الرقابة والإشراف على الرواسين[6]:

في إطار حرص المحتسب على صحة أفراد المجتمع، كان يأمر الرواسين بسمط الرؤوس والأكارع بالماء الشديد الحرارة وتنظيفها وتنقية الشعر والصوف منها جيداً ثم تغسل بالماء البارد النظيف[7].

---

[1] السبكي، معيد، ص142، 143.

[2] الشيزري، نهاية، ص30. ابن الأخوة، معالم، ص37.

[3] المصدر نفسه ، نفس الصفحة. المصدر نفسه ، نفس الصفحة.

[4] المصدر نفسه ، نفس الصفحة. المصدر نفسه ، ص 37، 38.

[5] المصدر نفسه ، نفس الصفحة. المصدر نفسه ، ص38.

[6] الرواسين: هم صناع الرؤوس والأكارع انظر: الشيزري، نهاية، ص30.

[7] المصدر نفسه، ص32. ابن بسام، نهاية، ص 43.

وكذلك كان المحتسب يلزمهم عدم الغش والإضرار بالمشترين من خلال خلط الرؤوس البائتة مع الرؤوس الطازجة[1] بل لابد أن تكون كلا منهم على حدة حتى يعرف المشتري البائتة من الطازجة ولا يلتبس عليه، كما كان المحتسب يأمر الرواسين بإنضاج الطعام جيداً، وعدم إخراج الرؤوس من وعاء الطهي إلا بعد أن تنضج تماماً لأن أكل الطعام الغير ناضج ضار جداً بالصحة[2].

8- الرقابة والإشراف على النقائقيين[3].

كان المحتسب ينبه على النقائقيين بضرورة اختيار اللحم الجيد، ونعومة دقة على القرم النظيفة، وأثناء دقه للحم عليه أن يستعين بآخر يحمل مذبة في يده يطرد بها الذباب حتى لا يسقط منه شيئاً في اللحم وبعد دق اللحم لا يسرع صانع النقائق بوضع البصل والتوابل على اللحم إلا في حضور العريف الذي يختاره المحتسب ليتأكد من المقدار المناسب منها بالوزن وأيضا ليتعرف على نوع اللحم وجودته لان التوابل تغير شكله فيخفى ولا يمكن اكتشاف الغش الواقع فيه[4].

وقد كان بعض النقائقيون يلجاون إلى وسائل عديدة للغش ومنها: استخدام اللحوم المفرومة أواللحوم الهزيلة الواقعة، أو الفول النابت المقشور والبصل بدلاً من اللحم الجيد وكان المحتسب يتعرف على هذا النوع من الغش من خلال قيامه بشق النقائق قبل قليها فقد كان المحتسب يشرف على إعداد النقائق قبل القلي[5].

كما كان المحتسب كذلك ينظر في الدهن الذي تقلى به النقانق ويلزم النقائقيين بالقلي بدهن طيب الرائحة غير مخزون أو فاسد وكذلك عليهم ان ينثروا على النقانق بعد القلي التوابل الطيبة النكهة[6].

ونظراً لكثرة غش هذه الفئة من النقائقيين فقد جعل المحتسب مواضعهم التي يعدون فيها النقانق بجوار دكته التي يجلس عليها حتى يتمكن من مراقبتهم جيداً[7].

---

(1) الشيزري، نهاية، ص32. ابن بسام، نهاية، ص 43.

(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة. المصدر نفسه ، نفس الصفحة.

(3) هم صناع المصارين المحشوة باللحم والتوابل والبصل انظر: الشيزري، نهاية، ص38.

(4) المصدر نفسه، نفس الصفحة. ابن بسام، نهاية، ص 44.

(5) الشيزري، نهاية، ص38. ابن بسام، نهاية، ص 44، 45.

(6) المصدر نفسه ص38، 39. المصدر نفسه، نفس الصفحات.

(7) المصدر نفسه ، ص38. المصدر نفسه، ص 44.

9- الرقابة والإشراف الصحي على الطباخين:

امتد إشراف المحتسب ليشمل الطباخين أيضا فقد كان حريصاً على أن يتأكد من تغطيتهم لأوانيهم حتى تكون بمنأى عن الذباب وهوام الأرض، كما كان يأمرهم بغسل القدور والأواني[1] جيداً بالماء الحار وعدم خلط لحوم الماعز مع لحوم البقر لأنها بهذا الشكل تكون ضارة بالناقهين[2].

ويبدو أن السبب في ذلك هو أن حالة كل إنسان الصحية تتطلب نوعاً معيناً من اللحوم فلو خلطت هذه الأنواع مع بعضها ربما تكون ضارة بمن يتناولها، وإلى جانب هذا السبب فربما يكون هناك سبباً آخر، وهو أن كل نوع من اللحوم يتطلب درجة حرارة معينة حتى ينضج فمن المعروف أن لحوم الإبل تستغرق فترة طويلة حتى تنضج في الوقت الذي لا تستغرق فيه لحوم البقر هذه الفترة الطويلة فلو خلطت مع لحوم الإبل يكون من الصعب إنضاجهما معاً فيبدو أن المحتسب كان ينهي الطباخين عن ذلك حتى لا يكون بعض اللحم نيئ والبعض الآخر نضج فيضر بالآكلين.

ومن ذلك يتضح لنا مدى بعد نظر المحتسب في حرصه على صحة افراد المجتمع حتى في أبسط الأمور وأيسرها.

10- الرقابة والإشراف على قلائي السمك:

لما كانت الأسماك أحد الأطعمة الرئيسية التي يعتمد عليها كثير من الناس لذلك حرص المحتسب على مرقابة الذين يشتغلون بهذه المهنة لأنها تتعلق بالدرجة الأولى بصحة الناس.

فكان المحتسب أو معاونه يلزمهم بغسل موازينهم وقفافهم وأطباقهم التي يضعون فيها السمك ثم ينثرون عليها الملح كل ليلة لأنهم إذا أهملوا في نظافتها تسببوا في فساد السمك الطازج إذا وضع فيها[3].

كما كان المحتسب يأمر قلائي السمك بغسل السمك جيداً وتنظيفه بعد شقه ثم ينثرون عليه الملح والدقيق ثم يترك فترة ليجف ثم يقلى بعد ذلك[4].

---

[1] الأواني: كانت الأواني التي يستخدمها هؤلاء الطباخون عبارة عن أواني نحاسية نظيفة على هيئة القدور التي توضع على النار حتى يتسنى طهي ما بداخلها من طعام انظر: أحمد، المطبخ، ص97.

[2] الشيزري، نهاية، ص34.

[3] المصدر نفسه، ص 53.

[4] المصدر نفسه، ص 33. ابن الأخوة، معالم، ص 110، 111.

وحرصاً من المحتسب على الا تتأثر صحة الناس من تناولهم الأسماك فقد كان يمنع قلائي السمك من خلط السمك البائت بالسمك الطازج، وكان العريف المعاون للمحتسب يشرف على عملية القلي كل ساعة حتى لا يضيف القلائون دهن شحم السمك إلى زيت القلي أو يستخدموا زيت معاد غير صالح[1].

كما كان المحتسب ينهى قلائي السمك عن بل السمك بالماء عند القلي لأن ذلك يزيد من زفارته ويحول دون تمام نضجه[2]، وكذلك كان يمنعهم من إخراج السمك من المقلى أو الفرن قبل تمام نضجه[3]، فقد كان بعض القلائيين يضيفون العصفر[4] لدقيق القلي حتى يعطي لوناً للسمك يوحي بنضجه فكان المحتسب ينهاهم عن ذلك[5].

11- الرقابة والإشراف على السمانين[6]:

كان المحتسب ينبه على السمانين بعدم خلط البضاعة الرديئة بالجيدة أو رش الماء على التمر والزيت ليرطبه ويزيد من وزنه، أو الزبيب بالزيت ليحسن شكله[7].

كما كان يمنعهم من غش الزيت بدهن القرطم[8]، ويتعرف المحتسب على هذا النوع من الغش بأن يترك الزيت على النار فيكون له دخان كثيف خانق، كما كان بعض السمانين يغشون الخل بالماء فيكشفه المحتسب من خلال صبه على الأرض، فإن كان مغشوشاً لم يسمع له صوت،

---

[1] الشيزري، نهاية ، ص 33. ابن الأخوة، معالم، ص 111.

[2] ابن الأخوة، معالم، ص 111.

[3] الشيزري، نهاية، ص 33، ابن الأخوة، معالم، ص 111.

[4] العصفر: هو الذي يصبغ به ومنه ريفي وبري وكلاهما ينبت بأرض العرب وبزره القرطم ويقال العصفر الأحريض والخريع والبرهم والبهروان والمربق، وهو حار قابض باعتدال أن سحق وطلي به على القوابي ذهب به البته، وإن طلي بالعسل على القلاع في فم الصبيان ذهب به وببلله اللسان والفم، وهو جيد كذلك البهق والكلف، والعصفر نفسه يطيب الطبيخ ويهري اللحم الغليظ انظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج3، ص125.

[5] الشيزري، نهاية، ص 58.

[6] السمانين: هو باعة السمن غير أنه في العصور الوسطى كان السمان يبيع الكثير من حاجات البيوت فضلاً عن بيعه للسمن وغيره من المأكولات السائلة فغلبت عليهم كلمة السمانين انظر: المصدر نفسه ، ص58، حاشية 1.

[7] المصدر نفسه، ص 58.

[8] القرطم: هو نبات له ورق طوال مشرف خشن مشوك وله ساق طولها نحو الذراعين بلا شوكة عليها رؤوس في مقدار حب الزيتون الكبار، وله زهر شبيهة بالزعفران ونوار أحمر وأبيض مستطيل مزوي وقد يستعمل زهره في الطعام وقد يدق بزره ويستخدم ماؤه في علاج الكثير من الأمراض انظر: ابن البيطار، الجامع، مج2، ج4، ص15، 16، أما دهن القرطم فقوته شبيهة بقوة بزر الأنجرة غير أنه أضعف منه، وقد سرى قول عند العامة بالديار المصرية أن زيت هذا البذر عند استعماله يولد البرص انظر: المصدر نفسه، مج1، ج2، ص113.

وإن كان صافياً سمع له صوت ومن الممكن أن يكشفه المحتسب بطريقة أخرى حيث يضع حشيشة الطحلب فيه فإنها تشرب منه الماء دون الخل[1].

وقد كان بعض السمانون يغشون اللبن بالماء فكان المحتسب يستخدم لكشف هذا الغش شعرة يغمسها في اللبن فإن لم يعلق بها شيء من اللبن كان هذا دلالة على غش اللبن وإن علق بالشعرة شيء من اللبن دل هذا على أن هذا اللبن غير مغشوش[2].

وإذا كان المحتسب قد حرص على عدم غش اللبن فقد كان حرصه على نظافة اللبن أكثر، فقد كان يأمر باعة اللبن بإحكام تغطية الأواني التي يضعون فيها اللبن حتى لا تتأثر بالأتربة والحشرات، وأن يحرصوا على غسلها جيداً كل يوم قبل وضع اللبن فيها[3].

وقد أشفق المحتسب من انتقال العدوى للمبتاعين عبر السلوكيات الخاطئة للسمانين فكان المحتسب يمنع السمانين من أن يذوقوا الجبن بأفواههم لأن ذلك من الممكن أن يؤدي إلى انتقال الأمراض من السمان إلى من يتناول هذا الجبن بعد ذلك[4].

كما امتدت رقابة المحتسب لتشمل باعة الخضرة أيضاً فكان يأمرهم ببيع الخضر منقاة ومغسولة ونظيفة وينهاهم عن غسل البصل والثوم، لأن الماء يؤذيهما ويتسبب في فسادهما وكان كذلك يمنع الخضريين من بيع التين والقثاء والبطيخ قبل أن يتم نضجهم لأن الضرر فيهما يكون أكثر من النفع[5].

وبلغت الرقابة والإشراف ذروتها حيث لم يستثني منها أحد حتى باعة المخلل فقد كان المحتسب يفتش على المخلل باختلاف أصنافه ويأمر باعته بعدم بيع ما تطرقت إليه الحموضة والفساد[6].

ووصل الأمر إلى أن يهتم المحتسب بطرق تخزين السلع والبضائع عند السمانين فقد كان يلزمهم بتخزين بضائعهم في البرائي والأوعية والقفاف المحكمة الغلق حتى لا تصيبها الأتربة أو

---

[1] الشيزري، نهاية، ص 58، 59.

[2] المصدر نفسه، ص 59.

[3] البكري، الطب، عدد 4، ص334.

[4] ابن بسام، نهاية، ص29.

[5] المصدر نفسه ، ص32، 33.

[6] الشيزري، نهاية، ص 59.

القاذورات أو الحشرات مثل الذباب وإذا عرضوا للبيع فكان عليهم أن يعهدوا إلى شخص يحمل مذبة يطرد بها الذباب عن البضاعة[1].

وكذلك كان المحتسب يأمر السمانين أن تكون ثيابهم نظيفة وأن يغسلوا أيديهم ومغارفهم وآنيتهم وأن يمسحوا مكاييلهم وموازينهم[2].

12- الرقابة والإشراف على صناع الزلابية[3] والحلوانيين:

كما كان المحتسب أو معاونه يتعاهد صناع الزلابية بالمرور عليهم حيث كان يصدر إليهم التوجيهات التي يتوقف عليها نجاح صنعتهم وعدم الإضرار بأحد من الناس وذلك بأن تكون مقلاة الزلابية من النحاس الحمر الجيد المجلي حتى لا تؤدي إلى تسمم الزلابية وعدم البدء في قلي الزلابية حتى يختمر عجينها وعلامة اختمارها تعرف عندما تطفوا الزلابية على وجه الزيت بعكس ما لو كانت غير مختمرة فإنها ترسب في القاع، وكذلك عدم إضافة الملح للعجين لأن الزلابية تؤكل بالعسل[4].

كما كان المحتسب يختار لمراقبة القائمين على صناعة الحلوى عريفاً خبيراً بعملهم وعلى دراية تامة بأنواع الحلوى العديدة والمختلفة، وذلك لكثرة ما يقع من هذه الفئة من غش[5].

وقد كان هذا العريف يلزم الحلوانيين بعدم إخراج الحلوى نيئة بل عليهم الانتظار حتى تنضج تمام النضج بشرط ألا تحترق، كما كان يلزمهم أن يحملوا في أيديهم مذبة لطرد الذباب عن الحلوى عند عرضها للبيع[6].

---

(1) الشيزري، نهاية، ص 59، 60.

(2) المصدر نفسه، نفس الصفحات.

(3) الزلابية: تصنع من الدقيق الذي يعجن ويخمر، ثم يقطع ويقلى في الزيت ويضاف له السكر والعسل، انظر: الرازي، منافع ، ص51. والزلابية أخف من اللوزينج والقطايف، وأسرع انهضاماً وتنفع من السعال الرطب ومن رطوبة الصدر وغيرها، ويتلاحق ضررها إذا أدمنت بما يفتح السدد ويمنع تولد الحصى. انظر: ابن البيطار، الجامع، مج1، ج2، ص166.

(4) الشيزري، نهاية، ص 25، 26. ابن الأخوة، معالم ، ص112.

(5) ابن بسام، نهاية، ص47، 48.

(6) الشيزري، نهاية، ص 40. ابن الأخوة، معالم، ص114. ومن الحلويات التي كانت مشهورة في العصر المملوكي نوع من الحلوى يقال له النيدة وكانت تصنع عن طريق وضع القمح في الماء المغلي، حتى ينعزل عنه النشا ثم يصفى ويضاف له قدر من الدقيق والسكر، ثم يوضع على النار مرة ثانية، حتى ينضج ويتماسك قوامه ثم يبرد ويؤكل بعد ذلك. انظر: البغدادي، الإفادة، ص41، 73.

هذا ولم يتوقف المحتسب عن الرقابة والإشراف الصحي على كل أصحاب المهن السابقة فقط، بل كان المحتسب يقوم بترتيب الحرف والصناعات حسب أنماط وتجانس كل حرفة مع التي تجاورها، فمثلاً نجد الطباخ والخباز والحداد وهم الذين تحتاج صناعتهم إلى وقود النار كان يلزمهم بأن تكون حوانيتهم بعيدة عن حوانيت العطارين والحريريين والبزارين[1].

ثالثا: دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على المرافق والمنشآت العامة.

لم يتوقف دور المحتسبين وأعوانهم في الرقابة على المهن الطبية، أو المهن المتعلقة بمشرب ومأكل الإنسان، بل امتد ليشمل الرقابة والإشراف الصحي على سائر المرافق والمنشآت العامة، وذلك لأن غالبية أفراد المجتمع يستخدمون هذه المرافق وبالتالي لو أهملت هذه المرافق فسوف تتأثر صحة أفراد المجتمع، ومن ثم كان لابد أن تخضع هذه المرافق لرقابة وإشراف المحتسب حتى تؤدي دورها في خدمة المجتمع على خير وجه.

1- الرقابة والإشراف على نظافة الشوارع والأسواق:

فوض سلاطين المماليك المحتسب في أمر الرقابة والإشراف على المرافق العامة حتى تتوفر الرعاية الصحية والطبية لأفراد المجتمع.

وبناء على هذا التفويض أصبح المحتسب له الحق في الرقابة على نظافة الشوارع فكان يأمر عمال النظافة بجمع القمامة والأزبال من الشوارع وتنظيفها ورشها بالماء يومياً، وذلك لأن النظافة تعتبر عنصراً هاماً في الحفاظ على الصحة العامة[2].

كما حرص المحتسب على تنظيم الأسواق ونظافتها فكان لا يسمح لأحد من الباعة بإخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف والمظلات إلى الطرقات، لأن في ذلك عدوان على المارة، وتعويق لانسياب حركة المرور في الشوارع، وذلك لأن في ذلك لكل صنعة سوقاً يختص بهم وتعرف صناعتهم فيه و في ذلك رفق بقصادهم[3].

وحرصاً من المحتسب على النظافة العامة في الأسواق والشوارع كان يمنع أحمال الحطب وأعدال[4] التبن، وروايا الماء وشرائح السرجين أي أقفاص الزبل والرماد وما شكل ذلك من

---

[1] الشيزري، نهاية، ص 11، 12. والبزارين: هم باعة الثياب انظر: نفس المصدر، ص61.

[2] أبو زيد، الحسبة، ص201. حسنين، الحسبة، ص15، 17.

[3] الشيزري، نهاية، ص 11، 12. ابن الأخوة، معالم، ص175.

[4] الأعدال: جمع عدل، وهو حمل بعير، ويقدر بنحو 60 صاعاً، ويسمى العدل باسم الوسق أيضاً انظر: مجمع، المعجم ، ج2، ص609.

الدخول إلى الأسواق لما في ذلك من الضرر بملابس الناس، كما كان ينبه على أهل الأسواق بضرورة كنسها وتنظيفها من الأوساخ والطين وغير ذلك مما يضر بالناس، وأما الطرقات ودروب المحلات فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره ولا دكانه فيها إلى الممر المعهود[1].

2- دور المحتسبين الرقابي والإشرافي على المنشآت الصحية والتعليمية.

كان للمحتسب في العصر المملوكي حق الرقابة والإشراف الصحي على سائر المنشآت الصحية والتعليمية، ومن ذلك أنه فوض للمحتسب حق تفقد أحوال البيمارستانات والاشراف على نظافتها، والضرب على أيدي المخالفين والمقصرين في تأدية واجباتهم سواء كانوا من الأطباء أو الممرضين أو الخدم[2]، وبذلك يؤدي البيمارستان خدماته للمرضى على أكمل وجه ويستمر عطاؤه بلا توقف.

كما كان المحتسب يشرف على المدارس والخانقاوات وغيرها من المنشآت التعليمية بتفويض من سلاطين المماليك، وحرصاً على توفير الخدمات الصحية والطبية للمترددين على المدارس من الطلبة والمدرسين أو القائمين على الخدمة بها سواء من المقيمين بالمدرسة أو خارجها فكان يلحق بكل مدرسة طبيب طبائعي وكحال ومجبر، إلى جانب خزانة للشراب بها مختلف الأدوية[3].

فقد تم إلحاق مجموعة من الأطباء والخدم لرعاية الطلبة والعاملين بالمدرسة التي بالإسكندرية[4].

وكذلك حظيت مدارس الشام في العصر المملوكي بالرعاية الصحية والطبية مثلها مثل مدارس مصر[5].

وامتد الأمر ليشمل الخانقاوات كذلك، فكان يخصص بكل خانقاة "خزانة بها السكر والأشربة والأدوية وبها الطبائعي والجرائحي والكحال ومصلح الشعر"[6] وذلك لمعالجة من يمرض من الصوفية والمترددين على الخانقاة للعبادة والتعلم[7].

---

[1] الشيزري، نهاية، ص 14، ابن الأخوة، معالم، ص76.

[2] أحمد، المجتمع، ص159.

[3] عبد العاطي، التعليم، ص205، 206.

[4] ابن جبير، رحلة، ص15. سالم، تاريخ ، ص66.

[5] أحمد، المجتمع، ص141.

[6] المقريزي، خطط، ج2، ص240.

[7] عبد الله، معاهد، ص283-288.

وتحت إشراف المحتسب كان يتم عزل المرضى بالأمراض المعدية من الطلبة في أماكن إقامتهم بالمدارس وأيضا كان يخصص بكل بيمارستان قاعات للمصابين بالأمراض المعدية لعزلهم فيها[1].

3- الإشراف الصحي على السجون والمسجونين:

لما كان السجناء لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً فقد كانوا في أمس الحاجة إلى الرعاية الصحية والطبية، والإشراف الصحي على السجون وتوفير الرعاية الصحية للمسجونين يرجع إلى عصر العباسيين[2]، ومن ذلك الوقت بدا الاهتمام بعلاج المسجونين، وأصبح أمراً معروفاً في معظم البلاد الإسلامية، وان لم يكن على نفس الدرجة من العناية في بعض الفترات.

ولقد أدت عوامل متفرقة أو مجتمعة إلى تدهور الأحوال الصحية للمساجين. منها: التقاليد المتبعة في بناء السجون، لاسيما سجون الجباب المظلمة تحت الأرض دون أشعة شمس أو هواء، وحتى السجون العادية كانت ذات نوافذ صغيرة قليلة العدد لا يدخل إليها إلا القليل من أشعة الشمس أو الهواء[3].

وقد عبر المعاصرون عن شكل نوافذ السجون عندما أطلقوا عليها اسم الطاقات: ومن ذلك قول الشاعر كمال الدين المعروف بابن الأعمى في وصف حمام ضيق شبهه بطاقات السجن[4].

إن حمامنا الذي نحن فيه　　　قد أناخ العذاب فيه وخيم

مظلم الأرض والسماء والنواحي　　　كل عيب من عيبه يتعلم

حرج بابه كطاقة سجن　　　لله من... فيه يندم

---

[1] عبد الدايم، الرعاية، عدد2، ص173. وفي بعض الأحيان كان يتم عزل المرضى بأمراض معدية في أماكن خاصة بهم داخل اقاليم معينة ومن ذلك ما حدث حين تم عزل المرضى بالجذام بمصر سنة 577هـ/1181م، داخل مدينة الشرقية حتى لا ينتقل المرض إلى غيرهم من الأصحاء انظر: المقريزي، السلوك، ج1، ، ص71.

[2] القفطي، تاريخ ، ص193. وأول من فكر في هذا الأمر هو الوزير علي بن عيسى وزير الخليفة العباسي المقتدر بالله حيث أرسل إلى رئيس الأطباء سنان بن ثابت قائلاً: " فكرت مد الله في عمرك في أمر من في الحبوس، وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم، فينبغي أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات، وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجون من فيها من المرضى، ويريحوا عللهم فيما يصفونه لهم ان شاء الله تعالى ففعل سنان ذلك" انظر: المصدر نفسه ، نفس الصفحة.

[3] الرفاعي، السجون، ص168.

[4] ابن العماد ، شذرات ، ج 5، ص 421 . مكان الفراغ في البيت الثالث حذِف لبذائته.

ومن العوامل الأخرى ازدحام السجون، وعدم توفير السبل اللازمة للمساجين للعناية بموضع جلوسهم، أو بنظافتهم الشخصية ،بالإضافة إلى وجود الحشرات والطيور الغريبة، ويعتبر المقريزي أشهر من رسم صورة واضحة عن بيئة السجون خلال العصر المملوكي فقد تحدث عن ازدحام سجن المقشرة في بداية اتخاذه سجناً[1] وعن محاولات التفريج عن المساجين فيه[2].

ووصف المقريزي الجب بالسجن الشنيع[3] المظلم الكريه الرائحة، كثير الوطاويط[4]، أما سجن خزانة شمائل[5] فهي موطن البق والبراغيث[6]، كما وصف سجون القضاة بقوله: "وأما الحبس الذي هو الآن فإنه لا يجوز عند أحد من المسلمين، وذلك أنه يجمع الكثير في موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة، وقد يرى بعضهم عورة بعض ويؤذيهم الحر في الصيف والبرد في الشتاء "[7].

وإذا أخذنا بأقوال المقريزي للتأكيد على قذارة السجون وانعدام وسائل النظافة والطهارة.
ويمكن استنتاج شكل وموقع أماكن قضاء الحاجة داخل السجون، والتي يرجح أنها تجاويفُ في الأرض لا تبعد كثيراً عن موضع جلوس السجناء، وهذا الوضع كان في سجون الأمراء

---

(1) انظر: المقريزي، خطط، ج 2، ص 188. السخاوي، وجيز، ج 3، ص 970. مبارك، الخطط، ج 2، ص 76. زيادة، السجون، ع 262 ، ص 21.

(2) المقريزي، خطط، ج 2، ص 71.

(3) المصدر نفسه، ج 2 ، ص 205 .

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 189

(5) خزانة شمائل: أقيمت بجوار باب زويلة، وهو أحد أبواب ثلاثة فقط بقيت من أبواب مدينة القاهرة الفاطمية وسمي هكذا نسبة إلى قبيلة زويلة من قبائل البربر التي جاءت مع جيش جوهر الصقلي من المغرب، وقد ورث المماليك سجن خزانة شمائل عن الأيوبيين، ويطلق عليها حالياً اسم بوابة المتولي. انظر: محمد، دليل موجز، ص95. وسميت بذلك نسبة إلى الأمير علم الدين شمائل وإلى القاهرة في أيام الملك الكامل محمد المملوكي، انظر: المقريزي، خطط، ج2، ص188. ابن إياس، بدائع، ج1، ص97. مبارك، خطط ، ج 2، ص 128. دهمان، معجم، ص69. زيادة، السجون، عدد 260، ص 17. السيد، أسماء ومسميات، ص 356.
و للمزيد حول بناء أسوار القاهرة ومواقع أبوابها. انظر: انظر: القلقشندي، صبح ، ج 3، ص 397- 400. محمد، أسماء ، ص 77 – 79، 222. ريمون، القاهرة ، ص 38-39. جومار، وصف، ص31. الطرابيلي، شوارع، ص 21.

(6) المقريزي، خطط، ج 2، ص 328.

(7) المصدر نفسه، ج 2، ص 187.

بالإسكندرية وهي تعتبر أقل قساوة من سجون الولاة والقضاة، فقد ذكر ابن حجر أن سـبب وفـاة الأمير قطلوقتمر البدري أنه قام ليقضي حاجه ليلاً "... فسقط من طاق في المكان فمات سكراناً"[1].

وأشارت المصادر إلى حالات وفاة داخل السجون بـسبب الطـاعون. فقـد تـوفي سـنة (820هـ/1417م) فرج بن الناصر فرج بن الظاهر برقوق أثناء سجنه بالإسكندرية[2]. ويبدو أنـه كان مصاباً بالمرض قبل نقله إلى السجن حيث ذكر ابن حجر أنه عندما نقل من القلعة إلى سـاحل النيل، نقل على محفة[3]. وكذلك الأمير التركماني هابيل بن قرايلك[4] توفي بالطاعون فـي الـسنة المذكورة أثناء سجنه بأحد أبراج قلعة الجبل[5].

ومن أهم هذه السجون: سجن "خزانة شمائل" "وكانت من أشنع السجون[6] وأقبحها منظـراً يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطرق ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة "[7].

وبقي هذا السجن حتى هدمه السلطان المؤيد شيخ سنة (818هـ/ 1415م)، وكان قد سجن فيه قبل تسلطنه مع الكثير من مماليك الظاهر برقوق، سنة (791هـ/ 1389م)، " فقاسى في ليلـة من البق والبراغيث شدائد، فنذر الله تعالى إن تيسر له ملك مصر، أن يجعل هذه البقعة مـسجداً لله عز وجل، ومدرسة لأهل العلم، فاختار هذه البقعة وفاء لنذره"[8].

وسجن المقشرة، و قد وصف بأنه من أشنع السجون وأضيقها، يعاني فيه المساجين من الغم والكرب ما لا يوصف[9]، و فيه أمر سلطان المماليك " بحبس أولي الجرائم فيه عوضاً عن خزانـة شمائل "[10].

---

[1] ابن حجر: إنباء ، ج 1، ص 235.

[2] السخاوي، وجيز ، ج 2، ص 447.

[3] ابن حجر، إنباء ، ج 7، ص 225.

[4] هابيل بن قرايلك: هابيل بن عثمان بن قرايلك طرغلي، أعطاه والده ولاية الرها ليحارب أهل الشام ومصر لـم يستطع الصمود أمامهم حيث أخذوا القلعة وقبضوا عليه. السخاوي، الضوء ، ج 10 ، ص 206.

[5] ابن حجر، إنباء ، ج 2، ص 224. السخاوي، الضوء ، ج 10 ، ص 206.

[6] ذكرت المصادر أسماء وأوصافاً صريحة لسجن شمائل منها: سجن أرباب الجرائم والخزانة المعدة لذوي الجرائم، وغير ذلك من التسميات المشابهة. انظر:. ابن حجر: إنباء ، ج 2، ص 221. السخاوي، وجيز، ج 1، ص 385.

[7] المقريزي، خطط، ج2، ص188. وانظر: دهمان، معجم، ص 160. عاشور، بحوث، ص 97.

[8] المقريزي، خطط، ج2، ص188؛ ج 4، ص 328. ابن حجر، إنباء ، ج 7، ص 170–171. مبارك، الخطـط، ج 5، ص 292–293؛ 383.

[9] المقريزي، خطط، ج 2، ص 188. مبارك، الخطط، ج 2، ص 77. البغدادي، السجون، ص 114.

[10] ابن حجر، إنباء، ج 7، ص 272.

وكذلك سجن للقضاة[1]، وكان يتم فيه علاج المساجين فقد أشار السبكى: بأنه على السجان الرأفة بمن عنده منهم، وألا يمنع أحدهم" من شم الرياحين إن كان مريضاً "[2].

كما كان سجن قصر الحجازية[3]، وقد وصف المقريزي هذا السجن بأنه " موحشاً يروع النفوس ذكره؛ لِما قتل فيه من الناس خنقاً وتحت العقوبة "[4].

وسجن المعونة[5]، وقد ذكر المقريزي: أن هذا السجن كان "ضيقاً شنيع المنظر يشم من يمر بالقرب منه رائحة كريهة "،[6] وعندما أصبح المنصور قلاوون من جملة أمراء الظاهر بيبرس، كان يمر من جهته عند قدومه من داره إلى قلعة الجبل فيشم رائحته الرديئة ويسمع صراخ المساجين من الجوع والعري والقمل فنذر لله إن صار سلطاناً أن يهدم هذا السجن "ويجعل بدله مكاناً حسناً" وعندما آلت إليه السلطنة هدمه وبنى مكانه سوقاً وأسكنه بائعي العنبر، فاشتهر باسم سوق العنبريين وذلك سنة 680هـ/1281م[7].

---

[1] المقريزي، السلوك، ج 7، ص 307.

[2] معيد ، ص 142.

[3] بناه الفاطميون وكان يعرف بقصر الزمرد، فسمي باب القصر الكبير المقابل له من جهة، الشرق، باب الزمرد امتلكه العديد من الملوك والأمراء الأيوبيين إلى أن اشترته خوندتتر الحجازية ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون وزوجة الأمير ملكتمر الحجازي فعمرته عمارة ملوكية وتأنقت فيه تأنقاً زائداً، وبدأ استخدام هذا السجن منذ أوائل القرن التاسع الهجري على يد جمال الدين يوسف البجاسي عندما أصبح أستاداراً سنة 807هـ/ 1404م، وذلك بحكم الصلاحيات الكبيرة لكبار موظفي الدولة في اتخاذ مواقع يسجنون فيها، وعمر بجانب هذه المدرسة داره ثم مدرسته وصار يحبس في المدرسة الحجازية ... واقتدى بجمال الدين من سكن بعده من الأستادارية في داره وجعلوا هذه المدرسة سجناً، وقدرت مساحته بعشرة أفدنة، أي ما يقارب خمسة آلاف وتسعمائة وعشرون متراً مربعاً. انظر: المقريزي، خطط، ج2، ص 71. وانظر: مبارك، الخطط، ج 2، ص94، ص 227.

[4] مبارك، الخطط، ج2، ص 71.

[5] المعونة: هي المحافظة على الأمن وصاحب المعونة هو والي الجنايات. زيادة، السجون، ع 262، ص16. وكان سجن المعونة من السجون التي سبق استخدامها في العصر الفاطمي لسجن أرباب الجرائم من السراق وقطّاع الطرق، وخلال العصر الأيوبي مر بفترة إهمال إلى أن استخدمه المماليك وبقي حتى زمن المنصور قلاوون (678- 689هـ/1279 - 1290م). انظر: المقريزي: خطط، ج 2، ص 188. زيادة، السجون، عدد 262، ص16.

[6] خطط، ج 2، ص 102.

[7] المصدر نفسه، ج 1، ص102. حيث ذكر بأن قلاوون هو من هدم السجن وفي نفس الجزء ص188 ذكر بأن الناصر محمد هو من هدمه. والأصح هو قوله الأول. العنبر: خيوط الحرير أو الغزل الفاخر منه. المصدر نفسه ، ج 1، ص102- 103.

وسجن القلعة كان مخصصاً لحبس الولاة والأمراء والأعيان[1]، ويحظى باهتمام السلاطين المملوكين، فكان المسجونون فيه ينالون كل اهتمام ورعاية، وكان يتم العناية بعلاج المساجين من الخاصة في سجن القلعة، وكان علاجهم يخضع لإشراف مباشر من قبل السلطان أو من قبل من ينوب عنه. ويتضح ذلك من خلال ما أوصى به الأشرف خليل ابنه الناصر محمد بقوله: "ويتفقد مريضهم المتحقق مرضه بحكماء الخدمة، ومعالجتهم بتعجيل النسخ على ما تقتضيه الحكمة "[2].

ومن السجون التي كانت تتبع القلاع: سجون الجباب (من القلعة) وقد وصفه المقريزي[3] بأنه مظلم عاشت فيه الوطاويط، شنيع يقاسي المسجون فيه ما هو كالموت وأشد منه[4]
وقد أيد ابن تغري بردي[5] ما أورده المقريزي وقال: " أنه شنيع المنظر، شديد الظلمة كره الرائحة وأنه يمر بالمحابيس فيه شدائد عظيم ".

وسجن الإسكندرية[6]، أو برج الإسكندرية[7]، وكان تقديم العلاج للأمراء فيه أمراً متاحاً، وكان إحضار طبيب أو من يقوم بعمله كالمزين لفحص السجين يتطلب موافقة والي الإسكندرية الذي كان يبلغ السلطان في القاهرة بذلك. فقد أرسل والي الإسكندرية إلى الناصر محمد يبلغه بأن الأمير جمال الدين آقوش[8] المسجون بالإسكندرية، ظهر في رأسه دمل على شكل السلعة[9]، وأنه

---

[1] ابن الفرات، تاريخ، مج 2، ص100- 101. ابن عبد الظاهر، تشريف، ج 2، ص285 -268. العيني، عقد، ج 3، ص 264.

[2] ابن حجر، الفضل ، ص 129.

[3] خطط، ج 2، ص189.

[4] المصدر نفسه، ج 2، ص189، 213. ابن تغري بردي، النجوم، ج 9، ص 74.

[5] ابن تغري بردي، النجوم، ج 9، ص 74.

[6] انظر: ابن حجر، إنباء، ج 8، ص 219 . ابن تغري بردي: حوادث ، ج 2، ص 394، 430،443،500. ابن إياس، بدائع ، ج 1، ق 2، ص214-215.

[7] انظر: على سبيل المثال: المقريزي، السلوك، ج 2، ص 163. ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج 3، ص 327 . الصيرفي، نزهة ، ج 3، ص 142 . ابن إياس، بدائع ، ج 1، ق1، ص،397، 571،564،426؛ ج 1، ق 2، ص 668.

[8] الأمير جمال الدين آقوشي المعروف بنائب الكرك، توفي مسجوناً بالإسكندرية يوم الأحد في السابع من جمادى الأولى سنة 736 ﻫ/ 1335م. وهو غير جمال الدين أقوش الشمسي الذي باشر قتل كتبغا يوم عين جالوت وتوفي في حلب سنة 679هـ/ 1280م. انظر: العيني، عقد، ج 2، ص 260 .

[9] السلعة: بالفتح، الشجة في الرأس كائنة ما كانت، والسلعة بكسر السين: هي الجدرة تخرج بالرأس وسائر الجسد، وقد تكون لسائر البدن في العنق وغيره. انظر: اليوسفي، نزهة ، ص 322 ، حاشية رقم (2).

أحضر مزين ليفحصه، فكان رأيه أنها في مكان خطر وقطعها على "أحد الفصلين: إما بموته أو حياته"[1].

وفي سنة (873هـ/ 1468م) تُوفِي بالطاعون السلطان السابق أبو النصر بلباي المؤيدي أثناء سجنه بالإسكندرية[2].

ومما سبق ندرك أن سجون الولاة والأمراء والأعيان كانت في الغالب صحية الموقع طيبة الرائحة، على عكس سجون العامة التي كانت تعاني من الإهمال حيث أنها ضيقة مظلمة سيئة التهوية وغير نظيفة، كما كانت غير صحية تشم رائحتها من بعد، إضافة إلى ازدحامها بأعداد كبيرة من المسجونين المتكدسين داخلها.

وإذا كان سلاطين المماليك قد عرف عنهم العدالة والتسامح والدأب على توفير الرعاية الصحية للجميع على السواء حتى الحيوان فكيف يمكن تفسير الحالة الطيبة التي كانت عليها سجون الخاصة، مقابل الحالة السيئة التي كانت عليها سجون العامة فهل هذا تفريق في المعاملة من قبل المماليك بين الأمراء والعوام، ويمكن تحليل هذا الموقف بالقول بأن المملوكيين قد وفروا الرعاية الطبية لنزلاء مختلف السجون بنفس القدر ولكن يبدو أن كثرة أعداد المسجونين في السجون العامة إضافة إلى إهمال المسجونين أنفسهم، هو ما أعاق هذه الجهود وجعل الروائح الكريهة تنبعث من هذه السجون وإلا لو كان الأمر غير ذلك لتدخل المحتسب، الذي وصل به الأمر إلى انه كان يراقب صحة الحيوان فما بالك بصحة الإنسان.

4- الرقابة والإشراف الصحي على الحمامات:

من المعروف أن الحمامات هي أحد المرافق العامة، وقد كان المحتسب يشرف عليها إشرافا دقيقاً، نظراً لتعلقها الشديد بالنواحي الصحية وأن أي إهمال في مراقبتها يمكن أن يحولها من مكان للنظافة والاستشفاء من الأمراض إلى مكان موبوء يكون سبباً في إصابة الكثير من المترددين عليه بالعديد من الأمراض.

---

[1] اليوسفي، نزهة ، ص 322 . الأمير جمال الدين آقوشي المعروف بنائب الكرك، توفي مسجوناً بالإسكندرية يوم الأحد في السابع من جمادى الأولى سنة (736 ه/ 1335 م). وهو غير جمال الدين أقوش الشمسي الذي باشر قتل كتبغا يوم عين جالوت وتوفي في حلب سنة (679 ه/ 1280 م). انظر: العيني، عقد ، ج 2، ص 260 .

[2] الصيرفي، إنباء ، ص 17-18. السخاوي، وجيز، ج 2، ص 807. أنظر: سالم، تاريخ ، ص 396.

كذلك كان المحتسب يأمر القائمين بالخدمة في الحمام بتنظيفه تنظيفاً جيداً أكثر من مرة في اليوم سواء عن طريق مسحه أو كنسه بماء طاهر، مع تنظيف البلاط بأدوات تنظيف خشنة حتى لا يعلق به شيء يتسبب في انزلاق أرجل الناس عندما يمرون عليه[1].

كما كان المحتسب يلزمهم بغسل خزانة المياه ومجاريها مرة كل شهر، حتى لا تترسب فيها الأوساخ وتؤدي إلى تغير طعم المياه ورائحتها، فقد كان حريصاً على ذلك كل الحرص، لدرجة انه كان يلزم القيم إذا أراد الصعود إلى الخزانة لفتح الماء إلى الأحواض أن يغسل رجليه بالماء الطاهر النظيف[2].

كذلك كان المحتسب في إطار الحفاظ على نظافة الحمامات يأمر القائمين على الخدمة بهـا بالحفاظ على نظافة أركانها وجنباتها ومناشفها[3] إضافة إلى تجديد مياه الأحواض والمغاطس بصفة دائمة[4]، كما كان المحتسب ينهى الأساكفة والدباغين من غسل الجلود في الحمام حتى لا تلوثـه أو يتضرر المستحمون من رائحتها[5].

كذلك كان المحتسب يمنع أصحاب الأمراض المعدية مثل المصابون بالبرص والجذام مـن دخول الحمام حتى لا تنتشر العدوى بين المترددين على الحمام[6].

وحرصاً من المحتسب على أن تظل رائحة الحمام طيبة حتى تكون سبباً في إقبال النـاس على دخوله، فقد أمر بأن تشعل البخور في الحمام مرتين في اليوم ليطيب هواؤه وترتـاح نفـوس المستحمين فيه[7].

وفي ظل إشراف ورقابة المحتسب على الحمامات تمكنت من أداء دورها على أكمل وجـه كمرفق عام داخل الدولة يقصده سائر الناس.

5- خامسا: الرقابة والإشراف على المقابر

منذ بدء الخليقة عرف الإنسان دفن موتاه، لما في ذلك من تكريم للإنسان وحماية لجسده من نهش السباع وغيرها من الدواب، كما أن فيه حماية للبيئة من التلـوث ومـن انتـشار الأمـراض

---

(1) الشيزري، نهاية، ص 87. ابن الأخوة، معالم، ص155.

(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة. المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(3) المناوي، النزهة، ورقة 19.

(4) القوصوني، كتاب في الحمام، ورقة 4.

(5) الشيزري، نهاية، ص 88. ابن الأخوة، معالم، ص156.

(6) المصدر نفسه، نفس الصفحة. المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(7) المناوي، النزهة، ورقة 19.

والأوبئة[1]، التي من شأنها أن تعصف بالإنسان والحيوان والنبات، وخير شاهد على ذلك ما يحدث عند عدم دفن الموتى في حالات المجاعات والجفاف والفيضانات وغيرها من الكوارث الطبيعية، أو في حالات الحروب من انتشار الأمراض الخطيرة مثل مرض الطاعون والكوليرا وغيرها، وخير مثال على ذلك ما حدث بمصر، عندما تعذر دفن الموتى لضخامة أعدادهم وعدم وجود من يحضر لهم ويعتبرهم فملئت الجثث الشوارع وتعفنت وانتشرت رائحتها في الهواء وعمت البلاد الأمراض من جراء ذلك[2].

لذلك اهتم سلاطين المماليك بإنشاء الترب والمقابر[3] وأسندت الرقابة والإشراف على حافري المقابر للمحتسب[4].

فكان المحتسب يأمر حافري المقابر أن يعمقوا حفر القبر قدر قامة الرجل، حتى لا تنبشه الكلاب، أو تفوح منه رائحة فيتأذى منها الناس، وإذا ظهر عند الحفر عظم لأحد المدفونين فينبغي سترها بالتراب ولا بد أن يعمل للقبر حد، وبعد دفن الميت يهال عليه التراب، ويرفع القبر عن الأرض قدر شبر ليظهر للناس فلا تدوسه الأقدام[5].

ومن ذلك يتضح لنا مدى حرص المحتسب على أن تكون المقابر صحية لا تخرج منها رائحة الميت حتى لا يكون ذلك سبباً في انتشار الامراض بين المشيعين للجنائز لأنهم يدخلون إلى أرض هذه المقابر.

ومما سبق يتضح لنا مدى الدور المهم الذي لعبه المحتسب في حياة المجتمع المسلم في مصر والشام في عصر الدولة المملوكية، وذلك للدور المميز للمحتسب في شتى جوانب الحياة لاسيما الجوانب الصحية والطبية.

وبذلك تكون الدولة المملوكية قد أحكمت الرقابة والإشراف على كل ما يتعلق بالجوانب الصحية والطبية من خلال المحتسبين وأعوانهم وهو ما انعكس ايجابياً على حالة المجتمع الصحية في مصر والشام.

---

[1] انظر: ابن كثير، مختصر ، ج1، ص508، السعدي، تيسير، ص229.

[2] المقريزي، السلوك، ج5 ، ص132.

[3] انظر: المقريزي، خطط، ج2، ص444. ابن إياس، بدائع، ج1،ق2، ص99. ابن الشحنة، الدر، ص91، 92. وانظر: طلس، الآثار، 1375، ص234.

[4] ابن بسام، نهاية، ص169.

[5] المصدر نفسه، نفس الصفحة.

الخاتمة

برز الاهتمام بالجوانب الصحية والطبية عند المسلمين منذ الوهلة الأولى، فقد حفلت آيات القران الكريم بالعديد من التوجيهات التي تخص صحة الإنسان وضرورة الاهتمام بها، كما تشهد السنة النبوية بذلك من خلال الكثير من الأحاديث التي جذبت الانتباه من أجل الاهتمام بهذا الجانب.

من النتائج التي انتهى إليها البحث أن العصر المملوكي هو بحق عصر النهضة للطب الإسلامي، فقد كان لسلاطين وأمراء الدولة المملوكية دور مهم في هذه النهضة ، حيث كان الأطباء هم محط اهتمام السلاطين المماليك فقربوا بعضهم من القصر الملكي ، وولوا بعضهم المناصب الهامة وأصدروا لهم مراسيم برئاسة الطب .

ويمكن القول أن علاقة السلاطين والأمراء المماليك بالأطباء كانت أحد العوامل الدافعة بقوة للنهضة الطبية.

وقد شهدت مصر والشام خلال هذا العصر نهضة طبية شاملة في مختلف فروع الطب قامت على أكتاف مجموعة كبيرة من الأفذاذ من الأطباء والبياطرة والصيادلة .

فقد برع الأطباء في مختلف التخصصات الطبية حيث ظهر منهم أكفاء كل في تخصصه، كما أثرى هؤلاء الأطباء المكتبة الطبية بالعديد من المؤلفات في علوم الطب المختلفة والتي ما زال بعضها باقية حتى الآن مطبوعة أو مخطوطة ، خير شاهد على مدى تفوق ونهوض أطباء مصر والشام في العصر المملوكي.

ونظرا لكثرة الأمراض خلال العصر المملوكي فقد كانت حاجة المجتمع لعدد كبير من الأطباء شديدة، لذلك أقامت الدولة المملوكية العديد من المنشات لتعليم علم الطب وأنفقوا عليها بسخاء حتى يتوفر للمجتمع عدد كبير من الأطباء يستطيعون علاج المرضى ومداواتهم.

كذلك عمد المملوكيين إلى إنشاء مجموعة من المنشئات العلاجية الثابتة وتمثلت هذه المنشئات في البيمارستانات التي أكثروا من إنشائها في المدن الكبرى بمصر والشام.

أما البلاد والأقاليم والأصقاع البعيدة، فقد خصص لهم السلاطين المماليك بيمارستانات متنقلة والتي لعبت دور مهم أيضا في مصاحبة الجيوش البرية والبحرية، وفي سفر السلاطين والأمراء ورحلات الحج.

ولما كان للوقاية دور كبير في حماية الإنسان من الكثير من الأمراض حيث تعد النظافة رأس الوقاية لان لها دور كبير في عدم إصابة الأبدان بالأمراض ، لذلك سارع سلاطين وأمراء

المماليك بإنشاء العديد من الحمامات بمصر والشام من أجل توفير سبل النظافة الجيدة لأفراد المجتمع .

وكان لا بد لنا عند دراسة الأحوال الطبية والصحية في مصر والشام في عصر الدولة المملوكية من معرفة الأسباب التي أدت إلى انتشار الأمراض في هذين القطرين وبالبحث تبين لنا أن هناك نوعين من الأسباب:

النوع الأول: وهو الأسباب البشرية – على اعتبار أن الأمراض غالبا ما تنجم عنه وقد تمثلت الأسباب البشرية في تلك السلوكيات الغير صحية لأفراد المجتمع مثل عدم الاهتمام بنظافة البدن والملبس وتلوث المأكل والمشرب والإسراف في الأكل والشرب وعدم الاهتمام بنظافة أماكن الإقامة والبيئة المحيطة ونقص الوعي الصحي إضافة إلى الانحراف الخلقي . كما تمثل الحروب احد أسباب انتشار الأمراض، وهي من الأسباب البشرية أيضا على أساس أن الحرب يصنعها البشر ، وهي تستهلك القوى البشرية وتؤدي إلى انتشار المجاعات ، إضافة إلى أنها تخلف ورائها أعداد هائلة من القتلى يصعب دفنهم ، وبالتالي تتحلل جثثهم وتتصاعد منها الأبخرة التي تؤدي إلى انتشار الأوبئة والطواعين .

أما النوع الثاني: من أسباب انتشار الأمراض فهو الأسباب الطبيعية ، وتتمثل في طبيعة مناخ مصر والشام إضافة إلى حدوث العديد من المجاعات والزلازل وانتشار الحشرات والآفات الزراعية فقد كانت هذه أسباب طبيعية لانتشار المرض على اعتبار أن الإنسان لا دخل له فيها بشكل مباشر .

وقد عرفت مصر والشام خلال العصر المملوكي نوعين من الأمراض:

الأول: وهو الأمراض المتوطنة وهي التي ترتبط بمكان أو بلد معين دون غيره لمسسببات وعوامل تتعلق بمناخ هذا البلد أو التغيرات التي تطرأ عليه ، ومياه الشرب والحالة التي عليها هذه المياه، وتشمل هذه الأمراض مرض الكوليرا وأمراض الحميات والسل والأمراض الجلدية ، وكذلك أمراض الباطنة وأمراض العين وأمراض الفم والأسنان وغيرهما

أما النوع الثاني: وهو الأمراض الوافدة وهي التي تعم خلقا كثيرا في بلد واحد في زمن واحد وقلما ينجو منها من يصاب بها، وقد تنتقل من بلد لآخر عن طريق الفارين من هذه الأمراض مثل مرض الطاعون.

وعن طرق العلاج التي كانت مستخدمة لعلاج هذه الأمراض خلال العصر المملوكي فقد ابتكر الأطباء طرقا وأساليب جديدة إلى جانب طرق العلاج التي كانت معروفة من قبل.

ولما كان أمر صحة الحيوان ينعكس إيجابيا أو سلبيا على صحة الإنسان ، فقد كان من الضروري الاهتمام بصحة الحيوان فانبرى لذلك مجموعة من البياطرة أو أطباء الحيوان حيث

تمكنوا من علاج الكثير من أمراض الحيوان خلال العصر المملوكي وذكروا الكثير من أمــراض الحيوان وطرق علاجها من خلال المؤلفات العظيمة التي خلفوها في مجال البيطرة.

وقد كان للتنظيم الإداري دور مهم في سير العملية الصحية حيث اهتموا بان يكون رؤساء للطب ولكل تخصص على حده، وأن يكون إدارات مستقلة لمختلف المؤسسات الصحية والتعليميــة سواء كانت بيمارستانات و حمامات أو مدارس طبية.

وتميز دور المحتسب في مجال الرقابة والإشراف على كل ما يتعلق بالصحة العامــة مــن خلال ثلاث محاور:

فالمحور الأول: الرقابة والإشراف على أصحاب المهن الطبية، أما المحور الثــاني فهــو الرقابــة والإشراف على أصحاب المهن المتعلقة بمأكل ومشرب الإنسان، ويأتي المحــور الثالــث ليــشمل الرقابة والإشراف على المرافق والمنشئات العامة.

وبذلك تكون رقابة الدولة المملوكية قد امتدت لتشمل كل ما يتعلق بالصحة العامة من خلال الدور الرائد الذي لعبه المحتسب على كل ما سبق ذكره.

وفي ختام البحث أوصي المهتمين بالعلم بدعم جهود الباحثين للعمل على إخراج الكثير من المخطوطات الطبية للنور من خلال تحقيقها ونشرها، لأنها تعكس الجوانــب المــشرقة للحــضارة العربية والإبداع الحضاري للمسلمين في علم الطب الذي صار الغرب الأوروبــي يدعيــه اليــوم وينسبه إلى نفسه مع أن العرب والمسلمين هم الذين كان لهم السبق في هذا العلم.

وقد حاولت من خلال هذه الدراسة إظهار سبق المسلمين في الاهتمام بالجوانــب الــصحية والطبية ولاسيما في العصر المملوكي، فإن كان فيه من توفيق فمن الله رب العالمين وإن كان ثمــة تقصير أو خطأ فمن نفسي والشيطان وكلٌ يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الملاحـــق

الملحق الأول

مصر والشام في عهد دولة المماليك



الملحق الثاني

جزء من وثيقة وقف السلطان لاجين على جامع أحمد بن طولون[1]:

في يد الواقف رجلا عارفا بطب البدن، فهو المعرفة، وللأمراض.
من العالم الفاضل العارف أبو محمد ابن العدل المرحوم شهاب الدين
أبو الحوافر الطبيب السلطاني أمده الله لإقراء الطب، ويعلمه،
ويرتب له من الطلبة عشرة يشتغلون بالطب.ما يجب حفظه في الطب
وعرضه، ويصححه، ويوضح لهم مشكله،
ويصرف مائة درهم واحدة، وللعشرة الطلبة في كل شهر مائة درهم واحدة...
حسب مراتبهم عنده.

---

[1] وثيقة وقف السلطان حسام الدين أبو الفتح لاجين بن عبد الله المنصوري على مسجد أحمد بن طولون، والمؤرخة في 21 ربيع الآخر سنة 697هـ/ 1298م بدار الوثائق القومية، رقم 217، ميكروفيلم 14.

الملحق الثالث

إجازة بممارسة مهنة الطب[1]

وهذه صورة ما كتبه الشيخ الأجل عمدة الأطباء ومنهاج الأنباء الشيخ شهاب الدين ابــن الــصايغ الحنفي رئيس الأطباء بالديار المصرية إجازة للشاب المحصل محمد عزام، أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الأحول الشيخ زين الدين عبد المعطي رئيس الجراحين على حفظه لرسالة الفــصد كمــا سنبينه:

الحمد لله ومنه أستمد الغاية.

الحمد لله الذي وفق من عباده من اختاره لخدمة الفقراء والصالحين وهدى من شاء للطريق القــويم والنهج المستقيم على ممر الأوقات والأزمات إلى يوم الدين وبعد فقد حضر عندي الشاب المحصل شمس الدين محمد بن عزام بن على المؤذن العارفين وشيخ طائفة الجراحين بالبيمارستان المنصور هو الشيخ المعطي المشهور بابن رسلان نفعنا الله ببركاته ورحــم أســلافه العــارفين الــصالحين وعرض على جميع الرسالة اللطيفة المشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفيته وشــروطه ومــا ترتب عليه من المنافع المنسوبة والرسالة المذكورة للشيخ الإمام العلامة التمام شمس الدين محمد بن ساعد الأنصاري شكر الله سعيه ورحمه وأسكنه بحابيح جناته بمنه وكرمه، عرضاً جيداً دل علــى حسن حفظه للرسالة المذكورة وقد أجزته أن يرويها عنى بحق وروايتها وغيرها من الكتب الطبية..

---

[1] هذه الإجازة من القرن الحادي عشر الهجري . أحمد عيسى، تاريخ، ص44.

الملحق الرابع

تقليد تولى مهذب الدين تدريس البيمارستان المنصوري المستجد وكتب ابن المكرم كاتب الدرج تقليده بذلك. ونسخته[1]:

الحمد لله بحكمته الوجود، وغير برحمته كل موجود، وحال ينفع الدواء ضر الـداء، كمـا حالـت عطاياه دون الوعود.

نحمده ونشكره وهو الشكور المحمود، ونثني عليه خير الثناء، قياماً وقعوداً علـى الجنـوب وفـي السجود ونستزيده من فضله فإن أهل الفضل والجود.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الله بها الملائكة وأولوا العلم شهود.

ونشهد أن محمداً عبد ورسوله المبشر لأمته بالجنات والخلود، صلى الله عليه وعلى آله وصـحبه صلاة دائمة إلى اليوم الموعود.

وبعد: فإنه لاما أقام الله بنا شعار الايمان، وأصبح دينه بحمد الله منصوراً بنا على سائر الأديـان، وجاهدنا في الله حق جهاده باليد والقلب واللسان، وشيدنا لعلومه وشرائعه كل بديع الإتقان، ورتبنـا فيه من العلماء الأعيان كل رفيع الشأن واخترنا له الأخيار من أهل العلم بالطب، والفقه والحديث والقرآن، ورأينا كل من تقدمنا من الملوك وان سلك في سياسة الرعية أحسن سلوك، قد اهتم بعلـم الأديان، وأهمل علم الأبدان، وأنشأ كل منهم مدرسة ولم يحفل بيمارستان، وغفل عن قوله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان، ولم يأخذ أحداً من رعيته بالاشتغال بعلم الطب المضطر إليه، ولا وقـف وقفاً على طلبه هذا العلم المنصوص عليه، ولا أعد له مكانا يحضر من يشتغل بهذا الفن فيـه، ولا نصب شخصاً يتمثل هذا المشتغل لديه، علمنا نحن بحمد الله تعالى من ذلك ما جهلوه، وذكرنا مـن هذه القرية ما أهملوه، ووصلنا من هذه الأسباب الدينية والدنيويه ما فصلوه، وانشأنا بيمارستاناً يبهر العيون بهجة، ويفوق الأبنية بالدليل والحجة، ويحفظ الصحة والعافية على كل مهجة، لو حله اشفى لعوجل بالشفاء، أو جاءه من أكمده السقم لا شتفى، أو اشرف عليه العمر بلا شفاء لعاد عنه بـشفا، ووقفنا عليه من الأوقاف المبرورة ما يملأ العينين، ويطرف سماع جملته الأدنين، ويعيد عنه مـن أمه مملوء اليدين، وأبحنا التداوي فيه لكل شريف ومشروف، ومأمور وأمير، وساوينا في الانتفـاع به بين كل صغير وكبير، وغني وفقير.

وعلمنا أن لا نظير في ملكنا ولا نظير له في اتقانه فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير، وجعلنا فيـه مكاناً للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يجهل، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعذب منهل، وسـهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به الرئيس من أهل هذه الصناعة والمرءوس ويؤتمن علـى صـحة

---

[1] تاريخ هذا التقليد رمضان 684هـ/نوفمبر 1285م، ابن عبد الظاهر، تشريف، ص228.

الأبدان وحفظ النفوس، فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة، ولم ترض لها من لم تكن له هذه المنقبه، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجباً، واضحت به معجباً.
ولما كان المجلس السامي مهذب الدين هو الرئيس المشار إليه، والوحيد الذي تعقد الخناصر عليه، وكان هو الحكيم بقراط، بل والجليل سقراط، بل الفاضل جالينوس، بل الأفضل ديسقوريدس.
اقتضت الآراء الشريفة أن تزداد جلالته بتولية هذا المنصب الجليل جلاله، وان تزف إلـي تجـرر أذيالها، ويزف إليها يجرر أذياله، وأن يقال له: لم يك يصلح إلا لها ولم تك تصلح إلا له.
فلذلك رسم بالأمر العالي لا زال للدين ناصراً، ولأعلام العلوم ناشراً أن يفوض إليه تدريس الطـب بالبيمارستان المنصوري المبارك، المستجد الإنشاء بالقاهرة المحروسة، علماً بأنه المتميز في هـذا الفن، وثقة بأنا للجوهر قد التقطنا، وبالخير قد اغتبطنا وعلى الخير قد سقطنا.فليتـق هـذه النعمـة بالشكر الجليل والحمد الجزيل والثناء الذي بالنماء والزيادة كفيل، ولينتصب لهـذا العلـم المبـارك انتصاب من يقوم بالفرض منه والسنة، ويعرف له فيه الفضل، ويتقلد له فيه المئة، ويثني على آثاره الجميلة فيه ونثني إليه الأعنة.
وليبطل بقويمه الصحة ما ألفه ابن بطلان، وليرنا بتدبير جبلة البر، فإنه جالينوس الزمان وليبـذل النجاة من الأمراض والشفاء من الأسقام، فإنه ابن سينا الأوان، وليجمع عنده شمل الطلبة، ولـيعط كل طالب منهم ما طلبه وليبلغ كل متمن من الاشتغال أربه وليشرح لهم صدره، وليبذل لهـم مـن عمره شطره، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره، وليرهم ما خفى عنهم منه جهره، وليجعـل منهم جماعة طبائعية، وطائفة كحالين وجرائحية، وقوماً مجبرين وبالحديد عاملين وآخرين بأسـماء الحشائش، وقوى الأدوية واوصافها عاليمن، وليأمر كلا منهم بحفظ ما يجب حفظه، ومعرفة ما يزيد به حظه وليأخذ بما يصلح به لسانه ولفظه، ولا يفتر عنهم في الاشتغال لحظة، وليفرد لكل علم من علوم الطب طائفة، ولكل فن من فنونه جماعة لمحا عام عرفه، وليصرف إليهم من وجوه فـضائله كل عارفة، وليشكف لهم ما أشكل عليهم من غوامضه، فليس لها من دون إيضاحه كاشفة، لينـشر في هذا المكان المبارك من أرباب هذه العلوم قوم بعد قوم، ويظهر منهم فـي الغـد، أن شـاء الله تعالى، أضعاف من هو ظاهر منهم اليوم، وليقال لكل من طلبته إذا شرع في إجازته وتزكيته لقـد أحسن شيخ الذي عليه تأدب، وأن من خرج هذا المهذب عاملاً في ذلك كله بشروط الواقف، أعـز الله نصره، وقفاً عند أمره وأمضى الله أمره.

الملحق الخامس

نسخة توقيع برياسة الطّبّ، وهي [1]:

الحمد لله مؤتي الحكمة من يشاء من عباده، ومعطي أمانة الأرواح من ترقّى في حفظها إلى رتبة اجتهاده، وجاعل علم الأبدان أحد قسمي العلم المطلق في حالي اجتماعه وانفراده، وموفّق من جعل نصح خلق الله فيه سببا لسعادة دنياه وذخيرة صالحة ليوم معاده، [ومبلّغ من كان دائبا في إعانة البريّة على طاعة ربّها بدوام] الصّحّة غاية مرامه وأقصى مراده، ورافع رتبة من دلّ اختياره واختباره على وفور علمه ونجح علاجه وإصابة رأيه وسداده.

نحمده على نعمه التي خصّت بنعمنا من كمل في نوعه وفصله وحسن في علمه وعمله قوله وفعله، وجمع من أمانة وظيفته ومعرفتها ما إذا جلس في أسنى مناصبها قيل: هذا أهله، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشرق البصائر، بأضوائها وتفرق الضمائر، باخلاصها من أدوائها، وتغدق بيمنها أنواء التوفيق فتتأرّج رياض الإيمان بين روائها وإروائها، ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذي أنارت ملّته، فلم تخف على ذي نظر، وعلت أدلّته، فلم ينلها من في باع رويّته قصر، وبهرت معجزاته فلو حاولت الأنفاس حصرها أفناها العيّ والحصر، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا لأدواء القلوب علاجا، ولسلسبيل الإيمان مزاجا، وللبصائر السائرة في دجى الشّبهات سراجا، صلاة دائمة الإقامة، متصلة الدّوام إلى يوم القيامة، وسلّم تسليما كثيرا.

وبعد: فإنّ صناعة الطّبّ علم موضوعها حفظ الأبدان النّفيسة، ومقصودها إعانة الطبيعة على حماية الأعضاء الرّئيسة، ومدارها الأعمّ، على معرفة العوارض وأسبابها، ومدركها الأتمّ، الوقوع على الصواب في معرفة الجسوم وأوصابها؛ وحينئذ تتفاوت رتب أهلها عند تشعّب مداركها، واختلاف مسالكها، وتشابه عللها، والتباس صوابها بخللها؛ إذ لا يميّز ذلك حقّ تمييزه إلا من طال في العلم تبحّره، وحسن في رتب هذا الفن تصدّره، وطابق بين نقله وعلاجه، وعرف حقيقة كل مركّب من الأدوية ومفرد بعينه واسمه وصفته ومزاجه، وتكرّرت عليه الوقائع فعرفها دربة وأحكمها نقلا، ولقّب بشرعة التقوى إذ كان الإقدام على النفوس قبل تحقّق الداء والدّواء مذموما شرعا وعقلا؛ ولذلك تحتاج إلى رئيس ينعم في مصالحها نظره، ويجمل في منافعها ورده وصدره، ويعتبر أحوال أهلها بمعيار فضله، ويلزم الداخل فيها ببلوغ الحدّ الذي لا بدّ منه بين أرباب هذا الشأن وأهله، ويعرف لأكابر هذا الفنّ قدر ما منحهم الله من علم وعمل، ويبسط رجاء المبتديء إذا كمّل نفسه حتّى لا يكون له فيها بغير كمال الاستحقاق طمع ولا أمل.

---

[1] نقلا من كتاب صبح الأعشى، ج11، ص 373.

ولما كان المجلس السامي، القاضي، الأجلّ، الحكيم، فلان الدين: هو الذي بلغ من العلم غاية مراده، واحتوى من هذا الشان على ما جمع به رتب الفاضلين فيه على انفراده؛ فلو عاصـــره «الـــرئيس» لاعتمد عليه في كلّيّات قانونه، أو «الرازيّ» لعلم أن. «حاويه» من بعض فنونه، قد حلب هذا العلم أشطره، وأكمل قراءة هذا الفنّ رموزه وأسطره، وحلّ أسراره الغامضة، وارتوى من سحب رموزه بأنواء لم يشم غير فكره بروقها الوامضة، وأسلف من خدمة أبوابنا العالية سفرا وحضرا ما اقتضى له مزيّة شكره، وتقاضى له مزيد التنبيه على قدره والتنويه بذكره، وحمد فيه الفريدان: صحة نقله وإصابة فكره، وعلم أنه جامع علوم هذه الصّناعة فلا يشذّ منها شيء عن خاطره ولا يغيب منهـــا نقل عن ذكره.

فلذلك رسم بالأمر الشريف- لا زال شهاب فضله لامعا، وسحاب برّه هامعا- أن يكون فلان متولّي رياسة الأطباء بالديار المصرية على عادة من تقدّمه.

فليباشر هذه الرياسة ناظرا في مصالحها، مطلعا من شهاب فضله ما يزين أفقهـــا زينـــة الـــسماء بمصابيحها، متفقّدا أحوال مباشريها، متلمّحا أحوال المستقلّ بأعبائها والداخل فيها، سالكا في ذلـــك سبيل من تقدّمه من رؤسائها، حاكما في أمورها بما جرت به العادة المستقرّة بين أكابرها وعلمائها، مطارحا من قدمت هجرته فيها بما يقتضي له مراجعة أصوله، ملزما مـــن ظهـــر قـــصوره فيهـــا بالتدرّب

إلى حدّ لا يقنع منه بدون حصوله، مجيبا في الإذن لمن أظهر الاستحقاق صدق ما ادّعاه، قابلا في الثّبوت من مشايخ هذه الصّناعة من لا يشهد إلا بما علمه ولا يخبر من التدرّب إلا بما رآه ووعاه، متحرّيا في الثّبوت لدينه، آذنا بعد ذلك في التصرّف إن ترقّى علمه باستحقاقه إلى رتبـــة تعيينـــه؛ وليعط هذه الوظيفة حقّها من تقديم المبرّزين في علمها، وتكريم من منحه الله درجتي نقلها وفهمها، وتعليم من ليس عليه من أدواتها المعتبرة غير وسمها واسمها، ومنع من يتطرّق من الطّرقية إلـــى معالجة وهو عار من ردائها، وكفّ يد من يتهجّم على النفوس فيما غمض من أدوائها قبل تحقّـــق دوائها، واعتبار التقوى فيمن يتصدّى لهذه الوظيفة فإنّها أحد أركانها، واختيار الأمانة فيمن يـــصلح للاطلاع على الأعضاء التي لولا الضرورة المبيحة حرم الوقوف على مكانها؛ ولـــيكن فـــي ذلـــك جميعه مجانبا للهوى، ناويا نفع الناس فإنما لامريء ما نوى؛ والله تعالى يحقّق له الأمل، ويسدّده في القول والعمل، بمنّه وكرمه.

قلت: وربّما افتتح توقيعها ب «أما بعد حمد الله»

الملحق السادس

ورقة من مخطوط تصف تشريح العين[1]



طبقة اخرى لا تغشيها يقال لها باليونانيه ... اي الملتحم من ...
غشا باللحم حول الطبقه القرنيه ولا يغشيها كما تغشي سائر الطبقات بعضها
بعضا لانه لو غشاه كله لمنع البصر من ان ينفذ
وهي على هذا المثال

وانا مبتدي بالاخبار عن منافع كل واحد من الرطوبات والطبقات التي وصفنا مع
ابتدا انباتها وكونها ومنتهاها ومواضعها وقد كنت تقدمت في اخبارك
ان الرطوبه الجليديه في وسط العين وان خلفها رطوبه واحده وثلث طبقات
وقدامها رطوبه واحده وثلث طبقات فنبتدي بعون الله بالاخبار
عن منفعه الرطوبه التي خلف الجليديه وهي الزجاجيه وعن الثلث
طبقات التي ذكرنا خلفها فنقول ان كل عضو من اعضا البدن لا بد له من غذ

وثيقة تظهر تشريح العين

---

(1) http://aregy.com/forums/showthread.php?t=31892

الملحق السابع

صورة توضح تشريح فى جسم حصان[1]:

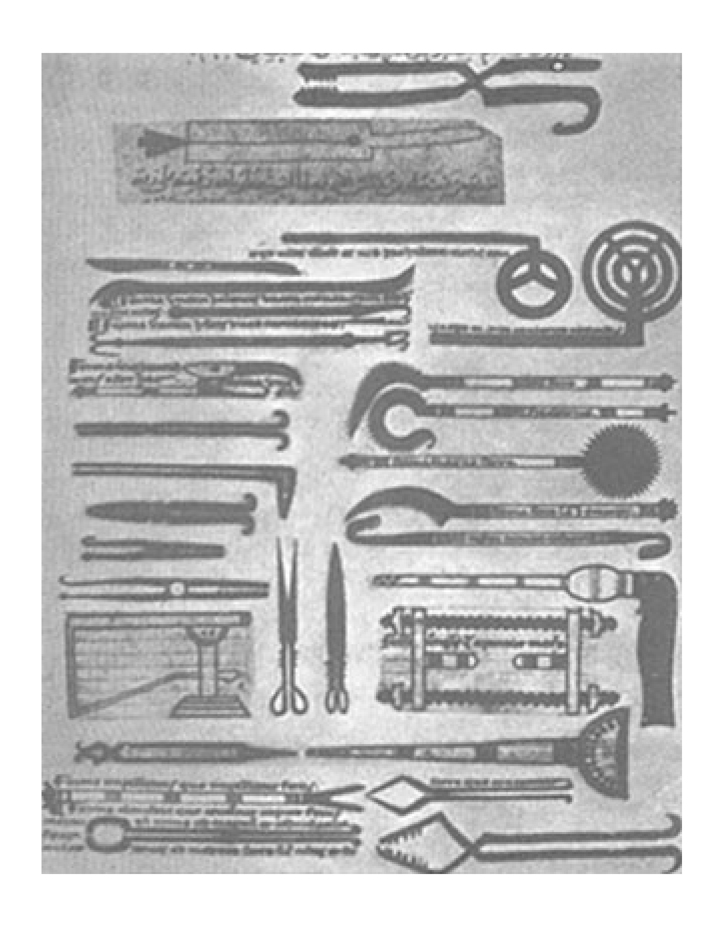


مخطوطة عربية لتشريح حصان.

[1] http://www.fnatk.com/vb/thread55092-2.html

الملحق الثامن

أدوات الجراحة[1]

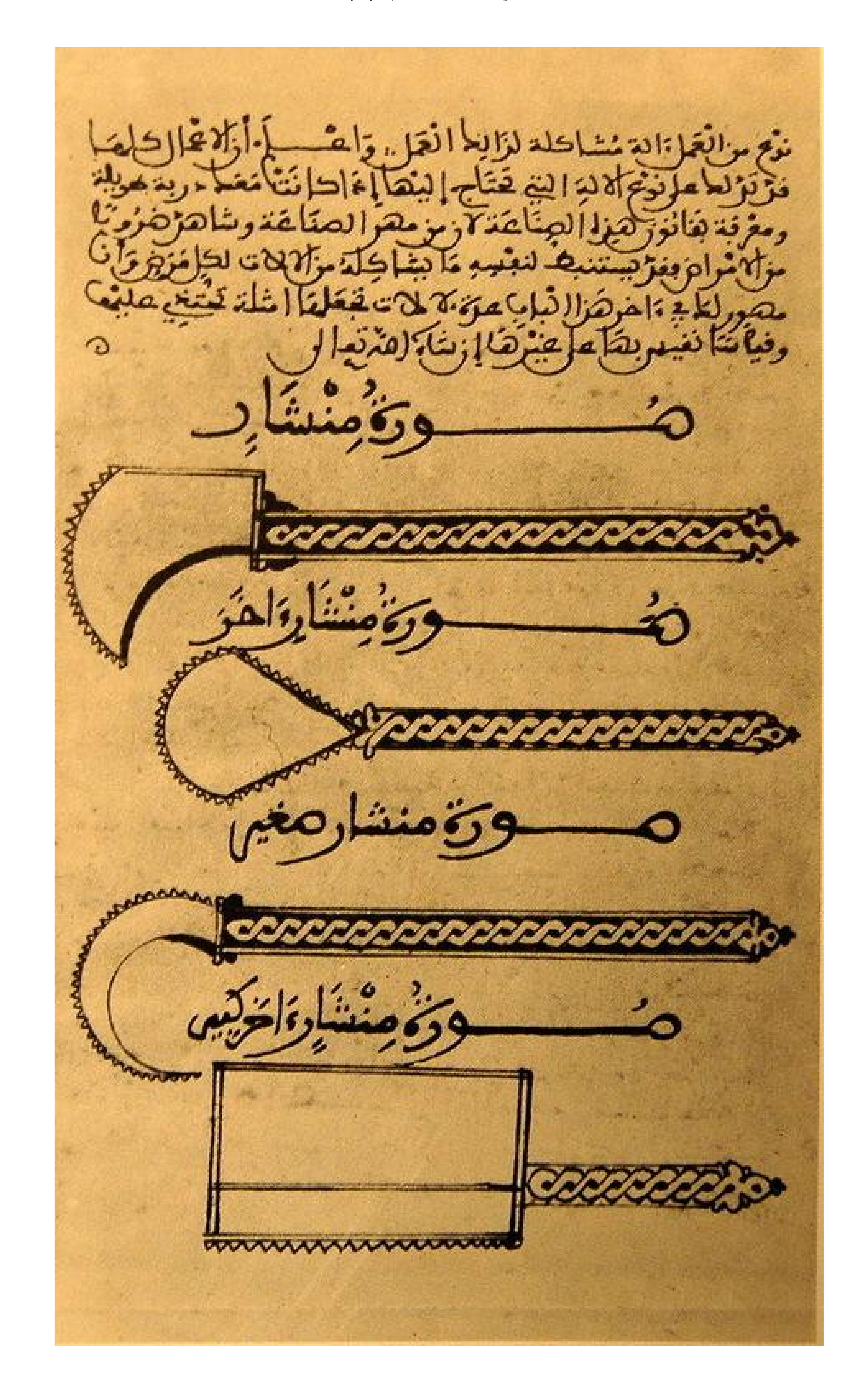


(1) 870arab.com/vb/showthread.php?t=3http://www.al-mofakreen-al 8tna.net/forum/threads/3http://www.dof

تابع ملحق رقم (8)



تابع ملحق رقم (8)



نوع من العمل آلة مشاكلة لذلك العمل، واعلم أن الأعمال كلما
فمن تدرب العمل بنوع الآلة التي تحتاج إليها إذا كانت معتادة دربة طويلة
ومعرفة بقانون هذه الصناعة كان من مهرة الصناعة وشاهد ضروبا
من الأمراض وعرف يستنبط لنفسه ما يشاكله من الآلات لكل مرض وأنا
مصور لك في أمراض الأبدان عدة آلات فجعلها أمثلة تحتذي عليها
وفيما شئنا نقيس بها على غيرها إن شاء الله تعالى
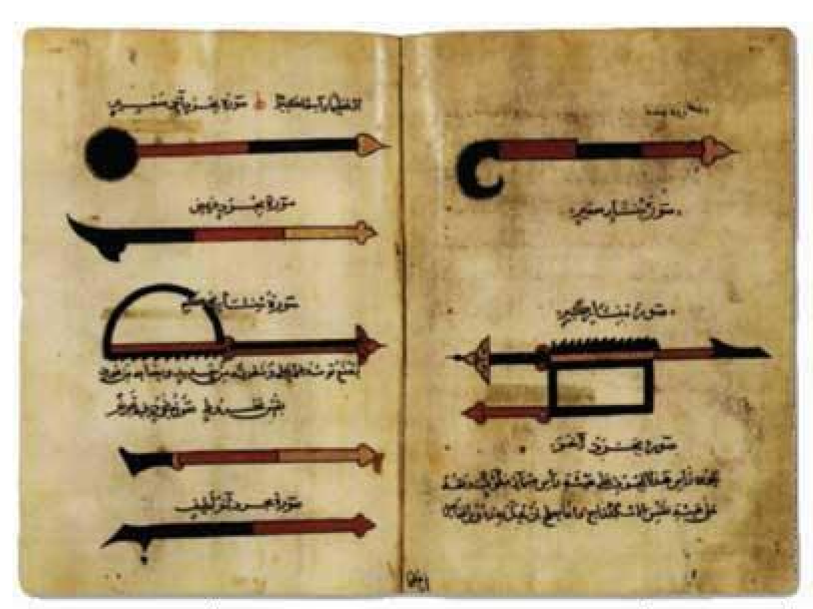
صورة منشار

صورة منشار آخر

صورة منشار صغير

صورة منشار آخر كبير

تابع ملحق رقم (8)



أدوات جراحية في كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي

المصادر و المراجع

أولاً: الوثائق:

- وثائق وقف المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري، دراسة ونشر وتحقيق: محمد محمد أمين، ملاحق ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج1، 1976م.
- وثيقة وقف الناصر محمد بن قلاوون على خانقاة سرياقوس، دراسة ونشر وتحقيق: محمد محمد أمين، ملاحق ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج2، 1986م.
- وثيقة وقف الناصر حسن على الجامع والمدرسة والسبيل، دراسة ونشر وتحقيق: محمد محمد أمين، ملاحق ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج3، 1986م.
- وثيقة وقف عبد الرحمن كنخدا الملحقة بكتاب تاريخ البيمارستانات لأحمد عيسى، دمشق، 1939م.

ثانيا: المخطوطات:

- ابن الأحنف، أحمد بن الحسن بن الأحنف:

1- مختصر البيطرة مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 8 طب خليل أغا ميكروفيلم 46631.

- الأزهري، مصطفى الدهنة الأزهري الدمشقي:

2- رسالة مختصرة في الطاعون، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 492 طب طلعت ميكروفيلم 19878.

- ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري (749هـ/ 1248م):

3-كشف الرين في أحوال العين، ميكروفيلم 48349 طب 354 بدار الكتب المصرية.

- الحموي، محمد بن أحمد بن علي (كان حيا في القرن السابع الهجري):

4- البيان في كشف أسرار الطب، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم (486) طب، ميكروفيلم 18001.

5- الجوهر المكنون في الكلام على الطاعون، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 592 طلعت، ميكروفيلم 31159.

- ابن رسول، عمر بن يوسف بن عمر بن علي (ت696هـ/1296م):

6- المغني في البيطرة، مخطوط، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم 6023 ل عربي، ميكروفيلم23348 .

- السمرقندي، نجيب الدين رضي الإسلام محمد بن علي بن عمر السمرقندي المتوفى سنة 619هـ/1222م:

7- الأغذية والاسباب والعلاقات، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 2 طب، ميكروفيلم 1917.

- الشيرازي، محمود بن الياس الشيرازي نجم الدين (ت730ه/1329م) :

8- الحاوي في علم التداوي، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم1804طب عربي، ميكروفيلم48467.

- القوصوني، شمس الدين القوصوني:

9 - رسالة في الكلام على الحمام ومنافعه وكيفية استعماله للصحيح والمريض وتدارك الخطأ الواقع في استعماله، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1215 طب، ميكروفيلم 31297.

- الكازوري، سديد، (ت745ه) :

10- شرح الموجز المسمى بالمغني، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم189طب عربي، ميكروفيلم31054.

- مجهول:

11 - الفصد والحجامة، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 409 طب تيمور، ميكروفيلم 20576.

- مصطفى، كتخدا:

12-رسالة في كشف أفات الوباء والطاعون، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 591 طب ميكروفيلم 31141.

- المناوي، عبد الرءوف ابن المناوي الحداوي:

13- النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1800طب، ميكروفيلم 31326.

- ابن منصور العين،عدنان بن نصر:

14-رسالة فيما يحتاج إليه الطبيب عندما يستدعيه المريض مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 542، ميكروفيلم 31178.

- ابن هبل، مهذب الدين شمس الاسلام أبي الحسن علي بن احمد ابن هبل المتطبب:

15- المختار في الطب، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم 524 طب عربي، ميكروفيلم 48405.

- هرمز، الحكيم (ت في القرن السادس الهجري):

16- كتاب في بيطرة الخيل والدواب على التمام والكمال مترجم عن سقر باللسان الفارسي، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 800 طب، ميكروفيلم، 31226.

ثالثا: المصادر العربية المطبوعة:

- أبقراط الحكيم:

1- الأهوية والمياه والبلدان، ترجمة: شبلي شميل، نشره بمجلة المقتطف سنة 1885م.

- ابن الأثير، أبي الحسن علي بن الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، المتوفى سنة 630هـ/1232م:

2- الكامل في التاريخ، 11 جزء طبعة بيروت سنة 1398هـ/1987م، أحمد طليمات طبعة القاهرة 1963م.

3- اللباب في تهذيب الأنساب، الجزء الأول منه، طبعة القاهرة، 1357هـ والجزء الثاني طبعة القاهرة 1356هـ، والجزء الثالث طبعة القاهرة 1369هـ.

- الأحمد نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول:

4- دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تعريب: حسن هاني فحص بيروت – دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2000م.

- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد الموتى القرشي، المتوفى سنة 729هـ/1328م:

5- معالم القرية في أحكام الحسبة، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.

- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس، المتوفى في القرن السادس الهجري:

6- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبعة بيروت، 1989م.

- الإسنوي: جمال الدين عبد الرحيم (772هـ/1370م):

7- طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1987م.

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين ابو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المتوفى سنة 668هـ/1269م:

8- عيون الأنباء في طبقات الاطباء، مجلد واحد، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

- الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري (749هـ/ 1248م):

9- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، تحقيق: عبد المنعم محمد عمر، مراجعة احمد حلمي عبد الرحمن، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م.

- الأنطاكي، داود بن عمر الأنطاكي، المتوفى سنة 1008هـ/1600م:

10- تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، طبعة بيروت.

11- بغية المحتاج في المجرب من العلاج، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1995م.

- ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المتوفى سنة 930هـ/1523م:

12- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، 5 أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.

- ابن أيبك الدواداري، أبو بكر عبد الله، (ت 736هـ/ 1325م).

13- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع منه بعنوان: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر. (تحقيق هانس روبرت رويمر، مكتبة الخانجي)، القاهرة 1960م.

- بختيشوع، عبيد الله أبو سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس ابن جبرائيل، توفي سنة نيف وخمسين وأربعمائة للهجرة:

14- الروضة الطبية، مراجعة وتصحيح بولس سباط، مصر، 1927م.

- ابن بسام، محمد بن أحمد بن بسام المحتسب، كان حياً في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري:

15- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، طبعة بغداد 1968م.

- البصروي، علي بن يوسف بن أحمد:

16- تاريخ البصروي، تحقيق أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، دمشق، 1408هـ

- ابن بطلان، أبو الحسن مختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون المتوفى 444 هـ:

17- دعوة الأطباء، تحقيق عادل بكري، المجمع العلمي، 2002م.

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللوان الطنجي ت779هـ/1377م:

18- رحلة ابن بطوطة، تحقيق الشيخ محمد عبد المنعم العريان، راجعه واعد فهارسة الأستاذ مصطفى القصاص، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار احياء العلوم، بيروت 1412هـ/1992م.

- البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانى (المتوفى: 1399هـ):

19- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول 1951م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان.

- البغدادي، موفق الدين عبد اللطيف البغدادي، المعروف بابن اللباد، المتوفى سنة 629هـ/1231م:

20- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، طبعة المجلة الجديدة، تحقيق أحمد غسان سبانو، القاهرة، بدون تاريخ.

21- الطب من الكتاب والسنة، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الدكتور/عبد المعطي أمين قلعجي، الطبعة الأولى القاهرة، 1406هـ/1986م.

- أبو بكر الأزرق، الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الأزرق:

22- تسهيل المنافع في الطب والحكمة، المشتمل على شفاء الأجسام وكتاب الرحمة، طبعة مصر، 1367هـ.

- ابن أبي البيان، سديد الدين أبو الفضل داود بن أبي البيان سليمان ابن أبي الفرج إسرائيل بن أبي الطيب سليمان بن مبارك الإسرائيلي ولد سنة 556هـ/1160م:

23- الدستور البيمارستاني، تحقيق القس بولس سباط، القاهرة 1933م.

- بيبرس الدودار ت724هـ/1324م:

24-زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة في عصر سلاطين المماليك، ج9، تحقيق الدكتورة زبيدة محمد عطا.

- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، المتوفى سنة 430هـ/1003م

25- كتاب الصيدنة في الطب، مراجعة وتصحيح غضنفر التبريزي، الطبعة المصرية، بدون تاريخ.

- ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي المعروف بابن البيطار، المتوفى سنة 646هـ/1248م:

26- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، 4 أجزاء في مجلدين، طبعة المطبعة الأميرية، إشراف حسين بك حسني، القاهرة، 1291هـ.

27- الدرة البهية في منافع الادوية الانسانية، تقديم محمد عبد الله الغزالي، دار الأفاق العربية، القاهرة، 1424هـ/2003م.

- التركماني، الملك الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن رسول الغساني التُّركُماني:

28- المعتَمد في الأدوية المفردة، قدم له وعلَّق عليه مجدي محمد الشهاوي، د. ت.

- تقى الحموي، أبي الحسن علي بن عبد الكريم بن طرخان بن تقى الحموي علاء الدين الكحال، ت720هـ/1320م:

29- الأحكام النبوية في الصناعة الطبية، عنى بتحقيقه عبد السلام هاشم حافظ، الطبعة الأولى، القاهرة، 1955م.

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي المتوفى سنة 874هـ/1469م:

30- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16 جزء، الجزء الأول والسادس طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية والباقي طبعة القاهرة ، 1963م.

31- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: د/ محمد كمال الدين عز الدين ، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1410هـ - 1990م.

32- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمـــين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

33- مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، المحقق: نبيل محمد عبد العزيز أحمـــد، دار الكتب المصرية – القاهرة.

- التيفاشى، شهاب الدين أحمد:

34- نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، حقيق: جمال جمعة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط1، 1992م.

- جالينوس، الحكيم اليوناني المعروف، مولده بعد زمان المسيح بتسع وخمسين سنة وكانـــت مدة حياته سبعاً وثمانين سنة:

35- كتاب جالينوس إلى أغلوقن في التأني لشفاء الأمراض، تحقيق محمد سليم سالم، القاهرة، 1982م.

- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي المتـــوفى سنة 614هـ/1217م:

36- رسالة اعتبار الناسك بذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1986م.

- ابن الجزري:

37- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابـــن الجزري، 3 أجزاء، تحقيق :أ.د عمر عبد السلام تدمري، ط 1،المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، لبنان، 1419 هـ/ 1998م.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي المتوفى ســـنة 597هـ/1199م:

38- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الطبعة الأولـــى، حيـــد أبـــاد، الـــدكن، الهنـــد، 1358هـ/1939م.

- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الـــشهير بـــأبن الحاج (المتوفى: 737هـ):

39- المدخل، دار التراث، بدون طبعة وبدون تاريخ.

- ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر، (ت 779هـ/ 1377م).

40- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ثلاثة أجزاء، تحقيق محمد أمين، تقديم سعيد عبـــد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م-1986م.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة 852هـ/1448م:

41- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الجزء الحادي عشر، تحقيق الشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1416هـ/1996م.

42- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، مراقبة / محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد/ الهند، الطبعة: الثانية، 1392هـ/ 1972م، المحقق: د حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1389هـ، 1969م.

43- الخامس من معجم الشيخة مريم، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، الطبعة: الأولى، 2004م.

44- إنباء الغمر بأبناء العمر، المحقق: د حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1389هـ، 1969م.

- حربي، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق [ت 285هـ]:

45- غريب الحديث، المحقق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1405هـ.

- ابن الحمصي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر(841-934هـ):

46- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق:د. عمر عبد السلام تدمري،ط1، المكتبة العصرية،صيدا-بيروت، 1419هـ- 1999م.

- الحموي، صلاح الدين بن يوسف الكحال:

47- نور العيون و جامع الفنون، حققه و علق عليه علميا محمد ظافر الوفائي، راجعه و ضبطه و زاد في تعليقاته محمد رواس قلعجي. الطبعة 1. الرياض: [د.ن.]، 1987م.

- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري:

48- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، 1948م.

- الحنبلي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل بن أبي علي البعلي الحنبلي، المتوفى سنة 709هـ/1309م:

49- صحيح الطب النبوي، مراجعة موسى الخطيب، القاهرة، 1413هـ/1993م.

- الحنبلي، عز الدين أحمد بن إبراهيم بن نصر الله الكناني العسقلاني المتوفى سنة 876هـ/1471م:

50- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد العراقي، بغداد، 1401هـ/1978م.

- ابن أبي حوافر، أبو العباس أحمد بن عثمان (ت 657هـ/1259م):

51- نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر، تحقيق وتعليق: محمد ظافر الوفائي، محمد رواس قلعجي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1998م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي المتوفى سنة 808هـ/1405م:

52- المقدمة، طبعة القاهرة، 1386هـ/1966م.

53- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون) المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988م.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر المتوفى سنة 681هـ/1282م:

54- وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان،8 مجلدات، طبعة بيروت، 1968-1972م.

- خليفة، حاجي: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (المتوفى: 1067هـ):

55- كشف الظنون، عن أسماء الكتب والفنون، المجلد الثاني، مكتبة المثنى، بيروت.

- الخوارزمي، جمال الدين أبي بكر:

56- مفيد العلوم ومبيد الهموم، دمشق، 1323هـ، 1906م.

- الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف، المتوفى سنة 387هـ/997م:

57- مفاتيح العلوم، تقديم عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة، بدون تاريخ.

- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِستاني (المتوفى: 275هـ):

58- سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المتوفى سنة 809هـ/1407م:

59- الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ج4،5، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الأفاق، طبعة بيروت، بدون تاريخ.

- الدميري، محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: 808هـ):

60- حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، 1424هـ.

- الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ):

61- عيون الأخبار، دار الكتب العلمية - بيروت، 1418هـ.

• الدويهي، أسطفان:

62- تاريخ الأزمنة، تحقيق: بطرس فهد، دار لحد خاطر، بيروت، 1983م.

• الذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المتوفى سنة 748هـ/1347م:

63- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف وآخرون، طبعة بيروت 1988م، وبغداد 1977م.

64- العبر في خبر من غبر، ج1، تحقيق صلاح المنجد، الكويت 1983م، ج2، ج3، تحقيق فؤاد سيد، الكويت، 1984م، ج4، ج5، تحقيق صلاح المنجد، الكويت، 1963، 1986م.

65- دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم، القاهرة، 1974م

• الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، المتوفى سنة 299هـ/911م:

66- منافع الأغذية ودفع مضارها، القاهرة، 1305هـ.

67- الحاوي في الطب، المحقق: اعتنى به: هيثم خليفة طعيمي، دار إحياء التراث العربي – لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ – 2002م.

• ابن رافع السلامي، تقي الدين محمد بن هجرس بن رافع السلامي (المتوفى: 774هـ):

68- الوفيات، المحقق: صالح مهدي عباس ، د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الأولى، 1402هـ.

• ابن ربن الطبري، أبي الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري :

69- فردوس الحكمة في الطب، تحقيق محمد الصديقي، طبعة برلين، 1328م.

• ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد بن رشد، المتوفى سنة 595هـ/1198م:

70- الكليات في الطب، تحقيق سعيد شيبان وعمار الطالبي، طبعة القاهرة 1989م.

• زاده، طاش كبرى (968 هـ):

71- مفتاح السعادة و مصباح السيادة في موضوعات العلوم للمولي أحمد بن مصطفى المعروف ب طبعة دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد، 1329هـ.

72- رسالة الشفاء لأدواء الوباء.

• الزهراوي، أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي ويكني بالأنصاري، توفي سنة 404هـ/1013م:

73- التصريف لمن عجز عن التأليف، طبعة الهند، 1980م.

• ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي، ت926ه/1520م:

74- صدق الأخبار عنى بتحقيقه عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، جوس برس، طرابلس، 1413ه/1993م.

- السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الله بن عبد الكافي السبكي، المتوفى سنة 771هـ/1370م:

75- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، القاهرة، 1948م.

76- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو، د. محمود الطناحي، الجزء الثامن الطبعة الثانية، دار هجر للطباعة 1413هـ/1992م.

77- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ومحمود الطناحي، القاهرة، 1383هـ/1967م.

78- معجم الشيوخ، تخريج: شمس الدين أبي عبد الله ابن سعد الصالحي الحنبلي 703 - 759 هـ، المحقق: الدكتور بشار عواد - رائد يوسف العنبكي - مصطفى إسماعيل الأعظمي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى 2004م.

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت902هـ/1497م:

79- التبر المسبوك في ذيل السلوك، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، د. ت.

80- الذيل التام على دول الإسلام، حققه وعلق عليه :حسن إسماعيل مروة، ط1، مكتبة دار العروبة ،الكويت ودار ابن العماد ،بيروت، 1413 ه- 1992م.

81- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ضبطه وصححه :عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، ط 1، دار الكتب العلمية، 1424 هـ- 2003م.

82- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، د.م، 1995م.

- السرخسي محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة (المتوفى: 483هـ):

83- شرح السير الكبير، الشركة الشرقية للإعلانات، 1971م.

- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: 458هـ]:

84- المحكم والمحيط الأعظم، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000م.

- ابن سينا، أبي علي الحسين بن عبد الله الشهير بابن سينا، المتوفى سنة 428هـ/1036م:

85- دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية بتدارك أنواع خطا التدبير، الطبعة الأولى، مصر، 1887م.

86- القانون في الطب، بيروت، بدون تاريخ.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، المتوفى سنة 911هـ/1505م:

87- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ.
88- كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق: محمد كمال عز الدين، عالم الكتاب، بيروت، ط1، 1992م.
89- الرحمة في الطب والحكمة، القاهرة، 1938م.

- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، المتوفى سنة 665هـ/1267م:

90- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومي، طبعة دمشق 1991م.

- ابن شاهين، زين الدين عبد الباسط بن خليل ابن شاهين الظاهري الحنفي (844هـ/920هـ):

91- نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق الأستاذ الدكتور:عمر عبد السلام تدمري، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1422هـ- 2002م.

- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل، (ت 873هـ/ 1469م):

92- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، عني بتصحيحه بولس راويس، باريس 1894م.

- الشجاعي، شمس الدين:

93- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، حققته وترجمته إلى الألمانية: برناره شيفر، فرانز اشتانير 1978م، مطبعة لويس الحلبس وشركاه، منشورات قسم الدراسات الألمانية في المعهد الالماني للآثار بالقاهرة.

- ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي، المتوى سنة 890هـ/1485م:

94- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، طبعة دمشق 1984م.

- ابن شداد، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم المتوفى سنة 684هـ/1277م:

95- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، (تحقيق سامي الدهان)، المعهد الفرنسي، دمشق، 1956م.

- الشَّعْراني، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحَنَفي، نسبه إلى محمد ابن الحنفية، الشَّعْراني، أبو محمد (المتوفى: 973هـ):

96- الطبقات الكبرى أو لوافح الأنوار في طبقات الأخيار، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، 1315هـ.

- ابن شمائل، عبد المؤمن بن عبد الحق، القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (ت: 739هـ):

97- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقـاع، الناشـر: دار الجيـل، بيـروت،(1412 ه/1991م).

- شيخ الربوة، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري:

98- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع بعنايـة أغـسطس يحي،مطبعـة الأكاديميـة الإمبراطورية، بطربورغ، 1865م.

- الشيزري: عبد الرحمن بن نصر الشيزري، المتوفى سنة 589هـ/1193م

99- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، بيروت، 1981م.

- ابن صصري، محمد بن محمد (ت 799هـ/1397م):

100- الدرة المضئية في الدولة الظاهرية، عني بتحقيقه وترجمته ونشره: د. ولـيم بيرنـر، جامعة كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1963م.

- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى: 764هـ):

101- أعيان العصر وأعوان النصر، المحقق: الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق – سوريا، الطبعـة: الأولـى، 1418 هـ – 1998م.

102- الوافي بالوفيات، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مـصطفى، دار إحيـاء التـراث – بيروت، عام النشر:1420هـ- 2000م.

- الأصفهاني: عماد الدين بن عبد الله محمد بن صفي الدين ابو الفرج محمـد بـن هبـة الله القرشي الأصفهاني، المتوفى سنة 597هـ/1200م.

103- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح، محمود محمد صبيح، القاهرة، 1960م.

- الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي ت900هـ/1494م:

104- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، الجزئين الأول والثالث، تحقيق الدكتور: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1970-1974م.

105- إنباء البصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، 1970م.

- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي (المتوفى: 953هـ):

106- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان طبعة دمشق، 1949م.

107- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1418 هـ – 1998م.

- ابن ظهيرة: جلال الدين محمد بن محمد بن نور الدين بن أبي بكر بن الحسين ابن ظهيرة المتوفى سنة 861هـ/1456م.

108- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م.

- العباس، علي بن العباس (كان حياً قبل 384هـ/ 994م):

109- كامل الصناعة الطبية، المطبعة المصرية الكبرى، القاهرة، 1877م.

- ابن عبد الظاهر: محي الدين أبو الفضل بن عبد الله المصري، المتوفى سنة 692هـ/1292م.

110- الروضة البهية في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مكتبة الدار العربية للكتاب، الطبعة الأولى 1996م.

111- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، (تحقيق مراد كامل)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي الجمهورية العربية المتحدة، 1961م.

- ابن العبري: غريغوريوس أبو الفرج بن آهرون المعروف بابن العبري، المتوفى سنة 685هـ/1286م.

112- تاريخ مختصر الدول، نشر أنطون اليسوعي، طبعة لبنان 1983م.

- العجلوني، أبي الفداء إسماعيل بن محمد (ت 1162هـ):

113- تحريك السلسلة فيما يتعلق بالزلزلة، تحقيق:سفيان بن عايش بن محمد، دار ابن الجوزي، الأردن، ط 1، 1425هـ.

- ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم المتوفى سنة 660هـ/1262م.

114- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق د.سهيل زكار، أحد عشر جزء، طبعة دمشق 1988م.

- ابن العراقي، ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم :

115- الذيل على العبر في خبر من غبر، تحقيق صالح مهدي عباس،ط 1، 1989م.

- العسقلاني المصري، شافع بن علي الكاتب، (ت 830 هـ/ 1260م):

116- الفضل المأثور في سيرة السلطان المنصور، (تحقيق عمر عبد السلام تدمري)، المكتبة العصرية، بيروت، 1964م.

- العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: 1111هـ):

117- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998م.

- العطار، كوهين أبى المنى بن أبي النصر الإسرائيلي:

118- منهاج الدكان ودستور الأعيان، تحقيق: محمد مهنا، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة.

- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ):

119- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986م.

- العمري، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن العمري، المتوفى سنة 749هـ/1341م:

120- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.

121- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، 1423هـ.

- العليمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (المتوفى: 928هـ):

122- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس – عمان.

- العيني، بدر الدين محمود العيني، المتوفى سنة 855هـ/1451م:

123- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي تحقيق فهيم شلتوت راجعه د. مصطفى زيادة، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1966-1967م.

124- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، أربعة أجزاء، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، 1987م-1992م.

- الغزي، الشيخ العلامة نجم الدين ابن بدر الدين محمد بن رضى الدين ابن محمد بن رضى الدين محمد بن أحمد الغزي العامري القرشي الدمشقي: ت1061هـ/1650م:

124- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور الجزء الأول، بيروت 1945م.

- الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين (المتوفى: 350هـ):

126- معجم ديوان الأدب، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، 2003م.

127- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987م.

- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ):

128- مجمل اللغة، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة – بيـروت، الطبعة الثانية – 1406 هـ – 1986م.

- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل أبي الفداء، المتوفى سنة 732هـ/1332م:

129- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، الطبعة: الأولى.

- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن الفرات، المتوفى سنة 807هـ/1404م:

130- تاريخ ابن الفرات، الجزء الأول والثاني من المجلد الرابع، تحقيق حسن الشماع، طبعة البصرة، العراق، 1967-1969م، والجزء الأول من المجلد الخامس، تحقيق حسن الشماع، طبعة البصرة، العراق، 1970م.

- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ):

131- كتاب العين، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

- ابن أبي الفضائل، مفضل:

132-النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس 1921م.

- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي:

133- تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق:عدنان درويش،ط 1، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، 1977م.

- ابن قدامة، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: 620هـ):

134- المغني، مكتبة القاهرة، 1388هـ - 1968م.

- القرماني، أحمد بن يوسف (ت: 1019هـ/ 1610م):

135- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق: د. أحمد حطيط، د. فهمي سعد ، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1992م.

- ابن قرة، ابن مروان بن زكريا بن إبراهيم:

136- كتاب الذخيرة في علم الطب، طبعة القاهرة، 1928م.

- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (المتوفى: 682هـ):

137- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر – بيروت.

- ابن القف، أبي الفرج ابن موفق الدين يعقوب ابن اسحق، المتوفى سنة 685هـ/1286م:

138- العمدة في الجراحة، طبعة حيدر أباد، الدكن، الهند، بدون تاريخ.

- القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة 646هـ/1248م:

139- تاريخ الحكماء، مختصر من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة، مصر، 1903م.

- القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، المتوفى سنة 821هـ/1418م:

140- صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب العلمية، بيروت.

141- مآثر الأناقة في معالم الخلافة، المحقق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت - الكويت، الطبعة: الثانية، 1985م.

- القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري (المتوفى: 1307هـ):

142- أبجد العلوم، دار ابن حزم، الطبعة: الطبعة الأولى 1423 هـ- 2002م.

- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي المتوفى سنة 751هـ/1350م:

143- زاد المعاد في هدى خير العباد، ج3، تحقيق محمد علي صبيح، الطبعة الأولى القاهرة 1353هـ/1935م.

144- الطب النبوي، تحقيق د.حامد أحمد الطاهر، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، القاهرة 2004م.

145- الداء والدواء، أو الدواء الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق عاطف صابر شاهين، الطبعة الأولى المنصورة، 2002م.

- الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: 764هـ):

146- فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى، الجزء: 1 - 1973م، الجزء: 2، 3، 4- 1974م.

- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المتوفى سنة 774هـ/1343م:

147 - البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، 16 جزء في ثماني مجلدات، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1814هـ/1998م.

148 - تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، في ثلاثة مجلدات، دار التراث العربي للطباعة والنشر، 1407هـ/1978م.

- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني:

149- سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط 1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، اعتنى به :أبو عبيدة مشهور بن حسن أل سلمان، د.ت.

• مالك بن أنس:

150- الموطأ، تصحيح فؤاد عبد الباقي، القاهرة، 1951م.

• ابن أبي المحاسن، خليفة:

151- الكافي في الكحل، تحقيق وتعليق: محمد ظافر الوفائي، محمد رواس قلعجي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1990م.

• مجهول، مؤرخ شامي:

152- حوليات دمشقية (834- 839هـ) ترجمة، تحقيق: حسن حبشي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968م.

• محمد بن منكلي ت 784هـ/1382م:

153-الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر مع دراسة عن فن القتال البحري في عصر سلاطين المماليك، تحقيق: عبد العزيز عبد الدايم، القاهرة 1974م.

• المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة 346ه/957م:

154- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، 1987م.

• المقدسي، شمس الدين أبو عبيد الله محمد الشافعي البشاري، المتوفى سنة 387ه/997م:

155- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية ليدن، 1906م.

• المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر الشافعي المتوفى سنة 845هـ/1441م:

156- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ.

157- السلوك لمعرفة دول الملوك، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م.

158- إغاثة الأمة بكشف الغمة، قام على نشره، محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثالثه، القاهرة، 1422ه/2002م.

159- المقفى الكبير، ج7، تحقيق محمد اليعلاوي، الطبعة الأولى، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 1411ه/1991م.

160- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، الإسكندرية، 1989م.

• ابن مماتي، القاضي شرف الدين أبو المكارم ابن أبي سعيد زكريا المعروف بالمهذب المتوفى سنة 606هـ/1209م:

161- قوانين الدواوين، جمع وتعليق وتحقيق عزيز سوريال عطية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1991م.

- المنصوري، ركن الدين بيبرس بن عبد الله نائب السلطنة في مصر ت725هـ/1325م :

162- التحفة الملوكية في تاريخ الدولة التركية، تايرخ دولة المماليك البحرية في الفترة من 648-711هـ نشره وقدم له ووضع فهارسه، دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1987م.

163- مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى عام 702 هـ، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993م.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري، المتوفى سنة 36هـ/1232م:

164-لسان العرب، طبعة بيروت، 1955م.

- ابن ميسر، تاج الدين محمد علي (ت 677هـ/ 1278):

165- المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981، د.ط.

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، المتوفى سنة 697هـ/1298م:

166- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، خمسة أجزاء الأول والثاني والثالث، تحقيق جمال الدين الشيال، طبعة القاهرة، 1953-1960م، ج4،5، تحقيق حسنين محمد ربيع، ومراجعة سعيد عاشور، طبعة القاهرة أعوام: 1972م،1975م.

- ابن الوطواط، رشيد الدين محمد العامري، المتوفى سنة 573ه/1177م:

167- غرر النقائض الفاضحة وغرر الخصائص الواضحة، طبعة بولاق، القاهرة، بدون تاريخ.

- النابلسي، أبو عثمان بن إبراهيم الصفدي الشافعي النابلسي، كان حياً في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي:

168- لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، القاهرة.

- ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين(المتوفى: 842هـ):

169- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، المحقق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1993م.

- ابن النديم:

170- الفهرست، طبعة بيروت، لبنان، 1964م.

- ابن النفيس، علاء الدين بن أبي الحزم القرشي الدمشقي، المتوفى سنة 687هـ/1288م:

171- الشامل في الصناعة الطبية، تحقيق يوسف زيدان، أبو ظبي، 2000م/1421هـ، الأجزاء الأول، الثاني، الثالث، الرابع.
172- المهذب في الكحل المجرب، تحقيق الدكتور محمد ظافر الوفائي، الدكتور محمد رواس قلعه جي، الطبعة الأولى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الرباط، المغرب 1408هـ/1980م.
173- الموجز في الطب، تحقيق عبد الكريم الغرباوي، مراجعة أحمد عمار، القاهرة، 1986م.
174- شرح فصول أبقراط تحقيق د/ يوسف زيدان، د/ماهر عبد القادر، الطبعة الاولى، الدار المصرية اللبنانية،، 1411هـ/1991م.

- النعيمي، عبد القارد بن محمد النعيمي الدمشقي، المتوفى سنة 927هـ/1520م:

175- الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، القاهرة، بدون تاريخ.

- النووي، الأمام الحافظ محي الدين زكريا يحيى ابن شرف النووي المتوفى سنة 676هـ/1277م:

176- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، راجعه وعلق عليه محمد الأنور البلتاجي، الطبعة الثانية، دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، 1403هـ/1983م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، المتوفى سنة 733هـ/1331م:

177- نهاية الأرب في فنون الأدب، ج28، تحقيق محمد محمد أمين، محمد حلمي محمد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1992م، ج29، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1992م.

- النويري، الإسكندراني محمد بن قاسم:

178- الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقتضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: عزيز سوريال عطية، 6 أجزاء، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1970م.

- الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري أبو منصور (المتوفى: 370هـ) :

179- تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م.

- الورتلاني، الحسين بن محمد ، المتوفى سنة 1779م :

180- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق وتقديم محمد بن أبي شنب، مطبعة ببيرفونته الشرقية الجزائر،1908م.

- ابن الوردي، سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي، المعروف بابن الوردي، المتوفى سنة 749هـ/1349م:

181- تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1996م.

182- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، لمحقق : أنور محمود زناتي – كلية التربية ، جامعة عين شمس، مكتبة الثقافة الإسلامية ، القاهرة، الطبعة: الأولى ، 1428 هـ - 2008م.

- اليافعي، أبي محمد عبد الوهاب بن أسعد بن علي بن سليمان عفيف الدين اليافعي، المتوفى سنة 768هـ/1367م:

183- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997م.

- ياقوت، الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، المتوفى سنة 626هـ/1228م:

184-معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995م.

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي، المتوفى سنة 274هـ/897م:

185- كتاب البلدان، طبعة ليدن، 1892م.

- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، (ت 759 ه/ 1358م):

186- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، (تحقيق أحمد حطيط)، عالم الكتب، بيروت، 1986م.

- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (المتوفى: 726 هـ):

187- ذيل مرآة الزمان، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1992م.

رابعا: المراجع العربية والمترجمة:

- إبراهيم، إبراهيم خميس:

1- الأوبئة والأمراض التي تفشت بين الصليبيين في الشرق الأدنى وأثرها (1098-1291م/491-690هـ) القاهرة، 1988م.

- أحمد، إبراهيم محمد:

2- تطور الرعاية الطبية عند المسلمين عبر القرون، طبعة القاهرة، 1981م.

- أحمد، أحمد رمضان:

3- المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية القاهرة، 1977م.

- أحمد فؤاد باشا:

4- التراث العلمي للحضارة الإسلامية، القاهرة، 1402هـ/1983م.

- أحمد، نبيل محمد عبد العزيز:

4- المطبخ السلطاني زمن الأيوبيين والمماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

- الأسدي، خير الدين الأسدي:

6- أحياء حلب وأسواقها، تحقيق عبد الفتاح قلعجي، بيروت، 1990م.

- أشتور:

7- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، نقله إلى العربية، عبد الهادي عبلة، دمشق، 1985م.

- أمين، محمد محمد:

8- الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (648-923هـ/1250-1517م) طبعة القاهرة، 1980م.

- الباشا، حسن:

9- الفنون الإسلامية والوظائف على الأثار العربية، الجزء الثاني، دار النهضة العربية، القاهرة.

- بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد (المتوفى: 1346هـ):

10- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، المحقق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: ط2، 1985م.

- بدوي، أحمد أحمد:

11- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة.

- البراوي، راشد:

12- حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، بدون تاريخ.

- البغدادي، محمد أحمد:

13- السجون في مصر من الفتح الإسلامي إلى الحكم العثماني، دار النهضة العربية، د.م. 1997م.

- البيلي، محمد بركات:

14- الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الإسلامية، القاهرة، 1986م.

- تدمري، عبد السلام:

15- الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى طبعة بيروت، 1973م.

- توا، فادي إلياس:

16- المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك (648-922هـ/1250-1516م)، بيروت، 1998م.

- الجزيري، عبد الرحمن بن محمد عوض (المتوفى: 1360هـ):

17- الفقه على المذاهب الأربعة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1424 هـ - 2003م.

- جومار، إدم فرانسوا:

18- وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل. (ترجمة أيمن فؤاد السيد). مصر: مكتبة الخانجي، 1988م.

- أبو حبيب، سعدي:

19- القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، دار الفكر. دمشق – سورية، الطبعة: الثانية 1408 هـ/1988م، تصوير: 1993م.

- الحجي، حياة ناصر:

20- صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت.

- حداد، محمد حمزة إسماعيل:

21- السلطان المنصور قلاوون (تاريخ،أحوال مصر في عهده، منشأته المعمارية)مكتبة مدبولي، القاهرة.

- الحديدي، خالد:

22- البيطرة والبيزرة وعلم الحيوان في التراث الإسلامي، موسوعة علوم الحيوان عند العرب، الجمعية العالمية لإحياء التراث الإسلامي، طنطا، 1989م.

- حسنين، أحمد طاهر:

23- الحسبة في الإسلام، القاهرة، 1990م.

- حسن، زكي محمد:

24- مصر والحضارة الإسلامية، القاهرة، 1942ن،

- حسين، محمد كامل:

25- الطب العربي وأثره في الغرب، طبعة القاهرة، 1970م.

- حسين، محمد كامل وعبد الحليم العقبي:

26- تاريخ ودراسة لكتاب الحاوي، بيروت، 1977م.

- حسين، محمد كامل وآخرون:

27- الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للثقافة، والعلوم إدارة الثقافة، الجماهيرية العربية الليبية، بدون تاريخ، جزءان.

- حسين، محمد محسن:

28- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، بيروت، 1986م.

- الخطيب، هشام إبراهيم:

29- الوجيز في الطب الإسلامي، طبعة عمان، الأردن، 1985م.

- دهمان، محمد أحمد:

30- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. دمشق: دار الفكر، 1990م.

- ديورانت، ول:

31- قصة الحضارة، تعريب محمد بدران، بيروت، 1979م.

- ذهبي، محمد بن احمد،، ابن حمزة الحسيني، محمد بن علي، عبد المطل، محمد، منجد، صلاح الدين، فراج، عبد الستار أحمد:

32- من ذيول العبر، الكويت، مطبعة حكومة الكويت.

- ربيع، حسنين محمد:

33- النظم المالية في مصر، زمن الأيوبيين، القاهرة، 1964م.

- رزق، عاصم محمد:

34- خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة مدبولي، القاهرة، بدون تاريخ.

- رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: 1354هـ):

35- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

- الرفاعي، عبد الرحمن،سعيد عاشور:

36- مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996م.

- ريمون، اندريه:

37- القاهرة تاريخ حاضرة، (ترجمة لطيف فرج). القاهرة: دار الفكر، 1994م.

- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (المتوفى: 1396هـ):

38- الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002م.

- أبو زيد، سهام مصطفى:

39- الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986م.

- سابق، السيد:

40- فقه السنة، ثلاث مجلدات، الناشر دار الفتح للإعلام العربي الطبعة العاشــرة الــشرعية، 1414هـ/1993م.

- سالم، السيد عبد العزيز:

41- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مطبعــة معهــد دون بوســكو، دار المعارف، الإسكندرية، 1967م.

- سرور، محمد جمال الدين:

42- الدولة الفاطمية في مصر: سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهــدها ، دار الفكــر العربي، القاهرة ، 1970م.

- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (المتوفى: 1376هـ):

43- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معــلا اللويحــق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ -2000م.

- الشاعر، محمد فتحي:

44- مآثر العرب في العلوم والترجمة، طبعة القاهرة، 1994م.

- الشرقاوي، حسن محمد:

45- المسلمون علماء وحكماء، الإسكندرية، بدون تاريخ.

- الشطي، شوكت:

46- الإسلام والطب، كتاب النظافة والحركة والرياضة في الاسلام وآثارها في صحة الأنفس والأجسام، دمشق، 1959م.

47- اللب فــي الإســلام والطــب، الطبعــة الأولــى، مطبعــة جامعــة دمــشق، دمــشق، 1379هـ/1960م.

- صابر، عبد العظيم حفني وآخرون:

48- موجز تاريخ الصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، إدارة الثقافة إشــراف د. محمد كامل حسين ، الجماهيرية الليبية، بدون تاريخ.

- الصاوي، أحمد السيد:

49- مجاعات مصر الفاطمية، أسباب ونتائج، دار التضامن للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

- صدقي، محمود:

50- رسالة عن الطب في أيام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين، تقديم حــافظ صــدقي، القاهرة، 1910م.

- الطائي، فاضل:

51- علم الكيمياء والصيدلة عند العرب، بحث ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المجلد الأول، إشراف عبد الرحمن بدوي، بيروت، 1987م.

- الطرابيلي، عباس:

52-شوارع لها تاريخ، "سياحة في عقل الأمة". القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997م.

- طلس، محمد أسعد:

53- الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، دمشق، 1956م.

- طوقان، قدري حافظ:

54- العلوم عند العرب، القاهرة، 1956م.

- الفقي، عصام عبد الرؤوف الفقي:

55- تاريخ الفكر الإسلامي، ط1، القاهرة، 1997م.

- الفنجري، أحمد شوقي:

56- الطب الوقائي في الإسلام، طبعة القاهرة، 1980م.

57- المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999م.

- فولكف، أولج:

58- القاهرة مدنية الألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.

- قاسم، محمود الحاج:

59- الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، المملكة العربية السعودية، 1407هـ.

- قنواتي، جورج شحاته:

60- تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الحديث، القاهرة، 1990م.

- كحالة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني الدمشقي (المتوفى: 1408هـ):

61- معجم المؤلفين، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

- عاشور، سعيد:

62- بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، عالم الكتب، القاهرة، 1987م.

63- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، 1992م.

64- فضل العرب على الحضارة الأوروبية، القاهرة، 1957م.

المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م.

65- العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة 1965م.

66- الظاهر بيبرس .- القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م.
- عاشور، سعيد، وعبد الرحمن الرافعي:

67- مصر في العصور الوسطى، القاهرة، 1992م.
- عبد الرازق، أحمد:

68- الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى العلوم العقلية، طبعة القاهرة، 1991م.

69- الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي، دار الحريـري للطباعـة والنـشر، القاهرة، 2003م.
- عبد العاطي، عبد الغني محمود:

70- التعليم في مصر، زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة.
- عبد العال، محمود إبراهيم:

71- المصطلحات التعليمية في الحضارة الإسلامية، طبعة السعودية، 1389هـ.
- ابن عبد الغني، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي:

72- معجـم قبائـل العـرب القديمـة والحديثـة "، بيـروت، مؤسـسة الرسـالة، الطبعة:السابعة،(1414هـ/1994م).
- عبد القادر، ماهر محمد:

73- مقدمة في تاريخ الطب العربي، بيروت، 1988م.
- عبد الله، دولت:

74-معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي، القاهرة، بدون تاريخ.
- عثمان، سعاد:

75- الطب الشعبي دراسة في اتجاهات التغير الاجتماعي في المجتمع المصري، مطبوعـات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، 2002م.
- العسيلي، كامل:

76- آثارنا في بيت المقدس، همان- الأردن، 1982م.
- عطا، زبيدة محمد:

77- الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، ط2، دار الأمين، 1994م.
- عطية، جميل عبد المجيد:

78- تنظيم صنعة الطب خلال عصور الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكـان، الريـاض،ط1، 2002م.

- عطية، عزيز سوريال:

79- العلاقات بين الشرق والغرب، نقله إلى العربية فليب صابر وراجعه أحمد خاكي، القاهرة، 1972م.

- علي، أحمد عبد الفتاح:

80- الأمراض الجلدية وطرق علاجها في ضوء السنة النبويـــة، مكتبـــة المنـــصورة، ط1، 1981م.

- علي، جواد (المتوفى: 1408هـ):

81- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، الطبعة: الرابعة 1422هـ/ 2001م.

- علي، سيد رضوان:

82- العلوم والفنون عند العرب ودورهم فـــي الحـــضارة العالميـــة، الريـــاض، الـــسعودية، 1407هـ.

- علي، كرد علي:

83- خطط الشام، ج1، 2، ط1 القاهرة، ط2، ج3، دار العلم للملايـــين – بيـــروت، 1971م، ج4، 5، 6، دمشق، 1926-1928م.

- علي، علي السيد:

84- العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، الطبعة الأولى 1417هـ، 1996م، العين للدراسات الاجتماعية للبحوث القاهرة.

83- المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الـــصليبية ، المجلـــس الأعلـــى للثقافـــة ، 2002م.

- عيسى، أحمد:

85- معجم الأطباء، من عام 650هـ إلى يومنا هذا ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1942م.

86- تاريخ البيمارستانات في الاسلام، دمشق، 1357هـ/1931م.

- غانم، حامد زيان:

87- الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليـــك، المكتبـــة العالميـــة، القاهرة، 1976م.

- الغزي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي، الشهير بالغزي (المتـــوفى: 1351هـ):

88- نهر الذهب في تاريخ حلب، ثلاثة أجزاء حلب سوريا، 1342هـ.

- لوبون، غوستاف:

89- حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، القاهرة، 1376هـ/ 1948م.

- غوانمة، يوسف:

90- الزلازل في بلاد الشام في العصر الإسلامي، ط1، دار الفكر، عمان- الأردن، 1990م؟

- ماجد، عبد المنعم:

91- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، 1972م.

- مبارك، علي باشا:

92- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة. 5 ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ، ج 1،ج 2، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية الصادرة عام 1969م، ج 3، طبعة مصوره عن الطبعة الثانية الصادرة عام1970م، ج 4، ج 5، طبعه مصورة عن طبعة بولاق عام 1305م.

- محسن، زكي محسن:

93- مصر والحضارة الإسلامية ، القاهرة ، 1942م.

- محمد، صبحي عبد المنعم:

94- الحسبة في الإسلام بين النظرية والتطبيق، دراسة مقارنة، الطبعة الأولى 1413هـ/1993م.

- محمد، ماهر عبد القادر :

95- مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1988م.

- محمد، محمد إبراهيم:

96- تاريخ التعليم الطبي عند العرب والمسلمين، رحلة عطاء وإبداع، مكتبة المنار، القاهرة، بدون تاريخ.

- محمد، محمد كمال السيد:

97-أسماء ومسميات من مصر القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب1986م.

- المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى: 1371هـ):

98- تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365 هـ - 1946م.

- مظهر، جلال:

99- الحضارة الاسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، مركز الشرق الأوسط، القاهرة، 1996م.

- معروف، ناجي:

100- أصالة الحضارة العربية، بيروت، 1975م.

• الملا، أحمد علي:

101- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، طبعة دمشق، 1981م.

• المنجد، صلاح الدين:

102- مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين، بيروت، 1967م.

• موافي، أحمد ثابت:

103- صحة الفلاح، بحث ضمن كتاب، أبحاث في الطب الوقـائي والـصحة الاجتماعيـة، القاهرة، 1940م.

• موراني، عبد الحليم منتصر وحميد:

104- قراءات في تاريخ العلوم عند العرب، الموصل، العراق، 1974م.

• المناوي، محمد حمدي:

105- نهر النيل في المكتبة العربية، الدار القومية للطباعة، القاهرة، 1967م.

• النقاش، زكي:

106- العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العـرب والإفـرنج خـلال الحـروب الصليبية، لبنان، 1946م.

• هاشم، زكريا:

107- فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم، القاهرة، 1970م.

• هايد:

108- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، نقله إلى العربية، أحمد محمـد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة، القاهرة، 1994م.

• هونكه، زيغريد:

109- شمس العرب تسطع على الغرب، نقله إلى العربية الـسيد البـاز العرينـي، بيـروت، 1981م.

• وتر، محمد ضاهر:

110- معركة عين جالوت 658هـ/1260م، دراسة في الجيشين المملوكي والمغولي.

• ياغي، إسماعيل أحمد:

111- أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، مكتبة العبيكان.

خامسا : معاجم لغوية:

• لفيف من العلماء: (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)

1- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.

- مجمع اللغة العربية:

2- المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، 1411هـ/1990م.

سادسا: المقالات العربية والدوريات:

- أتوشبيس:

1- طب الأسنان، ترجمة حسين مؤنس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 14، 1968/1967م.

- إسماعيل، ليلى عبد الجواد:

2- بعض أضواء جديدة على وظيفة البيمارستان المنصوري، العدد الثالث المجلد الأول، مجلة المؤرخ العربي، مارس 1995م.

- البدري، عبد اللطيف:

3- الفصد في الطب القديم، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد 13، العراق، 1966م.

- البكري، عادل:

4- الطب الوقائي في المفهوم الإسلامي، مجلة الطب الإسلامي، عدد 4 الكويت، 1986م.

- جونز:

5- الأوقاف والبيمارستانات، مجلة الطب الإسلامي، عدد 1 الكويت، 1981م.

- حداد، سامي:

6- مكتشف الدورة الدموية من هو؟ مجلة المقتطف، المجلد 89، ج3، القاهرة، 1936م.

- خفاجي، أحمد عبد الحميد:

7- جوانب من الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الأيوبي، مقال بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1982/1981م، عدد 29.

- خوري، ميشيل:

8- الإفصاح على لفظين الجراحة والجراح، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 48، سنة 1973م.

- زيادة، محمد مصطفى:

9- السجون في مصر في العصور الوسطى، مجلة الثقافة، ع 260 ، كانون الأول 1943 م، ع 62 كانون الثاني 1944 ، ع 279 ، آذار، 1944م.

- السعدي، هدى مفتاح:

10- النساء ومهنة الطب في المجتمع الإسلامي، مجلة المؤرخ المصري، العدد الثاني والعشرين، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يوليو 1999م.

- شاكر، سيبر قنديل:

11- أثر الإسلام وتعاليمه في الحفاظ على الصحة العامة للفـرد والمجتمـع، مجلـة الطـب الإسلامي، عدد 3، الكويت، 1984م.

- صادر، حبيب:

12- الأمراض المعدية في الأقطار العربية مجلة المشرق، عدد 31، بيروت، 1933م.

- صبرة، عفاف سيد محمد:

13- المدارس في العصر الأيوبي، بحث ضمن أبحاث الندوة التي أعدتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بعنوان تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، في الفترة مـن (22-25 ابريل 1991م) سلسلة كتاب المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م.

- الصياد، إبراهيم:

14- نظرة الإسلام للطب، مجلة الطب الإسلامي، عدد 2، الكويت، 1981م.

- فخر الدين، محمد:

15- الأمية وصحة الفلاح، بحث ضمن مجموعة أبحاث تضمنها كتاب أبحاث فـي الـصحة والطب الوقائي والصحة الاجتماعية القاهرة، 1940م.

- فكري، عصام:

16- الحضارة والمرض، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، المعدد الثالث، الكويت، 1971م.

- قاسم، قاسم عبده:

17- الأسواق بمصر في عصر سلاطين المماليـك، مجلـة كليـة الآداب، المجلـد الـسادس والثلاثون، جامعة القاهرة، 1974م.

- قاسم، محمود الحاج:

18- الطب الوقائي النبوي، مجلة الطب الاسلامي، العدد الرابع، الكويت 1986م، مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية اليونسكو.

- العاني، منذر رديف:

19- معجم الأمراض في لسان العرب، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد التاسع والثلاثين، الجزء الرابع بغداد، 1409هـ.

- عبد الدايم، عبد العزيز:

20- الرعاية الطبية في عصر المماليك، مجلة كلية الآثار، جامعة القـاهرة، العـدد الثـاني، 1977م.

- عطية، فيليب:

21- أمراض الفقر في دول العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 161.

سابعا : الرسائل الجامعية:

- البنا، محمد عبد الستار:

1- أحوال مصر الاقتصادية في عصر الدولة الأيوبية (548-678هـ/1171-1250م)، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة طنطا، 1999م.

- حسين، سعاد محمد حسن:

2- الحمامات في مصر الإسلامية (دراسة أثرية معمارية)، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، 1983م.

- الحسيني، فرج:

3- النقوش الكتابية المملوكية على العمائر في سوريا (658-922هـ/1260-1516م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ، جامعة سوهاج، 2008م

- الرفاعي، هالة نواف يوسف

4- السجون في مصر في العصر المملوكي، (648-923هـ/1250-1517م)، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2008م.

- الرواشدة، آمنة محمود سليمان:

5- حيوات المرأة في العصر المملوكي في مصر والشام (648-923هـ/1250-1517م)، دراسة سياسية اجتماعية فكرية، رسالة ماجستير، كلية الآداب- قسم التاريخ، جامعة اليرموك، 1997م.

- زيادة، عادل محمد:

6- الحمامات الباقية في مدينة دمشق خلال العصرين المملوكي والعثماني، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، 2008م.

- أبو زيتون، منال أحمد إبراهيم:

7- المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي(648-923هـ/1250-1517م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب- قسم التاريخ، جامعة اليرموك، 1998م.

- أبو زيد، عيد محمد:

8- مجتمع القاهرة في العصر الأيوبي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ببنها، جامعة الزقازيق، 1993م.

- سلام، أيمن شاهين:

9- المدارس في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة دكتوراه كلية الآداب، جامعة طنطا، 1999م.

- صبره، نبيلة محمد أحمد:

10- الطب والخدمات الطبية في بلاد الشام والعراق من القرن الأول الهجري إلى القرن التاسع الهجري (السابع الميلادي- الخامس عشر الميلادي)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب- قسم التاريخ، جامعة الإسكندرية، 1990م.

- صلاح، محمد حمزة محمد:

11- الكوارث الطبيعية في بلاد الشام (491-923هـ/1097-1517م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب- قسم التاريخ، الجامعة الإسلامية غزة، 2009م.

- عبد الرحيم، عبد الرحيم خلف:

12- الأدوات الجراحية والأواني الطبية الإسلامية، من القرن الأول إلى القرن التاسع الهجري دراسة أثرية وحضارية، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة 1999م.

- العقباوي، أحمد نشاطى محمد أحمد:

13- الحياة العمرانية في القاهرة الكبرى في عصر دولة سلاطين المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب- قسم التاريخ، جامعة الإسكندرية، 1986م.

- علي، محمد علي:

14- الحياة الثقافية في مصر والشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر.

- المقابلة، معن علي أحمد:

15- المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب- قسم التاريخ، جامعة اليرموك، 1992م.

- ناصف، أحمد عبد السلام أحمد:

16- دور الصوفية في صد الهجمة الصليبية على ديار الاسلام في مصر والشام (490-798هـ/1096-1398م) رسالة دكتوراة كلية الآداب، جامعة طنطا، 1989م/1410هـ.

- النبراوي، ولاء حمدي عبد المنعم محمد:

17- المرأة في العصر المملوكي وأهم منشآتها الأثرية، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس 2006م.

ثامنا: المواقع الإلكترونية:

- اللبدي ، جراحة العظام، http://www.altibbi.com/article/290.
- عرجة، هديل، مشفى نفسي من العصر المملوكي: البيمارستان الأرغوني تحوّل متحفاً في حلب، صحيفة الحياة السعودية، 20 ديسمبر 2010م، على موقع الشبكة: 214365http://international.daralhayat.com/print/
- http://www.alhadarh.com/news.php?action=view&id=575
- الموسوعة العربية، http://www.arab-ency.com

فهرس المحتويات